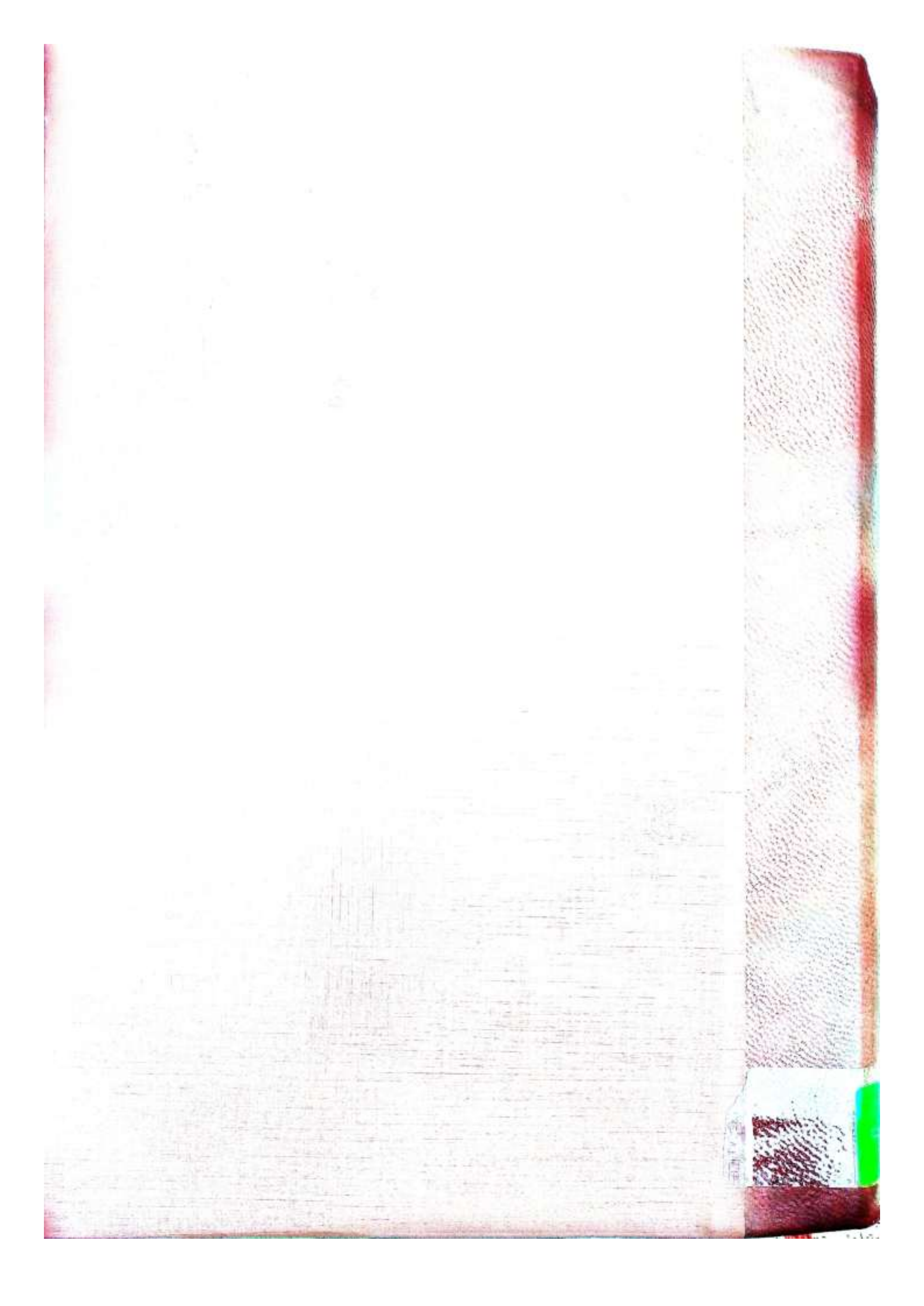


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م
دار الملاح للطباعة والنشر

تاريخ فاتح العالم

جهانگشاي

في تاريخ جنكيز خان وأعقابه حتى كيوك خان

وحروبهم مع الخوارزميين



تأليف

عطا ملك الجويني

حاكم بغداد بعد هولاكو

نقله عن الفارسية وقارنه بالنسخة الإنكليزية

الدكتور محمد ألتونجي

الأستاذ بجامعة حلب

المجلد الأول

الكلمة الأولى

منذ سنوات عدة ، وبالتحديد عام ١٩٧٥ ، حين عدت من ديار الإعارة لقيتُ صديقاً عزيزاً هو الدكتور سهيل زكار في إحدى دور النشر ، وكان قد عاد من بريطانيا مؤخراً . وسألني هذا الصديق : لم لا تترجم لنا « تاريخ جهانكشاي » [1] ، وأنت الوحيد في سورية العليم باللغة الفارسية وآدابها ؟ كان سؤاله هذا الموشّى بعبارة المحب حافزاً مني على سؤاله عن الكتاب . فقال : هو مطبوع في ليدن (هولندة) ١٩١٢ ـ ١٩٣٦ ، وباستطاعتي أن أجلب لك نسخة منه من لندن . وهو ذو أهمية كبيرة ، وأقسام التاريخ في الوطن العربي تتوقع صدوره بالعربية لحاجتها الماسة إليه .

ومضت سنوات ، كان الكتاب في مكتبتي ، وقريباً من متناول يدي . غير أن النفس لم تشجّع ؛ فالكتاب بثلاث مجلدات ، والأسلوب كثير الصنعة والترادف ، ناهيك عن صعوبة أدائه التي تعمدها مؤلف مرموق جمع بين اللغتين الفارسية والعربية ، وسكب كتابه بأسلوب القرن السابع . ولم أفعل إلا أن قرأته ، فأدركت سبب إحجام العارفين بالفارسية عن ترجمته ، وهو الصعوبة الفنية التي يتبعها المؤلف في تأليفه . ووضعته في مكانه من المكتبة ، ينتظر عام الاحتفال بترجمته .

وفي عام ١٩٨٣ رشحتني جامعتي بحلب للعمل في البحث العلمي ، وكان الموضوع البكر الذي يشغلني هو التيارات الأدبية إبان الزحف المغولي ،

---

(١) جها نكشاي : فاتح العالم .

وكان عليّ بالتالي أن أعود إلى كتاب جهانكشاي للمعلومات التي ستنفعني في بحثي ، فقررت تذليـل صعوبة الكتاب . وهكذا نزل الكتاب من مكانه ، ليحتل الصدارة في البحث العلمي .

ولدى توديعي للأستاذ عصام الملاح ، صاحب دار النشر التي ستسعد بعض كتبي بنشرها لديـه قابلت الدكتور شكري فيصل والدكتور سهيـل (ثانيـة) . فما أن رآني حتى شرع بمهاجمتي ؛ مهاجمـة الكاتب المحب ، الشديد هذه المرة ، وقال للدكتور شكري : إن تلميذك محمداً مقصّر في حق العلم ، أم تراه متكبراً عليه ؟ فاستنكر أستاذي تقصيري ، فمـا عرف توانيّ منذ ثلاثين سنة ! ولكنه رأى رأي سهيل في أهمية الكتاب ووجوب ترجمته . فأخبرتهما أنني مسافر بعد أيام إلى « إكسيتر » للبحث العلمي ، وفي جعبتي الكتاب ، ولن أعود ، إن شاء الله ، إلا بترجمة القسم الأكبر منه . فانبرى الأستاذ عصام مؤيداً ، وقد أدرك رأي الباحثين في أهمية الكتاب ، فقال : ونحن مستعدون لنشره مهما بلغ حجمه .

وسيلاحظ الباحث والقارىء أنني لقيتُ عنتاً كبيراً في ترجمة الكتاب . فكم سهرتُ على جملة واحدة ، وكم جرتني هذه الجملة إلى المصادر . والذي ذلّل الصعاب أن عملي هو تأريخ للمغول ، وأحسب أن ذلك هو الذي قادني إلى كثير من سبل الرشاد ، بالإضافة إلى رغبتي الملحة في خدمة العلم . وحاولت مراراً أن أستعين بأهل الذكر ، ولكنهم قليـل . ومن أصعب ما اعترضني في عملي محاولتي لسبك أسلوب المؤلف في القالب الذي أراده لكتابه ، وسعيي إلى إنزال شواهده القرآنيـة والشعرية العربيـة والفارسية في منازلها من النصوص . وزاد من الصعوبة أنه يكثر من هذه الشواهد . وهذا يُبرز ، ولا شـك ، براعة المؤلف في عصر الصنعة . ولكن عطا ملك أراد من هذه الشواهد أمرين : الأول ما ذكرناه من إظهار لمقدرته ، وهـذا دأب الأدباء

الفرس . والثاني ليوهمنا أن الدمار الذي عاث فيه المغول إنما هو بوحي من الله تعالى . وأن ما جرى لهؤلاء الناس المغلوبين إنما هو مكتوب عليهم منذ الأزل ، أو مما عملته أيديهم . ويزيدنا إيهاماً بالحكم الشعرية والعظات النثرية التي يزين بها آراءه ، أو يصل بها أفكاره ، والتي ينزلها بين السطور تماماً كما يفعل الفنان في قطع الفسيفساء .

وقد وفق المحقق المصحح علاّمة الفرس محمد بن عبد الوهاب القزويني إلى تخريج ما أمكنه تخريجه من الشعر العربي ، إظهاراً لمعرفة الفرس بالعربية كذلك . مما جعله يثقل من تخريجاته الفارسية . وليته فعل العكس ، إذاً كنا نقوم نحن بتخريج العربي من الشواهد ، لأن مكتبتنا الفارسية في جامعة إكسيتر فقيرة جداً بهـذا الميدان . على أن التخريجات الفارسية لا تنفـع الباحثين العرب كثيراً .

وقد استشهد المؤلف بكثير من النصوص العربية ، لم يرد بعضها في الكتب المبذولة ، بينما اختلفت رواية بعضها الآخر ، لاطلاع الجويني على كتب تخالف في روايتها الكتب التي حفظها لنا الزمان . ومن هنا تجيء أهمية الكتاب أدبياً كما هي أهميته تاريخياً .

والحق أن تعليقات المحقق القزويني دلت على علم دقيق ، يقدره العلماء الفرس والغـرب كثيراً . فصحـح للمؤلف آراءه ، ونبـه إلى سقطاتـه ، ودل على مراجع أسعفته في الوصول إلى الحقيقة . لكنه كان جائراً قليلا على الجويني متسقطـاً لأخطائـه ، وليس هـذا الفعل من شيم أهـل العلم ، لا سيما من لهم باع في الانتاج ويقدرون مدى عناء المؤلف في تأليفه . ونحن إن عتبنا على هذا العالم الجليل ، فلا نعبأ بالآخرين الذين يتسقطون الشوائب وهدفهم الطعن تغطية لقصورهم وتقصيرهم . وما بذل في عصرنا من مصادر ووسائل لم تهيأ لأدبائنا القدمـاء . فألف خـير منهم أن قدموا لنا علومهم ، وجمعوا لنا تاريخنا وعلوم أسلافنا .

ولقد لمستُ تقصيراً في الأصل المخطوط ، واضطراباً في بعض الجمل ، وغموضاً في عدد من الكلمات ، سببها الخرم أو التصحيف أو .. عجز الشارح عن كشفها . ورأيت أن تركها كما هي يوهن من النص ويُعجزني عن إتمام الترجمة . فحاولت تذليل ذلك كله بالرتق والاحتمال ، مشيراً إلى تعليقاتي وإضافاتي في الحواشي بالحرف « ت » ، أو مضيفاً بضع كلمات في المتن بين قوسين ، ليدرك المؤرخ مواطن الاضطراب ، ويتلافاها بتقديره العلمي المشكور .

وأسعدني الحظ كثيراً أن كان رئيس قسم اللغة والدراسات الإسلامية بجامعة إكسيتر عالماً مؤرخاً ، ومتخصصاً بالفارسية من جامعة عين شمس هو الدكتور محمد عبد الحي شعبان . فأطلعته على عملي ، واسترشدته بأملي . فكان لي العين الناقدة الغيورة . ثم نصحني بضرورة الاطلاع على النسخة الانكليزية المترجمة ، رغبة منه في إتمام العمل ، وإعطائه حقه .

فأقبلت على المقارنة والاستفادة من حواشي النسخة الانكليزية . ولم أشأ إقحام تعليقات بويل[1] داخل الكتاب (في الحواشي) حتى لا تتضاعف كمية الحواشي ، ولا تختلط مع ما أعلقه أو يعلقه القزويني . ولما كنت قد أنهيت ترجمة الكتاب فقد رأيت أن أضع تعليقات الإنكليزي في ختام كل جزء من الكتاب ، لا سيما أن أغلبها إضافات وآراء خاصة . ولا شك أن النسخة الانكليزية[2] ذات أهمية كبيرة ، لأن المترجم استعان بعدد كبير من الباحثين ، وراسل عدداً في روسية والصين ، واستفاد من الفرنسيين والفرس. وقد لاحظت على هذه النسخة ملاحظتين ؛ الأولى : أن المترجم كثيراً ما يذكر أنه نقل المقطع الفلاني عن الفرنسية ، أو ترجمه له فلان . ولعل مرجع ذلك

---

(1) John Andrew Boyle

(٢) اسم الكتاب هو : The History of the World Conqueror .

صعوبة فهم بعض الجمل والنصوص . وهذا ما فعلته أنا أيضاً . والثانية أن حواشي الجزء الأول أقل بكثير من حواشي الجزء الثاني .

ونقطة أخرى مهمة أحب أن أضعها بين أيدي الباحثين ، هي أن بويل كثيراً ما كان يؤيد المؤلف أكثر من تأييده للمحقق . وهذا يدل على اختلاف آراء المؤرخين في كثير من القضايا . ثم إن النسخــة الإنكليزية أضاءت بعض النقاط كانت علي غامضة ، فعدت إليها لأقارنها بما فهمته . وذكرت ذلك كله في موضعه من الكتاب أو من استدراكات كل جزء .

وبالنظر إلى أهمية الكتاب التاريخية ، وإلى الجهد الذي قام به المترجم فقد طبعته له جامعة مانشستر عام ١٩٥٨ .

والكتاب بثلاثة مجلدات مقسمة من غير تحديد ولا موضوعات . وقــد رأى المترجــم الإنكليزي تقسيمه إلى مجلدين . وتبعناه في رأيه لصوابه ، ولكثرة المقدمات التي وضعها المحقق حول النسخ التي اعتمدها والخطة التي اتبعها ، وهي لا تفيــد الباحث من قريب ولا من بعيــد . فاكتفينا من ترجمة مقدمة المحقق بما ناسب موضوع الكتاب ، وبما لم يفعله بويل . فقلل هذا من صفحات الكتاب . لهذا صدر الكتاب بمجلدين لا ثلاثة .

وقد تعمدتُ أن أضبط من الأسماء ما أمكنني ضبطه ، لصعوبة قراءة الأسماء المغولية ، ولم يكن هــذا من أصــل الكتاب . آملاً أن يسهّل على الباحثين سبل الاستفادة منه .

على أنني لا أدّعي الإحاطة في عملي هذا . بل أجزم مسبقاً بوجود نقص في الترجمة ووضوح بعض الجمل . وهذا عذري أضعه بين أيدي الباحثين ، وأين الكمال ؟ راجياً من الله أن يلهمني القوة لصد كل غادر مغولي أثيم على وطننا المفدى فكراً واحتلالاً .

اكسيتر ـ انكلترة : ١٩٨٤   « المترجم »

عطا ملك الجويني وعصره

حياة المؤلف :

سيرى القارىء بعد صفحات أن القزويني في مقدمته حاول وضع صورة واضحة تقريباً عن حيـاة هذا المؤرخ الكبير وعن كتابه • ولكن مثـل هذه الشخصية الفذة لا يكفي تعريفها بسطور ، بل تحتاج إلى دراسة تخصصية كاملة عن حياته وحياة أسرته ، ودراسة نتاجه المطبوع والمخطوط • لذا أحببنا أن نسهم ببعض الإضافات ، هي ليست أكثر من بضع لبنات تهدي الباحثين ، ومعلمات توضح الطريق لهم • فعدنا إلى كتب عربية وغربية لـم يطلع عليها المحقق ، واستنبطنا من ثنايا كتابه أشياء تكشف لنا عن شخصيته ، وذكرناها هنا ، مما لم يرد في مقدمة المحقق • هدفنـا من ذلك إعطاء المؤلف حقـه ، ما أمكن ، من التعريف •

لقـد عرف التاريخ العـربي والإسلامي شخصيات فارسية عملت لدى الخلفاء والأمراء بالوراثة ، تقديراً لمجهودات كبارها ، إذ خصصت حياتها كلها لخدمة البلاط ؛ اشتغل بعضهم بالسياسة وبعضهم بالأدب وبعضهم الآخر في المجالين معاً ، كآل برمك ، وآل الزيات ، وآل نظام الملك • ويعزى دائماً فضل كل واحدة من هذه الأسر إلى شخصية رسخت الرابط الأساسي بينها وبين الحاكم • وغالباً ما يكون المؤسس أبرز شخصيات أسرته •

وآل الجويني من هذه الأسر العريقة بأصالتها الفارسية ، والتي ربطت مصيرها بخدمة السلاطين والأمراء • غير أننا إذا حاولنا معرفة الجد الأكبر الذي كان سبباً في هذه الوشائج لم نجد أكبر من شمس الدين وأخيه عطـا

ملك • كما أن التاريخ لم يعدد لنا أسماء أفراد هـذه الأسرة ، بالدقـة التي حددها لنا المؤرخون في آل خالد بن برمك أو آل نظام الملك • • ولعل سبب ذلك راجـع إلى اشتغال أغلبهم في أقصى الشرق ، وتلك الرباع بعيدة عـن متناول المؤرخين أو عن اهتمامهم •

غير أننا استطعنا أن نلم بعض الشتات ، فتعرفنا إلى بهاء الدين محمد بن علـي ، والذي هو جـد أبي عطا ملك ، والذي كـان شاعر السلطان تكش خوارزمشاه الخاص (بالفارسية) • وعثرنا كذلك طي كتابنا هـذا على أن هولاكو في طريقه إلى بلاد الحشاشين نكب بعاصفة ثلجية هوجاء،أقعدت جيشه وحالت دون تقدمه • وكان الجويني من بين رجاله • فنظم قصيدة صور فيها الحال الذي هم فيه ، وأرسلها إلى أبيه في عاصمة المغول قراقورم • فأبوه على هذا أحد رجال بلاط منكوقاآن قبل شهرة ولديه[1] • أكان هو المؤسس ؟ أم سبقه أحد من آل الجويني ؟ ومتى انتقل أفرادها إلى خدمة المغول ؟ وكيف بلغت خدماتهم أقصى الشرق ؟ • على أننا نؤكـد وجود سبب ما أو شخصية معينة ساعدت الأب وبالتالي الأخوين على بلوغ أعلى المراتب السياسية • لكن الحق أن شمس الدين كان أعلى مقاماً من عطا ملك ، ولعله أكبر سناً ؛ لأنه كان يسانده في وظائفه ، ويدعمه في بلاط هولاكو •

ولد الجويني سنة ٦٢٣ • وحين رافق هولاكو في رحلته المشؤومة كان عمره دون الثلاثين ، ولعله كان في السابعة والعشرين • لكنه كان قبل تاريخ الرحلة يعمل كاتباً في بلاط المغول ، ومن الكتّاب المقربين في عهد منكوقاآن (٦٤٩ ــ ٦٥٨) • ومنكوقاآن نفسه عينه في جيش هولاكو ليهتم فيما بعد بمصالح ملك خراسان والعراق،على أن يشاركه ابن منكو وأحمد بيتكجي[2] • وهذا يدل على علو مقامه ، وعلى تعيينه على العراق قبل أن يكلفه هولاكو

---

(١) كان أبوه كبير كتاب أرغون والي خراسان ومازندران •
(٢) تاريخ جها نكشاي : ١٠١/٣

بذلك • غير أن الأقدار ساقته لكي يكون كاتب هولاكو (للعربية والفارسية) وشاعره ومستشاره ومدبر أموره ، وبالتالي فهو من المقربين جداً إليه • بل إن مقامه عالي الشأن لديه ما دام قد صدر قرار تكليفه من قبل الخاقان نفسه• ويذكر Sykes أن المؤرخ الفارسي عطا ملك الجويني كان رئيس ديوانه[1]•

وتظل أهمية عطا ملك بارزة حتى تفتح قلاع الحشاشين ، ويخرج منها مفكر فارسي كبير هو نصير الدين الطوسي • فاحتل مكان الصدارة لدى هولاكو ، لأنه أكبر سناً ، وأفضل علماً ولا سيما في ميدان علم النجوم الذي يعتقد به هولاكو كثيراً • فتدنت مكانـة عطا ملك قليلا إلى حين ، ولم يعد المستشار المرموق • لكن أخاه شمس الدين ظل وزير هولاكو[2] ، مدعّماً مقام أخيه • وظل رئيس ديوانه وأحد أعوانـه ، ورسوله وكاتبه ، وأحـد المشتركين في مفاوضة ركن الدين أمـير الإسماعيلية على تسليم القـلاع ، والمسؤول الأول عن مخلفات الحشاشين العلمية • وبعـد فتح بغداد انفصل الرجلان ، حيث رافق نصيرالدين الأمراء في عاصمتهم مراغة ، بينما استقر مقام عطا ملك الجويني في بغداد •

وبعد أن غزيت بغداد وفتحت العراق وزع هولاكو مهمة إدارة بغداد على عدد من الرجال ، منهم :

١ ــ علي بهادر : على شحنة بغداد ، ومشرف على الحرفيين والتجار • كان أحد قواد هولاكو ، عاث فساداً في بغداد ، ولكنه أعان المغول •

٢ ــ ابن العلقمي : وزير هولاكو في بغداد • وقد ظل على منصبه هذا ثلاث سنوات حتى وفاته •

---

(1) A History of Persia, 94

(2) Coke, Baghdad the City of Peace, 156

٣ ــ فخــر الدين الدامغاني : وهو مــن رجال الدين علــى المذهب الإمامي ، يسهم في إدارة البلاد ، بمثابة وزير محلي •

٤ ــ نظام الدين عبد المعين : قاضي القضاة •

٥ ــ ٦ ــ إيلكا نويان وقربغا : قائدان مغوليان ، مهمتهما الاشراف على الجيوش المغولية في العراق •

٧ ــ أحمد بن عمار : حاكم العراق العربي • كان في الأصل مملوكاً مهمته تدليك أقدام سيده • لكنه كشف للمغول مخازن الحبوب التي كان خبأها المستعصم • فعينوه حاكم العراق (!) تقديراً لإخلاصه •

٨ ــ ابن أبغا : الحاكم الفعلي للعراق • لكن مركز حاكم عراق العرب بغداد ، ومركز المغولي إصفهان[١] •

وهكذا لم يرد اسم الجويني في قائمة التعيينات • ويبــدو أنه ما زال الرجل المقرب لدى هولاكو ، ولا يمكن الاستغناء عنه • ولا نعلم إذا كان رافقه في غزو حلب أم ظل في بغداد • لكننا نفاجأ بصدور قرار من هولاكو وهو في حلب سنة ٦٥٧ بتعيين الجويني على حكومة العراق ، مشاركاً عماد الدين عمر القزويني • لكن الدسائس سرعان ما تفشت بين حكام العراق ، وشرعت تحاك ضد الجويني ، فقد اتهموه باختلاس أموال الديوان • فاستاء هولاكو ، وأراد البطش بــه ، والحكم عليــه بالموت • إلا أن بعض رجال الحاشية توسط لدى هولاكو ورجاه ، فعفا عنه • وبمساعي أخيه شمس الدين بُرئت ساحته ، وعاد إلى عمله • ويبدو أن الذي كان يسعى ضده هو الشحنة علي بهادر • فظل وراء بهادر حتى تمكن من قتله والتخلص منه •

---

(1) Ibid, 155

واستمر الجويني على إمارة العراق في عهد أباقا ومن بعده أخوه أحمد حتى وفاته سنة ٦٨١ • لكنه في عهد أباقا لم يكن الحاكم الأول (كما كان في عهد هولاكو) • بل كان سقنجاق أمير عراق العرب والعجم • وكان الجويني نائب سقنجاق على بغداد وعراق العرب • واستعاد عطا ملك منصبه القوي في عهد الحاكم المغولي المسلم أحمد تكودر بن هولاكو • فأصدر أمراً باغتيال الحاكم السابق الذي كان يعمل ضده ويتهمه • فتمكن من التخلص منه • إلا أن المنية عاجلته فمات في فارس ودفن في تبريز •

ولم يأل الجويني جهداً ، إبان حكومته ، من بث الحياة من جديد في بغداد ، فعمل على عمرانها وإصلاحها ، وتقريب علمائها وأدبائها ، وبمد اليد المعوان للمسلمين • نحن لا نشك مطلقاً في ورعه وتمسكه بدينه ، كما لا نشك في حبه للمغول • لكننا أحسسنا أن هواه تحول عن المغول إلى العرب المسلمين ، لهذا كان يُتهم باتصالاته السرية بالمماليك ، وبميله إلى أحمد تكودر • كما ذكرت كتب التاريخ[1] أنه دس السم في طعام منكو تمر بن هولاكو إثر عودته من حروبه في حمص الشام • فأحس أباقا أنه يواطىء المسلمين ، فنقم عليه •

اهيمـة الجويني التاريخيـة :

إذا تباهى الغربيون بالرحالة ماركو بولو بأنـه زار بلاط قوبيلاي في الصين وكشف بعض أسرار المغول ووصف حياتهم وشيئاً من وقائعهم • وإذا اعتزوا بالراهبين اللذين دخلا قره قورم في عهد منكوقاآن وأتيا بمعلومات قيمة ، وهما روبروك وكاربيني[2] ، فإن للعرب والفرس حق الافتخار الأكبر

---

(١) تتمة المختصر : ٢/٣٢١ • وانظر تفصيل سمّه لمنكوتمر وغضب أباقا منه في نهاية الأرب مطلع الجزء ٢٥ (مخطوطة في باريس رقم Arabe, 1577, F 370 - B

(٢) لاتتعدى مذكراتهما مئة صفحة ونيفاً • انظرها في كتاب: The Mongol Mission ولعل أكبر سر كشفه روبروك أنه في زيارته شارك في التخطيط لفتـح قـلاع الحشاشين وتهديم بغداد • انظر : Dawsin مخرج الكتاب المذكور في ص ٢٥ من المقدمـة •

المغولية التاريخية الأدبية الضخمة التي ضمت بعطا ملك الجويني وموسوعته المغولية التاريخية الأدبية الضخمة التي ضمت مئات الصفحات • جمع فيها معلوماته التامة على مسيرة أكثر من عشرين سنة في خدمة البلاط المغولي ، جزء كبير منها في البلاط الكبير ، وجزء في عدد من البلاطات الأخرى ، وجـزء في رحلة لم يسر مثلها مؤرخ ولـم يشاهد مثلها أديب • بالاضافة إلى أنه كان أحد المقربين لدى منكوقاآن ، وجـال آسية ، وكاشف عدداً من قواد المغول، فعرف كل صغيرة وكبيرة في حياتهم ومعتقداتهم• ولما كان أسلوبه العربي والفارسي على مرتبة عاليـة من الأداء الفني فقـد استطاع أن يقدم لنا تحفة نادرة ، تمتاز بالدقة التاريخية والرقة الأسلوبية معاً • ضمّنها دقائق من أسرار المغول ، وتعييناتهم ، ودسائسهم ، واغتيالاتهم ، واضطراباتهم ، وقراراتهم ، وتجهيز جيوشهم ، وطـرق حروبهم ، مما يعجز المؤرخون عن ذكره • فكشف لنا وللتاريخ أحداثاً يعتبرها بعضهم أسراراً[1] • وهي بالفعل كانت مجهولة أو ناقصـة في كتب التاريخ العربية والفارسية والغربية •

كما أنه أرّخ لنا تاريخ أقوام وأمم وأمراء وملوك قصّر باع الكتب عن ذكرها ، لبعد الشقة أو لنقص المعلومات • فوضح لنا دقائق كانت نبراساً لمعرفة تاريخ المشرق ، ولا سيما بـلاد ما وراء النهـر ، والختائيين ، والغوريين ، والخوارزمشاهيين ، ودلنا على مراسلات سرية ودقيقة كانت تجري بين الأمراء حيناً ، وبين الخلفاء وبعض الأمراء حيناً آخر •

على أنه بلغ القمة في الإفادة في أثناء حديثه عن الحشاشين ، فقد دخل أوكارهم ، واطلع على أسرارهم ، وقرأ نوادر كتبهم فذكر لنا أصولهم وفروعهم وآراءهم وأفكارهم ، وكيفية تأسيسهم لدولة نادرة قائمة على رؤوس الجبال، وكيفية تحصينها ، ومدى منعتها • ثم وصف لنا ممتلكاتهم غير الحربية من آلات رصد وفلك وعلوم ، وبين لنا أهمية كتبهم ، وعمر مكتبتهم ، وعرض

---

(١) انظر على سبيل المثال : Pilliot, The Secret History

علينا بعض نفائس مخطوطاتهم • وأفادنا إفادة نادرة باطلاعه على كتبهم السرية وفضحها (مع الأسف موجزاً) في كتابه • إلا أنه ، مع الأسف أيضاً ، أجرم بحق العلم إجراماً كبيراً إذ أمر بحرق المكتبة بعد أن استخلص لنفسه بضعة كتب تهمه،بعد أن منحه هولاكو حرية التصرف الكاملة بها•وكأنه شارك المغول في تدميرهم العلمي والحضاري •

ووصف لنا بكل دقة وأهمية توزيع الجيوش المتجهة للغزو ، والخطط الحربية التي ساعدت المغول على نصرهم ، وبيَّن أهمية الحرب النفسية التي اعتمدها المغول ، وتبنى خططهم وشرحها بكل اعتقاد • ومن هنا كنا نجده ميالا إلى المغول ، مُشيداً بأعمالهم ، منشرح الصدر لانتصارهم ، وكأنه واحد منهم ، واحد مسؤول مثقف محب •

ولن نغفر،ولا التاريخ يغفر،تقصيره نحو المسلمين•ولا نجد مبرراً واحداً يدفعه إلى الإشادة الزائدة عن حدها في مقام المغول • ولكن أبواق الحرب تظل أبواقاً مهما علا نفيرها • وهو في إشادته هذه أعطانا صورة أخرى من تاريخ المغول الدموي ، ونفعنا إذ صور لنا نصر المغول من وجهة نظر القواد المغول • ولو أننا اكتفينا بدراسة كتب تاريخنا كالكامل والمختصر والسلوك والمنتظم •• ممن كانوا أعداء للمغول لقلنا إن هؤلاء بالغوا في وصف بطش المغول ، لأنهم أعداء لهم ولأمتهم ، ولعد عملنا التاريخي الحديث قاصراً لأنه اعتمد جهة واحدة في التأريخ • ولكن نحن إن قارنا صورة المؤرخين الموالين للمغول بصورة المؤرخين المعادين للمغول وصلنا إلى نتيجة واقعية حتمية واحدة هي أنهم شعب همجي ، عدو للحضارة ، والتقدم ، والأديان ، واقتصاد الشعوب المزدهرة • ولا فرق بين الفئتين في تصوير التدمير ، إلا أن الواحدة تعرض السفك بصورة الشامت ، والأخرى تعرضه بصورة المتألم المتحسر •

ولا شك أن المؤرخين العلميين يهتمون برصد الآراء المتعارضة ليصلوا إلى القناعة في نتائجهم • ومن هنا تأتي أهمية كتاب جهانكشاي العالمية التي

برز فيها انحياز المؤلف نحو المغول • بل لا بد للمؤرخ الذي يعنى بدراسة الشرق ، في كل مرحلة زمنية أو مكانية من الاعتماد على هذا الكتاب اعتماداً كبيراً • ولن يتأثر عربي أو مسلم بالجمل الرنانة المشيدة بجبروت جنكيز خان ، أو دسائس منكوقاآن ، أو سفك هولاكو ، ما دام قد رسم في ضمير تاريخه ما فعله أعداء البشر بالبشر •

على أننا لا نريد أن نجحف في حق هذا المؤرخ الكبير الذي قدم لنا موسوعته المغولية الكبيرة ببضعة جمل دعائية كالتي يقذف بها المداحون في وجوه ممدوحيهم ليمتحوهم الغيث والعطاء • فمثل هذا كثير في أدبنا ، ولن تتغير نظرة الناقد نحو المادح والممدوح ما دام يعلم أن ما أنشد في حقه كان في سبيل العطاء والكسب • كما أننا نشيد بنقطة هامة ، عابها عليه المؤرخون ، هي أنه وصف كل أحداث المغول ، وتوقف فجاءة ، بل أحجم عن وصف سفكهم لبغداد وما بعد بغداد،مع أنه عاش حتى ٦٨١ هـ •صحيح أنه قصَّر في وصف ماجريات الدمارفيالمدينة التي جلس هو علىعرشها،إلا أننا نحسبأنه لم يقدمعلى ذلك إلا إيماناً منه بجور المغولفيحق العرب والمسلمين•فمع أنه شهد بأم عينيه فتح بغداد وقتل الخليفة ، وسمع ــ ولعله شاهد ــ ما فعله سيده في حلب فإنه قرر أن يؤرخ لأفعالهم في المشرق حتى حدود العراق • وكم بحث عن مبررات وتعلاّت لغزوهم شرقاً • لكنه حين وصل إلى الخلافة العباسية ؛ العترة المحمدية شُل قلمه ، فلم يقبل أن يلوث نِقْسه بما دنسه المغول في تلك البلاد • كما قرر عدم البوح بسطر عن الغزو للأرض العربية ، وبعض صمت العظماء رفض • في حين أن نصير الدين لم يؤرخ إلا لواقعة بغداد ، تشفياً وشماتة • فأقدم غير محرج ، كما حض هولاكو على قتل الخليفة • وأرخ لذلك فصلة ، رأى المؤرخون أن يضيفوها في خاتمة كتاب الجويني ليتم بها الغزو الهولاكي ، وسيجدها المطالع في خاتمة الكتاب •

ولكن الجويني في إشادته بأعمال القواد لم يغير من التاريخ ، بل تعاطف مع الغزاة . وهو إن فعل هذا مع المغول كان عادلا في الفصول التاريخية الأخرى كنشوء دولة الختا ، وحروب الخوارزمشاهيين مع الغوريين ، وكشف أسرار الإسماعيليين ، وغير ذلك مما نحن بحاجة ماسة إلى معرفته . وسبقنا الغرب جميعاً إلى معرفته بترجمتهم هذا الكتاب الفذ .

عصر المؤلف :

بينما كان إعصار جنكيز خان يهز أركان الشرق ، وفي الوقت الذي توزع أبناؤه في أنحاء آسية يمرحون بما كسبته أيديهم ، وما أهداهم إياه أبوهم ولد عطا ملك الجويني ، فلم يسمع بكاءه أحد من ذويه لأن آذانهم صمّت مما سمعوه من أنين الثكالى وعويل الأيتام واستنجاد الشهداء تحت سنابك خيل سادته وسادة أبيه .

فلقد عاصر الزحف المغولي من أقصاه إلى أقصاه ، ستين سنة إلا قليلا . ولئن لم ينعم بخدمة جنكيز لأنه مات ، فإنه خدم أعتاب منكو قاآن ؛ أكبر سفاك بعد جده . وهو الذي أرسل أخاه قو بيلاي خان لفتح الصين ، وأخاه الآخر لفتح الشرق وأوصاه شراً بالاسماعيلية والخليفة وحكام الشام ومصر . كان المغول آنئذ أشبه بالجراد الهائج الذي يطغى على الزرع الأخضر المثمر ، فيمتص رحيقه ويهشم أفنانه ، ويذبل أثماره . فلا يُبقي حياة حيث يرى الحياة . ولقد صور الرجل العجوز الذي كان يلقن تيموجين (جنكيز خان) الطفل تعاليمه في الحياة المغولية والتي غرست في نفس هذا الطفل ، وكل طفل مغولي بعده ، حبة الحقد والوحشية ، فنمت رعباً وحقداً وهولا حين شب جنكيز خان ، وامتطى صهوة جواده . لقد قال له : « إن بلادنا مهما اتسعت رقعتها فلن تبلغ جزءاً من مئة جزء من أرض إمبراطورية الختا . أما السر الذي يجعلنا قادرين على العيش إلى جوار تلك البلاد حتى الآن فهو أننا قوم رحل ، نحمل متاعنا وزادنا أينما توجهنا . وقد أكسبتنا الظروف خبرة حربية واسعة .

فنحن إذا تمكنا غزونا وغنمنا ، وإذا عجزنا توارينا واختفينا • أما إذا بدأنا نشيد البلدان تغيرت عاداتنـا وطباعنا القديمـة التي توارثناها عن أسلافنا الأمجاد ، ولن تقوم لنا بعدها قائمة • ولا تنس يا بنـي أن الأديرة والمعـابد تورث وداعة الأخلاق ، وتدعو إلى لين الجانب ، وتجنِّد الرقـة والهدوء ، مع أنه لن يسود البشر إلا المقاتل القوي » •

فالمغول على هذا شعب متنقل ، متفكك ، يرفض الاستقرار ، يرفض الحضارة ، يرفض الأديان • وكان عيشهم مقصوراً علـى الرعي والصيد ؛ الكبار يصطادون الوحوش والحيوانات القوية ، والصغار يلاحقون الأرانب والجرذ •في حين أن نساءهم يصنعن أوتار الأقواس من أمعاء هذه الحيوانات ، ويثقفن النبال للرجال • أما لهوهم فعواصف من الصخب والخلاعة والمبارزة وسبق الخيل والشراب ومغازلة النساء علناً وبإباحية • لا هم لهم إلا لقمـة وصهوة جواد ، يرقون بعدها المرتفعات الصخرية أو الثلجيـة • حسبهم أن يطيعوا رئيسهم حتى إلى الموت ، ويستجيبون لأمره وينفذون طلبه بسرعـة فائقة • أليس تنفيذ الأوامر تفريغاً لطاقاتهم المزدحمة في نفوسهم ؟

ولم تأت قسوتهم هـذه من بدائيتهم وحسب ، بل أرضهم الجافـة ، وطبيعتها القاسية التي تضن عليهم بالدفء والخـير جعلتهم ينقادون بوحشية طواعية ومن غير خيار • فهم لا يرون الخضرة على الروابي إلا في ثلاثة أشهر من السنة ، أما باقي السنة فعواصف ثلجيـة ورياح باردة[1] • لهـذا تراهم يتحايلون على كسب القوت مهما كلفهم ذلك من السفك والقتل والتدمير • وهم لا يدمرون إلا أفضل ما تتطاول إليه أيديهم • فقد ساءهم أن يلقوا الصين منعمة رخية، متطورة متحضرة فراحوا يهاجمونها من الشمال والشمال الغربي• ولئن استطاعت فئة منهم أن ترقى أسوار الصين لقد حولوا تدميرهم نحـو جيرانهم من الأمم المتحضرة • حتى إذا برز جنكيز خان وجـه تدميرهم نحو

---

(1) Saunders, The History of the Mongol Conquests, 44

الامبراطورية الخوارزمشاهية الاسلامية • وكانوا كلما رأوا دماً ازدادوا حماساً ، وكلما قتل منهم رجل استشاطوا غضباً وأمعنوا في السفك والقتل • لهذا قورنت المجازر البشرية بفتوحاتهم • وكم كان يؤلمهم منظر الحضارة والتقدم ! فكانوا القوة البشرية الوحيدة في العالم التي جهزت الجيوش لتحطيم صرح الحضارات والأديان في آسية وأوروبة • وما زال الانهيار الإنساني ، والذي مضى منذ سبعة قرون لم يشف من أفعالهم • وإلى فترة قريبة ، وفي بعض كنائس أوروبة الشرقية كان الابتهال إلى الله يشمل قولهم : « خلصنا يا رب من غضب المغول »[1] •

يبدأ تاريخ المغول فعلا بجنكيز خان • فأبوه « ييسو كاي » إن لم يكن رئيس قبيلة ، فهو واحد من أعيانها الكبار • ولأسباب مجهولة تمكن أحد أعوانه من قتله بالسم سنة ٥٦٣ = ١١٦٧ • فترك ابنه تيموجين صغيراً ، لا يزيد على الاثني عشر عاماً • وبموت أبيه انفرط عقد العشيرة ، ورفضوا أن يخلف طفل صغير أباه • فنشأ يتيماً مع إخوته وأمه • ولكن نفسه كانت تتقد حقداً ورغبة في تحقيق طموحه • لذا كان منذ صغره يتدرب على الرماية وركوب الخيل • ثم أخذ يجمع حوله بعض الشبان ، وأسس بهم فرقة محاربة، استفحل أمرها حتى هابها الأمراء • وشرع بالتغلب على الأمراء واحداً واحداً، حتى استعاد مكانة أبيه ، وأجمعت القبائل على تعيينه رئيساً عليهم في اجتماعهم العام ، ومنحه الشامان (رجل الدين) لقب جنكيز خان • فباشر أولا بحرب الأويغور ٦٠٥،وكانوا يعيشون في الحوض الأعلى لنهر أورخون وأطراف جبال قره قورم • ثم احتل جزءاًمن الصين • وظروف سياسية كبيرة قادته لحرب خوارزمشاه، فاتجه عندئذ غرباً يدمر هو وأبناؤه مدن آسية كبخارى وسمرقند ، حتى دانت له الإمبراطورية الخوارزمشاهية بمدة عام كامل •

---

(1) Sykes, A History of Persia, 71

وحين أحس بدنو أجله عاد إلى بلاده ، وجمع أولاده ، فوعظهم ووزع أملاكه عليهم ، على عادة المغول • ومــع أن أولاده كثيرو العدد ، فإنــه قصر ملكه على أربعة :

١ ــ أوكتاي : ورث قبائل جنغارية ودولة كين •

٢ ــ تولوي : حكم القبائل القاطنة في منغوليا • ومن أبنائه برز حكام إيران ومنكو وهولاكو •

٣ ــ جغتاي : حكم ما وراء النهر •

٤ ــ جوجي : حــكم قفقاسية وجنوبي روسية ، ودُعــوا « القبيلة الذهبية » • ومات قبل أبيه •

توفي تولوي سنة ٦٣٠ وخلف أربعة أولاد هم : مونكو ، قوبيلاي ، هولاكو ، أريق بوقا • ومع أن تولوي لم يتسلم الخاقانية ، فإن ابنه مونكو غدا الخاقان الرابع في سلالة الخاقانات العظام ، وحكم من ٦٤٩ ــ ٦٥٨ • واستطاع بأخويه قوبيلاي وهولا كو أن يفتح آسية كلها من أقصى الصين حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط في الشــام • وموته كان خــيراً على العرب والمسلمين ، فقد اضطر هولاكو للتراجع من أبواب حلب إلى الشرق ليشترك في حرب ضارية مع أبناء عمه « القبيلة الذهبية » في مسألة الإرث ، والمشاركة بالأرباح ، ولدخول بركــا بن جوجي في الإسلام ، وقصده حرب من قتــل الخليفة العباسي •

لكن موت مونكو لــم يمنع من ثبات أبناء هولاكو في بــلاد فارس ، وتأسيسهم الإمبراطورية الإيلخانية التي حكمت حتى سنة ٧٣٦ • والتي عاش في أحضانها عطا ملك الجويني قرابة ثلاثين سنــة ، أي نصف عمره تقريباً • ورأينا أنه شارك هولاكو في فتوحه مدينة مدينة ، وكان كاتبه في المراسلات

والمفاوضات • كما كان أحد حكامهم البارزين في مدينة بغداد، طوال حكومة أباقا بن هولاكو (٦٦٣ ــ ٦٨٠) • وشارك في حكم أحمد تكودر بن هولاكو سنة واحدة •

وقد اتصف عهد أباقا بالحروب المستمرة والضارية مع مماليك مصر ، وكان حاكم مصر والشام آنئذ الظاهر بيبرس (٦٥٨ ــ ٦٧٦) • كما عاصر ابنه بركة خان وابنه الآخر سلامش وثلاث سنوات من حكومة المنصور قلاوون (٦٧٨ ــ ٦٨٩) • كما كان على علم بالصلات المشبوهة المعادية التي كانت تجري بين أباقا وملوك الغرب ، لإعداد حرب صليبية ــ مغولية ضد الشام والمماليك •

إلا أننا لم نقرأ في كتب التاريخ ولا في كتابه أنه شارك في أي من الصلات، الحربية أو صلات المفاوضات • ولعل ذلك راجع إلى أنه كان يحيا في العراق ، والخان في عاصمته مراغة ، قرب تبريز • وقد اقتصر وجوده على حاكم تابع ، لا سلطة له في قرارات المغول ، ولا مشاركة في المفاوضات •

مات عطا ملك ، وما زال الإيلخانيون يحكمون فارس والعراق ، ويحاربون المماليك ، ويهاجمون الشام ، ويعيثون فيها فساداً حتى قبيل انتهاء حكمهم • ولعل معركة الصفر والتي جرت ٦٨٠ ، قبل سنة من موته ، كانت خاتمة السفك الدموي لهم في الشام ، لأنهم منوا بخسارة فادحة ، أيقنوا بعدها بضعفهم وبمنعة جيش المماليك ، وبجلد أهل الشام على غاراتهم •

رموز الكتاب

ثلاثة رموز يرجى الانتباه إليها قبل الرجوع إلى الكتا ب:

١ ــ إذا جاء في المتن دائرة سوداء ● دل على وجود استدراك في خاتمة الكتاب عن النسخة الانكليزية .

٢ ــ الحاشية المختومة بـ (ت) رمز لتعليقاتنا وشروحنا .

٣ ــ الحاشية غير المختومة بشيء أو المختومة بكلمة (المحقق) هي من تعليقات القزويني محقق المخطوطة .

٤ ــ ما بين قوسين (..) إضافة منا لتوضيح الجملة .

مقدمة المصحح (١)

تعد الفتنة التي أحدثها الهجوم المغولي في مطلع القرن السابع الهجري أهم واقعة بعد الإسلام حتى اليوم ، بل هي أهم حدث تاريخي على الإطلاق • وقد برز أذاهم بدءاً من أقصى الشرق من بحر الصين إلى حدود الشام ومصر طولا ، ومن أقاصي صحراء القبجاق وروسية وبولونية وهنغارية إلى خليج فارس وبحر عُمان عرضاً في مدة لم تتجاوز أربعين سنة •

وقد استطاع المغول في هذه المدة الوجيزة أن يحوزوا أكبر إمبراطورية،ما زال التاريخ يقف دونها مشدوهاً • وفي وسط هذه المعمعة وتلاطم أمواج الفتن كانت إيران أكثر الدول انتكاباً بهجمتهم من قتل وإغارة وسفك • فقد هاجمها الطوفان المغولي وجعل عاليها سافلها ، وأشعل فيها لهيب الدمـار ، فأحرق آلاف البشر البريئة ، وغدت مدنها وقراها وقصباتها قاعاً صفصفاً • وخربت مراكز العلم فيها ، وذبـح على أيديهم العلماء الأفاضل كما تذبح النعـاج ، واختفى من الوجود الكتّاب والمكتبات • كما نعق البوم والغراب على محال الصناعات والثروات • ولعل ما جرى للأدب والعلم في تلك البقاع أعظم شأناً من سائر أفاعيل المغول ، فانحدر مقام الاثنين انحداراً فاحشاً • والذين هم على

---

(١) كانت مقدمة المصحح طويلة زادت على المئة • وقد ضمت ترجمة مستفيضة عن المؤلف وعن أخيه وعدد من ذويه ، ومقام كتاب جهانكشاي ، وتاريـخ تأليف الكتاب ، والنسخ التي اعتمدها ، ونقول عدد من المؤلفين العرب مع نصوصهم عن المؤلف وعن أهله • وقد آثرنا الاختصار ، بحيث لا نؤدي من الأفكار إلا ما يساعد على فهم الكتاب وقيمته ومقام مؤلفه (ت) •

معرفة بالعلوم الإسلامية وآداب الفارسية يقدرون البون الشاسع بين مرحلة ما قبل الاحتلال المغولي وأوان الاحتلال .

بالإضافة إلى هذا الأمر العجيب فإن فرعاً من فروع الأدب ، أعني فرع الفن التاريخي ، لقي رواجاً ملموساً في عهد المغول ؛ فقد ألفت مجموعة نفيسة من الكتب التاريخية ، تعد من أبرز كتب التاريخ الإيرانية . من هذه الكتب :

ـ تاريخ جهانكشاي : تأليف علاء الدين عطا ملك الجويني الذي ألف كتابه هذا سنة ٦٥٨ هـ .

ـ جامع التواريخ : تأليف رشيد الدين فضل الله ، وزير غازان وأولجايتو ، ألفه سنة ٧١٠ هـ .

ـ تجزية الأمصار وتزجية الأعصار ، المعروف بـ « تاريخ وصّاف » . تأليف عبد الله بن فضل الله الشيرازي . وقد ألفه بحدود سنة ٧٣٨ هـ .

ـ تاريخ كزيده : تأليف حمد الله بن أبي بكر بن نصر الله المستوفي القزويني . وهذا الكتاب خلاصة لجامع التواريخ وتقليد له . ألفه سنة ٧٣٠ هـ .

ـ التاريخ الكبير (شعراً) : ويسمى الكتاب كذلك « ظفر نامه » : تأليف « همٔو » . وقد نظمه مؤلفه على البحر المتقارب بخمسة وسبعين ألف بيت ، جعل ثلثه تاريخاً للعرب ، وثلثه تاريخاً لإيران ، وثلثه الأخير تاريخاً للمغول . ألفه سنة ٧٣٥ هـ .

ـ روضة أولي الألباب في تواريخ الأكابر والأنساب ، ويسمى كذلك «تاريخ بناكتي » : تأليف أبي سليمان داود بن أبي الفضل محمد البناكتي . ألفه سنة ٧١٧ هـ .

ـ نظام التواريخ : وهو تاريخ مختصر في طبقات السلاطين في إيران ، لقاضي القضاة ناصر الدين أبي سعيد عبـد الله بن عمر بن علـي البيضاوي (صاحب التفسير المعروف) . ألفه سنة ٦٧٤ هـ .

ـ مجمع الأنساب : تأليف محمد بن علي بن محمد بن حسين بن أبي بكر الشبانكاره . ألفه في عهد السلطان أبي سعيد سنة ٧٣٣ .

ـ وغير هذا من الكتب كثير .

ولا شك أن أفضل هذه الكتب جميعاً الكتب الثلاثة الأولى : جهانكشاي ، جامع التواريخ ، وصاف . وأفضل هذه الثلاثة وأقدمها هو الكتاب الأول ، وهو الذي نحن بصدده . كما لم يؤلف واحد من المحدثين كتاباً يضارع أحد هذه الكتب الثلاثة في تاريخ هذه المرحلة .

ونخص الحديث عن كتاب « جهانكشاي » . فمؤلفه علاء الدين عطا ملك الجويني ، ذو المقام الرفيع والمنصب العالي في دولة المغول (فقد كان حوالي خمس عشرة سنة الكاتب الخاص للأمير أرغون آقا حاكم إيران وكرجستان وآسية الصغرى وغيرها . وبعد قدوم هولاكو إلى إيران غدا أحد كتابه المقربين ، ومن بعده لولديه آباقا وتكودار المعروف بأحمد ، والذي كان حاكماً لبغداد وعراق العرب مدة أربع وعشرين سنة . وكان شاهداً لأغلب الوقائع التي ورد ذكرها في هذا الكتاب ، كما سيأتي شرحه . وقد بدأ بتأليفه منذ أيام حكومة قازان فما بعد ، وأتمه بأمر من أولجايتو .

وامتاز هذا الكتاب كذلك بالمشاركة أو المشاهدة بحكم ملازمته للأباطرة المغول . فأضاف على مشاهداته ما سمعه ، ونقله ، عنهم وعن العلماء في عصره من شتى الملل المنتمية إليها ، والمتحلقين حول أباطرتها . وقد ضم الكتاب ، بالإضافة إلى تاريخ المغول ، تاريخ الأمم والأقوام المعروفة من أقدم الأزمنة حتى عصر المؤلف .

ومؤلف الكتاب هـو صاحب الديوان عـلاء الدين عطا ملك الجويني تغمده الله برحمته[1] . عرفت أسرته بأصحاب الديوان ، لأنهم كانوا من أقدم الأسر الفارسية وأشهرها رؤساء للديوان في الدولة السلجوقية والخوارزمشاهية والمغولية . وكانت وظيفة صاحب الديوان أشبه بوزير المالية اليوم . ولهـذا عرف أفراد هذه الأسرة باللقب « صاحب الديوان » ، مع أن عدداً منهم لـم يشغل هذا المنصب كشمس الدين محمد الجويني أخي المصنف ؛ فقد كان وزيراً في عهد أباقا بن هولاكو ، وصاحب الحكم المطلق لديه . وكانت مرتبة صاحب الديوان أقل المراتب التي يشغلها أهمية . ومع ذلك ظل يحمل هذا اللقب الخاص به وبأسرته . وكذلك أخوه مؤلف الكتاب المعنيّ ، فقد كان في عهد أباقا حاكم العراق ، وبالطبع فإن وظيفـة صاحب الديوان جـزء من أعماله في حكومة العراق . ويعود نسب عطا ملك إلى « الفضل بن الربيع » حاجب خلفاء بني العباس المعروف[2] . ويؤكد ابن الفُوطي على نسبه إلى الفضل بن الربيع ، فيقول : « هو الصدر الأعظم صاحب الديوان علاء الدين أبو المظفر عطا ملك بن بهاء الدين محمد بن شمس الدين محمد بن بهاء الدين محمد بن علي بن محمد بن محمد بن محمد بن علي بن محمد بن أحمـد بن اسحاق بن أيوب بن الفضل بن الربيع[3] بن يونس بن محمد بن عبد الله بن كيسان[4] .

---

(1) نقـل المصنف ترجمـة الجويني من المستشرق الفرنسي QUATREMERE الذي طبعها ضمن مجموعة MINES DE L'ORIENT المعروفة بالكنوز الشرقية بالاشتراك مع عدد من المستشرقين الفرنسيين، كما استفاد من بحث CH. SCHEFER الفرنسي بعد أن أضاف وصحح ما نقل (ت) .

(2) أخطأ القاضي نور الله الششتري في كتابه « مجالس المؤمنين » إذ جعل نسبه يعود الى الجويني إمام الحرمين .

(3) وانظر نسبه في تاريخ الإسلام للذهبي ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ومنية الفضلاء المعروف بالفخري لابن الطقطقي ، في أثناء الحديث عن المنصور .

(4) وكيسان هذا مولى عثمان بن عفان . وأحد الخارجين عليه يوم الدار (ت) .

كان أبوه بهاء الدين محمد بن محمد صاحب الديوان يشتغل في قصور المغول في الفترة الواقعة بين فتوحات جنكيز خان إلى قدوم هولاكو إلى إيران، أي ما يقرب من خمس وثلاثين سنة . وكان مقرباً من جنتيمور حاكم خراسان ومازندران من قبل قاآن . فقد عينه صاحب ديوان خراسان ومازندران . كما كان أحد رسله إلى قاآن ٦٣٣ ، حيث أكرمه قاآن ومنحه عطفه وأهداه البايزة واليرليغ بآل تمغا[1] . وحين غاب « كركوز » حاكم المنطقتين الجديد ناب منابه في حكم البلاد سنة ٦٣٧ . وفي حدود سنة ٦٤٣ تسلم إمارة البلاد الغربية الأمير « أرغون » فكان ينوب منابه في حكم آذربايجان وكرجستان والروم في أثناء غيابه ، ولا سيما حين التحق أرغون بجيوش « كيوك خان » حوالي سنة ٦٤٤ ، كما كان يصاحبه في أسفاره أحياناً . وقد عينه سنة ٦٥١ ، بالاشتراك مع مغولي يدعى « نايمتاي » حاكماً على العراق ويزد ، وكان عمره آنئذ ستين سنة . وقد رغب بهاء الدين في الاعتزال عن الأعمال الديوانية ، لكن الأمراء لم يقبلوا بذلك ؛ مما اضطره للسفر إلى العراق . غير أنه توفي في إصفهان سنة ٦٥١ في طريقه إليها .

كان بهاء الدين المذكور من فضلاء عصره ، وله أشعار حسنة بالعربية والفارسية ، ورد ذكر بعضها في تضاعيف كتاب ابنه « جهانكشاي » و « تاريخ وصاف » وكتاب « شَرف إيوان البيان في شَرف بيت صاحب الديوان » للقاضي نظام الدين الإصفهاني .

ولد عطا ملك الجويني سنة ٦٢٣ . وكما يذكر في مقدمة كتابه أنه في مطلع شبابه ، وقبل أن يبلغ سن العشرين شُغل بالعمل الديواني ، وانخرط في سلك الكتّاب المقربين لدى الأمير أرغون . وقد قدم هذا الأمير إلى إيران

---

(١) انظر تعريفهما ، وكثيراً من المصطلحات المغولية في خاتمة كتابنا « التيارات الأدبية إبان عصر المغول » (ت) .

قبل قدوم هولاكو سنة ٦٥٤ . وكان يحكم الولايات الواقعة غربي جيحون أي ممالك خراسان ومازندران وقسماً من الهنـد والعراق وفارس وكرمان واللور وأرّان وآذربايجان وكرجستان والموصل وحلب منذ سنة ٦٤١[1] . وبعد وصول هولاكو إلى إيران غدا أرغون آقا أحد أمراء هولاكو وقواده . وفي سنة ٦٧٣ توفي أرغون في أحد حقول طوس . والأمير « نوروز » المعروف بسعيه لإدخال حب الإسلام في قلب غازان خان هو ابن الأمير أرغون المذكور.

كان الأمير أرغون طوال مدة حكومته في إيران يعتمد على عطا ملك في الحسابات ، ويرافقه في أسفاره العديدة إلى « قراقورم » عاصمة المغول . وهذا ما جعل المؤلف يُمضي أسفاره قرابة عشر سنوات . ويبدو أن المؤلف رافق الأمير لأول مرة سنة ٦٤٤ ، وذلك في سفرته الثانية ، وكان والد المؤلف يرافقهما في رحلتهما هذه . كما رافقه سنة ٦٤٩ لحضور « القوريلتاي » من أجل جلوس منكو قاآن على العرش . وقد مكث الأمير وعطا ملك في عاصمة الملك مدة سنة وخمسة أشهر .

وحين لاحظ المؤلف كساد سوق الأدب ، طمح إلى عمل جليل هو تأليف كتاب يشمل تاريخ المغول وماضي أيامهم . لأنه أولا أمضى عشر سنوات متجولا في الأقطار الواقعة تحت حكمهم ، وكثيراً ما مر بديار ما وراء النهر وتركستان وبلاد الأويغور ومغولستان ، ووصل حتى حدود الماجين وأقصى الصين . وشاهد كثيراً من وقائعهم المهمة . وبمناسبة خدمته للملوك المغول وصلتـه بأشرافهم تيسر له سماع الأحاديث من الثقات . وبناء على هـذا ، وامتثالا لرغبة أصدقائه جلس يسجل ما رآه وما سمعه في هذا الكتاب . وقد استمر في تأليفه من ٦٥٠ إلى ٦٥٨ .

---

(١) يبالغ المؤلف ، إذ كيف وصل المغول الى حلب قبل مجيء هولاكو ؟ (ت)

كما كان عطا ملك يرافق هولاكو ، ويشاهد أفعاله وأعماله بأم عينيه ، فقد رافقه في جميع فتوحاته لقلاع الإسماعيلية . وعندما حاصر « ميمون دز » أقوى قلاع « ألموت » والمسكن الشخصي لملوك الإسماعيلية ، واضطر السكان إلى التسليم أمره هولاكو أن يدون البيان الذي يتضمن شروط الصلح والتسليم .

وبعد فتح قلعة ألموت واستئصال الإسماعيلية منها خشي عطا ملك على المكتبة ، التي طبّق صيتها أغلب الأقطار ، من أن تتلف وتفقد ، فذكر لهولاكو ضرورة الحفاظ على الكتب النفيسة منها . فوافقه هولاكو وأمره بتفقد مستودعات الكتب التي حفظت فيها الكتب من عهد الحسن الصبّاح حتى وقت فتحها أي مدة مئة وسبعين سنة ، والتنقيب عن الكتب الثمينة ، فما وجده صالحاً لمكتبة الملك فصله . واستجاب عطا ملك لهذا الأمر السعيد ، وجمع منها المصاحف ونفائس الكتب وآلات رصد النجوم . أما ما كان ذا علاقة بمذهب الإسماعيلية فقد أمر عطا ملك بحرقها . ومن جملة الكتب التي احتفظ المصنف بها كتاب يشتمل على مذكرات الحسن الصباح وتاريخه وأحداثه وعنوانه « سَر كُذشت سيدنا »(1) . ودوّن مختصره في الجزء الثالث من كتابه هذا . كما أن رشيد الدين فضل الله نقل منه مختصراً آخر ، ودوّنه في الجزء الثاني من كتابه « جامع التواريخ » . وهذان المختصران في غاية الأهمية والقيمة ، لما تضمناه من معلومات نفيسة يندر وجودها في كتاب آخر .

وحين اتجه هولاكو سنة ٦٥٥ لفتح بغداد كان المصنف كذلك بصحبته . وبعد انتهائه من تذليلها بعام ، أي ٦٥٧ ، عهد إليه بحكومة بغداد . في حين أن رشيد الدين وعدداً من المؤرخين يرون أن هولاكو فوضه بحكومة بغداد سنة

---

(1) ومعناه : شرح حال سيدنا ، الوقائع الماضية لسيدنا (ت) .

٦٦١ ، أي عام مقتل سيف الدين بيتكجي[1] وزير هولاكو ، وعين مكانه أخا المصنف وزير الممالك شمس الدين محمد الجويني • لكننا لا نوافقهم على رأيهم هذا ، لأن عطا ملك أعرف منهم بأوضاعه الخاصة ، وهذا ما ذكره في كتابه « تسلية الإخوان »[2] •

واستمر عطا ملك على منصبه الجديد طوال حكم هولاكو ، إلى أن توفي سنة ٦٦٣ وحل محله ابنه أباقا ، فاستمر أخوه شمس الدين وزيراً ، في حين أن ممالك بغداد وفارس عهد بها إلى سونجاق آقا (سوغونجاق) أحد الأمراء المغول، وكان عطا ملك ينوب عنه في حكومة بغداد • كما عين بهاء الدين محمد ابن شمس الدين محمد الجويني على إصفهان ومعظم ولايات عراق العجم • وطوال سلطنة أباقا (٦٦٣ — ٦٨٠) كان عطا ملك مستقلا في حكم بغداد وسائر عراق العرب ، وكان مهتماً بتعمير البلاد وصالح العباد • فخفف من الضرائب التي كانت تجبى من الفلاحين والدهاقين ، وأجرى القنوات وأنشأ القرى ، وشق نهراً من الفرات إلى الكوفة والنجف ، وكلفه هذا العمل قرابة مئة ألف دينار ذهباً ، وأسس على ضفافه مئة وخمسين قرية ، فعمرت الأراضي القاحلة واخضوضرت • كما بنى رباطاً قرب مشهد أمير المؤمنين في النجف • ولم تمض مدة وجيزة على تدمير بغداد على يد المغول حتى استعادت وجهها المشرق ، وازدادت قوتها ، واطمأن الناس فعادوا إلــى أعمالهم وزراعاتهم • فتضاعفت عائدات بغداد ، حتى قيل : إن أيام عطا ملك في بغداد فاقت أيام العباسيين في الخير والعطاء •

---

(١) هو الأمير سيف الدين بيتكجي بهادر بن عبد الله الخوارزمي وزير هولاكو ومدبر مملكته • ورد اسمه في إيران سنة ٦٥٣ ، ولما مال الى بركة بن توشي قتله هولاكو •

(٢) كتاب تسلية الإخوان تاليف عطا ملك تحتفظ المكتبة الوطنية بباريس بنسخة منه •

واستمر حكمه فيها مدة أربع وعشرين سنة تقريباً ؛ ست منها في عهد هولاكو وسبع عشرة في حكومة أباقا إلى ٦٨٠ ، والسنة الأخيرة كانت في عهد تكودار •

وكم حاول الخصوم والحساد إيغار صدور الأمراء المغول عليه ، غير أن مقامه لديهم حال دون سعاياتهم • ومن هؤلاء الخصوم « قرا بوقا » شحنة بغداد من قبل المغول • فقد كان هذا يشيع أن عطا ملك يبحث عن أدلاء من البادية ليهرب معهم أسرته وأمواله إلى الشام ، ومعلوم أن الشام تابعة لمماليك مصر ؛ ألد أعداء المغول • كما اتهم بمكاتبة أمراء مصر والشام • غير أن أباقا قتل كل من اتهمه بعد أن تحقق من بطلان ادعاءاتهم • كما أن الشريف نقيب النقباء تاج الدين علي المعروف بابن الطقطقي والد مؤلف كتاب « الفخري » كان من أثرياء بغداد ، وكان يؤجر بعض أملاكه للديوان ، كتب رسالة إلى أباقا خان يرجوه عزل عطا ملك عن حكومة بغداد ، فسقط الكتاب بيد شمس الدين الجويني الوزير ، فأعاده إلى أخيه عطا ملك ، وطيه رسالة فيها هذان البيتان :

كم لي أنبّه منك مُقلة نائم ... يُبدي سُباتاً كلما نبّهته ُ !

فكأنك الطفل الصغير بمهده ... يزداد نوماً كلّما حركتُه[1]

فما كان من عطا ملك إلا أن أعد رجالا يقتلونه ، ورجالا يقتلون الذين قتلوه • وبقتله استولى على أملاك الشريف كلها ، مما سبب في توليد العداء بينه وبين مؤلف كتاب الفخري ، وغير ذلك من الخصوم • إلا أنهم كثروا وزادوا في إلحاحهم ولا سيما بماله علاقة بالمال ، وأمضى أياماً عسيرة خضع فيها للمراقبة والتفتيش ورد التهم • وقد ذكر ذلك كله في كتابه « تسلية الإخوان » ، فلا حاجة بنا إلى التفصيل •

---

(١) ويروى انه بعث بالبيتين الى أباقا ، وما جاء في المقدمة اكثر صواباً (ت)

وفاة المؤلف :

بعد جلوس تكودار بن هولاكو على العرش وقع خلاف شديد بينه وبين ابن أخيه أرغون بن أباقا • فقد ادعى الأخير السلطنة • ولما كان عطا ملك وأخوه شمس الدين من خاصة السلطان تكودار فقد حقـد عليهما أرغون وأضمر لهما الغدر • وكان قد أشيع أن الوزير شمس الدين سمّ السلطان أباقا ، فاتجه أرغون إلى بغداد بجيشه ، وطالب عطا ملك بأملاك أبيه • ولما كان « نجم الدين الأصفر » نائب عطا ملك قد توفي في بغداد مؤخراً فقد أمر أرغون بأن ينبش قبره وترمى جثته على قارعة الطريق • فتألم عطا ملك كثيراً لهذا الحديث ، واشتد عليه الحزن والصداع ، مما سبب وفاته في الرابع من ذي الحجة سنة ٦٨١ في بلدة مُغان (أو أران) • ونقل جثمانه إلى تبريز ودفن في مقبرة « جرنداب » •

أخوه وباقي أفراد أسرته :

استمر شمس الدين وزيراً للدولة المغوليـة والرجل الأول فيها قرابـة إحدى وعشرين سنة من ٦٦١ ـــ ٦٨٣ أي من الأيام الأخيرة لهولاكو وتمام المدة التي حكم فيها ولداه : أباقا وتكودار أحمد • كان شمس الدين يتحكم في كل البلاد التي تقع غربي جيحون ، ولم يكن بعد السلطان رجل غيره • وبلغ من الغنى حداً لا يمكن حصره • وقد سجلت كتب التاريخ حكاياته وأخبار كرمه وفنه • كما سجلت بعض أشعاره ومدى محبته للشعراء ، ولا حاجة تدعونا إلى التفصيل عن ذلك • وبعد أن أمضى من العمر أسعده قتل بأمر من أرغون في الرابـع من شعبان سنة ٦٨٣ في بلـدة « أهر » من مقاطعـة آذربايجان ، كما قتل معـه أولاده الأربعة وحفيده علـي ، ودفن الجميع في « جرنداب » بتبريز • ومن جملة ما رثي به قصيدة مطلعها :

يا جرندابُ مـن مقـابر تبريـ ـز سقاكَ الحيا الملِثّ الهامي[1]

إلا ولداً واحداً هو زكريا ، فقد كان في « أبخاز » .

وقد حظي عدد من أبنائهما بشهرة واسعة في عصر والديهم . من هؤلاء : شمس الدين هارون بن شمس الدين الجويني ، بلغ مقاماً عالياً حتى عد من أفاضل العصر وتزوج برابعة بنة أحمد بن المستعصم ، وكانت تعرف بالسيدة النبوية ، وخلفت منه عدداً من الأولاد أسماهم جميعاً بأسماء الخلفاء العباسيين، وكـان من جملة المنكوبين بسعاية فخر الدين المستوفي في عهـد أرغون سنة ٦٨٥ .

الأدب في عصرهما :

يشبـه المؤرخون أسرة الجويني بأسرة آل برمـك في عصر الخلفـاء العباسيين . فجميعهم من أهـل الفضل والأدب وأرباب الجود والكـرم ، المحبين للفن والعلم . كانت مجالسهم ملتقـى الشعراء والعلماء والفضلاء ، وعتباتهم محط الآمال ومعقد الرحال . وجميعهم كذلك ، كآل برمك ، نكبوا نكبة واحدة . يذكر الذهبي في كتابه « تاريخ الإسلام » أن كل من ألف كتاباً في عصر آل الجويني نقدوه ألفاً من الدنانير الذهبية تشجيعاً له . ويروى أن أباقا خان زار بغداد يوماً فاستعد الأخوان لاستقباله أفضل استقبال ، فأقاما الاحتفالات اللائقة ، ومنحا ألف جائزة للأدباء والعلماء والشعراء ، على أن يقدموا ما تجود به قريحتهم التأليفية في هذه المناسبة السعيدة ، بأي لغة كانت ومن أي عنصر كانوا ، وعلى أي دين . وقد سجلت القصائد الشعرية في كتاب جامع لها . ونذكر فيما يلي بعضاً من هؤلاء الأدباء :

---

(١) والقصيدة مذكورة في تاريخ وصاف : ١٤٢ .

ـ العلامة نصير الدين الطوسي (ت ٦٧٣) : ألف رسالتــه المعروفة « أوصاف الأشراف » باللغة الفارسية • وترجمة « ثمرة بطليموس »، وقدمها باسم ابنه الخواجه بهاء الدين محمد حاكم إصفهان وعراق العجم[١] •

ـ الأستاذ الفاضل صفــي الدين عبــد المؤمن بن يوسف الأرقوي : أحد نوابغ العصر بالخط والموسيقا • ويعد في الخط نِداً لابن مقلة وياقوت وغيرهما • أما في الموسيقا فابن تغري بردي يذكر أن بعد اسحاق الموصلي نديم هارون الرشيد لم يبلغ أحــد مبلغ صفي الدين • كان كاتب مكتبــة المستعصم ومغنيه ونديمه • ومرتبه السنوى خمسة آلاف دينار • وبعد أن فتح هولاكو بغداد اتصل به ، وعزف له على عوده • فأمر هولاكو بمضاعفة مرتبه بحيث صار يقبض عشرة آلاف دينار من عائدات بغداد • ثــم غدا من خاصة عطا ملك وندمائه ، وسلمه ديوان الإنشاء • ولكن حين زالت أسرة آل الجويني رق حاله وبدا عليه الفقر حتى بلغ به الأمر أن عجز عن سداد مئتي درهم كانت ديناً عليه • فأمر القاضي بحبسه ، ومات في الحبس سنة ٦٩٣ • كان كثير التبذير والإسراف ، ميــالا إلى اللهو والعبث ، ألف « الرسالــة الشرفية » في الموسيقا ، وهي مخطوطة محفوظة في عدد من المكتبات •

ــ العلامة كمال الدين ميثم بن علي البحراني المتوفى سنة ٦٧٩ ، شرح نهج البلاغة باسم علاء الدين عطا ملك[٢] •

ــ القاضي الفاضل نظام الدين : ألف كتاب « شرف إيوان البيان في

---

(١) توجــد نسخة من هذا الكتاب في دار الكتب الوطنيــة بباريس تحت الرقــم : Arabe 4731, FF. 1 - 61 B.

(٢) طبع الكتاب في طهران •

شَرف بيت صاحب الديوان »[1] . صنعه في مديح هـذه الأسرة ويشمل قصائد وقطعاً جلها في مديح أبرز آل الجويني ، وبعضها في آخرين .

ــ شمس الدين محمد بن نصر الله المعروف بابن الصيقل الجزري ألف « المقامات الزينبية »[2] على نسق مقامات الحريري باسم الأخوين جويني .

ــ ومن جملة شعراء هذه المرحلة ، وشاركوا في مـدح آل الجويني : خواجه همام الدين التبريزي وسعدي الشيرازي .

مؤلفات عطا ملك :

بالاضافة إلى كتابه المترجم له رسالتان في حوزتنا ؛ الأولى « تسليـة الإخوان » وتضـم وصف المصائب والمحن التـي حاقت بالمؤلف سنة ٦٨٠ بسعاية مجد الملك اليزدي . والثانية غير معروفة العنوان ، ألفها بعد تسلية الإخوان مباشرة ، وهي تابعة لها مضموناً حتى جلوس تكودار أحمد علـى العرش وقتل مجـد الملك . والرسالتان مخطوطتان بباريس . ولـه كذلك بضع رسائل وكتب وأوامر جمعها له منتجب الدين بديـع الكاتب الجويني خـال جـد أبي المؤلف . وهـي موجودة في مكتبـة إدارة الألسن الشرقية ببطرسبرج ، وعددها خمس عشرة ورقة .

---

(١) توجد من هذا الكتاب نسخة في دار الكتب الوطنية بباريس رقم : Arabe 2479

(٢) ذكره حاجي خليفة . توجد منه نسخة في المتحف البريطاني في لندن . انظـر فهرست المتحف ص ٣١٩ ، رقم ٦٦٩ . وبروكلمان : ٢/١٥٩ .

كتاب جهانگشاي

لقي كتاب جهانكشاي شهرة واسعة منذ أيام تأليفه ، لما ضم من موضوع مهم ، وهو تاريخ المغول ، والخوارزمشاهية ، والإسماعيلية ، وندرة الكتب ، في هذه الموضوعات المعاصرة للمؤلف . بالإضافة إلى ما اتصف به الكتاب من صفات علمية دقيقة . فالمؤلف من أبرز الشخصيات في عصر المغول ، قضى شطراً من حياته في الأسفار ، وكان شاهد عيان لأغلب الوقائع ، أو مستمعاً استماعاً مباشراً من الثقات . وكان الرجل الوحيد الذي اطلع على مكتبة قلعة ألموت الإسماعيلية واستفاد منها[1] . لهذا كله عُد كتاب جهانكشاي أبرز كتاب في هذا الميدان . ولهذا أيضاً لقي الشهرة الواسعة منذ زمان تأليفه . وكان المعتمد الأكبر للباحثين قديماً وحديثاً . حتى إن عبد الله بن فضل الله الشيرازي اعتمد عليه في تأليف كتابه « تاريخ وصّاف » اعتماداً كلياً . ويعترف المؤلف بالاستفادة التامة منه فيقول متواضعاً :

وما أنا إلا قطرة من سحابة ولو أنني صنّفت ألف كتاب

ومن الذين نهلوا من معينه رشيد الدين فضل الله وزير غازان وأولجايتو، فقد ضم المؤلف تمام معلومات الكتاب في كتابه الكبير « جامع التواريخ » . وابن العبري (من نصارى اليعقوبية ، والمتوفى سنة ٦٨٥) . وابن الطقطقي صاحب كتاب الفخري الذي ألفه سنة ٧٠١ . وابن فضل الله الكاتب الدمشقي

(١) سبقه إلى ذلك نصير الطوسي (ت) .

(ت ٧٤٩) صاحب كتاب المسالك والممالك . وكذلك مؤلفو : تاريخ بناكتي ، وروضة الصفاء ، وحبيب السير ، وعدد آخر ...

يتألف الكتاب من ثلاثة أجزاء ، ضم الأول مقدمة طويلة عن عادات المغول ورسومهم القديمة والقوانين التي وضعها جنكيز خان ، وفتوحاته في ممالك الأويغور . وفصلا عن تاريخ أقوام الأويغور وعاداتهم ومعتقداتهم ورسومهم تعد في غاية الأهمية . ثم يفصل في فتوحات جنكيز خان وغزو جيوشه في ما وراء النهر وإيران ، وما سببوه من قتل ونهب وتخريب ، وإطاحة بالحكومة الخوارزمشاهية . ويستمر في الحديث حتى وفاة جنكيز خان ٦٢٤ وسلطنة أوكتاي قاآن بن جنكيز خان (٦٢٦ ــ ٦٣٩) ، ومرحلة نيابة سلطنة « توراكينا خاتون » أم كيوك خان (٦٣٩ ــ ٦٤٣) ، وسلطنة كيوك خان بن أوكتاي قا آن (٦٤٣ ــ ٦٤٤) ، ويعقب ذلك فصل في غاية الاختصار عن تاريخ توشي (جوجي) وجغتاي ابني جنكيز خان .

ويشمل الجزء الثاني تاريخ الدولة الخوارزمشاهية وأحداثها ، ولاسيما سلاطين المرحلة الأخيرة . وطيّ حديثه هذا يتعرض لتاريخ الملوك الكفرة الأتراك المعروفين بملوك قراختاي والكورخانية مدة خمس وتسعين سنة تقريباً (٥١٢ ــ ٦٠٧) في ما وراء النهر وتركستان الشرقية من جيحون إلى حدود كاشغر وختن وبلاساغون ، وأغلب ملوك الطوائف الأتراك المسلمين لتلك النواحي ، المعروفين بالملوك الأفراسيابية والخانية والإيلك خانية وآل خاقان (على حسب اختلاف تعبير المؤرخين) الذين دام سلطانهم قرنين وبضع سنوات ، والذين جاؤوا بعد الدولة السامانية وقبل مجيء المغول إلى ما وراء النهر وتركستان . وهو فصل في غاية الأهمية . وجاء في أواخر هذا الجزء تاريخ الحكام والشحنة المغول الذين عرفوا من عهد أوكتاي قاآن إلى قدوم

هولاكو إلى إيران ، أي من (٦٢٦ ــ ٦٥٣) أمثال جنتيمور ونوسال وكركوز وأمير أرغون .

ويشرع في الجزء الثالث بشرح وقائع تتويج منكو قا آن بن تولي واحتفاله بجلوسه على العرش سنة ٦٤٩ وبعض أيام حكومته . ثم يفصل في حركة هولاكو نحو إيران سنة ٦٥٣ وقمع الإسماعيلية وقلع قلاعهم بكثير من التفصيل حول تاريخ ملوك إسماعيلية ألموت ، وشرح مذهب هذه الطائفة وتاريخ نشوئها حتى انقراض هذه السلسلة على يد هولاكو ٦٥٥ . كما ضم الجزء الثالث (في بعض النسخ المخطوطة وليس كلها) وصفاً دقيقاً لأحداث فتح بغداد تأليف نصير الدين الطوسي ، إلحاقاً بالكتاب ، وليس أصلا ، مع الاحتفاظ باسم المؤلف الأصلي .

ومما يؤسف له أن المصنف عاش حتى ٦٨١ أي ما يقرب من سبع وعشرين سنة من انقراض الإسماعيلية ، وشاهد بنفسه انقراض الخلافة العباسية ، وأغلب وقائع سلطنة هولاكو وأباقا وتكودار ، في حين نراه يهمل تسجيل ذلك كله عمداً . ولا نرى سبباً معقولا لتجاهله غير انشغاله التام بحكم بغداد[1] .

والواضح أن المؤلف لم يشغل نفسه تماماً في تأليف الكتاب ، ولم تكفه سنة أو عدة سنوات لذلك . ونرجح ذلك بسبب انشغاله بالديوان والأسفار

---

(١) بل نراه يدون في نهاية الجزء الأول كثيراً من الحكايات والطرائف التي تحكي مسألة كرم قا آن . وكان بإمكانه ، وهو مطالب به ، أن يسجل فظائعهم على الأراضي العربية . على أننا أثبتنا رسالة الطوسي في وصف أحداث بغداد ، فغدا العمل التاريخي متكاملا (ت) .

وعدم استقراره في مكان واحد مدة كافية للتأليف • لهذا فإننا نرى أنه كان يؤلف الكتاب فصلا فصلا أو قطعة قطعة من غير انتظام في الزمان • وهو نفسه يعترف بانشغاله كما سترى في تضاعيف الكتاب •

كما نلاحظ أن المؤلف لم يبدأ بالجزء الأول فالثاني فالثالث ، بل كان ينظم الفصول ويضمها إلى أجزائها المناسبة ، يدلنا على هذا ما جاء في مقدمة الجزء الأول ومقدمة الجزء الثالث — والثاني بلا مقدمة — فقد ألفتا في عهد منكو قا آن ، في حين أننا سنعلم أن منكو قا آن توفي في أواخر سنة ٦٥٦ وأوائل سنة ٦٥٧ •• وكثير غيرها من النقاط البارزة •

تمت مقدمة المصحح تحريراً في باريس سلخ ربيع الأول ١٣٣٠ هـ المطابق لـ ٢٠ مارس (آذار) ١٩١٣ مسيحي •

محمد بن عبد الوهاب القزويني

* * *

الجزء الأول

من تاريخ جهانگشاي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المؤلف

الشكر والثنـاء للمعبود واجب الوجود ، المسجود لـه الذي بوجوده نوهب أنوار العقل والوجود ، الخالق الذي إثبات وحدانيته يحققها كل ذرة من ذرات المكونات . الله الذي يشكر بشتى اللغات والأوصاف على بدائعه وروائع صنائعه . الرزاق الذي يستوي على مائدة كرمه الموحد والملحد . الخلاق الذي تعد معلومات إبداعه الفطري من كمال القدرة لديـه . العظيم الذي يهزج البلبل أعذب الألحان والأنغام بما يهبه من خير للبشرية . الكريم الذي تعدل القطرة الواحدة من بحار سخائه أمطار نيسان المدرارة . الغفار الذي نسيم لطفه سبب بقاء كل محب . القهار الذي استلهم سيف التتار المتين جلاد عنفه . الظاهر الذي حارت في عظمة كماله عقول عقلاء البرية . الباطن الذي تعجز عن معرفة جلاله الأفهام والأوهام . الأحد الذي يطلبـه قاصدو أودية الهدى ومقتبسو بادية الهوى . الصمد الذي يعشقه محبـو الحقيقـة وفاسقو الصورة .

« الكفر والإسلام مستعجلان في طريق ، القائلين : وحده لا شريك له »

وتوافد تحيات مخلوقاته على نور حديقة إحسانه ونور حدقة أهل دينه خاتم الأنبياء محمد المصطفى ، تحيات تندّ عطر الإخلاص نحو مشام القدس ، ومن عبيرها تنثر من الملأ الأعلى نحو سكان روضة الرضا صلوات طيبـات على روحه المطهرة المكرمة ، وعلى سائر أمته ومتبعي سنته ، وأصحابه وأهل بيته ثناء عدد نجوم سماء الهداية وقدر رجم الشيطان الغواية ، الذي يتحلى بحلية الصفاء وزينة الحقيقة ، مستمراً استمرار الأيام والليالي .

ففي شهور سنة خمسين وستمئـة واكبني الحظ ، وساعدتني السعادة فتشرفت بتقبيل عتبة بلاط ملك العالم ، حـاكم الأرضين العشرة والأزمنة ، خان الخانات منكو قا آن أدام الله نصره على أعداء الدولة والدين ، ومد ظله الملكي على الناس كافـة ، وأنعش بعدله الخلائق كمـا تنتعش الأشجار والأكلاء ، ويضحك الربيع من بكاء السحب ، فتعشوشب الربى امتثالا لأمر ربها أن « انظروا إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها » ، وقد تشرّف بصري وبصيرتي بطلعته البهية ، وتشنفت مسامعي بنداء :

« أيها العشاق برز العقاب من أرض القلوب ، فاعصروا الروح فقد دنا هدوؤها » .

الذي تختفي تلقـاءه أخبـار العدل الأنوشرواني[1] ، وتنعدم تجاهه آثار العقل الفريدوني[2] ، الذي تتعطر أطراف العالم بنفحات شمائله الشمالية، وتتنور أصناف بني آدم بشمس عواطفه الملكية . وانخذلت الأعـداء برياح سيفه القوي الناري ، ورفـع المطيعون والعبيـد سرير خيمته إلـى الثريا ، وارتوى المخالفون من خوف بأسـه وسطوته بشراب وبيـل ، وانكوت عين الفتنة بدفة سياسته وهيبته .

وعندما مثلتُ بين يدي حضرته الذي يلقب بمجدّر شفاه الملوك ومعفر جباههم أشار علي جمع من خلان الوفا وإخوان الصفا بحضور سعادته أن أؤلف كتاباً أؤرخ فيه أخباره وآثاره تخليداً لمآثره العديدة وتأبيداً لمفاخره السديدة ، الملك صاحب الحظ الفتي والعزيمة الرصينة المباركة ، والخصال الطاهرة ، أنسخ في هذا الكتاب آيات القياصرة وأمحو روايات الأكاسرة ،

---

(١) أنو شيروان : هو خسرو الأول ، حاكم الساسانيين ، يوصف بالملك العادل (ت).
(٢) فريدون : بطل الفرس في العصر الأسطوري الذي ثار على الضحاك الظالم (ت).

الذي لا يعدله أحد في الفصاحة والفطانة والدراية والكفاية ، ولا يقدر على تقديره إلا أصحاب هذه الصنعة وعشاق هذه الحرفة ليتمكنوا من أداء حق صفحة وجه الآداب ، ورونق أولي الألباب :

ألا ليت شعري هل أرى الدهر واحداً قريناً له حسن الثناء قرين ؟

فأشكو ويشكو ما بقلبي وقلبه كلانا على شكوى أخيه أمين

وبسبب تحول الزمان ، وتأثير الفلك الدوار ، وتغير الدنيا الدنية ، واختلاف العالم المتلون ، واندراس مدارس الدرس ، وانطماس معالم العلم ، وانسحاق طبقة الطلبة تحت سنابك الأحداث ، وانطماسهم بفعل الزمان الغدار والدهر المكّار ، وتعرضهم لصنوف صروف الفتن والمحن ، فتفرقوا شذر مذر ، وتمزقوا تحت السيوف القاسية ، وتواروا تحت حجاب التراب :

« عليك أن تنشد الفن الآن من تحت الثرى ، لأن جميع أهل الفن غدوا في باطن التراب » .

وفي الأيام المتقدمة التي انتظم فيها عقد دولة الفضل ومدّعيه :

إذ العيش غض والشباب مساعد وفي حدثان الدهر عنك غفول

انصرف أفاضل العالم وأماثل بني آدم إلى إبقاء الذكر الجميل ، وإلى إحياء الرسم الجليل . فرأى صاحب الفكرة بعين العقل ، وتأمل في خاتمات الأمور فأيقن أن بقاء الاسم الحسن سبب الحياة الخالدة ، وذكرُ الفتى عمره الثاني :

وإذا الفتى لاقى الحِمام رأيته لولا الثناء كأنه لم يولدِ

ولا جرم أن الشعراء الفصحاء والكتّاب البلغاء العرب منهم والفرس ، شغلوا في شرح أحوال ملوك العصر وصناديد الدهر بمؤلفاتهم الشعرية والنثرية على السواء . وقد خلا في هذا الزمان في الآفاق بعامة وبلاد خراسان بخاصة ، التي كانت مطلع السعادات والمبرات وموضع المرادات والخيرات

ومنبع العلماء ومجمع الفضلاء ومربع أهل الفن ومرتع أصحاب العقل ومشرع الكفاة ومكرع الدهاة وأصحاب اللفظ كالدرر النبوية ، « والعلم شجرة أصلها بمكة وثمرها بخراسان » . وهي الآن خاليـة من المتجلببين بجلباب العـلوم والمتحلين بحلية الآداب والفنون . ومن فيها الآن « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات » :

ذهـب الذيـن يعاش في أكنـافهم　　　وبقيتُ في خلفٍ كجلد الأجرب[1]

وقد سجل والدي ، أنا صاحب الديوان بهـاء الدين محمد بن محمـد الجويني ، لا زالت دوحة الفضل بمكانه ناضرة وعيون المكارم إليه ناظرة ، قصيدة في هذا المعنى ، أثبت بيتين من مطلعها :

حنانيك رسم الحق والصدق قد عفا　　　وإن أساس المكرمات علـى شفـا

منينا بأعقاب قـد اتخـذوا عمىً　　　لأعقابهم مشطـاً وللمشط مِنشفـا

يعدون الكذب والتزوير وعظاً وتذكيراً ، والحرام والنميمة صرامة وشهامة :

ويعتـده قـوم كثير تجـارة　　　ويمنعني عن ذاك دينـي ومنصبي

ويعتبرون اللسان الإيغوري وخطه فضلا وفناً ، فغدا كل واحد من أبناء السوق والفسوق أميراً ، وكل أجير آمراً ، وكل مزور وزيراً ، وكـل مدبر أديباً ، وكل مستدفيء مستوفياً ، وكل مسرف مشرفاً ، وكـل شيطان نائباً في الديوان ، وكل ضعيف متصدراً ، وكل أجير رب الحرمة والجاه ، وكل فرّاش صاحب دور ، وكل حافٍ كافياً ، وكل ذي شوكة شخصاً ، وكـل خسيس رئيساً ، وكل غادر قادراً ، وكل مغلل عالماً عظيماً ، وكل جمّال مالك جمال ، وكل حمّال صاحب إقبال :

---

(1) البيت للبيد بن ربيعة العامري (ت) .

وما تستوي أحساب قــوم توورثت   قديماً وأحساب نبتن مع البقل[1]

« سلّم أصحاب القلوب الحرة آذانهم لفركها ، ثم انثنوا حسرة وغماً »

« لقد انقصم ظهر حماة الفن ذلك اليوم ، بينما نبت للجهلاء ريش وذيل »

كم أردنا ذاك الزمان بمدح   فشُغلنا بذم هذا الزمان[2]

كما يرون أن الضراط والصفع من لطيف الطبع « طبع الله على قلوبهم »، والسفاهة من نتاج الخواطر الجريئة .

في مثل هذا الزمان الذي حل فيه القحط محل المروءة والفتوة ، وأقبلت فيه سوق أصحاب الضلالة والجهالة ، وتمكن الأشرار والخوارون . ونكبت أعمال الكريم الفاضل وبرزت إمكانات اللئيم الجاهل . فها هو ذا الحر بلا زاد ، والراد مردوداً ، والقريب بلا نصيب ، والحسيب بلا حساب ، وغدا كل داهية قريناً لكل داهية ، وكل محدث رهيناً لحادثة ، وكل عاقل أسيراً بمصيبة ، وكل كامل مبتلى بنازلة ، وكل عزيز تابعاً لذليل ، وكل مميز في قبضة وضيع :

رأيت الدهر يرفع كـل وغـد   ويخفض كل ذي شيمٍ شريفه

كمثل البحر يغرق كـل درٍ   ولا ينفـك تطفو فيـه جيفه

وكالميزان يخفض كـل وافٍ   ويرفع كل ذي زنـةٍ خفيفه

وقد امتثلت في ارتقاء المدارج العلية أرباب الفطنة وأصحاب الكياسة ، لأستفيد من منهجهم في البذل ، وبحكم أن « الناس أشبه منهم بآبائهم » فقد عزمت في ريعان الشباب على استحكام قواعـد الفضائل والآداب ، واستظهار أقـوال أبناء الزمان والأتراب والأقران ممن هم إخواني في الديوان . وقبل أن أبلغ سن العشرين اشتغلت بحرفـة الكتابة والديوان ، مما اضطرني إلـى إهمال

---

(١) البيت لعمرو بن هذيل العبدي من شعراء الحماسة (٤/٥٣) .

(٢) البيت لأبي العلاء من قصيدة مطلعها :

عللاني فـإن بيض الأماني   فنيت ، والظلام ليس بفان

اكتساب العلوم ، وغفلت عن نصيحة والدي ، مد الله في عمره مداً وجعل بينه وبين النوائب سداً ، التي هي زينة كل عاطل ودستور كل عاقل :

بُني اجتهد لاقتناء العلوم تفُز باجتناء ثمار المُنى
ألم تر في رقعة بيذقاً[1] إذا جد في سيره فرزنا ؟
فأجدادنا الغر قد أسسوا من المجد شُم المباني لنا
فإن لم نشدها بمجهودنا ستنهار والله تلك البُنى

أما :

«الغافلون يقدمون النصح، والسعداء هم الذين يفهمون هذه الموعظة» والآن فإن العقل عقال جنون الشباب ، وترقي السن لجام نزاقة الفتيان :
وتلفتت سبع" إلى عشرين من حِججي ، وكف العقل من غلوائي
والأسف والندامة على الأيام الفائتة غير مجد ، كما أن الحسرة على الأعوام إيقاف للفائدة ، لا :

« واأسفاه على عمر مضى بسرعة ، وهذا العمر كالروح العزيزة مضت من الثلاثين » .

«ماأحسن الآن! وإذا ولى هذا الحسن،فكمئة قدح كأنامل العروس ولت»
ومع هذا ، فلأنني جُلت عدة مرات في ديار ما وراء النهروتركستان ، وبلغت حد ماجين وأقصى الصين التي هي مقر سرير المملكة ومربع أسباط جنكيز خان ، وواسطة عقد ملكهم ، واطلعت بنفسي على أحوالهم ، واستمعت إلى أقوال الثقات والمعتبرين منهم . والتزاماً بإشارة الأصحاب الذين أعد حكمهم جزماً ، والعدول عن الإقدام غير مناسب ، فامتثلت إلى ماهو مقرر لي ومحقق ، وذلك بكتابة مجموعة الحكايات التي عنونتها بـ « تاريخ جهانكشاي الجويني » :

---

(۱) البيذق : حجر في الشطرنج هو من المشاة . وفرزان : حجر أيضاً بمعنى الحكيم (ت) . وقصد الشاعر من فرزن ، الفعل تفرزن ، وما ذكرناه هو الصواب . والضرورة هي التي جرّت الشاعر إلى قوله هذا .

خلت الديار فسدت غير مسوَّدٍ ومن الشقاء تفردي بالسؤددِ [1]

راجياً من أصحاب الفضل والأفضال ، لا أبعد الله عنهم عين الكمال وساحة الجلال ، وعمَّر بوجودهم مباني المكارم ومعاليها ، أن يعفوا عن ركاكة الألفاظ وقصور العبارة ، فقد أمضيت عشر سنوات مغترباً ، بعيداً عن الأوراق التي نسج عليها العنكبوت ، وامحت نقوشها من صحيفة الخاطر ، وغدت « كالخط يرسم في بسيط الماء » وفي الخطوات خطيئات ، ولكل جواد كبوة :

إذا أحسست في لفظي فتوراً وخطي والبراعة والبيانِ
فلا ترتب لفهمي ، إن رقصي على مقدار إيقاع الزمان [2]

وإذا لمسوا في مسلكي تفريطاً أو إفراطاً فليتخذوا الآية « وإذا مروا باللغوِ مروا كراماً » نصب أعينهم ، لأن الغرض من عرض هذه الحكايات وتقريرها وتحريرها حاصل من مقصودين، وهما : فائدة الدين وفائدة الدنيا . فما هو ديني الفائدة فلذي نظر طاهر الأصل ، منصف ومقتصد ، فلا ينظرن إلى هذه المعاني بعين الحقد والحسد ، بحيث يظهر المعائب ويبديها ، وينشيء المثالب ويجليها ، فهذا وليد دناءة الهمة وخساسة الطينة ، ولينظر ، بعين الرضا والوفاء ، إلى كل قبيح على أنه حسن ، وإلى كل مهلهل على أنه حرير :

وعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ ولكن عين السخط تبدي المساويا [3]

على أنني أقبل من المتأمل الحد الوسط بشرط الأمانة والديانة « وخير الأمور أوسطها » :

على أنني راض بأن أحمل الهوى وأخلص منه لا عليَّ ولا ليا

---

(1) من شعراء الحماسة المجهولين (١٥٤/٢) .
(2) البيتان لأبي الفتح البستي أوردهما الثعالبي (٢٢٥/٤) .
(3) من أبيات لعبد الله بن معاوية .. بن أبي طالب في العتاب (الأغاني : ٧٦/١١) .

وليتفكر في هذه المقالات، وليتدبر أمر هذه المقامات التي أعلنت بالأقلام، وليرفع غطاء الشك والريبة وغشاء الظن والشبهة عن بصيرته ، ولا يستر ما في ضميره وخاطره ، وليظهر كل خير أو شر ، ونفع أو ضر مما يكتنفه هذا العالم ، فبتقدير الحكيم المختار منوط ، وبإرادة القادر الكفء مربوط ، وعليه أن يصدر أحكامه بناء على قانون الحكمة ومقتضى الفضيلة والعدل ، وليثبت من الوقائع ؛ فما ذكرناه من تخريب للبلاد وتفريق للعباد ، من نكبة الأخيار واستيلاء الأشرار ، قصدنا به الحكمة ، قال الله تعالى : « عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » . ويقول الحكيم سنائي[1] :

« سواء أردت الأمل أو الخوف ، فحتى الحكيم لا يستطيع أن يصنع لك شيئاً » .

« فما زال من الدنيا وما هو آتٍ ، وما هو موجود ، هكذا يجب أن يكون » .

والبديع الهمذاني أجاد في الرسالة « لا تـرادوا الله في مراده ، ولا تكاثروه في بلاده ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده » . فما أحد استطاع أن يطلع على الأسرار ، وأن يغوص في ذاك الخضم ، ليعرف أي طائفة قادرة على الطيران وأيها على الفهم أو الوهم في ذاك الوادي المعبر « وما يعلم الغيب إلا الله » :

« ليست روحك مطلعة على هذا السر ، ولن ترى طريقك بين هذا الغموض » .

ولكنه يصل عن طريق العقل والنقل ، ولن يبتعد ساعتئذ عن الوهم والفهم ، وينحصر هذا في قسمين : الأول ظهور معجزة النبوة والثاني الكلام ، وتبدو المعجزة أقوى ، فبعد ستمئة سنة ونيّف تيسر لي فهم الحديث :

---

(١) شاعر صوفي إيراني (ت) .

« زويت لـي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها . وسيبلغ ملك أمتـي ما زوي لي منها » وذلك من خروج الجيوش وفيضان أنوار الشموس ، تماماً كالرطوبة من الماء والحرارة من النار ، بل إن كل نور يشيع الضياء في الظلام حسن وبديع :

« الحمد لله أننا لم نمت ورأينا ، مع أننا تناسينا الظلمة الحالكة » .

حتى يسمو لواء الإسلام أكثر ، ويزداد ضياء شمع الدين ، فتظلل شمس الدين المحمدي الديار ، إذ لم يكن عبير الإسلام قد وصل إلى آنافهم ، وصوت التكبير والأذان لم يتذوقوه ، ولم يعرفوا غير عبـدة اللات والعزى . والآن ما أكثر المؤمنين الموحدين في تلك الديار ! وهاقد امتد وجودهم حتى أقصى ديار المشرق ، وحطوا عصا الترحال ، ولا يحصى عددهم ، في ما وراء النهر وخراسان بعضهم قصدها باسم التبشير والروحانيات ، وآخرون تجولوا باسم التجارة والسياحة . وفي كل موضع يحطون فيـه يلمع ذكرهم وتطيب لهـم الإقامة ، فيسكنون إلى أزواج من تلك البـلاد ، فيبنون الدور والقصور ، وعوضاً عن معابد الأصنام يعمّرون المساجد والمدارس ، فيفـد عليها العلماء ويتوارد طلاب العلم إليها ، وهذه إشارة إلى الحديث : « اطلبوا العلم ولو بالصين » وكأنه مناسب لأبناء هذا الزمان ، فإننا نجد المشركين الذليلين يمثلون بين أيدي المسلمين ويسعدون بهذا الجديد ويعتزون به ، في حين أن فئة منهم قدّت قلوبها من الحجر فلم يتسرب إليها شعاع الهدى « فهي كالحجارة أو أشد قسوة » . بل إن خاصية أشعة الشمس تبرز في الحجارة أيضاً ، وتلمع منها جواهرها . فكان أن تشرفوا بالدين ، وذلك من كثرة الموحدين المصريين.

ويزعم عبدة الأوثان أن أوثانهم كانت تخاطبهم « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » ولكن شؤم قدم المسلمين أغضب آلهتهم وأسكتها « ختم الله على أفواههم » لكثرة ما يُسمع « الله أكبر » وإقامة الصلاة ، وهذا ما يجب أن يكون « جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً » . فمن البديهي أن تضمحل ظلمات الجهل حيث تتجلى أنوار الولاء، تماماً كالشمس تزيل الضباب :

« حين أشرقت شمس النهار أرسل الله نوره ، فلاذ شيطان الليل بالفرار نحو الآفاق » .

« يبلغ الإنسان مرحلة يستطيع فيها مع كل نفس ، أن يتصور صديقه من غير عناء » .

ومن بلغ مرحلة الشهادة بلغ أكمل درجة وأفضلها لروحه بعـد منزلة النبوة ، فإن روحهم تدنو من الذات العلية ، فتمحي عنها الأوزار والآصار مما اقترفتها نفوسهم في الحياة الدنيا ، فطهرها سيف الاستشهاد ، والسيف محّاء الذنوب ، « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء" عند ربهم » :

وإن دمـاً أجريتـه بك فاخر" وإن فؤاداً رُعتـه لك حامدُ

وقد لاحظ بعض أولي الأبصار أن هذه الحكايات بعيدة عن كل شائبة وريبة وبهتان ، ولا سيما حين يقدرون قوة المغول وشوكتهم :

«اعلم أن ما أقوله الآن، لن يتكلم به أحد من المفكرين حتى يوم القيامة»

وواضح أن الأمر الرباني : « ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة » يعتبر به المعتبرون ، وكذا الأمر من انصاع إلى قوانين المغول وأوامرهم نجا من معرة سطوتهم . وهم لا يتعرضون للدين مطلقاً ، بل يقوون الاعتقاد به ، وما جاء في الكتاب العزيز برهان على ذلك : « إن الله ليؤيد هذا الدين بقومٍ لا خَلاق لهـم » .

وقد سَلِم الأحبار الأخيار من كل ملة من المصائب التـي توالت على الناس ، وهاهم أئمة الدين المحمدي ، ولا سيما في عهد الملك منكو قا آن ، ينعمون في شرف الاسلام والدولة معاً في ظل حكومة جنكيز خان وأحفاده ، بل إننا نراهم يشغلون أنفسهم بعز الدين والاعلاء من شأنـه ، ويعدون ذلك من واجباتهم : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » وهي الحكمة الربانية في ترك العصيان وإبعاد الطغيان ، وقـد بين صاحب الشريعة هذا الأمـر بقولـه :

« اتركوا الترك ما تركوكم ، فإنهم أصحاب بأس شديد » فهم يحافظون على النفس والمال ، « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » . ففي كل قرن وزمان تمتنع فئة من المتبطرين والمتكبرين والساهين عن الالتزام بأوامر الباري جلت قدرته وعلت كلمته ، فتراهم يتقدمون على المعاصي : « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » ويحرضون عليها . ولا بد في كل زمان من رادع لهذه الفئة الطاغية ، فيرتدع بعض أولى الأبصار . ففي عهد نوح عليه السلام حصل طوفان كبير ، وحل العذاب بأهل ثمود وعاد ، وكذلك كل أمة حاق بها العذاب ثبت ذكرها في الذكر الحكيم . وحين أزف موعد أمة خاتم النبيين عليه أفضل الصلوات الزاكيات طلب النبي ﷺ من العزة الإلهية أن يرفع عنها ألوان العذاب الذي نكبت به الأمم الغابرة ، إلا عذاب السيف فإن سبحانه وتعالى لم يقبل بإزاحته . فالعلامة جار الله[1] في تفسيره « الكشاف » بشأن الآية[2] : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم » من سورة الأنعام ، أورد الحديث نقلا عن رسول الله ﷺ : « سألت الله أن لا يبعث على أمتي عذاباً من فوقهم ومن تحت أرجلهم فأعطاني ذلك ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني . وأخبرني جبريل أن فناء أمتي بالسيف » . وهذا ما يقتضيه العقل والواجب ، فإنه إن توقف التهديد بالسيف الذي هو الوعيد العاجل قنع الناس واختلت الموازين . والعامة التي تهاب السلطان ستقلع برقع الرهبة[3] . وسيبطل عندئذ النفع بالحديد : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » ، وهذا مخالف لقوله تعالى . فبغير هذه الأداة ستغلق أبواب العطاء والإنصاف : « وأنزلنا الكتاب والميزان » ، وستختل مصالح العباد .

---

(١) يعني الزمخشري (ت) .

(٢) الآية ٣٧ ، وأخطأ المؤلف فذكر « القاهر » ، ولم يفطن المحقق إلى ذلك . والصواب ما ذكرناه في المتن (ت) .

(٣) إشارة إلى الحديث المعروف : « ما يَزع السلطان أكثر مما يَزعُ القرآن » .

يتضح من هذا كله أن كل ما هو مقدر منذ أزل الآزلين مكتوب على عباده • وحين جاءت مرحلة الستمئة والنيف من بعثة نبيه إلى الخلائق كافة عم المال وفسحت الآمال فكان ذلك سبب الطغيان والاختزال : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، وجاء في المحكم المجيد : « وما كان ربك مُهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » • فقد وسوس لهم الشيطان بأن يحيدوا عن جادة الصواب وطريق الرشاد :

« حـل الكفر ولكن الدين طرد وسوسة الشيطان ، جـاء العشق جاذب الأرواح فهر بالعقل »

« ألا أيهذا الغافل أنصف حق المآب، لتستعيد من هذا العمر ما ضاع »

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم » :

وجـرم جرّه سفهاء قـوم فحل بغير جارمه العذاب[1]

« لا تشك الزمان بلا فائدة ، فما يحل بنا هو من فعلنا وتقصيرنا »

وكانت إرادة الله تقدست أسماؤه أن جماعة صحوا من نـوم الغفلة ، والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وأفاقوا من سكرة الجهل • ولهذا استيقظ أعقابهم وانغمسوا في إعجاز الدين المحمدي •• وهذا مما أشرت إليه في مطلع المقدمة ، فقد برز شخص وضع نصب عينيه إزاحة التسلط والاقتحام والشطط والانتقام ، وهو في الوقت نفسه ذو صفات حميدة وخلال مقبولة ، آلى على نفسه مداواة الأمراض المذمومة بما ينفعها من مسهلات ، من غير ما انحراف أو تغير • والطبيب أكثر الناس معرفة بطباع الناس وأمزجتهم ، وأقدرهم على استعمال الدواء المناسب للطبيعة البشرية ، إن الله تعالى لخبير بصير •

---

(١) البيت للمتنبي (ديوانه شرح اليازجي : ٣٩٩) •

فصل

أحوال المغول قبل عهد دولتهم وخروج جنكيز خان

وإذا أقبل طالع المرء هيأ الله له مأوى كعش الطيور ، وإذا أدبر أمره فإن عتبة الإدبار مقره . ومهما وجد التفاوت الحسن بين الناس ، فإنهم طبقات ، فئة تسقط في الحضيض وإن كان سعيها حثيثاً ، وفئة ترقى أعلى الدرجات وإن كانت وسائلها ضعيفة .. والأمر كله راجع إلى الحظ :

« الحظ يواكبك فخذه ، وإن لم تذهب إليه جاءتك السعادة بنفسها »[1]

لكن كثرة العدة وفرط الأهبة واجبة ونافعة ، وليس « الجد ما لم يعنه الجد غدار » ، كما لا يمكن أن يمنع المرء إدبار واقعه « وإذا أقبل أقبل ، وإذا أدبر أدبر » . فإن كنت مسلحاً بالحيلة والعزيمة والمال سهلت عليك النعمة . ولهذا انتقلت الدولة والملكية من الأسر الحاكمة في الماضي إلى غيرها . وحين أزف أوان تلك الأسر لم تنفعها الحيلة ولا الوسيلة ولا الحكمة ولا القوة . ويتضح هذا الأمر أكثر مع طائفة المغول . فعلى أي حال كانوا قبل أن يقرع جنكيز خان طبل الحرب ؟ والآن جرت عليهم مياه الإقبال أنهاراً ، وزالت عنهم جيوش المحنة والمعارضين والمعاندين الذين كان وراءهم ملوك جبابرة وسلاطين أكاسرة . فلم ينفع هذا كله تجاه ما واكب هذه الطائفة من حظ سعيد ، فغدا الأسير أميراً والأمير أسيراً ، « وكان ذلك على الله يسيرا » :

على رأس عبدٍ تاج عز يزينه   وفي رجل حرٍ قيد ذل يشينه

---

(١) هذا البيت لأحد كتاب عهد سنجر ورد ذكره مع حكاية طريفة في مطلع جوامع الحكايات .

كان التتار يعيشون في واد غير ذي ذرع ، مسافة هذا الوادي أكثر من سبعة أشهر طولا وعرضاً • يحدهم شرقاً ولاية الختا ، وغرباً ولاية الأويغور ، وشمالا القرقيز وسلنكاي ، وجنوباً قبائل التنكت والتيبت • وحتى قبل خروج جنكيز خان لم يكن لهم حاكم يجمعهم ؛ كانوا مفرّقين قبائل ، لكل قبيلة أو قبيلتين رئيس ، ولم يكن هؤلاء الرؤساء في سلم فيما بينهم ، وعلى العكس كانت الخصومة والبغضاء تفرقهم • كانوا أمة تعيش على السرقة والعنف والفسق والفجور ، ينفذون أوامر خان الختا ، ويؤدون له ما يأمرهم به • لباسهم جلود الكلاب والجرذان ، طعامهم لحومها ، وغيرها من الحيوانات الميتة • وشرابهم ألبان البهائم ، يقطفون الثمار من على الأشجار التي تنمو من غير عناية ولا غرس في بعض الجبال • وليس فيها شيء غير البرد القارس •

وكانت علامة أميرهم أن يكون ركاب جواده حديدياً ، ليس غير • وعلى هذا فهم في ضنك من العيش ووبال وسوء حال • حتى علت راية جنكيز خان ، فتحول الضيق إلى نعمة ، وانتقلوا من السجون إلى البساتين ، ومن الصحارى إلى القصور ، ومن العذاب المقيم إلى جنات النعيم ، وغدت ألبستهم حريراً ، وأطعمتهم فاكهة ولحم طير « مما يشتهون ، وفاكهةٍ مما يتخيَّرون » ، وأشربة مختومة ختامها مسك • وصدقت حياتهم فتحولوا إلى الجنان ، فغدوا يستوردون حاجياتهم من أقصى الغرب ومن منتهى الشرق ، وينثرونها في منازلهم ، ويكنزون أكياس الذهب في خزائنهم ، ويرتدون المرصع والمذهب ، ويسترخصون الجواهر والحرائر • أسواقهم كرمان ، وماؤهم من عُمان • وأصبح لكل امرىء منهم مزارع خاصة به ، يشتغل بها مزارعوه • فكثرت الغلاّت وعمت المشروبات والتي هي أصفى من ماء نهر جيحون •

وهكذا بفضل جنكيز خان ارتقت دولتهم ، ونسوا ضيقهم ، واتسعت سعادتهم • ومن لم يسعفه الحظ منهم قدّم إليه خمسون ألف بالش أو ثلاثون ألفاً • والبالش خمسمئة مثقال ذهب أو فضة • وقيمة البالش من الفضة بحدود

خمسة وسبعين ديناراً . أورث الله تعالى منكو قا آن الملك والعدل ، ومنحه سعادة العمر ، وألهمه الشفقة على سائر خلقه .

ذكر القواعد التي وضعها جنكيز خان والياسا الذي قنّنه

حين منح الله تعالى جنكيز خان العقل والمعرفة وفاق بهما أقرانه ، ووهبه القدرة والتسلط على ملوك الدنيا شرع يبحث عن عادات الأكاسرة والجبابرة، ورسوم الفراعنة والقياصرة . ثم أخذ يقتني في ذات نفسه عن قانون وعُرف يحفظ بهما نظام مملكته ، وينتصر على خصومه ؛ يجمعهما من العادات ويستنبطهما من الخاطر . فإن كان الاسكندر مولعاً بحل الألغاز وكشف الطلسمات فإن ذكاءه يعلمه الحيلة ، يفتح به طلسمات الحصون . فليس من دليل أكثر وضوحاً ما جابه به خصومه الكثيرين ، ذوي القوة التي لا تقهر ، وكل واحد منهم فغفور[1] زمانه وكسرى أوانه ، وانتصر عليهم وحيداً إلا من ثلة ووسائل قليلة ، حتى تيسر له أن قهر الآفاق شرقاً وغرباً . وكل من قابله أو قاتله استقبله بالأحكام التي وضعها والقوانين التي قننها ، آمراً بها أولاده وأشياعه وأجناده . والحديث المنقول من الأخبار الربانية : « أولئك هم فرساني بهم أنتقم ممن عصاني » لا شك أنه إشارة إلى جماعة جنكيز خان وفرسانه . فقد وهبه الله القدرة ، ولقومه ، حين تعددت الأصناف البشرية وعامت في خيلائها وبطرها ، والعظمة إزاري والكبرياء ردائي ، فبسط له القوة عليهم « إن بطش ربك لشديد » .

ولما بطرت أغلب هذه الأقطار بما لها ورفعتها ، واستقبلت البطل بالعصيان ولا سيما الديار الاسلامية ، من حدود تركستان إلى أقصى الشام ،

---

(١) فغفور : لقب ملوك الصين (ت) .

فحيثما وجد ملكاً أو أميراً أو نائباً لبلدة خالفه فإنه يزيله هو وأهله وحاشيته وأمته من الوجود ، ولـم يبق من كل مئة ألف مخلوق إلا مئـة من غـير مبالغة . ومصداقنا ما هو مثبت في مواضعه من الكتاب . وبرأيه إن لكل عمل قانوناً ، ولكل مصلحة دستوراً ، ولكل جرم حداً .

ولما لم يكن لقوم التتار خط يكتبون به فقد أمر أن يتعلم أطفال المغول الخط الأويغوري ، وأن تدون هذه القوانين على طوامير ، ودعيت « كتاب القواعد الكبير »[1] ، وحفظ في خزائن الأمراء . حتى إذا نصب أحدهم أميراً أو قائداً أو شغل بتدبير جزء من الدولة رجع إلى هذه الطوامير واتنهج مسلكها في بناء البلاد أو تدمير مدن الأعداء .

وفي بواكير هذه المرحلة ، والقبائل البدوية ينضم بعضها إلـى بعض ، كانوا على عادات ذميمة ، فأخذوا بإزاحتها من أعرافهم ، فما كان يقبله العقل أمر جنكيز خان بإثباته ، وكثير من هذه الأعراف الحميـدة يطابق الشريعـة ، من ذلك كان يرسل إلى الأطراف ، ويعرض عليها التبعية بطواعية فقـد كان العرف أن يزداد الجبروت بكثرة الرجال والعدة والعتاد ، في حـين أن الأمر انقلب على العكس تماماً فلم يعد للإرهاب وجود ، بل بالنذير . فيرسل إليـه من ينذره لينقاد إلى الصواب ، ومن لم يفعل فالله الذي يلهمنا ما يجب فعله . فمن استقام وتدبر كان الكلام الذي نفعه . قال الله تعالى : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » . وهكذا يخرج ما في الضمير ، وتتحقق الأماني .

ولما لم يكن معتقداً بدين معين فإنه لم يتعصب لملة على ملة ، تاركاً المرء وما يعتقد ، في حين أن علماء كل أمة وزهادها مكرمون معززون ، ويعدون إكرامهم وسيلة للتقرب إلـى الله . وهم ينظرون إلى المسلمين نظـرة توقير ،

---

(١) ياسا نامه بزرك (ت) .

ويعزون الرهبان وعبدة الأوثان . أما أولادهم فكانوا مخيَّرين بالدين الذي ينتمون إليه . فبعضهم تقلد شعائر الإســلام ، وبعضهم سار سير النصارى ، وطائفة عبدت الأوثان ، كما ظلت فئة تعتقد اعتقاد أجدادها القدماء فلم تمل إلى دين معين ، ولكن الفئة الأخيرة كانت قليلة العدد . ولم تكن طائفة تدخل في الدين وتتعصب له ، بل تتقلده وتسير على تعاليمه . كمـا جـاء في « قانون جنكيزخان »أن الناس متساوون جميعاً، لا فرق بينهم. ولا يشمخ أحد بأنفه إن غدا ذا مقام ، ولا يمتنع ولا يحتجب ولا يتلقب بالألقاب الرفيعة ، حسبه أن يضيف إلى اسمه « خان » أو « قا آن » ، من غـير أن يضاف هذا اللقب في الكتابة ، أما أولاده وإخوته فينادون بالأسماء التي وسموا بها حين ولادتهم . ولا يكتبون على أوامرهم الملكية ومنشوراتهم الهمايونية ألقاباً ، فلا فرق بين السلطان والعامة ، ولا يسجلون علـى الأوامر إلا المقصود الأصلي من غير إطناب ..

أما الصيد فواجب ، وصيد الوحوش يناسب أمير الجيوش فهو مالك السلاح والقادر على الكفاح . وعليه أن يدرب الجنود على الصيد ويربيهم على متابعة الفريسة،ويوجههم في هذه الرياضة،كيف يترصدون،وكيف يرسلون الرواد . ولا يتوقف الجيش مطلقاً، فهو إما أن يتدرب على العمل الحربي وإما أن يتوجه إلى الصيد والقنص. وليس الهدف هو الصيد وحسب بل الرياضة ورمي النبال ، وتحمل المشقات . وإذا أراد الملك أن يصطاد فليكن صيـده كبيراً . وأفضل أوقات الصيد ما كان أول الشتاء ، عندئذ يصدر الملك أوامره لكي تستعد الجيوش ، وتحيط بميدان القنص ، وتسير على حسب الإشارة المعطاة لها . والذين ينزلون ساحة الصيد من الجنود عشر العـدد الأصلي . وعلى هؤلاء أن يعدوا للخطة عدتها ، ولا ينسوا الأسلحة والعتاد اللازمين ، ويسيروا بثلاث جهات : يميناً ويساراً وفي الوسط ، وعلـى الملك أن يفوض كبار أمرائه بالصيد معه ، ويسهل رفقـة سيدات القصر ، والسراري ، ويأمر

بالمأكولات والمشروبات • ويعقد حلقات القنص بشكل دوائر ؛ دائرة أولى ، فثانية ، فثالثة ، ليقود الجنود الحيوانات إلى الوسط ، ويضيقوا عليها ، مع المحافظة عليها خشية أن تهرب من أطراف الدوائر • وإذا ، لأمر ما ، هربت بعض الحيوانات من فجوة فليقرّع أمراء الألف والمئة والعشرة بالعصا ، أو يقتل المقصر منهم • وإذا ما أخل صف بنظام ، أو لم يستجب لنداء ، أو تقدم أو قصّر وجب على الملك تأديبهم ، ولا يهمل تعذيبهم • ويستمر الحال على هذا شهرين أو ثلاثة ليلا ونهاراً ، والملك على اطلاع كامل حول أمر الصيد : إلى أين وصل ؟ ومن أين تطلع الوحوش ؟ ويستمر الحال هكذا حتى تلتحم الحلقات الثلاث ، بعد أن كانت تبتعد الواحدة عن أختها مسافة فرسخين أو ثلاثة ، عندها تربط الألجمة ببعضها بعضاً ، فيسمع عندئذ زئير الوحوش وهي تغلي وتجيش ، آنئذ يحين الوعد « وإذا الوحوش حشرت » • فترى الأسود مع حمير الوحش ، وتستأنس الضباع إلى الثعالب ، والأرانب مع الذئاب • وتضيق الحلقة أكثر فأكثر ، حتى يتعذر على أوابد الوحش الجولان ، فيتقدم الخان مع أقرب حاشيته إليه ، فيجول ويصول ، ويرمي ويصطاد حتى يمل ، فيأتي دور الأمراء أبناء الخان ، ويتلوهم الأمراء عامـة ، فالجنود • ويستمر الحال حتى لا يبقى من الحيوان ما يستحق صيده ، أو حتى يفد على الخان الصغير والشيخ الكبير من الحيوانات ، فتتضرع إليه أن يبقي عليها لضعفها ، وتعود إلى موضعها من العشب والماء • ثم تجمع الحيوانات المقتنصة وتعد • فإن استحال إحصاؤها فليقتصر على الوحوش الضارية منها •

يحكى أنه في عهد دولة قا آن[1] ، خرج الخان إلى الصيد شتاء • ووقف القا آن على رأس تـل يرقب ما يجري • كانت الحيوانات من شتـى أنواعها معروضة أمام عينيه وتحت عرشه ، أما أسفل الهضبة فالحيوانات تزأر وتصيح

---

(١) أي أوكتاي قا آن (ت) •

وكأنها تتضرع • عندئذ أمر القا آن أن يطلق سراح الحيوانات جميعاً من غير أن يتعرض لها أحد • كما أمر أن تدق أسوار خشبية وتبنى جدران طينية من حدود بلاد الختا إلى مشتاه ، وتوصد أبواب الأسوار كي تفد الحيوانات إلى هذا المكان من بعيد ، وعلى هذا النسق غدا أمر الصيد • وبهذه الطريقة من الصيد كانت الحروب تجري ، ويحصى القتلى ، ويُبقى على بعضها ، حذو النعل بالنعل ، بحيث لا يبقى إلا الأعجاز والدراويش المنهكون •

ولم يعهد لجيش ما منذ عهد آدم حتى الآن أن احتـل ما احتله جيش جنكيز ، كما لم يذكر في كتاب أن تمكن ملك من السيطرة على جيشه كما هو حاصل في جيش التتار • فهو على الشدة صابر وللرفاهية شاكر ، يطيع أميره في السراء والضراء ، وهذا لعمري أفضـل القواعد في ميدان إعـداد الجيوش • فالآساد ما لم تجع لا تصطاد ولا تتبـع حيواناً • وفي أمثال العجم : لا يأتي الصيد من كلب شبع ، وقالوا : « أجع كلبك يتبعك » •

وأي جيش يشبه جيوش التتار في العالم ؟ فهو آنـاء الحرب والغلبـة والاقتحام سبع ضار يقتحم فريسته ، وفي أيـام السلم والأمن خراف وأنعام ذات صوف ولبن ومنافع كثيرة ، وفي أيام البأس والشدة لا يخالفون أحداً ، ويتحملون صنوف العذاب في سبيل تأمين راحة الرعية ، ولا يتذمرون مـن تأمين الأعلاف والوارد والصادر •

والرجال الخاضعون للحرب ، إذا حانت ساعة الحرب لم يترفعوا ، ولم يأنف الشريف ولا الوضيع، فهم جميعاً يعدوذ أنفسهم ضاربي سيوف، ورامي نبال ، وطاعنين بالرماح ، يستقبلون العدو بأي سلاح وقع تحت أيديهم ، ولا يكلون ولا يتعبون • المصلحة الحربية فوق كل اعتبار ، والانتصار أولا حتى وإن كانت آلة الحرب حبلا ، أو طلب إليه أن يحمل على ظهره ، أو يقود البغال• فان اعترض معترض منهم يوم توزيـع السلاح آخذوه وأدبوه تأديباً عنيفاً • والأمر نفسه في ساحة الوغى ، فإنهم ينفذون ما يؤمرون به •

أما النساء والرجال الذين يبقون في المنازل والخيام فإنهم يعدون الطعام والمؤونة من غير أن يتوانى واحد منهم أكان رجلا أم امرأة • وقد نظم الجيش تنظيماً دقيقاً بحيث يحدد عدده بسهولة يوم استعراضه ، فهم يسجلون في دفتر الجيش كل شيء • فالقواد يوزعونهم عشرة عشرة ، ويعينون عريفاً على كل عشرة ، ومن بين عشرة عرفاء يعينون أمير المئة وهو المسؤول عنهم جميعاً • ومن هؤلاء الأمراء يعينون واحداً على الألف ، ومن أمراء الألف العشرة يحددون قائداً ويدعى « أمير التومان »[1] • وإذا ما احتيج إلى جندي ما أو اضطرهم الأمر إلى عمل شيء محدد حولوه إلى أمير التومان ، الذي بدوره يحوله إلى أمراء الألف ، وهم يحولونه إلى أمراء المئة ، فالعشرة • والجميع متساوون في أداء الواجب ، من غير تفاوت في المرتبة أو الغنى • وإذا اضطرهم الأمر إلى إعداد جيش ما حددوا لساعتهم عدد الآلاف التي يريدون ، على أن يجتمعوا في اليوم الفلاني ليلا أو نهاراً ، فتراهم مستعدين في المكان المحدد والزمان المحدد « لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ، ولا طرفة عين من التأخر •

والطاعة العمياء واجبة• فإن سها أمير مئة ألف، والمسافة بينه وبين الخان مسافة المشرق والمغرب ، كتب إلى الخان فوراً ليأمره بعقاب نفسه • وإذا احتاج القائد الأعلى إلى أمر ملكي أصدره بنفسه ، وإذا أراد ذهباً أخرجه من غير استئذان • وليس كالملوك الآخرين يشترون العبد بالذهب ، فيخزن الخيل في اصطبله ، ولا يسأله أحد عن مصدر الخيل عنده • فإذا ما عينه الملك قائداً على جيشه غني من وراء ذلك • وهو مع ذلك لا يقدر أن يتصرف بحرية • وهؤلاء العبيد هم الذين يخرجون على ساداتهم ويعصونهم • وإذا طلب إليهم إعداد الجيوش اللازمة لحرب أو لصد هجوم استغرق ذلك منهم شهوراً بل

(١) التومان : عشرة آلاف (ت) •

سنين ، وهم يستخرجون من الخزائن الملكية المكتنزة بالذهب لحاجاتهم أو لإقطاعاتهم • وحين يجتمع الجيش يصفونهم من غير اعتبار ولا تقدير • وهذا الأمر يشبه تماماً محاسبة الراعي الذي يرعى الضأن،فإذا سأله المالك عن عدد الخرفان الباقية ، أجابه الراعي : أين ؟ قال : أسألك عما في دفتر الحساب ، إنني لا أجد ذكراً لهذا القطيع ! وهذا تمثيل صحيح ، فالأمير منهم يسعى إلى زيادة عدد الجنود لديه تباهياً ، وحين يُستعرضون يحاول أن يزوِّر الرقم •

ومن قوانين الجيش أن الجندي من الألف أو المئة أو العشرة لا يجوز له أن يغير مكانه أو تبعيته ، كما لا يجوز للأمير أن يقبل هؤلاء • ويقتل المخالف من الجنود أمام الملأ • كما لا يجوز لأحد أن يعطي طريقه لغيره ، حتى وإن كان طالب المخالفة ولي العهد ، فلا دلال في الجيش ولا اعتبار •

وتجمع الأبكار المرافقات للجيش عشرة عشرة ومئة مئة ، ويختار أمير التومان منهن عدداً فيرسلهن إلى الخان ، أو إلى أبناء الملوك ، فينتقي منهن ما يروق له « فإمساك بمعروف » والباقي منهن « تسريح بإحسان » ، حيث يحولن إلى سيدات القصر يستخدمن منهن ما شئن ويهبن ما شئن •

ولما كانت أملاك المغول واسعة عريضة ، والضرورة تقتضي نقل الأموال ، أو إيصال الأخبار بما يخص الجيش أو بما وصل إليهم من أنباء العدو ، فقد وضعوا نظام الكشافة[1] وحددوا لهم متطلباتهم من مركوب ومأكول ومشروب وأسلحة جعلوا لكل تومانين من الجيش كشافة واحداً ،

---

(١) والكلمة المغولية هي يام ومعناها الأصلي هو : الاحتياطي • ورأينا ترجمتها بالكشافة أقرب إلى الهدف الذي قصده المؤلف (ت) •

مهمتهم إعانة الرسل المتجهة في البــلاد شرقاً وغرباً • حتـــى الناس والجيش يساعدون هؤلاء الرسل وعليهم أن يقدموا لهم الدواب اللازمة • وإذا ما قل عدد الكشافة في المحطات المعينة لهم استعاضوا عنهم أو ردفوهم بأشخاص من سكان المنطقة • وبما أن البلاد والعباد ملك الخان فإن الكشافة يمكنهم أن يجمعوا من السكان عشرة عشرة ، ومئة مئة ، وألفــاً ألفــاً ليكونوا جيشاً ، وأوامر الصرف تحول إليهم فوراً • وعلى الكشافة عبء آخر فإن مات صاحب عمل أو أي فرد من الرعية لم يمدوا أيديهم إلى تركته ، فإن لم يكن له وريث سلموا أملاكه إلى عبده أو أجيره • ومهما كان الأمر فإن مالــه لا يجوز أن يدخل خزانة الملك ، لأنهم يعدون مال الميت شؤماً • ولقــد أرسلني هولاكو إلى بغداد ، وكلفني بمراجعة حساب التركات والأوقاف القديمة ، وأمــر أن أمنع دخولها إلى الخزانة الأميرية •

وأمثال هذه القوانين كثير ، ويتطلب إثباتها كلها حيزاً كبيراً ، فاقتصرت على ما ذكرت •

ذكـــر خروج جنكيز خان وابتـــداء تحول الدولة ، ومملكة ملوك الصحراء وأحوالها على سبيل الايجاز

إن قبائل المغول كثيرة ، أما أكثرها أصالة وكبراً والمعروفة حتى الآن ، والمقدمة على جميع القبائل فهي قبيلة قيات●،والتي يعود نسب آباء جنكيزخان وأجداده إليها ورئاستهم لها . كان اسم جنكيز خـــان تمرجين[1] حتى زمان استيلائه على مسالك ربع المعمورة بتقـــدير حـــكم « كن فيكون » . في تلك الأثناء كان أونك خان● رئيس قبائبل الكريت والساقيز[2] ذا قـــوة ومكانة تفوق غيرها من القبائل ، وتمتاز قبيلته بالعـــدة والعتاد والعدد من القبائـــل الأخرى ولم تكن القبائل في تلك المرحلة على وفاق فيما بينها ، ولا يطيـــع بعضها الآخر .

حين بلغ جنكيز خان مرحلة الرجولة كان ذا قوة خارقة ؛ يصارع الأسود ويبارز بالسيوف ، وكان يلذ له أن يقهر خصومه الأشاوس ويميتهم ، ويسعى إلى قهر أصحاب المقام بخشونته وهيبته ، وهذا ما حببه إلى أونك خان وقربه منه . وحين رأى أونك خان فيه هذه الصرامة والروية والشجاعة أبدى إعجابه به وسعى إلى تقريبه لديه ، وبالغ في إكرامه. وكانت منزلته تسمو يوماً فيوماً ،

---

(1) أوتموجين وتمرجي وتمجين .

(2) يرى المسيو بلوشيه أن قبيلة ساقيز هي نفسها قبيلة نايمان لأن ساقيز بالتركية ثمانية ونايمان بالمغولية ثمانية ، ولعل القبيلة مقسمة إلى ثمانية أقسام .

إلى أن حمّله على عاتقه عبء مصالح القبيلة ، واعتمد عليه في تدبير أمر خيله وحشمه ، وكذلك سياسته ، ممـا سبب له كثرة الحساد ولا سيما أبنـاء رئيس القبيلة وإخوته والمقربين منه ، وكانوا يهتبلون الفرص المناسبة للإيقاع به ، وتشويه سمعته . فأشاعوا عنه رغبته في الاستيلاء على رئاسة القبيلة ، والاستعلاء على أونك خـان نفسه واستطاعوا في النهايـة أن يلينوا قلب الرئيس نحوهم ، وأن يوغروا صدره تجاه الدخيل عليهم . فقبل اتهامهم ، وأظهر تخوفه منه . لكنـه تهيّب من مكاشفته جهاراً ، فعمـد إلى الحيلـة للغدر به سراً . لكن الله تعالى أنقذه من براثنه . فقد اتفقوا على أن يأتوه سحر والناس نيام . غير أن نبأ الهجوم عليه وصل إلى مسامعه فاستعد له ، فقد واكبه الحظ أن اثنين من أطفال أونك خان جاءاه خلسة ، واسم الأول كلك● واسم الثاني باده ، وأسرّا إليه خبث فعلهم ورجس مكيدتهم . فنهض جنكيز خان لساعته وأخطر قومه وأهلـه بالأمر وهربوا جميعاً من منزلهم . وحين قدم القتلة إلى منزله لم يجدوا فيه أحداً . فأمعنوا بالبحث عنه● فلم يجدوه مع أنه كان مختبئاً تحت نبع ماء يدعى « بالجونه » بالقرب من المواضع التي بحثوا فيها . واستطاع جنكيز خان في النهاية أن يهرب مع رجاله وقومه. ثم عاد بعد حين إلى أونك خان بجيش هيأه لهذه المهمة فهزمه وغنم منه غنائم كثيرة . كان هذا في شهور سنة تسع وتسعين وخمسمئة . وفي ذلك اليـوم سجل جنكيز خان أسماء كل من صاحبه شريفاً أو وضيعاً ، غلاماً أو فراشاً أو حمالا ، من الترك أو التاجيك أو الهنـود . وأعفى الطفلين من الترخـان . والترخان هو الاعفاء من كل المؤونات ، ومن حقهما أن يحصلا على ما يريدانه من الغنائم ، وأن يدخلا منزله في أي وقت شاءا من غـير إذن ، ومنحهما من الأنعام والأحمال مالا حصر له ، وأن يعفيـا من العقاب إن ارتكبا جريمة ما . تبقى هذه الحقوق لهما ولأحفادهما حتى الحفيد التاسع . وقد بقي من نسلهما اليوم رجال يعدون من أكرم المملكة وأكثرها احتراماً ، وهـم معززون لدى

الأمراء . أما الأقوام الآخرون من تلك القبيلة ، فكل من كان ذا مرتبة رفيعة أو كان خادماً أو راعياً للإبل رقـي أعلى المراتب ، وبلغ ببعضهم أن غـدا من ملوك العصر أو غير ذلك من المناصب السامية .

ولما كان جيش جنكيز خان قوياً ، فقد أرسله خلف أونك خان قبل أن يسترد قوته ، والتقـى الجيشان مرتين كـان النصر في كليهما حليف جيش جنكيز خان حتى قتل أونك خان.وحين نضجت قوة جنكيز خان ، ولمع نجمه ، وواكبته كواكب الحظ أرسل رسله إلـى القبائل الأخرى يأمرها باتباعـه ، ولا سيما قبائـل أويرات● وقنقورات● أمراء وخدماً ، أما من عصى منهم فليضربوه بسياط البلاء وسيوف الفناء . وظل الأمر كذلك حتى خضعت له جميع القبائل . عند ذلك وضع القوانين الجديدة ، وأسس العدل . وحظّر من المنكرات كالسرقة والزنى ، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً .

في هذه الأثناء برز شخص يدعـى تب تنكري سمعت أنـه من المغول المعتبرين في أحـد الأيام القارسة ، يرتدي بضـع أقمصة يتجول في الصحراء والجبل ويقول : لقد كلمني الله ، وأخبرني أن الأرض سيرثها تمر جين وأبناؤه ويدعى جنكيز خان . وسيلهمه الله العدل ، ولن يعدل عنه مطلقاً حتى تبلغ قوته أقصاها ، ويزداد حشمه ، ويلهو بحلاوة الملك .

وحين طهر البلاد من هؤلاء الطغاة ، وغدت جميع القبائل منضوية تحت لوائه أرسل الرسل إلى الختا ، ومن ثم ذهب بنفسه إلى تلك القبائل وحاربها وقتل رئيسها آلتون خان● ، واستخلص قبائل الختـا لنفسه . واستطاع أن يستولي على الممالك والقبائل الأخرى شيئاً فشيئاً ، كما سنذكر ذلك في حينه .

ذكـر أبنـاء جنكيز خـان

كان لدى جنكيز خان أولاد وزوجات وسراري كثيرو العدد . وكانت زوجته الكبرى هي يسونجين بيكي[1] . وفي عرف المغول فإن أبناء الأم من أب واحد ينسبون إلى أمهم . وتزداد قيمة الأم بأولادها . وقـد كان لهـذه السيدة أربعة أولاد ، أعدوا لعظائم الأمور وجلائل الأخطار . وكانوا بمثابة قاعدة الملك والإيوان الخاني ، وحملة أركان الحكم من أطرافه الأربعة . وقد اختار جنكيز خان لكل واحد منهم أمراً مخصوصاً في الحكم . فالأكبر هو توشي . مهمتـه الصيد والطـرد . والأصغر منه جغتاي أمره بتنفيذ قانونـه « الياسا » وسياسته وعقاب المقصر في ذلك . ثم أوكتاي واختاره عقل الملك ومدبره وصاحب الرأي فيـه . وتولي[2] خصـه بترتيب الجيوش وإعداد الجنـود .

ولما انتهى أمر أونك خان ، وانصاعت لـه قبائل المغول قسراً ورضا منح قبائل المغول والنايمان[3] وكامل الجيش أولاده الأربعة . أما الأبناء الأصغرون سناً والإخوة والأقارب فقـد منحهم المراتب المناسبة في الجيش ، وغرس في نفوس الأبناء والإخوة والأقارب جذور المحبة والاتفاق ، ونقش في قلوبهم حب المعاضدة والمساعدة . ووعظهم بالأمثال والحكم ، وهي من قواعده الراسخة .

---

(۱) يقول بوشيه إن كلمة يسوجين معناها الحسناء ، وهو لقبها . أما اسمها الأصلي فهو « بورته فوجين » . وهي أم ابنه اباقا (ت) .

(۲) ويلفظ تولوي (ت) .

(۳) النايمان : قبائل مغولية تركية (ت) .

وفي أحد الأيام جمع أبناءه ، واستل نبلا من كنانته ولواه أمامهم فكسره . وأعاد الكرة بنبلين فكسرهما . واستمر يخرج النبال ويزيد واحداً على العدد السابق حتى بلغ عددها كثيراً فاستحال كسرها حينئذ . فاتجه نحـو أولاده وقال : إن مَثَلَ الواحد منكم مثل النبل الواحد ، فإن استعنتم ببعضكم بعضاً لم يقدر الخصوم عليكم ، وعجزوا عن النيل منكم . وستظفرون حتماً علـى الأعداء مهما بلغت شوكتهم بتعاضدكم .وإذا لم يحظ أحدكم برئاسة فعليكم أن تأخذوا برأيه وترضوا بحكمه ، كالثعبان ذي الرؤوس العديدة قد هاجمه البرد ذات ليلة فأراد أن يزحف إلى جحره ، وكلما أراد رأس أن يسـد باب الجحر نازعته الرؤوس الأخرى حتى كان هلاكه . وثمـة ثعبان برأس واحـد دخل جحره فأمن شر البرد بعد أن أدخل ذيله وسائر أعضائه . ومثل هذا كثير كان يلقيه على أبنائه حتى استقرت هذه النصائح في مستقرها من نفوسهم ، والتزموها فيما بعد في حياتهم .

نحن وإن كنا نجد ظاهر الحكم والمملكة لشخص واحد،هو الذي يدعى الخان ، فإن الحقيقة أن جميع الأبناء والأحفاد والأعمام مشتركون في المـال والملك . ودليل ذلك أن ملك العالم منكو قـا آن وزع مملكته في المحفـل الملكي الثاني على كل أنسبائه من البنين والبنات والإخوان والأخوات .

ولما كانت عرصة المملكة في عهد جنكيز خان واسعة ورحبة فإنه عيَّن لكل فرد موضع إقامتـه . فأوتكين نويان ، الذي هو أخوه ، مع عـدة من أحفاده أرسله إلى حدود الختا . أما ابنـه الأكبر توشي فخصص له البـلاد الواقعة من حدود قياليغ[1] وخوارزم إلـى أقصى سقسين[2] والبلغار .

---

(١) قياليغ : مدينة كانت في تركستان الشرقية على حدود كاشغر وختن .

(٢) سقسين : كانت مدينة ومقاطعة على نهر الفولغا (ت) .

وجغتاي منحه البلاد من حدود بلاد الأويغور إلى سمرقند وبخارى ، وعاصمته « قناس » قرب المالبغ . في حين أن عاصمة أوكتاي ، الذي كان ولي العهد ، « يورت » عاصمة الأب . وفي حياة أبيه كان يقيم بين إيميـل[1] وقوناق . وحـين جلس على العرش نقـل عاصمته إلى المكان الأصلي وهو بين ختاي وأويغور ، وسلم المكان السابق إلى ابنه كيوك ، يشاركه في الحدود تولي . والواقع أن ذلك المكان واسطة مملكتهم كالمركز من الدائرة .

وما ذكرناه موجز جداً ، لأن أبنـاء جنكيز خان وأحفاده يبلغون عشرة آلاف ، لكل واحد منهم مقام ومركز وجيش وعدة خاصة به ، لا يمكن ذكرهم جميعاً . وما أشرنا إليه في بياناتنا يوضح عكس ما كان يروى عن الملوك الآخرين ، إذ نرى الأخ يهجم على أخيه ، والابن يرفض نصيحة أبيه ، مما يسبب في قهرهم وخذلانهم . قال تعالى : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » . في حين أننا نرى تعاضد الخانات فيما بينهم مما سهل توارث الحكم عن جنكيز خان ، والنصر على الأعداء . والقصد من إثبات هذه الروايات وعرض هذا التاريخ أن يتعظ الغِر من الرجال ويستفيد من مطالعة هذه الأمثال .

---

(١) إيميل : نهر في مغولستان من سيبرية .

ذكر استخلاص بلاد الأويغور وانقياد إيدي قوت

يدعى أمير الأتراك الأويغور « إيدي قوت » ومعناها : ملك الدولة . كان إيدي قوت ذلك الزمان بارجوق. في ذلك الربيع الذي كان فيه القراختا[1] يسيطرون على بلاد ما وراء النهر وتركستان انصاعت البلاد له ودفعت المال. فأرسل إيدي قوت إليها شحنة يدعى شاوكم● . وحين استقر الشحنة في البلاد واستوى على الحكم استخف بأمر إيدي قوت ، وسعى إلى الأمراء والرعية عليه .

وحين استولى جنكيز خان على بلاد الختا ، وشاع بين الناس صيت انتصاره أمر إيدي قوت أن يربط شاوكم في منزله ويسجن فيه ، ويعلن عن عصيانه مع القراختا ، وتبعيته لملك العالم جنكيز خان . وأرسل رسله إليه : قتالمش قيا[2] وعمر أغول وتارباي● . فأمر ملك العالم أن يمثل بين يديه ، فاستجاب إيدي قوت لأمره ، وعاد من عنده معززاً مكرماً .

وحين اتجه الجيش نحو كوجلك ووصل إلى إيدي قوت أمر بإعداد ثلاثمئة من الرجال وأن يعود إلى جنكيز خان مدداً له ، ويبقى مستعداً مع أهله وحشمه ، لأنه راغب في عبور بلاد السلطان محمد ومعه أبناؤه متجهين نحو «أترار»● ،وعليه أن يبقى في خدمتهم. وبعد احتلال أترار اتجهوا نحو تربأي ويستور[3] وغداق ووخش ● ، وإيدي قوت في خدمتهم . وحين خفقت

---

(١) أي الختا السود ، وهم فرع من الختا (ت) .

(٢) معناها الصخر (ت) .

(٣) ووردت يسعور (ت) .

الرايات الخانية في مخيمها القديم، وعزم جنكيز خان على تنكوت أمره بالرحيل إلى بلاده .

كان لهذه الخدمات أثر كبير في نفس جنكيز خان فأولاه مزيداً من محبته وعاطفته،فاختار واحدة من بناته خطيبة له.ولم يتم الزواج بسبب وفاة جنكيز خان وجاء إلى بيش باليغ[1]،حيث ظل فيها حتى جلس قاآن على العرش.وقد التزم بإشارة أبيه وتزوج آلتون بيكي . وبعد حين تزوج آلاجين بيكي .

وحين توفي إيدي قوت وخلفه ابنه كسماين تشرف بزيارة الخان فمنحه لقب إيدي قوت . وبعد مدة توفي كسماين فخلفه أخوه سالندي ، بإشراف أخته توراكينا خاتون[2] ، وتلقبت بإيدي قوت ، وكانت حازمة ومحترمة . والله الموفق .

ذكـر بقيـة أحوالهـم :

مع أننا سنذكر ما نقرره الآن بعد جلوس منكو قا آن ، فإن هذه الحادثة ضرورية الذكر في هذا الموضع وإثباتها موافق للمقام . فحين تقـرر جلوس منكو قاآن على عرش ملك العالم فهد خلاف بسعاية بعضهم وغدرهم . كان بلا بيتكجي أويغورياً ووثنياً ومن أركان الدولة « والجنسية علة الضم » . فقد أرسله أولئك الأوغاد إلى إيدي قوت وأغروه بالأماني العذاب . من ذلك أن يقتلوا جميع المسلمين المقيمين في بيش باليغ وما حولها ، ويأسروا أبناءهم ، ويغيروا على ممتلكاتهم . وأعدوا لذلك خمسين ألفاً من الرجال يعدونهم مدداً لحين الحاجة،ويتشاوروا مع عدد من أمراء الأويغور وهم: بيلكافتي وتوكميش بوقا وساقون وأيدكاج . ويكونوا معهم كلمة واحدة . واتفقوا أنه في يـوم الجمعة وفي صحن المسجد الجامع حين ينشغل المسلمون في صلاتهم يبرزون من مكامنهم ويقتلونهم عن بكرة أبيهم :

---

(۱) اي خمس مدن ، مركبة من بيش التركية بمعنى خمسة وباليق بمعنى المدينة . وتدعى اليوم بالصينية سينك يانغ (ت) .

(۲) هي أرملة كيوك كما سيأتي (ت) .

فهـم يطفئون المجد والله موقد" وهم ينقصون الفضل والله واهب"

وحتى تتم الخطة وتصدق النية ، ولكي يبرز إيدي قوت أنـه في خدمة غايمش[1] وخواجه وناقو فقد نصب لنفسه خيمة في الصحراء ، فاجتمع معه أفواج الأويغور . فاسترق تكمش أحد غلمان بيلكافتي السمع وفهم تدبيرهم ومكرهم . ولكنه أخفى ذلك . حتى إذا مضى أسبوع على ذلك اختصم مع أحد المسلمين في السوق ، فقال له : افعل ما تريد ، فقد تقرر أن تنتهي حياتك في غضون ثلاثة أيام . كان لهذا الرجل كبير الصلة بالأمير سيف الدين الذي كان مقرباً من الخان ، وكان سيف الدين في بيش باليغ حين بلغه هذا التهديد . فاستدعى تكمش وسأله عن كنه قصده في أثناء خصومته . فشرح تكمش له القصة كاملة وبيّن له قرار المخالفين ودنا يوم تنصيب ملك العالم ، فتغيرت مساعي المخالفين ، فاضطر إيدي قوت إلى العزوف عن نيته ، وقرر لقاء حضرة الخان . فبعث سيف الـدين رسولا إلى إيدي قوت فقابـل أمامـه تكمش والمخالفين ،ولم يتراجع تكمش عن تصريحه السابق . وحلت ساعة المشاورة والمجادلة فبدت عليهم الدهشة ، وذهلوا ، ولكنهم لم يجدوا إلا الإنكار سبيلا والاستبعاد طريقاً . وبعد المناقشات الطويلة برئت ساحة إيدي قوت . وأخذ عهد على هؤلاء الأويغوريين أنهم إذا سمعوا بمثل هذه الاجراءات وأخفوها عوقبوا عقاب المجرمين ، ومالهم مباح ودمهم مسفوح . حينئذ نهض تكمش وقال : ما دام هذا الأمر لم يصل إلى بيش باليغ حتماً فلنذهب إلى حضرة ملك العالم ليحاكمهم محاكمة كبرى ويكشف أبعاد هذه القضية . فأرسل سيف الدين تكمش فوراً في المقدمة مع رسول خاص لحسم القضية . لكنه أمر أن يتوقفوا بانتظار قدوم إيدي قوت وأتباعه . وطال انتظار سيف الدين من غير أن يصـل إيدي قوت . فاستدعى تكمش حالا وطالبه للمحاكمة ، ولـما أنكر تكمش أقواله ، وكما هو العرف عندهم ، فقد أمر بتعريته من ثيابه تماماً ، وضربه بالعصا التي تقرع بها الطبول حتى يبين بشكل دقيق اتفاق الرجال على

(١) قصد المؤلف : أغول غايمش : زوجة كيوك خان وأم ولديه : خواجه وناقو .

مخالفة ملك العالم منكو قا آن • ومن جملة ما صرح تكمش به أنهم تخلوا بالفعل عن فكرة المخالفة • فنقل تكمش مع منغوبولاد الرسول إلى حضرة إيدي قوت • وحين بلغ إيدي قوت خبر الرسل ، أسرع من طريق مخالف لطريقهم • أما تكمش فإنه حين وصل إلى بيش باليغ أخذ يصاول الأويغوريين، فخافوا منه على حياتهم ، وحاولوا رشوته وتقديم الخدمات التي يريد،ثم تبع إيدي قوت (في معسكر منكو قا آن) • وحين درس منكسار نوين[1] الموضوع وضع حداً له فوراً ، وأمر بمعاقبة إيدي قوت ؛ بأن تربط يداه ويشد عليهما الوثاق ويربط إلى خشب ، ويضرب سبع عشرة ضربة بعصا غليظة على خاصرته ، وموضع إزاره •

وحين أنكر إيدي قوت وأصر على إنكاره واجهه تكمش ببوقا • وقال له : لن تنفعك إلا الصراحة • واستمر إيدي على إنكاره وضلالته • فاحضروا الرسول ، فشرح لهم الحديث الذي جرى من أوله إلى آخره • فتعجب إيدي قوت غاية التعجب وقال له : أأنت بلاء ؟ فأجابه : أجل • عند ذلك اعترف إيدي قوت ، ففكت قيوده وأبعد • أما بيلكافتي فإنه كابر وأنكر في البدء ثم عاد فاعترف • وسئل الباقون واحداً تلو الآخر وبعد أن تجرعوا كؤوس التعذيب التترية اعترفوا •

ثم جمع هؤلاء المذنبون ثانية،واستعادوهم اعترافاتهم من غير قيدفيأيديهم يغلهم ، فأعاد الجميع على المسامع العهد الذي اتفقوا عليه « قالوا : ليس هذا بالحق • قالوا : بلى وربنا • قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » • وهكذا أقر الجميع فعلتهم •

فأمر ملك العالم ، ورأيه سديد ، أن يعاد إيدي قوت إلى بيش باليغ ومعه الرسل وبيلكافتي وإيدكاج • وأمر أن تقطع أعناقهم يوم الجمعة ؛ في اليوم الذي كان قصدهم فيه قتل المؤمنين ، ودعي الناس جميعاً إلى ظاهر المدينة ،

---

(١) منكسار نوين : قائد الجيش وأمير الأمراء في عهد منكو قا آن •

المسلمون والوثنيون . وتقدم أوكنج ● أخو إيدي قوت وقطع بيـده رأس أخيـه . ورميت جثـة أصحابه في الصحراء . وهكذا زالت آثـار المكائد والأرجاس من عقائد أولئك الكفار الفجار « فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين» فرفع المؤمنون رؤوسهم وركع الوثنيون شكراً لله تعالى:

الحـق أبلـج والسيوف عـوار فحذار من أسد العرين حذارِ [1]

كان بلا بيتكجي من زمرة أمراء غايمش[2] سجيناً قبل أن ينكشف سر أولئك المخالفين ؛ وكان يائساً من حياته . فقد أحضروه هو وآخرون ورموهم في الصحراء عراة ، حتى يدرس وضعه . وسبب أسره وعدم قتله أنه كان مقرباً من سرقوتي بيكي أم منكو قا آن ، والذين كانوا يسيّرون دفة الحكم وافقوا على وهبهم حياته ، فنجا من السيف :

ألا ربما ضاق الفضاء بأهلـه ويُمكنُ من بين الأسنة مخرج

ومع أنه لم يُرق دمـه فإنهم صادروا نساءه وأولاده ومواشيه وكـل ممتلكاته . وعلى حسب عرف المغول فإن من يحكم عليه بالاعدام ثم توهب له الحياة يرسل إلى الحرب ، ويكون من جملة الفدائيين ، أو يرسل مع الرسل من غير أن يعتمد عليه ، أو يحول إلى المواضع الحـارة العفنة . لهـذا فإن بلا بيتكجي أرسل برسالة إلى مصر والشام لما تتمتع به هاتان الدولتان من الحرارة الشديدة .

أما ساقون ، فلأنه لم ينغمس مع الفئة الضالة كثيراً ، وكان كثير التعلق بحضرة باتو ، فقد حكم عليه بمئة جلدة وعشر جلدات على الخاصرة . في حين أن تكمش الذي كشف نواياهم كسب عطف الخان ، وقد شرّفه الله بالإسلام فيما بعـد .

---

(١) مطلع قصيدة لأبي تمام في مدح المعتصم (الديوان : ١٥١) .
(٢) يقصد : أغول غايمش زوجة كيوك خان .

وحين هدأت فتنة المخالفين وهدأت الأوضاع حلّ أوكنج محلّ أخيه بأمر من الخان ولُقب إيدي قوت • وقد جرى ذلك كله في شهور سنة خمسين وستمئة •

ذكر نسب إيدي قوت

وبلاد الأويغور ، على زعمهم :

لما كانوا قد سجلوا أخبارهم في كتبهم ، فإن ما نسجله عنهم هو من باب الإعجاب وليس من باب التصديق ، ففي مزاعم الأويغوريين أن بدء وجودهم وتناسلهم كان على ضفاف نهر أرقون[1] ، الذي ينبع من جبل يسمونه قراقورم، والمدينة التي أمر ببنائها القاآن هي باسم ذلك الجبل ، ويسيل من هذا الجبل ثلاثون نهراً ، وعلى ضفاف كل نهر من هذه الأنهار قوم آخرون،حتى الأويغور على ضفاف أرقون فصيلتان • وبما أن مجموعتهم فاقت الآخرين عدداً فقد اتفقت الأقوام على تنصيب رئيس منهم ، واستمر الحال على هذا المنوال مدة خمسمئة سنة حتى برز رئيس منهم يدعى بوقوخان• • ويروى أنه هو أفراسياب[2] وبقايا البئر والصخرة الكبيرة أيضاً موجودة على طرف قراقورم في الجبل حيث كان بيزن[3] • ويوجد على حافة النهر بقايا مدينة وقصر ، وتسمى هذه المدينة« أردو باليغ »•• أما اليوم فيطلق عليها اسم « ماوو باليغ »• •

---

(١) يقصد نهر أورخون (ت) •

(٢) أفراسياب : أحد أبطال شاهنامة الفرس للفردوسي وملك بلاد تركستان (ت)•

(٣) تروي الأسطورة أنه سجن في البئر وكانت محبوبته تخاطبه من فوق واسمها « منيزة » (ت) •

وعلى أطراف بقايا القصر صخور منقوش عليها شاهدناها بأنفسنافيعهدحكومة القاآن • وحين رفعوا الصخور وجدوا بئراً ، وداخل البئر لوح حجري منقوش عليه مايلي●: ما لم تبحثوا عن شخص يقرأ هذه النقوش فإنه يستحيل عليكم ذلك • فاستدعوا قوماً من الختا يقال لهم ...[1] فكان خطهم يشبه هذا الخط • وجاء في النقوش أن في ذلك العهد نهرين من أنهار قراقورم يقال للأول «تـوغلا» وللثاني « سَلنكا » وفي المكان الذي يدعى « قملانجو »● يتصل النهران • وقد نمت شجرتان بين هذين النهرين (في هذه البقعة) متقاربتين،تسمى الأولى « قسوق » وتشبه شجرة الصنوبر تورق شتاء بشكل ورق السرو أما ثمرها وطعمها فبشكل البندق وطعمه • والشجرة الثانية تدعى « تور[2] • وقد برز بين هاتين الشجرتين جبل كبير ، وهبط عليه من السماء شعاع عظيم● • وكان الجبل يكبر يوماً فيوماً •

حين رأى قوم الأويغور هذا الأمر ذُهلوا عجباً ، فتقرّبوا من الجبل أدباً وتواضعاً ، وراحوا يغنون ويرقصون أمامه •

كان ذلك الشعاع يزداد ليلةً فليلة بمعدّل ثلاثين خطوة ، حتى أخذ هذا النور شكل نساء حاملات ، وهن في حال الوضع • وفجأة شُقت فجوة كبيرة، رُئيَ فيها خمسة بيوت كالخيام المتفرقة ، وفي كل بيت صبي ، في فمه قصبة معلقة تمنحه الحليب الكافي لطعامه،وقد عُلق فوق كل بيت حيوان من الفضة• حين شاهد أمراء القبائل هذا المنظر العجيب ركعوا مذهولين مأخوذين •

وحين هبَّت الريح فوقهم خُلقت فيهم الحياة ، فتحرك الأطفال وخرجوا من بيوتهم • فأخذهم الناس ، فسلموهم إلى المراضع ، وأولوهم العناية الفائقة•

---

(١) بياض في المخطوط •

(٢) لعله يقصد توز (ت) •

وحين بلغوا حدّ الفطام وتحرّك لسانهم بالكلام سألوهم عن أمهم وأبيهم . فأشاروا جميعاً إلى تينك الشجرتين ، ما لبثوا أن اتجهوا نحو الشجرتين (والدَيهم) يخدمونهما ويراعونهما كما يخدم الأبناء البررة والديهم . وتكلمت الشجرتان وقالتا : هؤلاء الأبناء خليقون بمكارم الأخلاق ، فحافظوا عليهم يطلْ عمركم ويَخلد ذكرُكم .

فاتفق المشاهدون جميعاً على تنصيب هؤلاء الغلمان على عرش الملك. وحين آبوا من ذلك المكان أطلقوا على كل واحد اسماً ، فأسمَوا الأول سنقر تكين[1] ، والثاني قوتر تكين ، والثالث توكال تكين ، والرابع أور تكين، والخامس بوقو تكين ، وتساءلوا : مَن مِن هؤلاء سيكون الملك ؟ فجميعهم هبة من الله! لكنهم لاحظوا أن بوقو يفوق إخوته بجماله وصواب رأيه ورويته، وهو يفهم كل اللغات والخطوط . وهكذا اتفق الجميع على تمليكه ، فأقاموا احتفالاً كبيراً ، وأجلسوه على سرير العرش . فبسط العدل وطوى الظلم . وكثر خدمه وعمّ حشمه وازدادت خيوله .

أرسل الله تعالى ثلاثة غربان تتكلم بلغات عدة ، تراقب الملك حيث اتجه، وتتجسّس على كل أمر يأمر به . وفي إحدى الليالي، وبينما كان نائماً ، نزلت عليه فتاة من ثقب الخيمة ،فأيقظته . وحين فتح عينيه ورآها ارتعش واستغرق في نومه ثانية ، وكذلك جرى له في الليلة الثانية . وفي الليلة الثالثة ، وبعد أن شرح أمره لوزيره ، جاءته الفتاة فأخذته إلى جبل يدعى « آقتاغ »[2] ، واستمرت الفتاة تحدثه حتى طلع الصباح . واستمر الحال على هذا المنوال مدة سبع سنوات وستة أشهر واثنين وعشرين يوماً ؛ تأتيه كل ليلة وتسامره في ذلك

---

(١) تكين في التركية : الأمير (ت) .

(٢) آقتاغ : الجبل الأبيض بالتركية (ت) .

الموضع من الجبل ، حتى كانت الليلة الأخيرة فقالت له : سيكون لك حكم الشرق والغرب ، فاستعِدَّ لهذا الأمر الجلل ، وأعدَّ له عدته ، واحفظ شعبك .

جمع الملك الجيوش ، فاختار ثلاثمئة رجل منهم وأرسلهم إلى بلاد المغول وقرميز بقيادة سنقور تكين . ومئة ألف رجل بقيادة قوتر تكين الى حدود تنكوت ، ومثل هذا العدد مع توكاك نوين الى التيبت ، وقاد بنفسه ثلاثمئة قصد بها بلاد الختا ، بعد أن عين أخاه نائباً عنه في حكم البلاد ، وفتح الله عليهم في كل مكان وصلوه ، ومن كل مكان كانوا ينقلون الناس إلى « أرقون » ، ويبنون مدينة يسمونها « أردو باليغ » ، وتمّ له حكم المشرق تماماً .

بعد ذلك رأى بوقو خان فيما يرى النائم عجوزاً يرتدي ثياباً بيضاء ويحمل عصا بيضاء ، فقدَّم له حجراً من العقيق صنوبري الشكل وقال له : إن حافظت على هذا الحجر خفقت رايتك على جهات العالم الأربع ، ووافقه الوزير على صحة ما جاء في المنام ، وباشر منذ الصباح بإعداد الجيوش ، ووجهها بقيادته نحو الأقاليم الغربية . وحين بلغ حدود تركستان لمح حقلاً متنزَّهاً يغزر فيه الكلأ والماء ، فطابت نفسه للمكان ورغب في الإقامة فبنى مدينة أسماها « بلا ساقون » ، وتدعى اليوم « قزباليغ »(*) . وأرسل منها الجيوش إلى الأطراف . وبمدة اثنتي عشرة سنة فتح المناطق المحيطة كافة . ولم يترك عاصياً أو متمرداً ، وكان الجنود يغزّون السيرَ والفتح ما داموا يجدون أناساً، حتى إذا تيقنوا من عدم وجود بشرٍ بعد ذلك عادوا ومعهم ملوك الأطراف التي جابوها وقدّموهم هدية . وقد أكرمهم بوقو خان وأحسن وفادتهم ، وأعادهم إلى بلادهم . إلا ملكَ الهند فلم تطب له نفسه لسماجته وقبح منظره . وعاد بعد ذلك الى مقامه الأصلي .

أما سبب عبادة الأويغور للأوثان في ذلك الزمان ، فقد كانوا على علم

بالسحر ، والذين يقومون بالسحر يسمّون « قامان »[1] ، وفي هذا العهد بالذات كان من بين المغول قوم غلبت عليهم الشعوذة وآمنوا بالأباطيل ، وكانوا يدّعون أن الشياطين مسخرة لهم ، فيتنبؤون للناس ، ويقولون : سمعنا أن الشياطين ستنزل عليهم من منافذ الخيام،وتحدثهم، وقد تألف الأرواح الشريرة بعضَهم وتختلط بهم ، وتبرز قوة هذه الفئة الشيطانية في لحظة إطفاء الشهوة الجنسية ، وتخرج من مخرج البراز . هذه الفئة التي تعتقد بهذا الاعتقاد تدعى « قامان » .

ولما لم يكن للمغول علم أو معرفة فقد كانوا منذ القديم يُولون كلام القامان أهمية بالغة . وما زال الأمراء حتى الآن يؤمنون بهذه الادّعاءات . فلا يشرعون بعمل أو مصلحة ما لم يوافق عليها المنجمون . وحتى إنهم لا يوقعون على شيء ، ولا يعالجون مريضاً ما لم ينالوا الإذن من هذه الفئة .

وكانت الوثنية متفشية بين الختا كذلك . فقد أرسل ملك الختا أحد رجال دينه إلى الخان بوقو ، وطالبه برجال دينه القامان ليتناظروا . وحين اجتمع رجال الدين وقفت كل فئة في مقابل الأخرى ، فطُلب إليهم أن يتناقشوا فالفئة المغلوبة عليها أن تدين بالفئة الغالبة،فقرأ رجال دين الختا من كتابهم«نوم»[2]، ويشتمل « نوم » على أباطيل وخزعبلات وحكايات ومواعظ تناسب الشرائع جميعاً ، وتشبه أحاديث الأنبياء ، من ذلك : الامتناع عن الأذى والظلم ، وردُّ السيئات بالإحسان ، والامتناع عن إيذاء الحيوانات وغير ذلك .. وهما مختلفا العقائد والمذاهب ، لكن الغالب على دينيهما التشابه في مسألة الحلول،

---

(١) يعني « شامان » وهو وهم من المحقق ، وهو رجل الدين عندهم ، انظر كتابنا الغزو المغولي حتى عين جالوت (ت) .

(٢) كلمةإغريقية الأصل جاءتهم عنطريق اللغة السغدية، وهي بمعنى الكتاب(ت).

فهم يقولون : إن الخليقة بدأت قبل عدة آلاف من السنين ، وكل واحد كان مشغولاً بعمل الخير والعبادة فازت روحه بنسبة أفعالها بدرجة ؛ تعادل هذه الدرجة النسبة بين الملك والرعية أو بين الأمير والدرويش • أما الذين لا يتورعون عن القتل وأذى الناس والفسق والفجور فإن أرواحهم تحل في اجسام الحشرات والسباع والبهائم ، لهذا فهم معذبون ، لكن غلب عليهم الجهل « يقولون ما لا يفعلون » • وحين قرأ رجال الدين من كتاب « نوم » تيبَّس القامان في أماكنهم ، ولهذا كانوا عبدة أوثان • وسار على الوثنية كثيرون منهم • ولن تجد بين الأقوام أشد عداوة للإسلام من هؤلاء الكفرة •وأمضى بوقوخان شطراً من حياته حتى وافاه الأجل •

وما ذكرناه من أباطيل قليل من كثير ، وواحد من مئة ، والغرض من هذا العرض تقرير جهل هذه الطائفة وتبيان حماقتها • حكى لي صديق أنه طالع في كتاب أن شخصاً حفر في الموضع الذي وجدت فيه الشجرتان ، وأجلس أولاده في تلك الحفرة ، فلمعت المصابيح في ذلك المكان ، وعجب الناظرون من ذلك كثيراً ، وقام ذلك الرجل على خدمة المكان وأمر الناس أن يشاركوه في الخدمة حتى فسقوا وخدعوا ، فجاء وقت شُق المكان وخرج الولدان • وبعد ذلك غدا أحدهم نائب الخان •

والناس الذين هم من الأويغور أخذوا يسمعون صهيل الخيل ، ورُغاء الجمال ، وزئير السباع ، وعواء الكلاب ، وخُوار البقر ، وثُغاء الأغنام وصفير الطيور ، وبكاء الأطفال أشبه بأصوات البوم ، فرحلوا عن منازلهم ، وحيثما نزلوا كانوا يسمعون نعيب البوم من بلادهم ، حتى وصلوا إلى الرباع التي بنوا عليها « بيش باليغ » فخفت الصوت ، فاستقروا في ذلك المكان ، وبنوا خمس مدن أسمَوا كل واحدة باسم « بيش باليغ » ، وشيئاً فشيئاً اتسعت

أرباضهم وطالت أراضيهم وعرضت • ومنذ ذلك الوقت غدا أولادهم أمراء ، ويدْعون الأمير بلغتهم « إيدي قوت » • ومعناها الشجرة ، تلـك الشجرة الملعونة التي تثبت على جدرانهم •

ذكر أحوال كوجلك وتوق تُغان● :

عندما انتصر جنكيز خان على أونك خان هرب ابنه كوجُلُك خان[1]● مع عددكبير من أهله ، وتعدّى بيش باليغ ، إلى أن وصل إلى ولاية «كوجا»، واستقر على جبل غير ذي زرع ، وتفرّق القوم الذين كانوا معه • يُروى أنهم أسِروا من قبل جنود كورخان[2] ، وساقوهم إلى ملكهم ، ويروى أن كوجْلك خان التحق بخدمة كور خان • ولكن حين ثار السلطان[3] ضـده كور خان ، ونجم التمرد في بعض الأطراف الشرقية ، تطلّب حماية جنكيز خان تخلصاً من شره . قال كوجلك لكور خان يوهمه بصداقته : إن أقوامي كثيرة العدد ، وهي متفرقة إلى حدود إيميل وقياليغ وبيش باليغ، فإن رأيت ذهبت إليهم أجمعهم ليكونوا لك مدداً ومظاهرة •

واستطاع كوجلك أن يغرّه ويغريه، عندئذ منحه كور خان لقب الخانية، وعدة هدايا ونبلاً وقوساً ، وحين انتشر في البلاد خبر خروج كوجلك بين

---

(1) يذكر جامع التواريخ ١/١٣٦ أن كوجلك هـو ابن تايانك خان ملك قوم النايمان ، وما ذكر فوق وهم من عطا ملك ، وكلمة « كوشولوك » لقب يطلق على الأمير وهي بمعنى الملك العظيم والقوي •

(2) كورخان : لقب حاكم منطقة « القراختا » (ت) •

(3) يعني السلطان محمد خوارزمشاه (ت) •

جنود القراختا ، تبعه كل من كان يميل إليه ، ووصل إلى حدود إيميل وقياليغ .

توق تغان الذي كان أمير المركيت ، وحارب جنكيز خان مراراً ، أحب أن يتفق مع كوجلك، ويحاربا معاً، فيقوى الواحد بالآخر . وأخذ الاثنان بالإغارة حتى ازداد عدد جنودهم واشتدت قوتهم . فاتجهوا نحو كورخان ، يضربون البلاد ويستولون عليها . وحين وصلت الرسل إلى كور خان تعلن له نبأ الهجوم ، كان جيش توق خان من الطرف الغربي ، وجيش كوجلك من الطرف الشرقي ، في حين وقع كورخان في الوسط .

واتفق الاثنان على أن توق تغان إذا انتصر أولاً● امتدت بلاده حتى الماليغ وكاشغر . وإذا كان الأمر لكوجلك وانتصر على القراختا وصل حكم كوجلك إلى مياه فناكت ● . وعلى أي حال فهما متفقان تماماً على النتيجة التي خططا لها . وتقدم الجيشان ، وجنود القراختا يهربون أمامهم ، وتمكن كوجلك من السبق والانتصار على كور خان وجنوده ، واستولى على خزائنه التي كانت في « أوزكند »● . وتابع سيره إلى بلا ساقون حيث كان كورخان محتمياً فيها . والتحم الجيشان هناك على شاطئ « جينوج ؟ » ●، وانتهت المعركة بهزيمة كوجلك . فتراجع ليعيد تنظيم جيشه الذي فقد جزءاً منه في الأسر . وفيما كان كذلك وصل إليه نبأ خسارة كور خان أمام توق تغان ، وبقاء البلاد من غير أمير . فهرع لتوه إلى قصر كور خان واستولى عليه[1]، مما اضطر الجيش إلى قبول الأمر الواقع . ثم أجبر فتاة منهم[2] وكانت مسيحية ، وكذلك أغلب قبائل النايمان ، على قبول عبادة الأوثان والزواج بها :

---

(١) وكان كورخان غائباً كما سيبين بعد أن أسطر (ت) .

(٢) يعني من قبيلة النايمان والتي منها كوجلك .

بصورةِ الوثنِ استعبدْتِني ، وبها فتَنْتِنِي ، وقديماً هجتِ لي فِتَنا
لا غرو أنْ أحرقت نار الهوى كبدي فالنار حقٌ على مَن على يعبد الوثنا

وحين أحكم أمره في ممالك قراختا ، أقدم على محاربة أوزار[1] ملك المالبغ عدة مرات ، واستطاع في النهاية أن يقبض عليه ويقتله .

في هذه الأثناء ثار سادة كاشغر أيضاً ، فأسر كور خان[2] ابن ملك كاشغر وحبسه بعد أن قيده ، ثم عاد فأطلقه وأرسله ثانية إلى كاشغر . لكن الأمراء العصاة خدعوه ، وقتلوه على بوابة المدينة قبل أن يدخلها .

وحين أزف موعد الحصاد أرسل جيشه ليجمعوا ما لدى الناس ويحرقوا الباقي . وهكذا مضت ثلاث سنوات أو أربع على هذه الحال ، فانقطع ريع الغلات وغلت الأسعار ، وفشا القحط . مما اضطر السكان إلى الانصياع لحكمه . فذهب إليهم بجيشه . وأنزل في كل منزل جندياً من قِبله ، فغدا كأن البلد كله تابع إليه ، فعمّ الجور والظلم في الناس ، فكل من أراد أن يتمذهب بمذهب الكفر والوثنية سُهل له الأمر ، وذهب من هناك إلى ختن . أما من بقي من الأهالي فألزموا بترك الدين المحمدي . وعليهم أن يختاروا بين أمرين ؛ فإما أن يدينوا بالنصرانية أو الوثنية ، وإما أن يتزيّوا بزي الختائيين وحسب .. ولما رفضوا تغيير دينهم وافقوا على التحلي بألبسة سكان الختا . قال الله تعالى : « فمن اضطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فإن ربّك غفورٌ رحيم » . وانقطع الأذان والإيمان وإعلان التوحيد . كما أغلقت المدارس وامّحى ذكرها .

وفي أحد الأيام خرج كبار أئمة ختن إلى ظاهر المدينة يتناقشون في أمور متفرقة ، فانقاد حديثهم عن الأديان . فتبادلوا الرأي مع الإمام علاء الدين محمد الختني

---

(١) يذكر رشيد الدين أنه بوزار (ت) .
(٢) لعله يريد كوجلك ، وذكره سهواً (ت) .

في مسألة المدرسة ، كما سيأتي ذكره في نهاية هذا البحث • فأعلن أن الإسلام لم يعد له ذكر ولا مقام ، وحلَّ محله الظلم والفساد اللامتناهيان على عبيد الله ، فرفعت الأكف إلى السماء مبتهلة أن :

أيـا ربِّ ، فرعونُ لمّـا طغى ... وتـاهَ ، وأبطرَهُ مـا مَلَكْ

لَطفْتَ وأنتَ اللطيفُ الخبيرُ ... وأقحمتَـهُ اليمَّ حتى هَلَـكْ

فمـا بالُ هـذا الـذي لا أرا ... هُ يسلكُ إلا الذي قد سلكْ ؟

مَصوناً علـى دائراتِ الدهورِ ... يدورُ بمـا يَشتهيـهِ الفلكْ ؟

ألستَ علـى أخـذهِ قـادراً ؟ ... فخذهُ وقد خلصَ الملكُ لكْ[1]

ويُروى أن وجه الدعاء لقي القبول والإجابة ، فعندما اتجه جنكيز خان إلى هذه البلاد يريد حربها كان قصده أولاً إنهاء عملية الفساد التي كـان كوجلك يقوم بها بين الناس ، وإنهاء الفتن الداخلية في البلاد • فأرسل جماعة من أهل ثويَن • وكان كوجلك في هذه الأثناء في كاشغر ، ويَروي علمـاء كاشغر أنه حين سمع بوصول رجال جنكيز خان فرَّ من أمامهم ، وتراجـع • ولم يكن هدف أفواج المغول المتقدمة غير ملاحقته ومتابعته •

وأجاز المغول الأذان والتكبير وأداء الصلوات ، وخرج منادٍ منهم ينادي في المدينة أن لكل فرد من أهل المدينة الحقَّ في أن يعيش كما يريد ويديـن بالدين الذي يعتقد به • فكان وجود هذه الجماعة رحمة ربانية وفيضاً من خير الخالق الديّان •

عندما انهزم كوجلك اختفى رجاله من منازل المسلمين في لحظة واحدة ، كما يختفي الزئبق في التراب • وتتبعه الجيش المغولي ، وكان يهرب منهـم

---

(١) الأبيات لأحمد بن أبي بكر الكاتب في هجاء الوزير الجيهاني (معجم الأدباء : ٢/٥٩) •

كالكلب المسعور حتى بلغ حدود « بَدَخشان » ، ودخل مضيقاً يدعى «مضيق وارني » فاتخذ طريقاً أخطأ فيه ، ونراه صواباً ، إذ لم يكن للمضيق مخرج . وكان بعض الصيادين من أهل بدخشان في تلك الآونة يصطادون في تلك المنطقة الجبلية . فأحاط به الصيادون وقبضوا عليه ، وتركوا من معه من الرجال ، لأن هدفهم هو كوجلك . وسلموه إلى جنود المغول ، فقطعوا رأسه وحملوه معهم . وغنم سكان بدخشان غنائم لا تحصى من الأموال والنقود التي كان يمتلكها .

ولم يعد خافياً على أحد أن من يتعرض للدين الأحمدي لن يظفر بحياته . وهكذا عاد الدين الى رفعته ونمو مرتبته :

« إن المصباح الذي أناره الله تعالى ، لا يمكن لأيِّ امرىءٍ أن يُطفئه »

قال الله تعالى : « كم أهلكنا مِن قبلهم من قرن مكّنّاهم في الأرض ما لم نمكّن لكم . وأرسلنا السماء عليهم مِدراراً ، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا مِن بعدهم قَرْناً آخرين » .

وهكذا ظلت كاشغر وختن تحت سيطرة هذا السلطان حتى انتهت إلى الملك فاتح العالم جنكيز خان .

أما توق توغان فإن كوجلك لم يتمكن من الاستيلاء تماماً ، بل انتصر عليه من جانب واحد من بلاده . فاتجه نحو « قم كبجك »[1] ، فأرسل قاهر العالم ابنه توشي (وهو أكبر أبنائه) خلفه ليطهِّر البلاد من شره . لكنه لم يعثر له على أثر . وحين عودة قاهر العالم حاول تعقّبه ، ولكنه لم ير له أثراً أيضاً ، فقد هام في السهول يعيث فساداً ولا ينزجر . مما اضطر جنكيز خان

---

(١) وتلفظ : كنجك ، كم جهود ، كمجيوت ، وكمجيك : وهو نهر يقع شمال مغولستان على حدود قرقيز ، ويصب في نهر « ينيسئي » ، وما زال اسمه كذلك حتى اليوم .

وتوشي إلى تعقبه ، ومعهما جيوش كبيرة . وحين دنا جنكيز خان من القبض عليه ردّه جلال الدين عن قصده :

« ما أعظم الأسدَ الهصور ! ، إنه يفترس أباه ! »[1] .

واستعرت الحرب من ذلك اليوم ، فادلهم وجه العالم من اختفاء النيّر الأعظم (القمر) ، فغدا كوجوه المجرمين الأسود ، واسودت البسيطة فشابهت فـم البئر :

« بالأمس حين كمنَ ظلّ الأرض ، وأخفى الشعاع من علــى المركب »

« رأيت ربــع العالم المسكون ، يشبه كوخ الرجــل المسكين سواداً »

« قلتَ حقــاً إنهــا مظلة داكنــة ، فُتحت فــوق الفلك »

ورقد سيف الحرب مع النيام ، وهدأت الجيوش في مكامنها . أما جيوش المغول فلم تهدأ ، بل ظلت تتابع الظلم ، وحين دنت جيوش العدو من جنكيز خان ، ولمسوا فيه معنى الرجولة أدركوا قوة جيش سلطانهم ، فحاولوا المستحيل بكل وسيلة لدفع اللقاء الحربي ، فأعدّ جنكيز خان لهم العدة الكافية ، وأخذ يطهر البلاد من أعاديه ، ويقال إن طلائع جيشه استطاعت أن تقوم بكل ما وُكل إليها ، أما كورخان ، فمع أنهم لم يستطيعوا استئصاله تماماً لكنه هزُل وانطوى على نفسه .

أما الأمراء الآخرون الذين كانوا يملكون بعض الأطراف والنواحي فإن نهايتهم قد دنت ولن يفيدهم التراخي في تقديم الطاعة شيئاً ، وجفّ القلم بما هو كائن .

---

(1) البيت من الشاهنامة (ت) .

ذكر الامام الشهيد

عـلاء الدين محمد الختنى

رحمـة الله عليـه

حين استخلص كوجلك كاشغرَ وختن ، ونقل ديانته من المسيحية إلى الوثنية أمر الناس أن يتركوا دينهم المطهر ويتقبلوا على الكفر ؛ أن ينتقلوا من أنوار الهدى إلى ظلمة الجهل ، من إطاعة السلطان الرحيم الى متابعة الشيطان الرجيم . ولما لم ينفع معهم هذا المنهج عمد الى القسوة حتى أكرههم على التزيي بزيِّ الختا ، فانقطع صوت التكبير والصلاة :

أبعدَ وضوح الحق يرجون فسخه ؟ وللحقِّ عقدٌ مُبرمٌ ليس يُفسخُ

وأراد كذلك ، عن طريق القهر والتهور والتسلط ، أن يوقع بأئمة الدين المحمدي :

وإذا رجوْتَ المستحيلَ فإنمـا تَبني الأمورَ على شفيرٍ هارِ [1]

ونادى المنادي في مدينة « ندا » أن على كل أهل العلم والمتزيين بزي أهل الصلاح أن يخرجوا جميعاً إلى ظاهر المدينة ، وخرج أكثر من ثلاثة آلاف منهم . فبرز كوجلك إليهم وسأل : مَن منكم عنده المقدرة على المناظرة في أمر الأديان والملك ؟ ولا يخشى كلامي ، ولا يحترز من هيبتي ؟ وفي رأيه أن الفساد مستحكم ؟ أليس بينكم من يردّ على حُججي هذه ؟ . لـم يستطع أحد

(١) البيت للتهامي في مرثية ابنه وهي منغرره الطويلة ورد ذكرها في دمية القصر : ١٠/١٤٠ تحقيق المترجم .

إجابته خوف صولته وصوناً لعفته ووقايةً من نار محنته . ولم يكن بينهم كالباحث عن حتفه بظلفه .

ومن جملة هذه الفئة الفاضلة كان الشيخ الموفق والإمام الحق علاء الدين محمد الختني نوّر الله قبره وكثّر أجره . فنهض من بينهم وتقدم من كوجلك، وجلس تجاهه . وشرع في مداحضته في الأديان . ولما علا صوت الإمام الشهيد وقدّم البراهين الدامغة ، ووقف السلطان أمامه كالجاهل المذهول وغلب الحق الباطل . وانتصر الحق وزهق الباطل ، والحقُّ أبلج والباطل لجلج استولت الدهشة والحيرة على أقوال ذلك الفاسق وعلى أعماله ، فغلى زبد الغضب في فمه ، فأصدر كلاماً نابياً بحقه وبحق الشرع « ولو كُشف الغطاء ما ازددت يقيناً » . وبدافع حمية الإمام ورداً لهذه الترّهات والخرافات التي لا يمكن التغاضي عنها قال : فليمّلأ فمك تراباً[1] يا عدوّ الدين ، يا كوجلك اللعين .

حين سمع الكافر هذه الكلمات القاسية امتلأ فجوراً وكبرياءً فأمر بسحبه من أمامه ، وأجبره على التراجع عن الإسلام واتباع الكفر ، ولكن « هيهات هيهات لما توعدون » ، ولم يصر مهبط النور بيت الشيطان ، وألقي في سجنه عارياً جائعاً عطشان مغلولاً ؛ ولكنه كان ضيف ربه « أبيتُ عند ربي يُطعمني ويسقيني » . وكان هذا الإمام كالنبي صالح في قوم ثمود ، وكيعقوب الحزين المبتلى . قال النبي عليه السلام : « البلاءُ موكّل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل » . وصبر صبر أيوب ، وكيوسف وهو في غياهب السجن ، وكالعاشق الصادق الذي امتص رحيق المحبة بسمّ المحنة . وكانت له غنيمة جديدة ودولة لا تُجارى . وخاطب ربه قائلاً : لذيذٌ كلُّ ما يأتي منك ، شفاء أو ألماً ، وكل سم طليٌ على فم المشتاق ، السم من كف الحبيب لذيذ الطعم :

ولو بيدِ الحبيب سُقيتُ سماً ... لكان السمُّ من يدهِ يَطيبُ

---

(1) وهي شتيمة باللغة الفارسية (ت) .

وضاء قلبه كمشكاة الأنوار الربانية ، ويزداد الاطمئنان بالإيمان . وهو وإن كان مؤاخذاً على ما تكلّفه من العذاب فإن :

« على طالب وصال الحبيب أن يتحمل العذاب ، فالشوك والزهر ينموان معاً »
« فدعــه أو فصِله ، وكلا الأمرين خطر »

وخاتمة الأمر،فإن هؤلاء القوم الضالين لم يتركوا وسيلة لم يعذبوه بها، نظاهرهم كباطنهم ، وكلهم من مدرسة الختن . فطعنوه أربع طعنات ، فأعلن شهادته وصرّح بورد توحيده ، فأعلن بذلك أن الدين لا يقارن بتراب الدنيا، والظالم إلى سعير جهنم ، وعوّضوا الفاني بالباقي ، ولا تحافظوا على هذه الدنيا الخضراءِ الدمن فتضيعوا النعيم والدلال الرباني ، قال تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا لعبٌ ولهوٌ . ولَلدار الآخرة خــيرٌ للذين يتقون ، أفـلا تعقلون ؟ » . واستمر في كلامه ونصائحه حتى سلم روحه بارئها ، وانتقل من سجن الدنيا إلى جنات النعيم ، ومن المهبط السفلي إلى المكان العلوي :

« ولى الصديق بعد الصديق ، والحبيب بعد الحبيب ، فما أحسن ما تقدمه الدنيا من هذا العمل ؟ »

« من أراد بلوغ المراد ، فلن يهاب دونها الصعاب »

وحين حلّت هذه الواقعة دفع الله سبحانه وتعالى شره ، فأرسل عليه بعد حين جيوش المغول ، وعاد عليه ما قام في هذه الدنيا من مذموم الأعمال ، فإلى عذاب النار وبئس القرار :

وقد علم الإلحاد مُذ نُصر الهدى   بأنْ ليس للدين الحنيفيِّ مَنْسَخُ

وقال الله تعالى : « وسيعلمُ الذين ظلموا أيَّ مُنقلبٍ ينقلبون » .

ذكـر استخلاص نواحي الماليغ والقياليغ

وفولادهم ، وأحوال أمرائهم

في عهد كورخان كان حاكم تلك النواحي أرسلان خان[1]. وكانت الصلات بينهما حسنة . وحين أخذت دولة كورخان بالتراجع ، وشرعت إمارات الأطراف بالتقهقر ، وتمرد عليـه كذلك سلطان ختن ، جهز عليـه جيشاً ، وطلب من أرسلان خان مدداً ، ضامراً له الغدر أيضاً قبل أن تحدثه نفسه بالتمرد عليـه كتمرد الأمراء الآخرين ، فإن أجابه إلى طلبه فإنه سيراعي المسلمين ، ولن يشتدّ على الختن كثيراً ، ويضمن له بقاء حياته ، فاستجاب له أرسلان خان ووجه عساكره نحوه .

كان بين أمراء كورخان أمير اسمه شمور تيانكو[2] ، وكان بينه وبـين أرسلان خان صداقة قديمة وودّ تام ، فأسرّ إليه بخلية أمر كورخان وقال له : إن قدِمتَ إليه استأصل جذورك وقتل أبناءك . فانجُ بنفسك لتتخلص من هذا الظالم ، وأرى أن ترسل ابنك عوضاً عنك ، إذ لا مناص من تلبية أوامره . فانصاع أرسلان خان لنصيحة صديقه ، وسلم أمره إلى الله وأرسل ابنه عوضاً عنه . فأكرمه كورخان خير إكرام ، ثم أعاده إليه معزّزاً .

وبعد حين من الزمان ، حين اشتهر في الآفاق نبـأ تحرك جنكيز خان ، وكان جنود كورخان يعيثون في البلاد فساداً ، ثار عليه أرسلان خان وقتله ، والتحق بجنكيز خان الذي أولاه العناية التامة .

---

(1) ويقال إن « أرسلان خان » لقب يلقب به حكام الماليغ .
(2) تيانكو : بالتركية بمعنى الحاجب (ت) .

وكان في الماليغ رجل من « القرلقان قوناس » ، كان رجلاً شجاعاً ، اسمه أوزار . وكان من عادته أن يسرق الخيل من مرابعها ، ويقطع الطرق على السابلة ، وغير ذلك من أنواع الظلم ، لم يردعه عن أعماله أحد . حتى بلغ به الأمر أن أخذ يغير على القرى ، ويستولي عليها حتى غدت « الماليغ » مدينة وولاية تحت جبروته وسلطانه ، ثم استخلص « فولاد » ، وحارب كوجلك غير مرة حتى كسره . وأرسل بعد ذلك إلى ملك العالم رسولاً يخبره بانتصاره على كوجلك ، ومنحه شرف خدمته ليكون من حشمه . فأبرز له الخان مزيداً من العطف ، وأصهر توشي إليه . وتشرّف في نهاية الأمر بخدمة الخان ، وأبرز أمامه كامل الاستعطاف والاسترحام .

وحين استأذن للعودة أمره جنكيز خان بالامتناع عن الصيد الحرام ، وعوضاً عن الاقتناص غير المشروع منحه ألفاً من الخرفان ، ولكنه ما أن وصل الماليغ حتى عاد عودَه على بدئه من الاستيلاء على أنعام السكان .

وعلى حين غفلة ، وفيما كان أوزار يقتنص ، وقع في الشباك ، فأحكم خدمه قيده ، وجاؤوا به إلى الماليغ . لكن الناس أغلقوا بوابة المدينة واشتغلوا في حربهم . وفجأة وصل إليهم خبر وصول جيش المغول ، ففتحوا البوابة بسرعة وقتلوهم ، ورموا جثة أوزار في الطريق .

كان أوزار رجلاً شجاعاً جريئاً ، وكان يخاف الله،وكان يُكرم الدراويش والزهاد . جاءه يوماً شخص يتزيّا بزي المتصوفة ، وقال له : لقد جئتك من حضرة العزة الإلهية برسالة ، تقول هذه الرسالة : إن خزائننا غدت خالية ، فإن رأيت أن تقرضنا قرضاً حسناً ، ولا أراك تمتنع عن المدد . فنهض أوزار وأظهر للشيخ تواضعه ، وبكى . ثم أمر خادمه أن يُحضر له وسادة من الذهب وقدمها للشيخ المتصوف وقال له بعد أن اعتذر إليه : إقبل هذه ، وبها دليل على أنك بلّغت الرسالة ، فأخذ الصوفي الذهب وخرج .

وبعد موته مُنح ابنه سقناق تكين شرف الإمارة والجلوس على عرش أبيه ، وزوجوه إحدى بنات توشي . كما أرسل إلى ابن أرسلان خان[1] في قياليغ مثل ذلك وزوجوه فتاة أيضاً ، وحين نهدَ جنكيز خان إلى هذه الممالك ليفتحها أنجده هذان الأميران بكثير من رجالهما .

والآن أولى منكوقاآن أحد أبناء أرسلان خان ويدعى أوزجند[2] رعايته ، كما اعتنى بسقناق تكين وأقره على حكم الماليغ ، وفي أثناء عودته من قبل السلطان الخان توفي فخلفه ابنه . كان ذلك في شهور سنة إحدى وخمسين وستمئة .

ذكر أسباب قصد ممالك السلطان :

وفي نهاية عهد جنكيز خان عمّ الأمن ، وهدأت البلاد ، وشمل الرخاء جميع الناس . كما أمنت الطرق وخمدت الفتن . وعاد التجار يجوبون المقاطعات والمناطق من أقصى الغرب إلى مبدأ الشرق ، ولما لم يكن للمغول مستقر واحد ، ولا مدينة يسكنون إليها ، فإن التجار كانوا حين يصلون إليهم يبيعونهم السلع بأسعار باهظة . لهذا فقد اتفق ثلاثة: أحمد الخجندي[3] ، وابن الأمير حسين ، وأحمد بالخج● على السير شرقاً ، وحملوا معهم بضائع كثيرة من الأقمشة المذْهبة والقطنية الزندنيجية[4] وكل ما يليق بالأمراء وساروا . كانت البلاد في هذه المرحلة قد هدأت من الفتن ، واستطاع جنكيز خان تهدئة قبائل المغول جميعاً ، فالحراس يجوبون الطرقات ، ويمنعون من يعترض سبيل التجار ، وإذا وجد هؤلاء الحراس شيئاً من بضاعاتهم تليق بالخان فعليهم أن يرسلوه إليه هو وبضاعته ، وحين وصل هؤلاء الثلاثة ، تفحص الحراس بضائعهم فرأوها

---

(١) لأن الابن كان قد سمّ أباه وحل محله (ت) .
(٢) وكان والياً على منطقة نهر سيحون (ت) .
(٣) خجند : تحول اسمها إلى « لينين آباد » من بلاد تاجيكستان الروسية (ت) .
(٤) نوع مشهور من الألبسة المصنوعة في « زندنة » الواقعة في تركستان قرب بخارى (ت) .

كلها لائقة بالخان ولا سيما بضائع أحمد بالخج ، فأرسلوه مع بضاعته إلى الخان . فنشر أمتعته أمامه ، وعرض سلعه ، وما كان قيمته عشرة دنانير أو عشرين رفعه إلى المئات ، فغضب جنكيز خان منه غضباً شديداً وأعلن لرجاله أن هذا الرجل لا يجوز أن يعرض بضائعه عليه مرة ثانية ، وأمر بمصادرة بضاعته ، واستدعاء شريكيه إليه مع بضائعهما ، وحين دخلا على الخان رفضا تحديد سعر لما يحملان ، وأصرّا على أن تكون هدية مقبولة لدى الخان . فرضي الخان بالهدية وقنع بقولهما ومنحهما مالاً كثيراً على محبتهما ، ثم أمر باستدعاء شريكهما أحمد ومنحه مثل ما منح زميليه ، وأكرم وفادتهم ، فازداد تقدير المسلمين له ، وأقبلوا على خيمته يتمسحون على بابها .

وحين أراد التجار الثلاثة أن يعودوا أمر جنكيز خان الأمراء وأبناء الأمراء بأن يرسل كل واحد منهم بضعة رجال من أتباعه معهم ، بأموال كثيرة وذهب وفضة ، ليذهبوا معهم إلى ولاية السلطان (محمد) ويشتروا بضائع وتجارات وطرائف ونفائس . فامتثل الأمراء بأمره ، وهكذا تجمع أربعمئة وخمسون رجلاً مسلماً ، وأمرهم الخان أن يعودوا بأحمالهم إلى بلاده مباشرة،وسيكون معهم من يرافقهم ، وكان قصد الخان من ذلك أن يتخلص هو وقومه من البضائع السيئة ، ومن مشكلات التجار الوافدين ، كما جرى معه .

وحين وصل التجار إلى مدينة « أترار » ، كان أميرها إينال جُق ، أحد أقرباء أم السلطان تركان خاتون وهي التي لقّبته غاير خان . وكان من جماعة التجار تاجر هندي ، كان في الأيام الخالية على معرفة به ، فخاطبه على عادته السابقة المألوفة باسم إينال جوق ، معتمداً على مكانته من الخان ، من غير أن يتحاشاه . فتغير إينال جوق وامتعض . كما حدثته نفسه بالاستيلاء على أموال التجار . لهذا فإنه أوقفهم جميعاً ، وأرسل رسولاً إلى السلطان يخبره عن قدومهم ، فأمر السلطان في الحال ، ومن غير روية ، بقتلهم جميعاً وبمصادرة ممتلكاتهم . ولم ينتبه إلى أن مثل هذا العمل الاجرامي خطير وحرام، ، ويجلب عليه الوبال :

« إن كل من له عقل يعمل به ، فليعلم أن الرويّة رأسُ ماله »

وامتثل غاير خان لأمر السلطان فقتلهم جميعاً واستولى على أموالهم . ولم يعلم أنّ دماءهم ستحول الدنيا إلى خراب ، وتدع الناس بلا مأوى ، وأن الثأر من كل شعرة من رؤوسهم تعادل مئات الآلاف من الرؤوس ، وعوضاً عن كل دينار أخذوه سيخسرون القناطير :

فأموالنـا نُهبى وآمالُنـا سُدًى ... وأحوالنـا فَوضى وآراؤنا شورى

فساقوا مطايانـا وقـادوا جيادنـا ... وفوقهما ما ينقُض السَّرح والكورا

أثاثـاً وأثوابـاً ونقـداً وقِنْيـةً ... وما يُشترى بيعاً وماصِين مذْخورا

بِذا قضتِ الأيام ما بـين أهلهـا ... مصائبُ قومٍ عند قومٍ تُرى سورا

وقبل أن يباشروا بقتلهم تمكن واحد من التجار أن يصطنع حيلة وينفذ من مضائق السجن . وعدا نحو الخان وحكى له فعلتهم الشنيعة برفاقـه . فتأثر الخان عظيم التأثر من هذا النبأ المحزن ، فغضب وزمجر ، وعاف الصبر والحلم ، وأعلن أنه لن يهدأ له بال ، أو تطفأ جذوة ثورته إلا بإراقة الدماء . فخرج إلى تل وحيداً ، وهو حاسر الرأس ، واستمر على هذه الحال ثلاثة أيام بلياليها ، وتمنى لو لم تجر هذه الفتنة ، لأن ردة الفعل ستشيب الرؤوس . وقرر أخيراً الاستعداد للحرب ، فأراد أولاً تهدئة فتنة كوجلك وتوق تغان كما سبق أن أشرنا ، ليتفرغ جيشه للثأر تماماً .

وأرسل رسله إلى السلطان (محمد) يذكره بالغدر الذي لم يجد لـه مبرراً . ويعلمه أنه متجه نحوه للحرب والطعن ، وما يزرعه المرء يحصده ، وعلى السلطان أن ينتظر ثمرة جريمته المرّة :

« إن أسأت نلت جزاءك ، فعين الزمان ليست نائمة »

« فما زال نقش بيزن على القصور ، في سجن أفراسياب »

ذكر توجه الخان فاتح العالم إلى ممالك السلطان واستخلاص أترار

حينما خبتْ غبار فتن كوجلك وتوق تغان،وزالت أفكارهما من الخواطر نهض الأبناء والأمراء العظام والأحفاد وقواد الألف والمئة والعشرة واستعدوا، ونظموا أجنحة جيوشهم ، وعينوا فرق الطلائع ، فأصدر الخان أمره الجديد بالتحرك في شهور سنة خمس عشرة وستمئة :

في فتيةٍ من كُماة التركِ ما تَركتْ للرّعدِ كبّاتُهمْ صَوتاً ولا صِيتا

بدارِ قارونَ لو مَرّوا على عجلٍ لَبات من فاقةٍ لا يملكُ القوتا[1]

وبدأت الاستعدادات للحرب على قدم وساق ، واستعذب الشجعان خوض الوغى ، وبدأت الأماني بالوصول إلى حلبة الحرب وكأنهم سيذهبون إلى حفل زفاف ، وكأن ضرب الرماح بعذوبة لثم الملاح • وأرسل الخان رسله إلى الأطراف يستحثهم على رد الوصمة والعار بقتل التجار ، ومَن أنذرَ فقد أعذَرَ • وكان أرسلان خان في طليعة من استجاب للطلب رجالاً ومالاً • وجاء من باليغ بخيله ورَجله إيدي قوت • ومن الماليغ سقناق تكين برجالٍ أُعدّوا لمثل هذه الحرب • ووصلوا في ابتداء الأمر إلى أترار :

---

(١) من قصيدة لأبي اسحاق ابراهيم بن عثمان الغزي يمدح فيها الترك •

في هَيبةٍ لا البرقُ وافي الخُطَى فيه ، ولا الرعدُ خطيبٌ جَهير°[1]

فأرسل السلطان خمسين ألفاً من الجنود إلى غاير خان ، ثم أمده بعشرة آلاف بقيادة حاجبه الخاص قراجة ، وحوصرت المدينة حصاراً متيناً ، بعد أن جمعوا فيها العدد الوافر من آلات الحرب اللازمة • وغاير خان ينظم أمور الحرب من داخل المدينة ومن على الأسوار • وأخذه الذهول حين جاءته الأخبار بقدوم جيش لجبٍ يموج كالبحر ، فيملأ الفضاء بصهيل الخيل وزئير الأسود:

« وغدا الفضاء نيليّ اللون والأرض آبنوسيّته ، وغلى البحر بقرع الطبول»

« واسودّت الوديان بفحم الجيش ، فلم يكن لهذا الجيش وجود »[2]

والتف الجيش حول الأسوار عدة حلقات ، وحين اكتمل قدوم العساكر، عيّن كل قائد على جهة • فابنه الأكبر مع عشرات الألوف من الأبطال الأشاوس صمد على حد جَنْد[3] وبارجليغ كَنْت ، وعدد من الأمراء مقابل خجنــد وفناكت • في حين أن الخان وحده قصد بخارى ، وعين جغتاي وأوكتاي على رأس الجيش يحاصر أترار ، وعدة من الفرسان ترصدت لبركار •

وبدأت الحرب ، واستمرت المقاومة مدة خمسة أشهر • وحين لمس أفاضل أترار صعوبة الوضع وإصرار المحاصرين أعلنوا سخطهم على مسبب هــذا الويل • وأيقن غاير أن كل هذا جرى بسببه ، وأدرك أن المحاصرين لن يتركوه حياً مطلقاً مهما جدّ وفاق الحدّ ، وأن المصالحة غير واردة معهم مطلقاً ، كما

---

(١) البيت مذكور في تتمة اليتيمة • وقد تمثل المؤلف بغالب أبيات هذه القصيدة في تضاعيف هذا الكتاب •

(٢) البيتان من الشاهنامة (ت) •

(٣) جند: بقاياها ماثلة قرب قزل أوردا على ضفة نهر سيحون، وقربها بارجليغ(ت) •

أن السلطان وليّ نعمته فلا مطرح لخيانته ، ولن يغفر له المسلمون فعلته ، ولم يلحّ قراجه عليه بشيء ، بل تريّث ينظر ما سيفعل :

« حين أفلت الشمس عن الدنيا ، عمّ ستارُ السواد الكون »[1]

ثم هرب قراجه بأكثر جنده من بوابة الصوفي ، فتراجع التتار عن هذه البوابة ثم هجموا عليه وأسروه ، إلى أن كان :

الشرقُ قد مزّق ظلماءَهُ خطٌّ عمودٍ من صباحٍ مُنيرْ

عندئذ ساقوه إلى الأميرين ، وبعد أن ناقشاه وقرّعاه قالا : لقد ثبت عليك وعلى سيدك عدد من السوابق تُلام عليها ، إذ لم تفِها حقها ، ثم إنك تمتاز بالطمع ● . وقتلوه ، وقتلوا معه كل الفجّار والأبرار من بلدة أترار ، بعد أن ساقوهم من المدينة كالأغنام ، ونهبوا كل ما عثروا عليه من أغنام وحرائر وأسلاب ، بينما تحكّم غاير مع عشرين ألفاً من أبطاله في طرف الأسوار ، وبحكم أنه :

وطعمُ الموتِ في أمرٍ حقيرٍ كطعمِ الموتِ في أمرٍ عظيمِ[2]

« ومات الجميع : العجوز الأيّمُ والفتى ، فلم يبق ذو روح على هذه الدنيا »

وأيقنوا بالموت لا محالة ، فكانوا يخرجون خمسين خمسين فيبارزون ويصاولون ، ثم يلقون حتفهم ضرباً وطعناً :

تصيحُ الرُّدينيّاتُ فينا وفيهم صياحَ بناتِ الماءِ أصبحْن جوّعا[3]

---

(١) البيت من الشاهنامة (ت) .

(٢) البيت مشهور للمتنبي (شرح اليازجي : ٢٣٨) .

(٣) البيت للمثلم بن رياح المرّي من شعراء الحماسة (التبريزي : ١/١٩٩) .

وكان جنود غاير يحاربون ما دام فيهم نفَس ، وقد تطلب هذا الجلد موت عدد كبير من المغول • واستمر الحال على هذا مدة شهر ، والمبارزات قائمة ، وفي النهاية لم يبق مع غاير غير شخصين ، ولم تعد المجالدة مجدية ، فتقدم المغول من الأسوار ورقوها ، وقيدوه وهو على السور ، ومعه رفيقاه • ولما كان الأمر الموكل إلى الجنوْد هو أسره لا قتله ، لهذا فقد قتلوا رفيقيه، وهدموا الأسوار وعادوا ، وممن نجا من السيف أصحاب الحرف والصناعات •

كان جنكيز خان في تلك الأثناء ينتقل من بخارى إلى سمرقند ، فتبعوه إلى سمرقند • وفي كوك سراي ● أعدم غاير :

« هكذا يكون عمل الفلك الشاهق ، الخوذة بيدٍ والقوس بيد »[1]

توجه ألوش إيدي[2] نحو جند واستخلاصه الحدود :

لما تم لفاتح العالم جنكيز خان أمر العالم ، تسلمه من يد عداته ، يعاونه أبناؤه وأقرباؤه الأمراء عن طيب خاطرهم[3] • أقدموا بعزيمة نفاذة وبحرب

---

(1) البيت من الشاهنامة (ت) •

(2) يذكر المؤلف أن جنكيز خان أرسل ابنه الأكبر (توشي) لاستخلاص جند وبارجليغ كنت • ثم قال إن جنكيز أرسل توشي مدداً لاستخلاص خوارزم وأمره بترك جند • والآن في هذا الفصل لا نراه يذكر اسم توشي مطلقاً ، ونسب فتح جند إلى الش إيدي من دون توشي • والصحيح (كما جاء في جامع التواريخ : ٦٨ ــ ٧٢) أن فتح جند وبارجليغ كنت وسائر النواحي كان على يد توشي وإيدي معاً •

(3) في أصل المخطوطة نقص ، حاولنا رتقه بالمعنى (ت) •

دقيقة كالقضاء الذي لا يمكن التخلص منه بأي وسيلة ، وكالأجل لا يردهم رادّ ولا يصدهم سلاح ، وكان هدفهم الأول قصبة سُقناق[1] ومدينة جَند التي هي على ضفاف جيحون . فحين وصلوها سار في مقدمتهم حسن حاجي ، التاجر القديم الذي استمر في خدمة الخان وغدا من حشمه الخاص ، يحمل رسالة القائد ويحضهم على الطاعة لتبقى لهم حياتهم وأموالهم ، لكنه ما أن وصل إلى سقناق ، وقبل أن يبلّغ رسالته ويقدم نصيحته ، هاج بعض الأوباش والشريرين ، ودعَوا الناس إلى قتله ، فهجموا عليه وطعنوه طعنة قاتلة ، وكان نتيجة قتل هذا الرجل المسلم فَصد وريد سكان البلدة ، وإذا حان أجَل البعير حام حول البِير .

حين وصل إلى الجيش نبأ قتل الرسول اتجهت الأعلام نحو مدينة سقناق، وثارت ثائرة الجنود ، فكانوا يحاربون ليلاً ونهاراً مدة سبعة أيام . وصدر الأمر بالمواظبة على الحصار ، لا يرحمون ولا يسامحون ، وعليهم قتل الأحياء لقتلهم الرسول ، وقد سُلم ابن حسن حاجي قيادة الإتمام على السكان وتعقب المختفين ، وتابعوا طريقهم من هناك وفتحوا أوركند وبارجليغ كنت ، ولما لم يجدوا مقاومة عنيفة من السكان فإنهم لم يقتلوا قتلاً عاماً . ثم اتجهوا نحو أشناس[2] . وأعملوا في سكانها القتل والعنف لأن بعض المتمردين قاوموا .

حين ترامت هذه الأنباء والأخبار إلى مسامع قتلغ خان القائد الأعلى للجيش الكبير الذي عينه السلطان للدفاع عن «جند» ، فكر أنّ من نجا برأسه فقد ربح، فأوقف الحرب وهرب بجيشه ليلاً لا يلوي على شيء ، وعبر جيحون متجهاً نحو خوارزم متعمداً السير في الطرق الصحراوية . وحين علم جنتمور أن مدينة

---

(١) ما زالت آثارها على بعد بضعة أميال من تومان آريك في قزقستان (ت) .

(٢) أشناس : بقاياها ماثلة على بعد عشرين ميلا من بيرقازان (ت) .

جَند خلت من الجند قدم إليها ، وأرسل رسالة إلى أهلها يستميلهم ويحذرهم من المعاداة ، ولما لم يكن في جند رأس يحكم ولا حاكم مطلق كثرت الآراء وتعددت الاقتراحات واضطربت العامة ، وبدهاءٍ من جنتمور أدرك مايقصدون إليه من التخوف ، فطمأنهم بحسن نيته ، وشرح لهم ما جرى في سقناق وكيفية قتل حسن حاجي ، وعقد معهم ميثاقاً أن لا يدخل المدينة جندي فمالوا إلى النصيحة واطمأنوا إلى أنهم لن يصابوا بأذى • حين وصل خبر المحاورات إلى الوش إيدي[1] لم يرق له هذا الخنوع من رجاله ولا ذاك التملق من السكان، بالاضافة إلى اختلاف آرائهم وقصور أهوائهم • ومع أن نية جيشه أن يتجه نحو قراقوم[2] فإنه قرر استخلاص جند • وفي الرابع من شهر صفر سنة ست عشرة وستمئة أمر الجيش بالنزول في ظاهر المدينة ويحيطوا بأسوارها،ويُعدوا المجانيق والمراقي الخشبية وغير ذلك من مستلزمات الحصار • أما أهالي جند ، فإنهم لم يفعلوا سوى أنهم أغلقوا أسوار المدينة ، ووقفوا ينظرون ما يفعله المغول من غير أن يتقدموا على الاستعداد للحرب • وقد تعجب كبار القوم إذ كيف بإمكان الجنود أن يتسلقوا الأسوار أو يلجوا إلى المدينة إذا كانت الأبواب موصدة ؟ وأدنى الشجعان المراقي الخشبية من الأسوار ، وباشر المنجنيق عمله • وفوجئوا بسقوط صخرة رميت على المنجنيق فأصابت حلقته فكسرته • لكن الجنود ركبوا الأسوار وفتحوا البوابات من غير أن يجرح واحد من الطرفين ، وأخرجوا الناس من المدينة جميعاً • ولما اشتد عزم الحرب لم يُبعدوا الشفقة عن تفكيرهم ، فقتلوا أولاً بعض أعيان المدينة ممن ناقشوا جنتمور • ثم أبقوا الناس في العراء تسعة أيام وأغاروا على المدينة • كان بين

---

(١) معناها : الملك الوش لأن إيدي معناها الملك بالتركية (ت) •

(٢) قراقوم : مفازة معروفة بين خوارزم ومرو ، وهي ليست قراقورم •

الجنود علي خواجه أحد أعيان قِشْدُوان[1] قرب بخارى ، وكان يرافقهم منذ حين ، فعينوه أميراً على هذه الإيالة ، وفوّضوا إليه أمر تدبيرها . فأظهر كفاية مشكورة ، فظل عليها حتى آخر حياته .

واستطاع أحد القواد بعشرة آلاف من الفرسان أن يستخلص مدينة كِنت[2] ، فوضع عليها شحنة تراقبها ، ثم اتجه نحو قراقوم التي كان يحاصرها الوش إيدي .

وعين لصحراء التركمان[3] عشرة آلاف محارب ، ليتجهوا منها إلى خوارزم ، وكان على رأس الجيش تاينال نويان . وتخطى الجيش حتى قلب الصحراء . ولكن سوء طالعهم جرهم إلى قتل مساعده المغولي ، ثم أعلنوا العصيان . فجاءهم تاينال يطفىء نار ثورتهم ، فقتل أكثرهم .

وفوج آخر من الرجال اتجهوا نحو مرو وآمُويَه[4] ، وتغلبوا عليهما ، حتى استتب الأمن تماماً ، كما سنشرحه في حينه إن شاء الله .

---

(١) ما زالت هذه المدينة موجودة في أوزبكستان الروسية (ت) .

(٢) خرائبها معروفة اليوم باسم جنكت أي المدينة الجديدة قرب كازالينكس (ت) .

(٣) قبائل التركمان أي المسلمون وهم أوائل الغز ، وهم أصل السلاجقة والعثمانيين (ت) .

(٤) تقع آمويه شمالي مرو (ت) .

ذكر استخلاص فناكت وخجند

وأحوال تيمور الملك :

وحاصر ألاق نوين وسكتو وتَقاي مع خمسة آلاف رجل مدينة فناكت، كان أميرها إيلْتكو ، فحاربهم مع رجاله ثلاثة أيام من غير أن يحرزوا نتيجة ، وفي اليوم الرابع :

« حين ألقت الشمس نحو الفضاء قوس قزح ، برز الدهر بفلكه العالي »

طلبوا الأمان ، وخرجوا إلى ظاهر المدينة ، ففصلوا الجنود والأعيان عن الرعية ، فقتلهم الجنود جميعاً بالسيف حيناً وبالنبال حيناً ، وأبقوا على حياة الصناع وأصحاب الحرف . ثم انتخبوا الفتيان من السكان وساقوهم معهم إلى « خجند » . وحين وصلوا إلى هناك رأوا قواد المدينة قد شدوا الأسوار وأغلقوا المنافذ ، وكان ملكهم تيمور ، لو كان رستم[1] في زمانه حياً لأخذته الغشوة من قوته ولارتدع عن مصاولته ، ولقد أحكم الملك الحصار ، فأجرى شقّين من نهر جيحون حوله ، وعيّن ألفاً من البواسل حول السور .

حين أحاط الجيش المغولي بالمدينة أدرك أن حصارها مستحيل لأن حجارة المنجنيق لا تصل إليها ولا النبال . فساقوا الفتيان الأسرى من خجند وأترار وبخارى وسمرقند والقرى الأخرى مدداً حتى بلغ عددهم خمسين ألفاً بالإضافة إلى عشرين ألفاً من المغول . وقسموهم عشرة عشرة ومئة مئة ، وعلى كل

(1) رستم بطل أبطال الفرس قديماً ، وهو الذي انتصر على سهراب (ت) .

عشرة عينوا مغولياً ، وأمروهم بالذهاب إلى الجبل الذي يبعد ثلاثة فراسخ ، وينقلوا منه الحجارة ، ويلقوها في جيحون .

أما الملك فإنه كان يملك اثني عشر زورقاً مغطاة باللباد ، فوقه طين معجون بالخل . كان يخرج بها من البوابات كل صباح[1] ويخوض مع المغول معارك طاحنة . ولم تؤثر فيه النبال ولا النار والنفط ولا الحجارة ، وحين رأى الحجارة كثرت في النهر زاد من منسوب الماء فيه . كما كان يغير ليلاً . وكم حاول المغول التخلص من ضرره فلم يستطيعوا ، وأخيراً استعدت المجانيق . ولكنه اختلس فسحة من الوقت المظلم أخرج فيها سبعين سفينة كانت مُعدة ليوم الهرب ، محملة بالرجال والأمتعة والأثقال . وبسرعة البرق انطلقوا في الماء يجرون ، فكأنهم :

خاض الدُّجى ورِواق الليل مسدول   برْق كما اهتز ماضي الحد مصقولُ

وتبعه الجنود على الشاطىء ، وحاولوا رميه بالنبال ولكن دون جدوى . وابتعدت السفن ، وظلت عائمة حتى دنت من فناكت ، وكان تحت الماء قرب هذه المدينة زنجير حديدي يمنع السفن من التقدم ، فهاجمهم الجنود من كل جانب . واستمرت المصاولة حتى حدود جند وبارجليغ . ووصل نبؤه إلى مسامع الوش إيدي فأمر الجنود بتطويق طرفي النهر ، وسد الجسور المائية بالسفن ، وشغّل العرادات . لكنه علم بترصد الجيش له ، فحين وصل إلى الشاطىء قرب مدينة بارجليغ كنت ، نفذ من أحد الأطراف وخرج من الماء ، كما تنفذ الشرارة في الرياح بعد أن خلف أثقاله ، فاستلبها الجنود المغول ، ولقد لاحظ أن أغلب جنوده قتلوا أو جرحوا ، وأن أعداد المغول بازدياد ، ولم يبق معه إلا بضعة رجال ثم قتلوا ، ولم يبق معه من السلاح غير ثلاثة رماح

---

(١) في أصل المخطوطة بياض ، حاولنا رتق المعنى (ت) .

أحدها بلا سنان • فلحقه ثلاثة من المغول ، فرمى أحدهم بالنبل المكسور ففقأ عينه ، ثم قال للباقيين : بقي لدىّ نبلان بعددكما ، وأرى أن تحافظا على روحيكما ولا تقتربا ، فعاد الجنديان وتركاه يقطع القفار وحيداً حتى وصل إلى خوارزم بعد أن كلّ من الحرب ، ووصل مع ثلة من الرجال إلى مدينة كنت وقتل شحنتها وعاد •

ولما لم يجد صلاحاً له بالإقامة في خوارزم تبع السلطان حتى لحقه على الطريق إلى « شهر ستانه » • وبعد حين ، إذ كان السلطان في « تكابوي » ، تزهد ولبس رداء التصوف واتجه نحو الشام • لكنهَ حنّ بعد قدر من الزمان إلى الوطن بعد أن بلغه هدوء الفتن في البـلاد ، فقصّد دياره ، لكن القضاء السماوي جذبه للمرور بفرغانة ، والإقامة في قصبة « أرس » عدة سنوات قضاها بين مزاراتها • وكان بين الفينة والفينة يطلّ على خجند ليطلع على الأوضاع ثم يعود • وحين سمع بولده ، الذي مُنح من قبل حضرة باتو حق الإشراف على أملاك أبيه ، ذهب إليه وسأله : هل تعرف أباك إن رأيتـه ؟ فأجاب الولد : لقد كنت رضيعاً حين فقدت أبي ، فبالطبع لا أعرفه ، ولكن غلاماً لي يعرفه ، فأُحضر الغلام ، وتفحص الرجل ، ومن بعض العلامات التي يذكرها أيقن أنه هو ، وشاع خبره بين الناس • لكن فئات أخرى من الناس ، لأن في حوزتها ودائع له ، نفت أن يكون هو تيمور • ففكر أن يذهب إلى قاآن ، ويستحثه على الشفقة به ، وفي الطريق وصل إلى مقر قدَقان[1] ، فأمر الأمير بأن يسجنوه ، وذكّره بكل الحروب التي سببها والمصاولات التي قام بها :

« رآني في الوغى بحراً وجبلاً ، مع رجال مشهورين من الطورانيين »

---

(1) هو ابن أوكتاي قا آن •

« قولي ماذا فعلت أيتها النجوم ، لبطل العالم مسحوقاً تحت قدمي »[1]

وقد عرفه المغولي الذي جرحه هذا الملك بنبله ، كما تأكد قدقان منه ، ولكنه حين كان يكلمه لم يقدم له واجب الطاعة اللازمة للأمراء المغول، فغضب الأمير منه واستل نبلاً وضع في ضربته له كل النبال التي ضربها المغول فغدا :

« تناسَ آلامك ومشكلاتك ، وأقصِر عن التشاؤم »

ولما كان النبل جاء مقتلاً سقط على الأرض مضرجاً بدمائه يلفظ أنفاسه، وهكذا تخلص من وحشة « ما من الموت خلاص ، ولا عنه مناص » :

« العجب منك أيها العالم ومن عملك ، فالخذلان منك ومنك الصواب »

ذكر استخلاص ما وراء النهر

على سبيل الاجمال :

يشتمل ما وراء النهر على بلاد وبقاع ونواح ورباع ، لكن زبدة هذه الأماكن وخلاصة هذه المساكن بخارى وسمرقند ، وفي معجم البلدان بإسناد حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « ستفتح مدينة بخراسان خلف نهر يقال له جيحون تسمى بخارى ، محفوفة بالرحمة ، محفوفة بالملائكة ، منصور أهلها . النائم فيها على الفراش كالشاهر سيفه في سبيل الله . وخلفها مدينة يقال لها سمرقند ، فيها عين من عيون الجنة ، وقبر من قبور الأنبياء ، وروضة من رياض الجنة ، تحشر موتاها يوم القيامة مع الشهداء ، ومن خلفها تربة يقال لها قطوان . يُبعث منها سبعون ألف شهيد ، يشفع كل شهيد في سبعين من

(١) من الشاهنامة (ت) .

أهل بيته وعشيرته » . وسيأتي شرح وقائع الحدثين ، وصحة هذا الحديث من هذا الوجه مثبتة ، لأن أمور العالم نسبية ، وبعض الشرّ أهون من بعض. وقالوا :

« شكر العبد على الحسن واجب ، أن وجد من هو أكثر سوءاً منه »

وصل جنكيز خان بنفسه إلى تلك البلاد ، بينما كان جيش المغول يموج، ولم تكن عواطفه قد سكنت من جَيَشان الغضب ، ولا جرى نهـر جيحون بالدماء ، وكأن ما يجري مسجل في لوح القضاء . وحين احتل بخارى وسمرقند أحس بأنه ارتوى من السفك والإغارة ، فأحجم عن القتل العام ، وما فتحه من البلاد بعد ذلك كان عبارة عن بلاد يكثر فيها ساكنو الخيام ، ولم يتعرض لهم كثيراً . أما فيما خلفه من بلاد فإنه أمر بإعمارها . وما جاءت الشهور الأخيرة من سنة ثمان وخمسين وستمئة حتى عادت البلاد إلى استقرارها وعمارتهـا ورونقها أو كادت ، عدا خراسان والعراق فقد أصيبت كل مدينة منهما بحمّى مطبقة ، وسعير مقيم . فهم أغاروا على المدن وقتلوا أهلها ، وهاجت تلـك المناطق سنين ، ومن الآن إلى يوم الحشر إذا توالد الناس فلن يصل عددهـم الى عُشر ما كانوا عليه قبل الهجوم المغولي ، ويمكن للمرء أن يدرك حقيقة الماجريات من الأطلال الماثلة والآثار الدارسة ، ليعلم ما فعلت بهم الأقدار .

وقد سلموا زمام تلك الممالك لرجل كفء اسمه الصاحب الأعظم يلواج ثم لخلفه خلفِ الصدق الأمير مسعود بك ، حيث أصلحا المفاسد بآرائهمـا الصائبة ، ولكن لن يُصلح العطار ما أفسد الدهر ، فقد ضربا بيد من حديد على الثائرين والمدّعين ، وأزالا العواقب من الطرق والمدن ، وهكذا صحّ قول : إن العمار والعدل أشرقا على بلاد الشرق ، وبدتا جليتين على القاطنين .

ذكر استخلاص بخارى :

تعد بخارى قبة الإسلام في البلاد الشرقية ، وهي في تلك المسارح كمدينة السلام[1] ، تزين سوادها بنور علمائها وفقهائها ، وتحلت أطرافهـا بطُرَف المعالي ، وكانت في كل قرن تنتج مجمعاً من النحارير في كل علم ودين .

واشتقاق بخارى من كلمة « بخار » وهي باللغة المُغانية مجمع العلم . وهذه الكلمة « بخار » بلغة الوثنيين الأويغور والختا تعني موضع الأوثان في معابدهم . وكان اسم المدينة قبل ذلك « بُمْجِـكث »[2] .

حين أنهى جنكيز خان أمر ترتيب العسكر وتجهيزهم ، اتجه نحو ممالك السلطان . فأرسل أبناءه وأمراءه مع جيوش كثيرة إلى مواضع عديدة ، في حين أنه قصد بخارى ، وكان في خدمته ابنه تولي ، يصحبه جنود أتراك أشاوس لا يرهبون من شرب كأس الحرب ، وكأنها في نظرهم كأس مـن السمن ، يضربون بالسيوف وكأنهـم يتناولون زقـاق الخمر ، واتجـه نحو طريـق « زرنوق »[3] . ورفع رايته صباحاً ووجهها نحو الشرق ، وفاجأ القوم بمروره بهم ، وكانوا عن ذلك غافلين . وحين لاحت لهم أطراف الجيوش أصابهم الذعر من مثار النقع ، فتحول النهار إلى ليل من سير الخيول ، فلم يجدوا إلا التمسك بأهداب أسوارهم فأغلقوا الأبواب وأحكموا المراتج . وأيقنوا أنهم بحاجة إلى جيش لجب لينقذهم مما هم فيه .

---

(١) يعني مدينة بغداد (ت) .
(٢) وهو اسم مدينة سغد قديماً (ت) .
(٣) هي أول موقع بعد أترار (ت) .

لكن القدر الرباني ظل مهيمناً على المدينة فثبت أقدامهم ، ولم يتقدموا على مكروه . وفي هذه الأثناء ، وجرياً على عادة ملك العالم بعث حاجبه إليهم برسالة يخبرهم فيها نبأ وصول مواكبه ، وينصحهم بعدم التعرض للسيل المرعب . وقبل أن يبرز قوم « استحوذ عليهم الشيطان » فيتعرضوا للمكروه نادى بأعلى صوته : أنا مسلم ابن مسلم جئتكم ابتغاء مرضات الله برسالة من جنكيز خان ذات حكم نافذ ، مُريداً إنقاذكم من الهلاك المحتم ، ومن سفك دمائكم . فقد جاء جنكيز خان ومعه عدة آلاف من المحاربين المغاوير ، فإذا لم تخالفوه في أي أمرٍ أنقذتم من ساعة حصار مذهلة ، ومن سيل لدمائكم كالأنهار في الصحراء ، وإن أصختم إلى نصيحته وأطعتم أوامره تبقأرواحكم وأموالكم مصونة .

حين أدرك القوم ، من الخاصة والعامة ، صدق الطوية استمعوا له وقبلوا نصحه ، وأيقنوا أن الجبال لن تتزلزل تحت أقدامهم والأرض لن تميد بهم . فرأوا الصلاح بالصلح والفلاح بقبول النصح . فأخذوا عليه عهداً أن الأهالي بعد أن يوافقوا على أوامره أنه إذا أخلّ أحد رجاله بالشرط يقع اللوم عليه . وهكذا أنقذوا أنفسهم من الزلل ، وخطوا بطريق الصواب ، ثم طلب زعماء زرنوق وأعيانها ، فجاءه جمع منهم . وحين وصلوا إلى مرابض خيول الخان سأل عنهم ، وغضب لتأخرهم ، وأرسل رسوله في الحال يأمرهم بالمثول بين يديه . فاصطكت أطرافهم هلعاً وحلت بهم الرجفة . وأسرعوا فوراً للمثول بين يدي حضرته . لكن جنكيز خان ، حين رآهم في هذه الحال ، رأف لحالهم وأمّنهم فاستعادوا رباطة جأشهم . ثم أمر بخروج سكان زرنوق ، كائناً من كان ، إلى خارج المدينة . وبعد أن أحصى عدد الفتيان والشبان الذين سيرافقونه إلى بخارى سمح للباقين بأن يعودوا إلى منازلهم ، وأسمى هذه

القرية بـ « قتلغ باليغ » ، ويعرف التراكمة تلك المواضع جيداً ، فالطريق الذي سار فيه الجيش ، ولم يكن مسلوكاً قبلهم ، يدعى « طريق الخان » . وفي شهور سنة تسع وأربعين وستمئة حين توجه منكوقاآن بصحبة الأمير أرغون مر بهذا الطريق .

كان يسير في المقدمة طاير بهادر . فحين مروا بطرف « نور » زرعوا البساتين والحقول وغرسوا الأشجار ليلاً ، ونصبوا الشرفات الخشبية ، وسهلوا الطريق أمام الجيوش ، وساروا متمهلين في الطليعة إلى أن وصلوا إلى باب سور نور ، والعيون مذهولة نحوهم . وحكاية زرقاء اليمامة أنها بنت قصراً شاهقاً ، وكانت حادة البصر جداً ، حتى إنها إذا قصدها خصم فإنها ترى جيشه قبل عدة مراحل فتستعد له وتنتصر عليه ، ولا يملك خصومها إلا الحسرة، ولم تنطل عليها حيلهم جميعها ، فأمر أحد أعدائها يوماً أن تكسر الأشجار بأغصانها ، وأن يحمل كل فارس شجرة بين يديه . فرأت زرقاء اليمامة عجباً!! وقالت : أرى شيئاً شبيهاً بالأشجار يتحرك نحونا . فسألها قومها متعجبين : أأصيبت حدة بصرك بالخلل ؟ وإلا فكيف تسير الأشجار فلم يحتاطوا ولم يراقبوا الطريق . ففاجأهم خصمهم في اليوم الثالث وتغلبوا عليهم ، وأسروا زرقاء اليمامة وقتلوها .

وعلى كل حال فإن سكان « نور » أغلقوا الأبواب . فأرسل طاير بهادر رسولاً يُعلمهم بوصول الملك قاهر العالم ، ويغريهم بالانقياد وترك العناد حفاظاً على أرواح العباد . وعم الاضطراب في نفوس سكان نور ، لأنهم لم يصدقوا أن جنكيز خان قادم إليهم فعلاً ، كما أنهم لا يثقون بالسلطان ، فترددوا : بعضهم يميل إلى الانصياع ، وبعضهم الآخر يرى التمرد والعصيان خير طريق . ولكن حين وصل الرسول وأكد لهم قدوم الخان أظهروا الطاعة ،

ومالوا إلى العبوديـة ، فرضي طاير بهادر ، وقنع بذلك ، وتابع طريقه بعـد أن أرسل لهم رسولاً يأمرهم باستقبال سُبتاي● وتسليمه المدينة ، فامتثلوا لأمره وسلموه قصبة نور . وقرر أن على أهالي نور أن يخرجوا من منازلهم إلى خارج المدينة ، بعد أن يُخرجوا معهم ما لا بد لهـم في سبيل عيشهم . فالتزم السكان للأمر وخرجوا ، فدخل الجنود وسلبوا ما وجدوا ، من غـير أن يؤذوا أحداً كما جاء في العهد ، وصحبهم ابن الأمير نور إيل خواجه على سبيل العون والمساعدة كما هو متعارف عليه ، وأرسلوه إلى دَبوس[1] ، وحين وصل إلى جنكيز خان نهض إليه واستقبله ، وأخذه الى « خور تزغو »[2] ، وأكرمه جنكيز خان ومن معه ، ثم سأله : ما هو المال المقدر على المدينة أن تدفعه إلى السلطان ؟ فأجاب : ألف وخمسمئة دينار ، فطلب الخان أن يتسلم هذا المبلغ ولن يتعرضوا لهم بأي شيء آخر ، وهكذا ضمنوا لأهالي نور المذلة والعبودية والأسر . وبعد ذلك أشرقت أنوار نور .

ومن هناك اتجه نحو بخارى، وفي غرة شهر محرّم من سنة سبع عشرة[3] وستمئة حط رحاله على أبواب القلعة :

« وبعد ذلك أسدل الملك الستار ، على الصحراء بعد الحصار »[4]

وكان عددهم يفوق النمل والجراد ، وكأنهم أمواج بحر هادر ، توزعوا حول المدينة . كان من قواد الجيش خارج المدينة ، ويخص السلطان ، قائد

---

(1) دبوس : مرتفع يقع بين بخارى وسمرقند ، بقيت منه آثار حتى اليوم (ت) .

(2) لم يتضح مفهوم الكلمة . وهـي في المتن بالراء ، واعجمناها علـى النسخـة الانكليزية (ت) .

(3) بينما ذكرت بعض الكتب أن السنة هي ٦١٩ .

(4) البيت من الشاهنامة (ت) .

اسمه كوك خان • وتحت إمرته عشرون ألفاً ، يقولون إن أصله مغولي قدم الى السلطان واتصل به ، والعهدة على الراوي ، ولهذا علا مقامه عنده • وهناك أمراء آخرون مثل خَميد بور[1] وسِونج خان وكِشلي خان[2] ، وحين دنت الشمس من الغروب خرجوا من المدينة مع كثير من السكان ، وحين وصلوا إلى شاطىء جيحون داهمتهم طلائع الجيش وأفنتهم جميعاً :

إذا لم يكن يُغني الفرارُ من الرَّدى على حالةٍ ، فالصبر أولى وأحزَمُ[3]

وفي أحد الأيام ، والشمس حمراء كأنها إناء ممتلىء دماً فُتحت البوابة ثم أغلقت بعنف ، وقدِم منها أئمة مدينــة بخارى وشخصياتها ودنوا من جنكيز خان ، وطلبوا إليه أن يدخل المدينة معهم ، فرافقهم ودخل معهم المسجد الجامع ، ووقف في المقصورة وما زال على جواده ، أما ابنه تولي فقد صعد المنبر ، فسأل جنكيز خان : أهذا قصر السلطان ؟ قالوا : بيت الله • فنزل عن جواده ، وصعد بضع درجات من درجات المنبر وقال : لقــد خلت السهول من المراعي والأعلاف ، فافتحوا مخازن البلدة واملؤوا بهــا بطون جيادكم[4].

فتحت المخازن ، وسُحبت الغلات منهــا • وأفرغوا صناديق المصاحف على أرض الجامع ، وداسوها ، ثم صنعوا من هذه الصناديق أوعية للأعلاف ، ثم جلبوا النبيذ إلى الجامع وراحوا يكرعون الكاسات تلو الكاسات ، وأمروا

---

(١) هو اختيار الدين كشلي خان ، أمير اصطبلات خوارزم شاه (ت) •

(٢) أخو براق الحاجب •

(٣) البيت لأبي فراس ، ذكره الثعالبي في (اليتيمة ، طبعة دمشق : ٣٣/١) •

(٤) يلاحظ القارىء أن المؤلف هنا لم يبرر أفعالهم المشينة بطريقة ما • في حين أنه في كل إقدام إجرامي يمنحه ظرفاً وضرورة (ت) •

مغنيات المدينة أن يغنين ويرقصن • وعلّمهن المغول أصول الغناء المغولي ، أما العلماء والفقهاء والسادات والمشايخ فقد أمروهم أن يدخلوا اصطبلات القواد ليحافظوا على الدواب ، فالتزموا لأمرهم •

وبعد مضي عدة ساعات على هذه الحال عاد جنكيز خان إلى مخيمه ، فنهض رجالـه ورفسوا أوراق المصاحف بأقدامهم ، وحولوها إلى مواضـع القاذورات • كان بين الحاضرين الإمام الأمير جـلال الدين علي بن الحسن الرّندي[1] ، الذي يعدّ قدوة لسادات ما وراء النهر في الزهد والورع نظر إلى الإمام العالم ركن الدين إمام زاده الذي كان من العلماء ، طيب الله مرقدهما ، وقال : ما هذه الحال يا مولانا ؟ أفي اليقظة نحن أم في المنام ؟[2] فقال له إمام زاده : اهدأ ، ليس هذا وقت الكلام •

حين خرج جنكيز خان من المدينة ذهب لصلاة العيد وصعد المنبر ، وكانت عامة المدينة حاضرة فقال : أين هم هؤلاء الأقوياء ؟ وعدّوا الحاضرين فكانوا مئتين وثمانين شخصاً ، مئة وتسعون منهم من أهل المدينة ، والباقي غرباء ، أغلبهم تجار مروا بهذا المسجد ، وخطب فيهم فأشبع الحديث عن غدر السلطان وتعسفه ثم قال : يا قوم ، ألا فاعلموا أنكم ارتكبتم جرائم بشعة ، ومن جملة هذه الجرائم ما صنعه عظماؤكم ، فإن سألتموني : وعلى أي دليل تقول هذا الكلام ؟ أجبتكم : وهل وجودي الآن من عذاب الله أم من جرائم اقترفتموها ؟ لو لم تستحقوا هذا العذاب لما أرسلني الله إليكم •

وبعد ذلك حوّل خطبته إلى النصيحة : ليست الأموال التي ستقدمونها هي التي فوق الأرض فهذه ليس لها أي قيمة ، والذي له القيمة ما كمن تحت الأرض •

---

(١) وورد الزندي والزيدي (ت) •
(٢) يذكر المترجم الانكليزي أن الجملة بيت للأنوري (ت) •

ثم سألهم : من هم أمناؤكم ومعتمدوكم ؟ من هم ؟ فأجابت كل فئة عن شخص تتعلق به ، قالوا : باسقاق، أو بأي شخص مغولي، أو يزكي[1]، وكان قصدهم الا يتعرض لهم أحد من الجيش فيهينهم • ثم طالب هؤلاء المعتمدين بجمع الأموال ، وكلما قدم أحدهم شيئاً طالبوه بضعفه ، بل كانوا يكلفونهم بما لا يطاق ولا يؤاخذ المعتمدون على هذه المطالبات •

وفي كل صباح كان المعتمدون يدخلون على ملك العالم ويأمرهم جنكيز خان : ما دام جيش السلطان داخل المدينة ويحمونها فلن ننذر الشعب إلا إذا حاربوهم وقتلوهم وداهموهم • ثم أمر أن تحرق المحلات ، ولما كانت أكثر المنازل والمحلات مبنية من الخشب فإن النار استمرت مشتعلة عدة أيام ، إلا المسجد الجامع وبعض القصور ، فقد كانت مبنية بالآجر المطبوخ •

وبدأت حرب الحصار ، واتّقد التنور من الجانبين ؛ كانت المجانيق من الخارج تضرب ، والأقواس ترمي نبالها ، ومن الداخل تحركت قاذفات اللهب وقارورات النفط ، وغدا الفضاء كتنور ينفض شراره هنا وهناك ، واستمرت الحال هكذا أياماً ، وكان المحاصرون يخرجون أحياناً للإغارة والفتك ولاسيما كوك خان فقد كان أشبه بالأسد الهصور ، كان يغير على الجنود المغول ، وفي كل مرة يقتل عدة أشخاص ثم يعود سالماً •

وفي النهاية اشتدت الأزمة ، وعُذر المحاصِرون من الخلق والخالق بهجومهم المستعر ، فامتلأ الخندق بجثث الحيوانات وبقايا الجمادات فأحرقوا القلعة واستولوا عليها وكان فيها الأمراء والقواد والأعيان وأتباع السلطان ، فأذلهم الفلك حيث أُسروا ثم قتلوا :

---

(١) لعله يقصد (تركي) ، وكذا في الحاشية (ت) •

الدهـرُ يلعبُ بالـوَرى لِعبَ الصَّوالجِ بالكُرَهْ
أو لِعبَ ريـحٍ عاصفٍ فاعْلمْ بكفٍّ مِن ذُرَهْ
الدهرُ قنّاصٌ وما الـ إنسانُ إلا[1] قُنْبَرَهْ

وهاجموا الناس ، وقتلوا منهم أكثر من ثلاثين لفاً ، لم يتركوا صغيراً أو امرأة أو كبيراً ، وكأنهم أشجار سروٍ اجتثت من جذورها ورميت . وحين طُهرت القلعة والمدينة من الطغاة ، وتحولت جدرانها إلى تراب ، هرع الناس إلى ظاهر المدينة يبكون ويصلون ويبتهلون ، فمنحهم الخان حياتهم شريطة أن يرافقوه إلى سمرقند ودبوسية .

واتجه من هناك إلى سمرقند ، أما من تبقى من أهل بخارى فقد تفرقوا شذرَ مذَرَ بين القرى والعرصات ، في حين أن المدينة غدت قاعاً صفصفاً . وفَد واحد من سكان بخارى إلى خراسان بعد الواقعة التي شهدها ، فسأله الناس عن حال بخارى فقال : جاؤوا ، وحفروا ، وأحرقوا ، وقتلوا ، ونهبوا ، وذهبوا ، من سمع قوله من أهل المعرفة قال : ليس في الفارسية أوجز ولا أوضح من هذا الكلام ، فقد فسر كل ما جرى ببضع كلمات .

حين وصل إلى سمرقند أرسل توشا باسقاق شحنة على بخارى ، فاشتغل بنائها شيئاً فشيئاً ، واستمر عليها حتى استلم قاآن مقاليد الحكم بعد ملك العالم ، فعين عليها الصاحب يَلَواج[2] ، حيث شجع السكان الهاربين منها

---

(1) من أبيات للقاضي أبي الفضل احمد بن محمد الرشيدي اللوكري من أولاد هارون الرشيد ، ذكرها الثعالبي في التتمة .

(2) قصده الصاحب الأعظم محمود يلواج وابنه مسعود بيك . محمود يلواج عينه قا آن حاكماً على ممالك ختا أي الصين الشمالية ، ومسعود بيك عينه على بلاد اويغور وختن وكاشغر وما وراء النهر حتى نهر جيحون (وانظر جامع التواريخ: ٨٥) . ويلواج أحد وزراء جنكيز خان (ت) .

على العودة إليها ، ونشر بينهم العدل والرأفة ، فحسنت أوضاع المدينة ، بل بلغت أقصى غاية في الرقي ، وعاد إليها الكبار والكرام والقاصي والداني .

وفي شهور سنة ست وثلاثين وستمئة برز فجاءة من أطراف بخارى أحد المتصوفة واسمه غربال . فاجتمع حوله بعض العامة ثائرين . وحين اشتدت شوكتهم جاء الأمر بإفنائهم جميعاً . لكن الصاحب يلواج حاول حلّ الأزمة بالشفقة ودفع البلاء المفاجىء بالاعتناء ، فأعاد المياه إلى مجاريها ، يسعى في كل يوم إلى نشر الفضل والعدل . واستمر الحال يتقدم حتى غدت بخارى تفوق كل المدن الإسلامية نوراً وازدحاماً. فقد توافدت عليها وفود العلماء والطلاب، فاستعادت رونقها في البناء ، ومكانتها في العلم ، وقد بني فيها موضعان سيذكرهما التاريخ دوماً ؛ الأول هو المدرسة الخانية فقد أمرت ببنائها سُرقويتي[1] . والبناء الثاني هو المدرسة المسعودية ، وكل مدرسة من هاتين المدرستين تضم ألف طالب ينهلون العلم من المدرّسين النحارير وعلماء العصر وفريدي الدهر ، والحق أن هذين البناءين زيّنا بخارى بأبهى زينة ، ورفعا من مقامها إلى أعلى مرتبة في الإسلام ، مما خفّف على سكان المدينة الأعباء والأثقال الماضية أطال الله من عمر الملك العادل ، وهداه السبيل إلى نشر الدين الحنيف والإعلاء من شأنه .

---

(١) سرقويتي بيكي بنة جاكمبو أخي أونك خان ملك أقوام الكرايت،وهبها جنكيزخان في حياته إلى ابنه الرابع تولوي . وكانت من الخواتين المحبوبات لدى تولوي ، وأماً لأربعة من أولاده وهم : منكو قا آن ، قوبيلاي قا آن ، هولاكو خان ، أريق بوكا .

ذكر خروج تارابي* :

كانت شهور سنة ست وثلاثين وستمئة قران نحسين توقعهما المنجمون في برج السرطان ، قالوا : إن فتنة ما ستحتدم وربما خرج مدّعٍ • كان على بعد ثلاثة فراسخ من بخارى قرية يسمونها « تاراب » ، فقد برز منها رجل يدعى محمود صانع الغربال ، يقولون إنه في الحمق والجهل لا مثيل له ، بدأ أمره بالمكر والزهد والعبادة ، ثم ادعى أن الجن تكالمه ، وتخبره عن الغيبيات • وفي بلاد ما وراء النهر كثير من الناس يدّعون محادثة الجن والشياطين ، وكل من شكا مرضاً أو ألماً زارهم ، فينادون الجن ، ويرقصون لها ، وأمثال ذلك من الخرافات ، والجهلة والعامة من الناس هم الذين يؤمنون بمثل هذه الخزعبلات والهذَيانات• فيحدث المدّعي زائره بكلام يشيع بين العامة والجهلة، فينجذبون إليه ويتبعونه • وكثيراً ما كانوا يتفقون مع بعض الأصحاء بأن يدّعوا المرض ثم يشفون على أيديهم ، فيصدقهم الناس « إلا من أتى الله بقلب سليم » • وكم سمعت في بخارى عن أشخاص يصدقهم العامة ، استطاعوا أن يشفوا عُمياً بفضلات كلب ، وحين حدثوني عن مثل هؤلاء أجبتهم أن المكفوفين عمي « وسيبقون كذلك ، وإلا كانت معجزتهم شبيهة بمعجزة عيسى ابن مريم ، فقد قال الله تعالى : « تُبرِىءُ الأكمه والأبرصَ » ، وإن رأيت مثل هذه الحالات اشتغلت بمداواة العيون •

وكان في بخارى عالم عُرف بفضله ونسبه ، يدعى شمس الدين المحبوبي، كان يعد من علماء بخارى إلا أنه أضاف إلى علمه شيئاً من حمقه ، إذ آمن بهذا

المدّعي وكان من المعتقدين به ، فقد قال عن هذا الجاهل : يروى عن أبي أنه قرأ في كتاب أن شخصاً سيظهر في تاراب يخلص الدنيا من صاحب الدولة ، وظهور هذا الرجل يؤيد ما جاء في الكتاب،وأخذ بهذا الرجل الجاهل والعاقل، وما ادّعاه المنجمون يصدق يوماً فيوماً ، فازداد الناس إيماناً به ، حتى عمت شهرته المدينة والقرى حولها . وبرزت علائم الفتنة للعيان ، وقد حاول الأمراء والمعاونون تسكين الثورة ، ثم أرسلوا رسولاً إلى « خجند » مقر الصاحب يلتواج . فأرسل إليه جماعة يطلب منه زيارته في بخارى للتبرك والتقرب . فلبى التارابي الدعوة . وكان قد اتفق مع مقدم العسكر على أنه حين يصل إلى جسر « وزيدان » يفاجئونه بالنبال ، ويرون آثار الهجوم عليه ، وحين وصل وفده إلى الجسر رأى عدد الجنود كبيراً فتوقف وقال : إذا لم تعودوا أمرت أن تقلع عيونكم التي ترون بها . حين سمع الجنود المغول هذا الكلام قالوا: الحق أن أحداً لم يخبرنا أن كلامه صحيح ، فخافوا ولم يتعرّضوا لـه حتى وصل إلى بخارى ، ونزل في قصر سَنْجَر الملك ، فأكرمه الأمراء والأكابر خير إكرام ، وبالغوا في إعزازه ، في حين أنهم كانوا يتحينون الفرصة المواتية ليقتلوه ، لأن عامة السكان يتجمعون في الشوارع والأسواق ، وكانوا مزدحمين كثيراً ، حتى الهرة لا تجد لها طريقاً بينهم ، ينتظرون أن يخرج إليهم ليباركهم. ولما كانت الأبواب موصدة من ازدحام الناس فقد خرج إلى السطح ، وملأ فمه ماء ، وجعل يرش الماء من فمه ، فمن وصل إليه شيء تبرّك به وسعد وتراجع عن مكانه .

أدرك أحد أتباعه المضللين بغوايته النية المبيتة لقتله[1] ، فأعلمه فوراً . وفجاءة نزل من أحد الأبواب سراً ، وامتطى أحد الجياد الواقفة قرب الباب ؛

---

(١) قتله من قبل المغول (ت) .

من غير أن يعرفه أحد ، وقفز بسرعة إلى « تل حفص » ، وبدقائق عاد الناس يجتمعون حوله، ثم عاد واختفى من تحت أبصارهم، فأسرع الفرسان بحثاً عنه، ثم عادوا فرأوه على أعلى التل ، وصاح الناس عندئذ : لقد استطاع الشيخ بقفزة أن يطير إلى التل ، فانصاع الناس إليه وسُلبت عقولهم ، وتجمع الناس حوله ، فنهض بينهم لصلاة العشاء واتجه نحو الناس وقال : أيها الرجال ، إلى متى تنتظر في هذه الدنيا ؟ علينا أن نطهر البلاد من الملحدين ، فمن لديه سلاح أو عصا فليعدّه فوراً وليتجه نحو المدينة ويقتل من يراه يستحق القتل .

كان ذلك اليوم يوم جمعة ، وكان الملك ينزل في القصر الرابع (؟) . فطلب الصدور والأكابر والمعارف . وكان رئيس الصدور برهان الدين من سلالة أسرة البرهاني والبقية من أسرة « صدر الدنيا » ، فقد اقترح أن يكون خليفة والشمس المحبوبي وسمه بالصدر ، أما أكثر الصدور والمعارف فقد اقترحوا قتله أو طرده .

واستمال الشعب إليه وقال : إن جيشي مؤلف من واحد من بني آدم وهو ظاهر ، وواحد مخفي من جنود السماء يطير في الفضاء ، والجن التي تتحرك تحت الأرض ستظهر لكم الآن ، فانظروا إلى السماء وإلى الأرض لتؤمنوا بدعواي ، فنظر المعتقدون وقال لهم : بذاك المكان واحد بثوب أخضر، وفي ذاك المكان واحد بثوب أبيض يطير ، وصدقته العامة ، وكل من قال : لا أرى ضُرب بالعصا ، وقال آخر سيرسل علينا الحق تعالى أسلحة من عنده. وفي هذه الأثناء وصل من وجهة شيراز تاجر ومعه أربع دواب تحمل سيوفاً . عندئذ لم يشكّ أحد بالظفر والفتح .

ويوم الجمعة خطب له على المنابر على أنه السلطان الجديد ، وعقب صلاة الجمعة هجم الناس على منازل عظماء المدينة فطرحوا أدوات المنازل ، وفرشها

وهدموا خيامهم ، وألفوا جيشاً أخذ يغير وينهب • وحين حلّ الظلام سهر السلطان الجديد مع عبدة الجن ليلة عارمة بالسرور • وعند الصباح اغتسل بالماء ، على حسب قولهم :

إذا ما فارقَتْني غسَّلَتْني كأنّا عاكفانِ على حرام[1]

فاقتسم الحضور هذا الماء تيمّناً ، واستخدموها شراباً للمرضى ، وغنموا من ذلك مالاً عظيماً وزع على الجيش وعلى المقرّبين • ولما رأت أخته أنه يتصرف بالمال والأعراض ويعيث فساداً ، وقفت ضده تنبه الناس وتقول : لقد انحرف أخي عن الطريق الذي حددته له ، وهرب الأمراء والصدور منه وتجمعوا في « كَرمينية » ، وتجمع المغول في تلك الحدود ، وهاهم قادمون إلى المدينة فاستعدوا •

فاستعد التارابي كذلك يرافقه السوقة وإلى جانبه المحبوبي وقف من غير سلاح ولا درع ، وكان قد شاع بين الناس أنهم محميون فثبتوا واستل الجيش المغولي سيوفه ونباله بتؤدة خائفين ، ومصادفة طار نبل نحو أحد رجال التارابي فأصاب منه مقتلاً ، ونبل آخر أصاب المحبوبي ، ولم يتأثر التارابي، وكأن الاثنين ليسا من رجاله ، ثم تقدم فجأة نحو المغول وحمل حفنة من التراب ورمى بها على وجوه خصومه ، وكأنه يعمي أبصارهم • فظن الجيش أن هذا من كرامات التارابي ، فهربوا ، فتبعهم رجال التارابي ، ولحقهم القرويون بالمعاول والفؤوس ، وكانوا إذا قبضوا على واحد ، ولا سيما إذا كان من العمال قتلوه ، حتى وصلوا الى « كرمينية » ، وكان قد قتل حوالي عشرة آلاف رجل ، ثم عاد رجال التارابي ، وبحثوا طويلاً عن سيدهم لكنهم

---

(١) البيت للمتنبي ، ومطلع القصيدة : ملومكما ••• الكلام •

لم يعثروا عليه ، فقالوا : لقد غاب عنا ، وإلى أن يظهر ثانية ننصب أخويه : محمداً وعلياً مكانه .

وتبعهما العوام من الناس ، فأطلقا العنان للسلب والنهب والإغارة وبعد أسبوع من ثورتهما وصل جيش المغول بقيادة إيلدز نويان وجكين قورجي . فخرج إليهم هذان الجاهلان ومعهما أتباعهما ، وبلا أسلحة ولا دروع إلا القليل ، وبدأت المعركة بين الطرفين فقتل الكثير حتى بلغ عدد القتلى عشرين ألفاً . وفي اليوم الثاني تقدم أصحاب السيوف ، لكن الناس أقبلوا عليهم من كل جانب ، فقتلوا من الرجال والنساء والأطفال مئات ، واستمر الحال على هذا .

وفي النهاية حلّ اللطف الإلهي كي تنتهي الفتنة على خير بيد محمود لأن اسمه محمود ، وعاد إلى المدينة الحظ المسعود . حين وصل محمود زجر الناس عن القتل والنهب وقال لهم : كيف تقتلون الخلقَ بالآلاف بسبب مفسد واحد؟ والمدينة التي تعبت في بنائها كيف تخربونها ؟ وبعد الإلحاح والمبالغة قرر أن يشرح الأمر للقاآن ويرجو عفوه باسمهم ويتجاوز عن خطيئاتهم ، فهدأ الناس ، ثم جاء الأمر بالعفو ، وكان ذلك باجتهاد محمود المشكور .

ذكر استخلاص سمرقند :

سمرقند أعظم بقاع مملكة السلطان مساحة ، وأطيبها رباعاً ، وقديماً قالوا : أنزه جنان الدنيا أربع ، وسمرقند أطيبها :

إنْ قيل : في الدنيا تُرى جنةٌ   فجنةُ الدنيا سمرقندُ
يا مَن يُوازي أرضَ بلخٍ بها :   هل يستوي الحنظلُ والقَنْدُ؟[1]

(1) نسبهما ياقوت (معجم البلدان ــ سمرقند) إلى البستي .

هواؤها معتدل ، وماؤها على طيب ريح الشمال مشتمل ، وترابها قصب
ذو خصائص النبيذ الناري :

أرض حصاها جوهر ، وترابها مسك ، وماء المد فيها قرقف[1]

حين عاد السلطان من المعركة كان في نيته أن يتوقف ويستقر ، ولكنه حار في أمره ، فهو يريد أن يوطد أركان الحكم وينظم البلاد ، ولهذا أرسل قواده وأنصاره ، ووزعهم بنظام . وهذا ما دفعه إلى الإقدام على سمرقند . فأعد مئة وعشرة آلاف من الجنود ؛ ستون ألفاً منهم ترك عليهم أحد الأعيان واسمه اسفنديار روئين تن ، إن رأيت رمية نبله وضربة سنانه عجبت من وجود هذه الشخصية المحاربة . وخمسون ألفاً من التاجيك[2] ، كل واحد منهم رستم زمانه ، ومعهم عشرون فيلاً من الفيلة الضخمة الشبيهة بالجن :

يُقلّبْنَ أساطينَ ويَلعبْنَ بثُعبانٍ
عليهنّ تَجافيفُ يُسهَّرْنَ بألوانٍ[3]

وكأن الفرسان والمشاة على رقعة الحرب فرازين[4] ، لا يتراجعون عن لقاء الرخ[5] ، وغلبتهم في اللقاء تفوق حد التصور والبيان ، ومع كل هذا

---

(1) البيت لأبي سعيد الرستمي في مدح ابن عباد (اليتيمة : ٣/١٤٤) .
(2) لقب أطلقه الفرس على الأتراك وفيما بعد على العرب بمعنى اللصوص والمغيرين (ت) .
(3) من قصيدة لبديع الزمان الهمذاني في مدح السلطان محمود الغزنوي ، وهي مذكورة في تاريخ اليميني وبعضها في يتيمة الدهر .
(4) فرزين وفرزان : الوزير (ت) .
(5) حجر الشطرنج بشكل البرج (ت) .

فإنه أمر بالاستحكام التام ، ومحاصرة الأسوار ، كانت الجدران شاهقة تبلغ الثريا ، وكان الخندق ممتلئاً بالماء الكثير .

وحين وصل جنكيز خان إلى أُترار ترامى إليه أن سور سمرقند محكم ومن الصعوبة بمكان التغلب على جيشها ، والوصول إلى قلعتها ، وهذا ماكان متداولاً بين الناس كذلك . لهـذا التزم مبدأ الاحتياط ، بأن يطهّر كل ما حولها ، حتى إذا تمّ له ذلك اتجه نحوها . فاتجه أولاً شطر بخارى ، فبعد أن استولى عليها اتجه نحو سمرقند . فأتى بحشر من الجند . ولم يتوقف في طريقه ، ولم يتعرض للقبائل المتناثرة في البراري . وكان إذا مر بمواضع تحتاج إلى حصار وحرب ترك فئة من الجند عليها مثل مدينتي سَربُل ودَبوسية . وحين أنهى أولاده مهمته في أترار لحقوه بجيوشهم . واختار جنكيز خان مخيمه في « كوك سراي » . وجاء إلى المدينة يدور حولها ويتفحص سورها ، ويتفقد فصائله . ولم يطلب من الرجال أي إقدام . أما يَمَه وسبتاي ، اللذان يعدان من قواده المعتبرين ، فإنه أمرهما بأن يعسكرا مع ثلاثين ألف مقاتل خلفه . في حين أن غداق نويَن ويَسَوُر فأمرهما أن يحاصرا وخش وطالقان[1] .

وفي اليوم الثلاثين ، حين بزغت الشمس صعدت الأدخنة السوداء فغدا الوقت ليلاً مدلهماً . فقد اجتمعت الجيوش ، ومن معهم من الحشر ، وأخذ العدد يزداد شيئاً فشيئاً ، فصار عددهم عدَد الرمل في الصحراء ، وعدد قطرات المطر ، وتوافد الخانات والأمراء على ملك العالم يطلبون المثول بين يديه ، وأيديهم على النبال جاهزة . وقتل في ذلك اليوم كثير من فرسان الطرفين وجنودهما . وأقدم الترك السلطانيون على الهجوم كراً وفراً ، فاستطاعوا أن يأسروا عدداً من رجال المغول ويُدخلوهم إلى المدينة ، كما سقط منهم القتلى:

---

(١) هي غير طالقان قزوين (ت) .

« ولّت الشمس وغطت الظلمة كل الوجود ، فأرسلت السماء ناراً من علٍ ، ونبعت الأرض دخاناً »

واستعد كل واحد في مكانه ، حتى لا يؤ خذوا على حين غرة ليلاً ، ونهض جنكيز خان يتطلع إلى الأسوار ، وحده ، وهو راكب جواده . فطاف حول المدينة ، وأيقن أن الجنود مستعدون من الداخل ومن الخارج على السواء . واستمرت الحرب ذلك اليوم حتى وقت صلاة العشاء. ولكن المنجنيق والنبل وقذف الحجارة ظلت مستمرة . والمغول واقفون تجاه البوابات يمنعون جنود السلطان من الخروج ثانية . ولما وجدوا أن ميدان المبارزة والمباغتة سدّ عليهم أنزلوا عليهم الفيلة ، لكن فرسان المغول كانوا لها كذلك بالمرصاد . ولما رأت الفيلة أن الطريق مسدود عادت أدراجها إلى مكانها بعد أن داست خلقاً كثيراً . إلى أن جاء ملك الختن وهاجم الأبواب فأقفلت تماماً .

كان كبار القوم من حرب هذا اليوم خائفين ، واضطربت الآراء فيما بينهم؛ فمن مائل إلى الصلح ، منقاد راغب ، ومن خائف على روحه الغالية ، وطائفة تبتهل إلى الله قضاء حسناً ، وزمرة ميالة الى جنكيز خان ، وتمانع الحرب ، الى أن جاء يوم آخر :

« حين فرشت الشمس ريش حرارتها ، رمى الغراب الأسود (الليل) الدوار جناحه »[1]

حشم المغول شجعان مقدامون ، وأهالي سمرقند مترددون ، وأمر الحرب جرى بغير مرضاتهم ، وعزموا على أمر ؛ فقد بادر القاضي وشيخ الإسلام وعدد من علية القوم إلى لقاء جنكيز خان ، واتفقوا معه على وقت محدد . ثم طلبوا منه العودة إلى المدينة ، وحين يدخلون وقت الصلاة من البوابة الخاصة للصلاة يدخل المغول معهم . وكان كذلك .

---

(١) بيت من الشاهنامة (ت) .

وشغل الجنود ذلك اليوم بتخريب المدينة ، من غير أن يتعرضوا للسكان، إلى أن اشترك في الحرب الختائيون المشركون ، فقد أشعلوا البلد حتى لم يُبقوا فيها حجراً على حجر ، واستمر ذلك ثلاثين يوماً ، وبعدئذ دخل الجنود المغول العنيفون وأخرجوا السكان رجالاً ونساء إلى ظاهر المدينة ، عدا القاضي وشيخ الإسلام ومن لاذَ بهما من أقربائهما والمقربين منهما . فقد أعفوهم من الخروج ، وأبقوا عليهم في المدينة ، وكان عدد الباقين يدنو من الخمسين ألفاً .

ثم دخل المنادون ينادون أنّ من اختفى عن الأنظار أو اختبأ دمُه مهدور . ثم هجم المغول يغيرون على المنازل ، وقتلوا كل من اختبأ في المغارات والمجاري والمنافذ ، ونهبوا ما تبقى من الممتلكات . وقدم الفيّالون إلى جنكيز خان يطلبون علفاً لفيلتهم ، وهي جائعة . فأمرهم أن يطلقوها ترعى في السهول . فتركوا الفيلة كما طلب ، ولكنها ماتت . وبعد أن تمت مهمة المغول خرجوا من المدينة،وظل الناس في هلع وقلب واجف،وفجأة خرج ألْب خان من القلعة ومعه ألف من الرجال والجنود ، قد أكل الخوف أفئدتهم . وأخذوا يضربون في العسكر وهم يحاولون الهرب . وأخيراً تمكنوا من الخلاص واتجهوا نحو السلطان . ثم خرج في صباح اليوم التالي عدد من حرس السلطان يضربون بسيوفهم وخناجرهم . لكن الجيش التف حولهم وحول القلعة ، واحتدمت المعركة بين الطرفين ، واشتد التراشق بالنبال والحجارة ، حتى خربوا جدرانها وردموا نهر « أرزير » . كما استطاعوا بين الصلاتين أن يستولوا على البوابة، كما تمسك ألف من شجعانهم بالمسجد الجامع ، واشتركوا في معركة طاحنة ، مما اضطرهم في نهاية الأمر إلى استخدام النفط الحارق ، فأحرق المسجد بمن فيه من الناس ، ثم دخلوا القلعة وأخرجوا المختبئين فيها ورموهم خارج المدينة مع الآخرين . ثم فصلوا الأتراك عن الأقوام الآخرين ، وقصوا شعور الترك ، وجعلوا رؤوسهم على شكل رؤوس المغول .

وحين أفلت الشمس انتهت حياة النهار . وفي تلك الليلة تحوّل الناس بين حريق وغريق وميت تحت الأنقاض ، وكان عدد أصحاب الفناء يقرب من ثلاثين ألفاً أو يزيدون وكلهم من العرقين : القنقلي والتركي ، ومن مقدّميهم برشماس خان وتغاي خان وسرسيغ خان وأولاغ خان[1] مع عشرين ونيف من الأمراء والرؤساء التابعين للسلطان ، وقد سُجلت أسماؤهم جميعاً في المرسوم الخاني الذي بعث به جنكيز خان إلى ركن الدين كرْت ، وفيه كل أسماء أمراء الجيش والولايات الذين قُهروا وكسروا .

ولما حل بالمدينة والقلعة الخراب والدمار ، وتجرّع أكثر الناس كؤوس الهلاك عادت الشمس إلى إشراقتها المعتادة . وعُدت الخلائق التي نجت رقابها من السيوف فكانت ثلاثين ألفاً ، فوزعت على أبناء الأمراء والأقرباء والمقربين . أما الفتيان والأصحاء فأخذهم قواد الجيش للسخرة معهم .

أما البقية الذين لم يُقتلوا ولم يوزعوا خدماً وحشماً ومنحوا حق الحياة بحرية في بلدهم فعليهم أن يدفعوا مبلغ مئتي ألف دينار ، وعلى العمال أن يجمعوا الأموال من السكان ، وكان ثقة الملك الأمير العميد الكبير من أصحاب المناصب الكبيرة في سمرقند قد أوكل إليه أمر جمع هذا المال وتحويله ، والإشراف على شحنة البلدة .

ونقل الخان معه بعضاً من هذا الحشر في أثناء ذهابه إلى خراسان ، وأرسل بعضاً آخر إلى أبنائه في خوارزم ، وكثيراً ما كانوا يطلبون مثل هذا الحشر ، وهذه الفئة التي تدعى الحشر لا تنجو من الفناء طبعاً .

كان ما ذكرناه ، ولا سيما الواقعة ، جرى في شهر ربيع الأول سنة ثمان عشرة[2] وستمئة ، فأين هم أصحاب النظر والفكر ليعتبروا بهذا الزمان

---

(١) الاغ بالتركية : جواد البريد ، وانتقلت إلى الفارسية بمعنى الحمار (ت) .
(٢) لعل الأصح هو ٦١٧ (ت) .

المتلىء بالشعوذة والخزعبلات ، حتى لا يفكروا بأي أمر يعكر صفو حياة الخان ، ليعلموا بأن نسائمه لا تقارن بالسَّموم ، ولا نفعه بالضرر ، وخمره لساعته أما خُماره فدائم ، ربح أو ريح ، كنز أو ألم :

« لا تجزع أيها القلب فالحياة مجاز ، ولا تحزني يا روح فمنزلك هذا مؤقت » •

ذكر واقعة خوارزم :

وهذا اسم الناحية ، واسمها الأصلي « جرجانية » ، ويدعوها أهلها « أوركنج » • وهي قبل أن تتقلب عليها عاديات الزمان ، ينطبق عليها الحكم : « بلدة طيبة ورب غفور » • كانت مقر سلاطين العالم ومستقر مشاهير بني آدم • ضمت في زمانها وتحت أكنافها أشراف الدهر ، ووفدت عليها طرائف العالم • امتازت بالمغاني الرائقة ، وبرزت فيها أنوار المعاني المغدقة • وإنما تعرف الرباع بما نشأ فيها من أصحاب وأتباع • فكان يعقد فيها مجالس الشيوخ العظماء مع السلاطين ذوي الشأن • وفي كل بقعة ما شئت من دين ودنيا ، بحسب حال ما تحوي :

خوارزم عندي خير البلاد　　فلا أقلعت سُحبُها المغدقه
فطوبى لوجه امرىء صبّحتـ　　ـه أوجه فتيانها المشرقه[1]

وإذ خلت يد جنكيزخان من فتح سمرقند غدت ممالك ماوراء النهر كلها له ، وزالت منها آثار أعدائه • ومن جانب آخر حُفظت حدود جند وبارجليغ كنت •

---

(١) البيتان لابن عنين (ياقوت مادة خوارزم) •

وبدت خوارزم كخيمة تقطعت حبالها . ولما كانت نية جنكيز خان تعقب السلطان وتطهير المعاندين من أهل خراسان بنفسه فقد أوكل أمـر خوارزم لولديـه : جغتاي وأوكتاي ، ولأن الأحداث كثيرة والبلاد شاسعة ، فقد أرسل من جند حشراً من السكان مدداً لابنه توشي ، فساروا عن طريق بخارى ، وجعل على مقدمتهم يزك الذي كان كالقضاء المحتم والبرق الطيار .

كانت خوارزم في تلك الآونة بـلا حكام ، ومن أعيان جيشها خمـار التركي[1] ، وكان من أقرباء تركان خاتون . ومن أعيان المغول فيهـا حاجب وأربوقا البهلوان والقائد الأعلى علي دروغيني[2] . وجمع آخـر من هـذا المستوى ، وذكرهم من باب الإطالة من غـير طائل ، تخلفوا في المدينة ولـم يرحلوا عنها . بالإضافة إلى أماثل الدهر وأفاضل العصر ، وعدد لا يعد ولا يحصى من السكان ، وهم أكثر من رمال الصحراء . هذا العدد الهائـل من المخلوقات ترك بلا حاكم يرجعون إليـه في الملمات ، ليمنـع عنهم العاديات . ولكن بحكم القرابة التي كانت بين خمار والخاتون ، أجمع الأعيان على تنصيبه سلطاناً عليهـا ، وأسموه الملك نوروزي . ولم يكن هذا السلطان علـى علم بماجريات الأحداث التي تجري ولا بالفتن التي تقع في البلاد المحيطة به . وظل على غفلته هذه حتى طرق بوابة المدينة بعض القادمين ، ومعهم أربـع دواب يجرونها . فاستخف بعض قصار النظر بقدومهم ولم يعبؤوا بجسارتهم ، وما

---

(١) ويروى : خمارتكين .

(٢) سمي الدروغيني لكذبه . والحقيقة أنهم يدعونه « كوه دروغان » وكوه معناها الجبل . أي أن أكاذيبه كالجبال ضخامة . « انظر سيرة منكبرني : ٥٥ والمعجم الذهبي » (ت) .

دروا أن وراءهم البلاء الأعظم ، وبعد هذه العقبة عقبات تحمل ألواناً عجيبة من العذاب •

وبعد حين ليس بالكثير لمحوا فرساناً من التتار ممتلئين بالبأس والنفار ، يركضون نحـو الأسوار ويهجمون كالذئاب الجائعة على قطيع بـلا راع • وما هي إلا لحظات حتى أمطروهم بالنبال ، وبعـد ذلك حلت عليهم السيوف والرماح • ولم ينته النهار حتى كانوا قد قتلوا منهم مئة ألف نفس ، ولا تسأل عن العويل والنعير والهياج والمياج • ولاحقوهم حتى بوابة « قابيلان » ثـم إلى موضع يقال له التنورة ، فاحترق كثير منهم • حتى إذا أفلت الشمس توقف الجيش عن الضرب •

وفي اليـوم الثاني حين استلت الشمس سيفها على الأفق عـاد ضاربو السيوف إلى ضربهم بكل عزم ، ودخلوا المدينة • وكان فريدون غوري ، أحد قواد الترك ومن جملة رجال السلطان ، ومعه خمسمئة رجل من رجاله يترقبونهم قرب البوابة • ومضى اليوم الثاني بمصارعة هؤلاء الرجال • وبعد ذلك وصل جغتاي وأوكتاي مع جيش كالسيل في انحداره وكالرياح في عاصفاتها • وطافوا حول المدينة من غير أن يدخلوها • وبعـد ذلك أرسلوا إلى الأهالي رسـلا يحثونهم على الانقياد ، في حين أن الجيش اتخذ شكل الدائرة حول البلدة ، وحط رحاله حولها كالقضاء المتأهب ، وشغل بترتيب آلات الحرب من أخشاب ومنجنيقات وأحجار • وكما هو المعهود فقد كانوا يرسلون في كل يوم رسلهم يعدونهم ويتوعدونهم ، يؤملونهم ويهددونهم • وكانوا أحياناً يقذفون النبال ، ليدرك الأهالي معاني الحرب وآلاته •

ووصلت جحافل الوفود من جند وما حولها من أعوان وأجناد ، فأحاطوا جميعاً بالبلدة وهم مستعدون للحرب والقتال ، تصدر عنهم أصوات كالرعد

الهادر . وأخذوا يقذفون الحجارة والنبال تتساقط علـى السكان كالبرد .
وأمروا أن تجمع الأعلاف ، ويملأ الخندق بالماء . ثـم أمروا السكان الذين
أحضروهم معهـم من الأطراف (الحشر) أن يتقدموا ليقطعوا علـى السكان
الاتصال ، ويرهبوا جنود السلطان المزور والذي على رأسهم خُمار السكران،
كما قال الله تعالى : « لعَمرُكَ إنهم لفي سكرتهم يعمهون » . فرأى بأم عينيه
عنفهم فانشق ، قلبه نصفين خوفاً ، وجاءه اليقين أخيراً باستيلاء التتار بعد أن
كان ظن الظنون . فانعدمت الحيلة من جبلته ، وانكتم الرأي والتدبير لديه .
فخرج مشتتت التفكير يتبعه كثير من الأهالي . فرفع جيش التتار الراية فوق
سور المدينة ، وعلت صراخاتهم المرعبة فهلع لهـا قلب السكان فتمسكوا في
مواضعهم من الحواري والأزقة ، وهاجموهم فغدا في كل حي حرب وفي كـل
زقاق معركة ، وراح الجيش يرمي المدينة بقوارير النفط فتحرق المحال والدور ،
ويقذف الناس بالمنجنيقات . واستمروا على هذا المنوال حتى منعتهم الظلمة
فعادوا إلى خيامهم .

وعادوا في الصباح عودهم على بدئهم ، يحاولون أن يصدوا الهجوم بكل
وسيلة واستحال معظم المدينة إلى خراب ، وانطمر تحت التراب الكنز والمال ،
فخسر التتار كثيراً من غنائمهم ، فتوقفوا عن الحريق . كان نهر جيحون يمر
بالمدينة ، ويصل طرف المدينة جسر أغلقه الناس عليهم ، فتقدم ثلاثة آلاف
تتري من الجسر وخربوه من وسطه . فوقـع الناس في مأزق جديد ، إذ لـم
يعودوا يستطيعون الخروج من مكانهم ، فقاسوا كثيراً ، وصبروا على الحرب.

أما في الطرف الآخر فكان الأمر مريراً أيضاً ، فأوار الحرب هائج ، وبحر
القتال مائج ، والفتنة النكباء تنتقل من محلة إلى محلة ، ومن منزل إلى منزل.
وقتلوا عدداً لا يحصى ، حتى استسلمت لهـم المدينة ، وساقوا الباقين إلـى
الصحراء . فمن كان ذا حرفة وصناعة فصلوه ، وكانوا مئـة ألف ، وأخذوا

النساء والأطفال عبيداً . أما باقي الرجال فقسموهم على الجيش ليقتلوهم . فكان نصيب كل جندي قتل أربعة وعشرين رجلا . قال تعالى : « فجعلناهم احاديث ، ومزقناهم كـل ممزق . إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » . ثم شغل الجيش بالنهب والسلب وتهديم بقايا المنازل والمحال .

لما كانت خوارزم مركز الرجال المحاربين ومجمع نسـاء الأنس والطرب فقد أمضت أياماً عصيبة ، وأثقلت بالقوة الخانية ، حتى غدت مأوى ابن آوى ، وعش البوم والغراب . حرمت من السعادة ، وذبل جنان أهلها حتى لتظن الآية: « وبدلناهم بجنتيهم جنتين » قد نزلت بشأنهم . وكأن الإيوان قد سجل في بساتينهم ومتنزهاتهم « كل ما هو آت آت » ، والبيتين :

رب ركب قـد أناخـوا حولنا   يمزجون الخمر بالمـاء الزلالِ
ثـم أضحوا عصف الدهر بهم   وكذاك الدهر حال بعد حالِ [1]

والخلاصة أن حرب خوارزم انتهت ، وجفت البلدة من النهب والسفك . فقسم الجيش ، وأرسل قسماً إلى البلاد الشرقية ، وما زالت تلك الديار إلى الآن معمورة بهم . أما جغتاي وأوكتاي فقد أمرا بالعودة ثانية إلى خوارزم ، ليزيدوا من الذبح والقتل كما فعلوا قبلا حذو النعل بالنعل . وقد بلغني أنهم قتلوا من عباد الله عدداً كبيراً لم أصدقه ، لذا لم أسجله . اللهم عافنا من كل بلاء الدنيا وعذاب الآخرة .

---

(١) البيتان لعدي بن زيد (الأغاني : ٢/١٨ ، مع اختلاف في الرواية) .

ذكر حركة جنكيز خان إلى ناحية نخشب[1] وترمـذ :

حـين انتهى أمر سمرقند ، وآب ولداه جغتاي وأوكتاي إلـى خوارزم أمضى ربيع ذلك العام على شواطىء سمرقند . ومن هناك انتقل إلى مروج نخشب ، وكان الصيف قد ولى ، والحيوانات بشمت ، والجنود أمضوا أياماً سعيدة فقصد « ترمذ » . وحين دنا منها أرسل رسله يأمرونهم بالطاعة وتخريب قلعتهم وأسوارهم . لكن السكان احتموا وراء أسوارهم ، التي كان نصفها نهر جيحون، مغترين برجالهم وعدتهم، ورفضوا الاستجابة واستعدوا للحرب. وهكذا بدأت المنجنيقات تضرب من الطرفين من غير توان عن المحاربة ليلا ونهاراً . واستمر الحال عشرة أيام . وفي اليوم الحادي عشر فتح التتار المدينة قسراً ، وساقوا السكان جميعاً إلى السهول ، وقسموهم، كعادتهم ، حيث قتلوا الجنود ، لم يذروا منهم أحداً . وحين انتهوا من ذلك لمحوا امرأة . فقالت : أبقوا علي حتى أخرج لكم لؤلؤاتي الكبيرة ، وأعطيكم إياها . وحين طالبوها بها قالت : لقد بلعتها . فشقوا بطنهـا وأخرجوا من أحشائها حبات اللؤلؤ . ولهذا السبب أمر الخان بفتح بطون القتلى فلعلهم بلعوا شيئاً وهم أحياء[2].

---

(١) موجودة الآن في أوزبكستان باسم « كرشي » .

(٢) المعروف أنه أمر بقتـل النساء وبقر بطونهم ، والمؤلف اكتفى بشـق بطون القتلى وهو الذي قال إنهم قتلوا الجنود فقط . فانظر إلى هذا الخلط (ت) .

وبعد ذلك اتجه نحو ناحية كَنكُرت وحدود شُمان[1] ، ووصل إلى آخر حدودها شتاءً ، ولم يترك منطقة فيها إلا أعملَ النهب والقتل والحرق ، كما أرسل إلى بَدَخْشان وما حولها جنوده ، وكانوا يتغلبون على المناطق فيعاملون أهلها باللطف لكن الغالب عليهم هو العنف ، حتى لم يبق في البقاع مخالف واحد .

وانتهى فصل الشتاء فعزم على العبور ، وكان هذا فيشهور سنة سبع عشرة وستمئة[2] .

ذكر عبور جنكيز خان إلى ترمذ واستخلاص بلخ :

كانت بلخ من أكثر البلاد غلات ، وأعلاها ارتفاعاً ، ومساحاتها أكبر . وكانت بلخ في القرون الخالية في البلاد الشرقية بمثابة مكة في البلاد العربية . يقول الفردوسي :

« تحركنا في فصل الربيع نحو بلخ ، وهو فصل مناسب لرحلة العظماء »

« وكانت بلخ بالنسبة إلينا ، كمكة بالنسبه إلى العرب »[3]

---

(1) تقع كنكرت في تاجيكستان وكذلك شمان ، وتدعى الأخيرة اليوم « ستالين آباد » في جنوب روسية (ت) .

(2) اختلف رأي المؤلف في مواعيد فتح بعض البلاد ، كما يلاحظ القارىء مع الكلام السابق (ت) .

(3) البيتان من الشاهنامة (ت) .

وعبر جنكيز خان المعبر واتجه نحو بلخ ، وسبقه رجال الطليعة وعرضوا عليهم فروض الطاعة ، مقابل الحيـــاة . ولضرورة إحصاء السكان أمروهم بالخروج إلى ظاهر البلدة ، ولما كان السلطان جلال الدين حتـــى ذلك الوقت متمتعاً بحريته ، يثير الفتن ويعد الجنود للحرب لجاجة وعناداً ، فإن الخان لا يمكنه أن يطمئن إلى الناس ولا سيما أهالي خراسان[1] ، وهكذا حكم على سكان بلخ بأن يفيض عليهم موج الفناء ، ولا مناص من طوفان البلاء على هذه البلاد ، وجاءهم الأجل فسيقوا جميعاً الصغير منهم والكبير ، حيث قسموا ، على العادة المألوفة ، ليُقتلوا جماعات ، بعضهم بالسيوف وآخرون بالنبال ، فامّحى أثرهم . وظلت الوحوش الكاسرة تأكل من لحومهم من غير أن ينازع بعضها بعضها الآخر ، فعاشت هذه الحيوانات سعيدة حيناً طويلاً من الزمان كما شاركتها النسور والعقبان :

كُليهِ وجُرّيـــهِ جَعارِ وابشري ... بلحمِ امرئٍ لم يشهد اليوم ناصره[2]

ولم يتركوا المكان حتى أحرقوا الأخضر واليابس في حقول المدينـة ، وخربوا المنازل والقصور . قال تعالى : « وإنْ من قريةٍ إلا نحنُ مُهلكوها قبلَ يومِ القيامة أو مُعذّبوها عذاباً شديداً ، كان ذلك في الكتاب مسطوراً » .

وبلغ جنكيز خان حدود « بَشاور » ثم عاد فجاءة إلى بلخ ، وأمر أن يقتل كل من خرج من مخبئه في الخزائن والمجاري ، فأعملوا بهم القتل ، وكأن الآية : « سنعذبهم مرتين » نزلت بحقهم . وعادوا إلى المدينة لم يتركوا جداراً إلا هدموه . وعادت البلدة قاعاً صفصفاً مرة أخرى بل أكثر :

وتبكـــي دورُهم أبـــداً عليهـــم ... وكانت مألفـــاً للعزّ حينـــا

(1) وبلخ من خراسان (ت) .
(2) البيت للنابغة الجعدي (مجمع الأمثال – مع المثل : عيثي جعار) .

وقفْنـا مُعجبينَ بهـا إلى أنْ   وقفنا عندهـا متعجِّبينا(1)

ومن هناك أرسل ابنه تُولي ليستخلص بلاد خراسان مع جيش كبير ، وقصد هو مدينة « طالقان » وقلعتها • كانت المدينة محصنة تحصيناً جيداً ، وعليها رجال يحرسونها • وقد رفضوا عروض الرسل كلها ، معلنين الحرب على القادمين • وهكذا نصبت المنجنيقات حول القلعة ، وباشروا بالقذف من غير راحة أو توقف • واحتدم القتال العنيف بين الطرفين ، فوقع قتلى وجرحى بالمئات • واستمر الحال على هذا حتى أتمّ تولي فتح خراسان ، فعاد إلى أبيه بجيش لجب • ففتحت لهم طالقان قسراً وقهراً ، فلم يتركوا فيها حياة ، ولا حجراً على حجر •

وجاءهم نبأ عاجل يقضي بأن السلطان جلال الدين أحرز انتصاراً واستولى على تكجوك • فأمر جنكيز خان بالتوجه نحو « كَرزِوان »[2] • وقد اضطر للبقاء حول هذه المدينة لأن السكان رفضوا الانصياع فحاصرها شهراً حتى تمّت له ، فأسقوها السعير الذي شربه الآخرون قبلها •

ورحل منها إلى «باميان» فاستعصت كذلك، وتناثرت حجارة المنجنيقات بين الطرفين ، وفي النهاية وقعت في الشباك فكان فناؤها على أيديهم فناءً تاماً•

وخرج من المدينة ، ليلقى أحبّ أحفاده إليه وهو ابن جَغَتاي[3] ، فأمر جنده أن يستعجلوا أمر المدينة ، فلا يتركوا فيها أسيراً ولا رضيعاً ولا حتى مَن في بطن أمه إلا قتلوه ، ويُتبعوا بهائمهم بهم أيضاً • ولم يعش أحد بعد ذلك في هذه المنطقة حتى الآن •

كان ذلك في الشهور الأولى من سنة ثمان عشرة وستمئة •

---

(1) البيتان لأبي بكر عبد الله اللاسكي في رثاء الدولة السامانية (تتمة اليتيمة — مخطوطة) •
(2) محيت المدينة تماماً ، وكان موقعها في افغانستان الحالية (ت) •
(3) الذي يدعى « ماتيكان » كما سيأتي (ت) •

ذكر توجه جنكيز خان

لحرب السلطان:

أرسل جنكيز خان قائده تكجك وجمعاً من أمراء الجيش لصد السلطان جلال الدين • فقد أبرز السلطان إلى الساحة أغراق[1] وعدداً من أمرائه • لكن الجيش الذي ذهب للقائهم كان قليل العدد ، لهذا كان جنكيز خان طيلة الوقت يفكر ، ليلاً ونهاراً ، ولا يأكل ، ثـم وصله نبأ يقضي بـأن السلطان جلال الدين سيعبر نهر السند بعد خمسة عشر يوماً ، وكان جنكيز خان يومئذ بغرنة ، فعيّن باسقاقي على فتح « ماما يَلَـواج » • وذهب هو بسرعة كاستلال السيف من غمده خلف السلطان حتى وصل إلى شاطىء السند • وشرع الجنود يصعدون شمالاً وجنوباً ، ويدورون حول المنطقة بحثاً عن السلطان ، حتى غدا تجمعهم كالقوس والسند أمامهم كالترس ، وأمرهم جنكيز خان أن يأتوا به حياً مهما كلفتهم المصاولة والمداورة • ووصل في هذا الوقت جغتاي وأوكتاي إلى طرف خوارزم •

حين أحسّ السلطان بأن ساعة اللقاء دنت ، واحتدم وقت الحرب ، هجم من اليمين إلى اليسار بسرعة خاطفة ، ومن اليسار إلى القلب • وتزايد عـدد المغول حوله ، وغدا مجال المصاولة عليه ضيقاً ، فأصبح كالسيف الهائج يضرب بكل طرف :

« كان يرمي في كل طرف ، يمزج الدماء بالتراب »[2]•

---

(١) يعني سيف الدين أغراق •

(٢) البيت من الشاهنامة (ت) •

وحين وصل أمر الخان بعدم قتله والمحافظة على حياته لم يضربوه ضربات قاتلة ، فأسرع السلطان نحو أحد المراكب وركبه ، وخطا به إلى الطرف الآخر كالبرق . وحين أراد الجنود اللحاق به منعهم جنكيز خان مبدياً إعجابه من سرعة حركته ، وقال لأولاده :

« حين كان اسفنديار ينظر خلفه ، إلى ذاك الطرف رأى نهراً يجف »

« كان يقول : لا تنادوا مثل ذاك الرجل ، إنه فيل ، وأي فيل ! »

« كان يقول هذا وينظر من هناك ؟ ، إنه رستم ذهب يبحث عن طريق »

ومن لم يغرق من رجاله في الماء قتل . وأحضر حرمه وأولاده ، فمن كان منهم ذكراً ، طفلا أو رجلا ، أرضعوه ثدي المنية ، ورموهم إلى العقبان :

يعز علينا أن يظل ابن دأية[1]   يفتش ماضمت عليها شؤونها[2]

وترك السلطان في قاع النهر كثيراً من العملة الذهبية والفضية وهرب . فنزل الغطاسون ليجمعوا ما يمكن جمعه ، وكان هذا من العجائب ! في أيام شهر رجب من سنة ثمان عشرة وستمئة . وفي الأمثال : « عش رجباً ترَ عجباً » .

وسار جنكيز خان من هناك إلى شاطيء جيحون ، بينما عاد ابنه أوكتاي إلى غزنة ومعه جيشه . وقد أمرهم جنكيز خان أن يُخلوا المدينة ، ويخرجوا سكانها إلى الصحراء ، فيبقوا على أصحاب الحرف ، ولا يدعوا بعدهم أحداً حياً ، ثم يخربوا المدينة . وعين قتقو نويان● أميراً على أصحاب الحرف والأسرى . وأمضى أوكتاي أيامه حتى نهاية الشتاء في تلك المنطقة ، ثم عاد

---

(١) الدأي : مفردها الدأية وهي فقار الكاهل من ظهر البعير خاصة . وابن الدأية هو الغراب لأنه يقع على دأية البعير (دبره) فينقرها .

(٢) الشؤون : عروق الدموع في العين . والمراد (بما ضمت عليها شؤونها) أن الغراب أول ما يفتش من القتيل هو عيناه (لسان العرب) .

عن طريق « كرمسير هراة »[1]. ووصل جنكيز خان إلى كرمان[2] وسنقوران. ومن هناك بلغه أن السلطان جلال الدين عاد بعد أن عبر الماء ثانية ، وقتل أناساً بطريقه . فترك جغتاي في منطقة كرمان ليلحق بالسلطان ، ولما فقده تبعه . وحل الشتاء وهو قرب « بويه كتور » فأقام في « أشتقار » وحاكمها القائد أحمد فاتحد معه وتبعه ، وطلب أن يؤمن الأعلاف لدواب الجند . وقد مرض أكثر الجند بسبب رطوبة الطقس هناك ، مما أضعف من قوتهم . وكان معهم أسرى كثير ، كما استعبدوا عدداً من هنود تلك المنطقة . فقد ضم كل بيت من بيوت المغول عشرة أسرى إلى عشرين . وكان هؤلاء الأسرى يؤمنون الطعام والأعلاف اللازمة عن طريق تنقية الرز وقشره ، فقد كان الطقس يناسبهم . وأصدر جنكيز خان أمراً بوجوب تنقية كل أسير أربعمئة منٍّ من الأرز في مدة أسبوع ، فأتموها . وبعد ذلك أصدر أمراً بضرورة قتل جميع الأسرى ، ونام هؤلاء المساكين ولم يعلموا ما كان يخبئه لهم الصباح ، فلم يبق منهم أحد .

ثم أرسل من هناك رسلا إلى الأطراف ليأمروا السكان بالطاعة ، فاستجابت لهم « رانا » ، ولم تستجب المناطق الأخرى . فأرسل الجيوش إليها ليقتلوا سكانها ، وأرسل جيشاً لمحاصرة « أغراق »[3] وقلعته التي كان يتحصن فيها .

وحين استعاد جيشه صحته وقوته صمم جنكيز خان على العودة عن طريق بلاد الهند إلى بلاد « تنكوت » عن طريق النهر . وحاول عدة مرات أن يعسكر في بعض المناطق فلم يجد سبيلا ، فعاد أدراجه ونزل في « فرشاور » . وعاد من الطريق الأصلي الذي جاء منه .

---

(١) لعله يقصد « كرمسير وهراة » (ت) .

(٢) يقصد كرمان غزنة لا كرمان الواقعة جنوب ايران (ت) .

(٣) ولعل المؤلف يقصد قوم أغراق .

ذكر عودة جنكيز خان :

إثر حلول الربيع على رباع العالم حلت الأحزان في القلوب . وشارك القمري والفاختة البلابل على أغصان الأشجار في الأسحار نواحها وأنينها . وكانت الأنوار والأزهار ترسل دموعها على صفحة الربيع والمتنزهات على ذكرى الشباب . كانت السحب تهمع من بين خلاياها ، فيظنونه مطراً ، وتحمرّ البراعم فتغدو كالدم في الكؤوس حسرة ، فتتفتح وكأنها تضحك ، وتتفتت الأوراد أسفاً على الوجوه الصبيحة الناعمة وقد لونت بعذار كالبنفسج ، واكتسى السوسن ثوب الحزانى الكحلي ، ويغالط الناظرين ويقول : لوني بزرقة السماء ، والسرو المشوق الجذوع أخذ يئن وينحني تلهفاً في الحر ويدعي ميله هذا تبختراً فأطرق رأسه على التراب غماً ومن غصة الزمان عفر وجهه فبدا كأنه بستاني ينظف المروج . أرسل البلبل غرغرة من حلقه ، وشاركه الصنج والرباب في نغمه أن :

« أصغ لتسمع في أوقات السحر ، كيف أن البلبل البهلوي النغم »

« يئن لموت إسفنديار ، فليس له سوى الأنين لذكره »

« لم يحرك أحد شفتيه ضحكاً هذا العام ، ولم يتنفس من الحزن أحد »

« وغدا وجهي كدم زهري هذا العام ، فكيف يصبح ورداً هذا العام ؟ »(1)

وعاد جنكيز خان من فرشاور إلى مسكنه الأصلي . وسبب عودته الخاطفة هذه أن خبراً أتاه بأن الختا والتنكوت استغلوا غيبته ، وشكوا بعودته فأعلنوا العصيان . وعاد عن طريق جبال باميان ، ومر من « أغروغي » التي هي على حدود « باغلان » . وفي تلك المراتع خيم طيلة الصيف ، ولم يغادرها إلى أن أقبل الخريف ، حيث عبر جيحون . ومن هناك أرسل تربای

---

(1) كل هذا الحزن العميق الذي أظهره المؤلف لأن جنكيز خان عاد ولم يكمل مسيرته الهدامة (ت) .

تقشي خلف السلطان . وأقام شتاءه حول سمرقند ، وطلب إليه ابنه الأكبر توشي حتى يسرع إليه من صحراء « قفجاق » ، ويجلب معه ما يصطاده من حمـر الوحوش . كما قـدم جغاتاي وأوكتاي من التمتع بنظـر الصيد في قراقول[1] ، ثـم أمضيا شتاءهما يصطادان . وكانا في كـل أسبوع يرسلان خمسين مما يصطادانه من الجمال[2] . وحين نفد الصيد ، وولى الشتاء ، وبدت آثار الربيع على المروج، وتوشت الطبيعة بدثار الأنوار ، عاد جنكيزخان إلى تصميمه السابق ،وهو العودة إلى الوطن . وعند مياه « فناكت » اجتمع بعض الأولاد إلى أبيهم ، وعقدوا اجتماعاً رسمياً « قوريلتاي » . ثم تابعوا طريقهم حتى وصلوا « قـلان باشي » حيث انضم إليهم توشـي . ومن جملة ما أهدى أبـاه عشرون ألف رأس من الخيول البيضاء جاء بهـا من صحراء قفجاق ، بالإضافة إلى قطعان من حمر الوحش الشبيهة بالخرفان ، ويروى أنها ذات حوافر وتتحدى . حتى إذا وصلوا إلى موضع يدعى « أوتوقا » أقاموا فيه ، وجلس جنكيز خان وإلى جانبه أولاده وعساكره يتمتعون بمنظر حمر الوحوش وهي داخل حلقة أمامهم ، ثم أخذوا بصيدها . واستمر الخان يصطاد حتى مل وتعب واستند إلى من حوله من كثرة التعب ، ثم شووا سِمان الحمر وأطلقوا النحيفة منها .

وهكذا أمضى الخان صيفه في قلان تاشي . واستدعى إليـه عدداً من أمراء الأويغور لجرم اقترفوه فقتلهم ، ثم تابع مسيرته حتى حل في معسكره وقت الربيع .

---

(١) قراقول اليوم : اسم مدينة في أوزبكستان (ت) .

(٢) اسم هذا النوع من الجمال « قوقو » (ت) .

ذكر تعقب تُرباي تُقشي[1]

للسلطان جلال الدين :

حين عاد جغتاي من غير أن يعثر على السلطان جلال الدين، عين جنكيز خان القائد ترباي تقشي على عشرين ألفاً من الرجال لهذه المهمة . فترك نهر السند إلى أن وصل إلى أطراف « بيه » . وبيه هذه ولاية في الهند يحكمها قمر الدين الكرماني أحد أمراء السلطان ، استولى عليها وحكمها . كانت قلعتها محصنة تماماً . فاستخلصهما وأعمل الذبح بالسكان . ثم اتجه نحو « مولتان » . ولم يكن في هذه البلدة حجر، فأمر الأسرى المرافقين (الحشر) أن يسرعوا بعمل عُمد من الخشب ، فرماها في الماء بواسطة المنجنيق . ثم صنع منها منجنيقات قوية . لكن شدة الحرارة منعته من الثبات والإقامة . فأسرع بالإغارة والذبح على مولتان و « لوها » و « وور » . ومن ثم عاد وعبر نهر السند وقدم إلى غزنين، متجهاً نحو جنكيز خان .

ذكر يمه وسُبتاي في

تعقب السلطان محمد :

حين وصل جنكيز خان إلى سمرقند ، وحلق جيشه حولها بلغه أن السلطان محمد عبر مياه ترمذ ، وتفرق جيشه وحشمه في القلاع والبقاع . ولم يكن معه أحد ، وهو خائف موزع التفكير . قال جنكيز خان : قبل أن يستعيد رجاله ، ويصله المدد يجب أن أصل إليه . فأمر قائديه : يمه وسبتاي أن يتعقباه ، وسلم كل واحد منهما ثلاثين ألفاً من جنوده ، وألف رجل من جيش

---

(١) لعل الصواب هو « تقشين » (ت) .

السلطان كركي ، وأتبعهما بقطيع من الأغنام ، وقصباً يابساً ليعبروا عليه البنجاب .

سار الجيش كالسيل الهادر من الأعالي ، وأمامهم المفتشون والمنقبون يعملون كتسرب الدخان . ووصلوا أولاً إلى بلخ . فطلبوا أعزة أهلها وسألوهم عنه ، ثم عينوا لهم شحنتهم . ومن هناك أرسلوا الأدلاء وفي مقدمتهم طايسي[1] جاسوساً . وإذ وصلوا إلى «زاوه»[2] أقفل عليهم السكان أبواب المدينة . ولما كانوا في عجلة من أمرهم لم يلتفتوا إليهم ولم يتوقفوا . فما كان من الناس إلا أن شتموهم من أعلى السور ، وقرعوا الطبول والدفوف استخفافاً بهم . وحين رأى المغول ذلك وسمعوا ما يقولونه لهم عادوا إليهم غاضبين وحاصروهم ثلاثة أيام . ولدى غروب شمس اليوم الثالث صعدوا فوق السور ولم يتركوا حياً حياً ، وما فعلوه من تلاعب وابتكارات في القتل والذبح ، وما أجروه من كوارث لا يصدقه عقل بشري على مدار الأيام . ومن فعلهم هنا زلزلت خراسان وولول أهلها لما سمعوه أو شاهدوه .

ووصل يمه وسبتاي في أوائل شهر ربيع الآخر من سنة سبع عشرة وستمئة[3] إلى نيشابور . وأرسلا رسالة إلى مجير الدين الكافي الرخي وفريد الدين وضياء الملك الزوزني الذين كانوا وزراء خراسان وصدورها يأمرانهم باتباع أوامر جنكيز خان ، ويطلبان علفاً ومأوى . فأرسلوا لهما ثلاثة رجال من أواسط القوم يعلمونهما بإمكانية تأمين المسكن والعلف وقبول

---

(١) هو لقب بمعنى الأمير وليس اسماً ، لكن المؤلف جعله اسماً (ت) .
(٢) هي اليوم « التربة الحيدرية » (ت) .
(٣) الظاهر أنه يريد ٦١٨ ، وانظر مطلع الفصل تر أنه أخطأ بمقارنته للفصول والشهور .

التبعية . فنصحهم يمه بعدم المخالفة والمداورة ، وباستقبال الرسل التي تأتيهم من قبله، وبعدم الاطمئنان إلى أسوارهم المحصنة وكثرة رجالهم.وعلى سبيل الاطمئنان منحوهم ختماً ملكياً بالخط الأويغوري ، وأمراً خانياً يحفظ لهم أموالهم ومساكنهم ويضمن لهم حقهم ...[1] . وبشكل عام من أطاع نجا من الهلاك ومن عصى نزلت عليه اللعنة هو ونساؤه وأولاده .

وخرج يمه من نيشابور في طريقه إلى « جوين »[2] ، وسبتاي من طريق « جام » إلى طوس[3] . وكانا في كل مكان لقيا ترحاباً فيه أبقيا عليه ، ومن عصى أفنياه واستأصلا شأفته . ومن جملة من أطاع : القرى الشرقية لطوس ولا سيما « نوقان »[4] . وحين أرسلا رسولا إلى المدينة لم يكن جوابها على هواهما فأفرطا في فتكهما بالمدينة وبما حولها . وحين وصلا إلى « برادكان » اخضرت الروابي ونبعت الوديان ، فأعجب سبتاي بذلك المنظر وأمر ألا يصاب أحد من المنطقة بأذى ، فعين عليها شحنة وولى . غير أنه لم يلق اهتماماً في « خبوشان » فأمر بالذبح والنهب والفتك . ثم جاء إلى « أسفراين » و « أدكان » فأعمل فيهما الدمار .

واتجه يمه نحو ما زندران عن طريق جوين ، فلم يشد عنانه في تلك الرباع بل تابع مسيرته . وتابع سبتاي طريقه عن طريق قومس ، فعجل في سيره . وحين وصل يمه إلى ما زندران قتل فيها ودمر ولا سيما في آمل حيث أمر بالقتل العام ، وأمر بمحاصرة القلاع التي احتمى بها حرم السلطان حتى ذلت له . ووصل سبتاي إلى دامغان ، فرأى كبار القوم قد احتموا

---

(١) بياض في أصل المخطوطة .

(٢) تقع جوين في الشمال الغربي من نيسابور (ت) .

(٣) طوس : هي مشهد اليوم ، وكانت قبل تطلق على المدينة والمقاطعة (ت) .

(٤) نوقان : بلدة قرب طوس في خراسان (ت) .

بالجبل ولم يستجب لهم السكان فحاصروها ، وكثر القتل بين الطرفين ثم رقوا السور وفتحوها •

ومن هناك وصلوا إلى سمنان فقتلوا كثيراً من خلقها • وكذلك فعلوا في سهول الري • وحين وصلوا الري القاضي ••••[1] أقبل وأعلن تبعيته • وعرفوا هناك أن السلطان اتجه إلى همدان • فعجل يمه ليلحق بالسلطان ، بينما سبتاي اتجه نحو قزوين • وحين وصل يمه إلى همدان قدم واليها علاء الدولة الطاعة له ، وأهداه خيلا وثياباً ومنزلا وطعاماً وشراباً بنسبة كبيرة جداً وطلب شحنة تبقى في المدينة • وحين انهزم السلطان من جيش يمه عاد إلى همدان • وبلغه أن جماعة من جيش السلطان ومقدمهم بكتكين صاحب السلاح وكوج بغاخان● يعسكرون في « سجاس »[2] فاتجه نحوهم وأفناهم• وكان نصيب نواحي العراق[3] القتل والتدمير والفتك والغارة •

ومن هناك اتجهوا نحو أردبيل ، وحاصروها وقتلوا سكانها ونهبوها • وحين حل فصل الشتاء وصلوا إلى موغان[4] ، فأمضوا فيها شتاءهم • وسدت عليهم الطرق لكثرة الثلوج • وثار جمال الدين ابيه● وجمع غفير معه في نواحي العراق وأعلنوا عصيانهم ، وقتلوا الشحنة التي كانت في همدان ، وحبسوا علاء الدولة في قلعة كريت لميله إلى المغول • وجاء فصل الربيع فصمم

---

(١) بياض في أصل المخطوطة • ويقترح المترجم الانكليزي [مع عدد الأشخاص] ولا بأس (ت) •

(٢) مدينة بين همدان وأبهر •

(٣) يقصد عراق العجم (ت) •

(٤) موغان (مغان) : هي اليوم في آذربايجان الروسية (ت) •

يمه على الانتقام والثأر لقتلهم شحنة همدان . وأحسّ جمال الدين أيبه بخطئه فحاول المراسلة والتوسط والرجاء فلم ينفعه ذلك . فقتل هو ورجاله .

واتجهوا من هناك نحو تبريز فأطاعتهم . أما مراغة ونخجوان[1] وما حولهما فلقيت مصيراً محتوماً لها . وأطاعهم أتابك[2] خاموش فمنحوا المهر الملكي . ثم جاؤوا إلى « أرّان » و « بَيلقان » فأخذوهما . واتجهوا نحو « شِروان » . وحين وصلوا إلى « دربند » قطعوها بحيلة ليصلوا بعد ذلك إلى حدود جيش توشي في صحراء القفجاق ، واتصل الجيشان هناك .

وعادوا من هناك لخدمة جنكيز خان . واتضح الآن نصرهم بل قدرتهم : « وهو القاهر فوق عباده » . ومن عنده أمر قدوم الجيوش لتحتل مكان الملوك والسلاطين . ولم يبق في الجهات الأربع من يمانع أو يقاوم . وليس هذا فقط مبتدأ دولتهم ولا منتهاه .

ذكر استخلاص تولي

خراسان على وجه الاجمال

حين مرّ السلطان محمد بجيش يمه وسبتاي في خراسان ، حاولوا لحاقه بسرعة الريح ، لذلك فإنهم مروا بخراسان مروراً ولم يتوقفوا كثيراً في مدنها ، بل إن عدداً من المناطق لم ير جندياً مغولياً واحداً . وما مروا به كانوا يكتفون بإرسال رسلهم يُعلمونهم فيها بقدوم جيش جنكيز خان ويتابعون طريقهم بعد أن يحذروهم ويخيفوهم . وفي كل مكان لقوا طاعة تركوا لهم مهراً ملكياً ،

---

(1) نخجوان : تقع اليوم في آذربايجان الروسية وما بعدها من أسماء (ت) .

(2) أتابك : المربي والأمير (ت) .

أما إذا جوبهوا بالرفض والعناد فقتلوهم ونهبوهم، فإذا ابتعدوا عنهم عادوا إلى تحصين مدينتهم وقلاعهم وتخزين الحبوب والأعلاف . حتى إذا مرت الأيام أحسوا بالتراخي واطمأنوا إلى أن جيش المغول لن يعود إليهم ، وكأن مرورهم عاصفة غبارية هدأت ، أو برق لمع في السماء واختفى .

حين عبر جنكيز خان الماء ولحق السلطان كان ابنه ألغ نوين[1] مشغولاً بسياسة السيف والنار ، يصيب بهما مقتلاً كلَّ من اعترض طريقه . وكان في فروسيته كالبرق الملتهب بين السحب يحول من يلقاه إلى تراب . فما كان يعرف معنى للراحة ولا للاستقرار ، واستمر على حاله إلى أن وصل إلى خراسان . فكان يأمر جيوشه بإحصاء الفتيان ، ويوزعهم عشرة عشرة لكل جندي مغولي . ثم شرع بانتخاب الرجال استعداداً لخوض الهيجاء ليكون له جيش كالبحر الخضم ينتصر فيه على الخصم،ثم عين على الجناحين خيرة الأمراء، وترك لنفسه قيادة القلب ، وعين الكشافة في المقدمة ، وهي طلائع الجيش . وسار نحو « مروالروز » و « بغ » و « بغشور » في طريقه إلى خراسان والتي تضم أربع مدن هي : بلخ ومرو وهراة ونيشابور . وجنكيز خان احتلَّ بلخ ، ولهذا سأثبت فتح كل مدينة على حدة من الثلاث الباقيات ، ويرجع سبب تفصيلي هذا إلى تغير أحوال هذه المدن من وقت قدومه إلى ما بعد ذلك .

وأرسل جيوشه يميناً ويساراً ، شرقاً وغرباً ، فاستخلص المواقع كلها كأبيوَرد ونَسا ويازِر وطوس وجاجرم وجُوين وبيهق[2] وخواف وسَنجان وسرخس وزورا باد ، ووصلوا حتى حدود سِجستان ، وكانوا يُمعنون في القتل والنهب والسفك في كل مكان ، ولا يتركونه إلا يباباً ، فإذا كان تولي

(١) هو لقب تولي خان .
(٢) هي سبزوار اليوم (ت) .

رخي البال شغل بتصرف المنطقة ، لكنه ما كان يُعطي الأماكن تقصياً كبيراً . حتى الكاتب نفسه[1] صاحب الهوس في الكتابة ما كان يجد فرصة قدر طرفة العين لتدوين دقائق سير الجيوش ، وتسجيل حكاياتها ، فكيف هو ؟

وبشكل عام استطاع تولي بمدة شهرين أو ثلاثة أشهر أن يستولي على كثير من الرباع ، ويجعلها بقبضة يده ، واستمر على منواله هذا حتى انتهى إلى هراة ، فألحقها بأخواتها مع الذل والدمار ، ثم عاد إلى أبيه ملبياً دعوته الى طالقان ليعينه على فتحها . وسلمت خوارزم وجند بمدة شهرين ، ولم تستسلم هذه المناطق كاستسلامها الآن منذ نزول آدم إلى يومنا هذا ، ولم يدوّن أحد هذه الأخبار .

ذكـر أحوال مـرو وكيفيـة فتحهـا :

كانت مرو عاصمة السلطان سَنجر ، ومرجع الصغير والكبير ، تعد أراضيها بالنسبة إلى خراسان أفضلها وأكثرها أمناً وسلامة في عهد ذلك الملك. فاشتهر بها أمراء عمّ عليهم الخير كمطر نيسان ، وشابهت أراضيهم سماواتهم، وتوازى الدهاقون بالملوك والأمراء لكثرة الخير والنعمة :

بلـدٌ طيبٌ وربٌ غفورٌ   وثرًى طينُـهُ يَفوحُ العبيرا
وإذا المرءُ قـدّم السّيرَ منـهُ   فهْوَ ينهاهُ باسمهِ أنْ يسيرا[2]

---

(1) يعني المؤلف (ت) .
(2) ينهاه أي يقول له (مَرْو) أي لا تذهب ، واسم المدينة بسكون الراء (ت) . وهما لأبي علي الساجي (يتيمة الدهر : ٤/١٦) .

ولقد عزل السلطان محمد ، أنار الله برهانه ، مجير الملك شرف الدين مظفراً عن منصب الوزارة لجريمة ارتكبها عمه ، وعين مكانه ابن نجيب الدين صاحب الظلامات ولقبه بهاء الملك . وفوّض مجير الدين أمر ملازمة ركاب السلطان حتى انهزم السلطان من ترمذ .

أحب كشتكين بهلوان ، وهو أحد أهل القصر ، ومن المقيمين في مرو ، أن يبث التشويش والتفرقة بين السكان ، فأعد جيشاً من جنود أجانب ، من غير استشارة رجال القصر ، وتشبّه بالسلطان فتوشّح ووقّع وأصدر الأوامر، كل ذلك مُحشى بالجبن والعجز ، محاولاً بمظاهره هذه إيهام الجنود والجنود الأجانب ورجال القلعة أنه موضع استئمانهم ، وتبعه بعض الدهاقين القصيري التفكير ، وكان كلما قدم جيش من التتار تلقاه بالترحاب ، واتّقاه بالنفس والمال ، واستقبل شحنته ، وامتثل لأوامر قواده . ولما كان الملك ضعيفاً كفؤاده فإن جوارحه لم تثبت على حالها ، ولهذا تغلب عليه الناس ، فاستولى عليه التحير والتردد ، فاتفق بهاء الملك مع جمع من سادة المدينة وضباط الجيش على إزاحته عن السلطة ، وحين وصل بهاء الملك إلى القلعة لم يجد خيراً من المكوث فيها ، فانتقل الى « تاق يازر » . وسار الآخرون على هواهم ، وآخرون رأوا الصلاح في العودة الى مرو . وكان نائب بهاء الملك أحد الذين رغبوا في تقديم الطاعة ، وكان نقيباً ، وسار معه شيخ الإسلام شمس الدين الحارثي وسايره على رأيه ، في حين أن القاضي والسيد الأجل كانا متجانفين متباعدين عنهما .

حين وصل جيش يمه وسبتاي الى « مروجُق »[1] أرسلا الرسل لفرض الطاعة والانصياع . وفي هذه الأثناء حمل دليل السلطان ، واسمه بوقا ، من طرف المدينة ومعه جمع من التركمان (من جنسه) على التتار مفاجأة ، وسايره

(١) يقصد مرو الروز ، ومرو جق بالتركية تعني مرو الصغيرة (ت) .

عدد ممن رفضوا الطاعة للتتار . فتنازل النقيب عن الإمارة لبوقا . واستمر تجمع التركمان معـه ، وتبعهم بعض (الحشر) من جيوش المغول . ولما رأى الأمور تسير على هواه اتجه نحو مرو ، وازداد حشمه هناك .

وسكن مجير الملك في جزائر « آبْسْكون » متشبهاً بالسلطان ، وكان يزور راكباً حيناً وماشياً حيناً قلعة « صعلوك »(1) ، وكان فيها الأمير شمس الدين يكرمه ويرحب به . وجاء من القلعة الى مرو الى بستان «ماهيآ باد»(2) ونزل على بوابة « سرماجان » . وهناك أخذت مجموعات من الجند المراغزة(3) تتوافد عليه تباعاً . لكن بوقا لم يسمح له بدخول المدينة ، كما كان يخشى غلبة العامة عليه . ولقلة عدد من تجمع لديه لم يجد وسيلة إلا دخول المدينة متخفياً على حين غرة ومعه رجاله المراغزة يحمونه ويحيطون به . وحين علـم بوقا بدخوله المدينة جاءه وحده ، طالباً منه العفو . ومع أن عدد التراكمـة كبير بالإضافة إلى جنود المدينة،ويبلغ عددهم جميعاً أكثر من سبعين ألفاً،فإنهم قدموا له الطاعة . فظن نفسه غدا أكبر من مرتبة وزير ، فقد لاح لخياله أنه سيغدو سلطاناً ، لأن والدته كانت حظيةً من حرم السلطان ، وتشرف باعتراف أبيه به منذ كانت أمه حاملاً به .

وشاع أمره في خراسان وتبعه عدد من الرعاع . ولـم يدر بخلده أن الرياح لا تجري على هواه دائماً . وفي هذه الأثناء قبل سكان سرخس بالشحنة التتارية ، وتبعوهم . وما زال شيخ الإسلام حتى ذلك الوقت تابعاً للمغول مع قاضي سرخس الذي كان قريباً له ، ولكن قلبه لم يستجب لدعوة شيخ الإسلام

(1) موضع قرب مدينة أصفهان (ت) .
(2) محلة كبيرة تقع مشرق مرو خارج أسوار المدينة (ياقوت) .
(3) من أصل مرغزي .

تماماً ، وأدرك مجير الملك هذا الأمر ، إلا أنه سكت عنه حتى جاء يوم كان يعظ الناس فيه بالمسجد الجامع[1] فزلَّ لسانه بدعاء ضد المغول : اللهم فاقطع أوصال المغول الأعداء . فاضطرب كل من في المسجد ثم سكتوا مدهوشين متحيرين ، ثم قال : لقد زلّ لساني بمثل هذا الكلام . والحقيقة أن ما قاله كان في ضميره ومكنون صدره ، ففي كل زمان وآن دعاء خاص ، قال الله تعالى : « قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان » .

ووصل هذا الكلام إلى مسامع مجير الملك ، وصادق على تهمته ، لكنه ظل لا يعارضه ويعدُّه شيخ الإسلام ، ولم يكن كذلك في نفسه . وحتى ذلك الوقت لم يتعرض له أحد.إلا أنه كتب رسالة في أحد الأيام إلى قاضي سرخس، ففتحها حاملها في الطريق ، فسلمها لمجير الملك . وحين قرأها استدعى شيخ الإسلام واستفسر منه عن الرسالة التي بعث بها إلى قاضي سرخس،لكنه أنكر. فأراه مجير الملك رسالته وقال له : اقرأ كتابك يا شيخ الإسلام ، حين نظر شيخ الإسلام إلى خطه اضطرب وتشوش ، فقال له مجير الملك : عد . ولكن الجنود أخذوه وأروه شرَّ البلاء وقطعوه بالسكين إرْباً إرْباً ، وأمر بأن يعلقوه من قدميه على عمود في وسط المدينة . ومع أن خاتمة النفاق انتهت إلا أن عاقبتها وخيمة ، كما أن عاقبة الغدر والخداع غير سليمة .

وحتى يضم مجير الملك سرخس إليه أرسل جيشاً إليها ، فعارضه سكانها كثيراً ، مما اضطر بهاء الملك إلى الانهزام من قلعة « تاق » ، والتجائه إلى مازندران . وهناك شرح للمغول أحوال مرو ، وأبدى استعداده للذهاب إلى مرو واستخلاصها لهم ، ووعدهم بأن يقدم لهم عن كل منزل ثوباً سنوياً . لقي هذا الكلام قبولاً لدى المغول ، فأعطوه سبعة آلاف مغولي يتجه بهم نحو

---

(١) يعني شيخ الإسلام (ت) .

مرو ، وأهل مرو خالو التفكير من هذه الحملة ، كما كان هو نفسه حريصاً على كتمان الأمر • وحين وصل إلى محافظة مرو بلغة خبر استيلاء مجير الملك عليها ، فأوقف الجيش وأرسل رسولاً إلى مجير الملك يأمره بالانصياع إلى جيش المغول ، وجيش المغول سبعة آلاف ومعهم من الحشر عشرة آلاف وهو لا يقاوَمُ بل تُقدَّم إليه الطاعة ، وقد منحوني إمارة مرو ونَسا وباوَرْد ، وإنني أعلمك بالأمر من باب الإشفاق وطلب الوفاق مع جناح السرعة حتى لا يصاب الناس بمكروه ولا يقعوا في غمار البوار وتنوُّر الدَّمار •

واجتمع مجير الملك بأكابر القوم وعارفيهم،وهو موزع الخاطر مضطرب• فطلب إليه المجتمعون أن يتركهم يفكرون بالأمر ، ووصلوا في تفكيرهم إلى فصل موضوع المختصمين عن موضوع الجيش والمدينــة ، فالقادم صاحب الغرض غير ذي روية ، وبعيد عن الحزم والعقل ، ورأوا ضرورة معرفة عدد الجيش • ثم قرروا أن يرسلوا جيش السلطان التركي وعدده ألفان وخمسمئة إلى المغول ، وهكذا جرى • فعاد بهاء الملك مع الجيش المغولي بعد أن فهموا ماجَريات الأمور ، وعادوا إلى سرخس ، فتفرق رجال بهاء الملك عنه ، وقيده المغول وقتلوه بطوس • أما جيش مجير الملك فنُقل الى سرخس •

وحين وصل يمه نوين إلى سرخس استقبله القاضي شيخ الدين ، وقدم له الطاعة ، ولهذا منحه مُلك سرخس ، ونال من جنكيز خان الوسام الملكي مصنوعاً من الخشب[1] ، ثم أخذوه منه وأعطوه إلى ابنه بهلوان أبي بكــر ديوانه حتى يقتل أباه[2] • وهكذا هدأت ثائرة المغول •

---

(١) وهو أدنى مراتب الأوسمة الخانية « بايزه » انظــر تفصيلا آخر في كتــابنا « التيارت الأدبية إبان الغزو المغولي » (ت) •

(٢) اقرأ ثورة ابنه بعد صفحات من هذا الفصل ، ولم يتضح سبب رغبتهم في قتل الأب ولعله لأنه رفض قتل ابنه الثائر •

وشغل مجير الملك وأعيانه بعروض التسلية والمدام والإفراط في الملذات، وفي هذه الأثناء وصل اختيار الدين ملك « آمُويه » ، وأخبرهم أن المغول يحاصرون قلعتي « كلات » و « نو » كما بعثوا بجيش في أعقابه . فرحب مجير الملك بمقدمه .

وشرع اختيار الدين في الاتصال بالتراكمة الآخرين ، وكان ينزل عندهم، ووصل جيش المغول وعددهم ثمانمئة رجل يسرعون بالبحث عنه . كما جاء خلف المغول شيخ خان[1] وأغل الحاجب ● من خوارزم ومعهما ألفا جندي ليردوا المغول عنه ، وتمكنوا من التغلب عليهم ، كان بعضهم يقفزون على الفرسان لقوتهم . كما ذهب إليهم عدد من التراكمة والأتراك السلطانين ، وأسروا ستين شخصاً من المغول ، وبعد أن طافوا بهم في الأسواق قتلوهم . ثم نزل شيخ خان وأغل الحاجب في « دَستجرد »[2] واتفقا على اختيار الدين وفرسانه التراكمة ، ووضعوا فيما بينهم ميثاقاً ، وتراجعوا عن مجير الملك . ثم أخذوا في إشعال نار الفتن والفوضى ، تماماً كما يفعل المنافقون أصحاب القلوب السوداء ، محاولين استخلاص المدينة لسلطانهم ، واطلع مجير الملك على غاراتهم وفتنهم ، ورأى ضرورة الاحتياط حتى لا يظفروا بما يبغون . واتجه التراكمة إلى طرف النهر ، وأخذوا يغيرون ويعيثون فساداً ، حتى وصلوا إلى باب المدينة . فأغاروا على القرى وسلبوا ما وصلت أيديهم إليه .

وفي هذا الوقت أوكل جنكيز خان أمر استخلاص بلاد خراسان إلى ابنه تولي وأرسل معه أبطالاً أشاوس وأسود وغى . وتابع تولي مسيرته في المناطق التابعة لهم . ومرّ في طريقه بأبيورد وسرخس وغيرهما ، وأخذ من هذه المناطق

---

(١) أحد حماة سمرقند (ت) .
(٢) تقع بين مرو وبلخ (ت) .

حشراً ، سلكهم في سلك الجيش حتى بلغ عدد جيشه سبعين ألفاً . ووصل إلى مرو ، ومنها أرسل أربعمئة فارس إلى « يزك » . ودنا ليلاً من الجنود التراكمة ، وأخذ يراقبهم ، كان عددهم اثني عشر ألف فارس ، واتجه التراكمة صباحاً نحو أبواب المدينة ، وكان عليهم أن يحاذوا المغول في سيرهم :

« ليلة ليلاء تشبه القير ، لا يبــدو منها زحل ولا عطارد ولا المريــخ لظلامها »(1)

فكمن المغول لهم ، وحبسوا أنفاسهم ، وكان التراكمة لا يعرف بعضهم بعضاً ، وكان كل فوج يصل منهم يسوقونه إلى الفناء في الماء ، وحين كسر المغول قوتهم ، أقبلوا على الفرسان وفعلوا بهم ما يفعله الذئب بالقطيع . كان عــدد التراكمة أكثر من سبعين ألفاً ، لم يبق منهم إلا فئة قليلة ، وراح أغلبهم غرقى في الماء ، وانهزم الباقون . ولما كان المغول يعولون في حربهم على الحظ وكسب الوقت وانتهاز الفرص فإن أحداً لا يستطيع أن يغلبهم ، فمن تأخر عنه أجله رفع سلاحه أمامهم ، وظلوا على هذا حتى جاء المساء ، وكانوا قد ظفروا بستين ألف رأس من الغنم كان التراكمة قد استولوا عليها من البوابات ، بالإضافة إلى ما لا يمكن حصره . فجمعوها في الصحراء إلى اليوم الثاني الذي هو غرّة محرم سنة ثمان عشرة . وفي هذا اليوم سلخ تولي ذلك البطل المغوار وجيشه عمر سكان المدينة الذين فاق عددهم رمل الصحراء .

وامتطى جواده مع خمسمئة من فرسانه وجاء إلى بوابة « فيروزي » ، وطاف حول المدينة ، وظل يرقب ما يحيط بالمدينة مدة ستة أيام ، وكان يظن أن عدد رجاله سيكفي لدك الأسوار . حتى جاء اليوم السابع :

---

(1) البيت من الشاهنامة (ت) .

« إلى أن لمعت الشمس من برجها العالي ، فأرسلت أقواس نورها المشعة»[1]
فجمع جيشه ، ونزل عند بوابة المدينة وباشر بحربه ، فخرج عليه مئتا رجل من البوابة وحملوا عليه ، فنزل يجابههم :

« كان يصيح كالفيل السكران ، سيفه بيده وخوذته تغطي رأسه »

أقدم عليهم ، وحمل المغول معه . ثم توافدت جموع من داخل المدينة تشترك في الحرب ، وكان النصر حليف المغول مع كل جماعة تهاجمهم ، حتى لم يعد واحد منهم يجرؤ على مدّ رأسه من باب السور ، حتى جاءهم يوم العزاء ، فقد وقف المغول جميعاً يحيطون بالمدينة من كل جنباتها، متيقظين ليلاً، فسدت على جنود المدينة السبل ، فلم يجد مجير الملك غير الطاعة والانقياد ، والخروج من المدينة صاغراً .

/ وحين أزاحت الشمس برقع الظلمة أرسل مجير الملك الإمام جمال الدين، وهو من كبار أئمة مرو ، برسالة يطلب فيها الأمان ، ويقدم لذلك هدايا كثيرة، كل ما في المدينة من الأنعام كالخيل والجمال والبغال ، وحين وصل جمال الدين إلى تولي سأله عن أحوال المدينة ، وعن الأغنياء فيها وأصحاب المعرفة فسجل له اسم مئتين منهم . فطلبهم كلهم ، فكأن « زُلزلت الأرض زلزالها » هذه الآية صورت حالهم ، فأخرجوا الدفائن والذهب ، « أخرجت الأرض أثقالها »، عندئذ رضي الجيش ، فأخرجوا السكان من خاصّ وعام ، وكرام ولئام إلى الصحراء ، واستمر خروج الناس أربعة أيام بلياليها ، ففصلوا الرجال عن النساء، وكم سحبوا نساء من قرب رجالهم ، وأخوات لائذات بإخوتهن وأطفالاً متمسكين بأمهاتهم ! فلوّعوا بذلك الآباء والأمهات . وأمروا بانتخاب أربعمئة من الحرفيين وعدداً من الأطفال من الصبيان والبنات فأخذوهم أسرى ثم قتلوا

---

(١) البيت من الشاهنامة وما بعده (ت) .

الباقين من الرجال ومن النساء ، أما المراغزة فقد ساقوهم حشراً مع الجيش واقتسموهم فيما بينهم ، حتى بلغ للمغولي الواحد أربعمئة نفس عبيداً له وأسرى . وذخرت الحفر والوديان بدمائهم الغالية :

فرضنا بأرض لم يُدس في عَرصاتها سوى خَدٍّ خَوْدٍ أو ترائب أغيدِ

ثم أمر أن تهدم الأسوار ، وتتساوى القلاع مع التراب . وأحرقوا مقصورة المسجد التي كانت باسم الإمام الأعظم أبي حنيفة رحمة الله عليه . ويقولون إن حرق المسجد كان انتقاماً ، فقد بُني في عهد شمس الدين مسعود الهروي وزير مملكة السلطان تكش[1] مسجد جامع باسم أصحاب الإمام الشافعي رضي الله عنه ، فأحرق خصوم هذا المذهب مسجد الإمام الشافعي .

وحين انتهوا من النهب والأسر والاغتيال نصّبوا على المدينة الأمير ضياء الدين علي الذي كان من أكابر أهل مرو ، وكانوا قد أبقوا على حياته بسبب انعزاله ، وحين ذهب إلى المدينة وتسلم حكمها خرج المختبئون من مكامنهم ، وعينوا معه برماس أمير الشحنة . ولكن حين عاد الجيش إلى المدينة طالب بقتل الذين كانوا مختبئين وكان عددهم خمسة آلاف ، فأرسلهم إلى السهول وأمرهم بأن يجمعوا الغلال . ثم أخبر المغول أنهم موزعون في السهول . فكان كل من ظن أنه نجا لقي حتفه . وتابع المغول مسيرتهم نحو نيشابور ، وكلما وجدوا أحداً في طريقهم قتلوه كذلك ، وزاد في الطين بلة أن عاد يمه نوين إلى مرو ، فأضاف إلى الجروح ألماً ، فكان يقتل كل من يلقاه حياً في طريقه :

نحنُ واللهِ في زمانٍ غشومٍ لو رأيناهُ في المنامِ فزعْنا
أصبحَ الناس فيه من سوءِ حالٍ حقٌّ مَن ماتمنهم أنْ يُهنّا[2]

---

(1) هو أبو محمد خوارزمشاه (ت) .
(2) البيتان لابن لنكك (يتيمة الدهر : ٢/١١٨) .

كـان السيد عز الدين نسابةً مـن سادات الأفاضل ، مشهوراً بالورع والتُّقى . جمع معه ثلاثة عشر رجلاً يحصون عدد القتلى ليلاً ونهاراً فرأى عددهم بلغ ألف ألفٍ وثلاثمئة ألف ونيّفاً . ويصور عمر الخيام هذا الوضع، وكأنه لسان حالهم يقول :

« إن جمع أجزاء القدح المكسور ، لا يجوز لدى السكران »

« فكثير من الرؤوس والأقدام تنطوي تحت الأذرع بلطف ، تراها تتصل حباً وتفترق كراهية »

وظل الأمير ضياء الدين وبارماس مقيمين حتى جاءهما خبر اشتعال فتنة بهلوان أبي بكر ديوانه ابن شمس الدين في سرخس . فتأهب الأمير ضياء الدين مع بعض الرجال لردّه عن غوغائه .

وانتهز بارماس هذه الفرصة ، فأمر أصحاب الحرف وغيرهم من سكان مرو أن يخرجوا معه إلى بخارى ، ونزل في ظاهر المدينة (مرو) . ولكن عدداً ممن أطال الله عمرهم ! عادوا إذ ظنوا أن خبراً جاء من قبل السلطان ، ويريد بارماس أن يهرب من وجهه . وفوراً أخذوا يقرعون الطبول ويثيرون الشغب. كان ذلك ، وبارماس ما زال على أبواب مدينته ، في سلخ رمضان سنة ثمان عشرة وستمئة . فاستدعى جماعة من أصحاب المعرفة من سكان مرو ، فلـم يستجب له أحد،فأمر بقتل من كان داخل المدينة، وهرب بأصحابه ومرافقيه . وكان من جملة من رافقه إلى بخارى خواجه مهذب الدين باسنابادي ، ومات شحنة البلدة هناك .

وحين عاد ضياء الدين من سرخس ، بدأ بإعادة بناء المدينة ، وقد آثر الأسلاب التي غنمها لنفسه ، وأرسل ابن بهاء الملك الذي كان رهينة لديـه

إليهم[1] . وعاد كثير من السكان الى مدينة سرخس . وفي هذه الأثناء وفدت جماعة من المغول ، فأحسن وفادتهم ورعايتهم ، وأقاموا عنده حيناً . ثم قـدم كشتكين بهلوان أحد حشم السلطان مع جمع غفير ، وشُغل كشتكين بمحاصرة المدينة . وثار بعض رعاع المدينة وانضموا إلى كشتكين . حين علم ضياء الدين أن الأمر لن يستتبّ له أمام تفرّق الأهواء ، هرب مع المغول الذين كانوا في ضيافته الى قلعة « مرغة » . فدخل كشتكين المدينة . وعزم على تأسيسها وعمارتها وإصلاح زراعتها . فأغلق أبوابها .

وخفية بعث بعض القوم رسالة إلى ضياء الدين ، يحرّضونه على العودة ، ويرغبونه في إمارتها ، وحين عاد ، ونزل عند بابها ، أرسل أحد خدمه يُعلم خاصته بوصوله ، ولكن هذا النبأ بلغ مسامع كشتكين وخصومه ، فأرسل إليه جماعة ليأسروه ويطالبوه بالمال ، وكذلك جرى . ولما سأله عن المال قال : أعطيته لبنات الهوى ، فسأله كشتكين : ومن هنّ ؟ قال : هؤلاء القلة الذين يلتفون حولك ، حين كانوا في صفي ، حين لمسوا أن وضعي آخذ إلى الزوال ، وبدت على ملامحهم سمة الغدر .

وأيقن كشتكين أن لا فائدة مرجوة من الاستفادة من تصريح ضياء الدين كما أدرك أن بقتله حياته[2] ، وفنائه بقاء الملك . وبعد أن تخلص منه تفرغ للبناء والزراعة ، فبنى سداً على النهر ليتحكم بمائه . لكن عمره كان سبب خراب هذا السد ، وماء حياته سبب ابتيار الأرض .

---

(1) لم يتضح لنا ، ولا للمحقق ، صاحب ضمير (إليهم) ، ولعله يقصد آل الولد أو المغول (ت) .
(2) يعني حياة كشتكين (ت) .

وعلى حين غفلة وصله نبأ قدوم قراجه نوين إلى سرخس ، ومعـه ألف فارس مغوار . فهرب كشتكين ليلا نحو « سنك بشت » . فتبعه قراجه إلى سنك بشت ، فأفنى غالبيتهم ، بينما استمر نوابه على حكومة مرو . وبعد ثلاثة أيام أو أربعة قدم مئتا فارس متوجهين نحو قتقو نوين[1] ، ومروا بمرو ، وتابع نصفهم سيرهم لتنفيذ مهمة ، ونصفهم الآخر حاصروا مرو . وأرسلوا رسلهم على عجل إلى سكان مرو حتى نخشب بقرب قدوم جيش ترباي وقبار .

كانت تلك الولايات والأطراف ، ذلك الأوان ، تستقبل كثيراً من الغرباء يفدون عليها من كل جانب . فغرس هؤلاء الغرباء في نفوس أهل مرو الاستخاف بحب الوطن . وما هي إلا خمسة أيام حتى برز على حدود مرو ترباي بخمسة آلاف رجـل يرافقه همايون سبهسالار[2] الملقب آق ملك[3] . ولم يتريث ترباي ساعة حول المدينة إلا والمؤمنون يساقون كقطعان الجمال ، ويذبحون بالعشرات ، حتى بلغ عددهم أكثر من مئة ألف شهيد . ثم وزع جوانب المدينة على عساكره ليخربوا البيوت والقصور والمساجد والمعابد . ثم عـاد أمراء المغول مع جنودهم ، وأبقوا آق ملك وعدداً من الرجـال ليترصدوا من كان متخفياً في أطراف المدينة ، ويطهروه من هـذه الحياة . فقاموا بكل عمـل لا يخافون فيه الله من حيل ووسائل لإخراج الناس من مخابئها . وكان بينهم رجل من نخشب فشرع يرفع صوته بالأذان ، حتى يسمعه كل مختبيء بثقب ،

---

(١) أرسل جنكيز خان قتقوخان (قوتوقو) مع عدد من الأمراء وبرفقتهم ثلاثون ألف محارب لحماية طريق : غزنين وغرجستان وزابل وكابل ليذللوا هذه البقاع قدر الإمكان ، وعدّهم طلائع جيشه له ولابنه تولوي خان بعد فتح خراسان (جامع التواريخ : ٣/١١٩) .

(٢) أي قائد الجيش السعيد (ت) .

(٣) آق : أبيض (ت) .

فيخرج فيمسك بـه الجنود ، ويسجنونه في المدرسة الشهابية ، ثـم رموهم جميعاً في جرف سحيق • واستمروا علـى حالتهم من الحيل واحـداً وأربعين يوماً ، ثم عادوا ولم يتركوا في المدينة أربعة أشخاص أحياء •

ولما لم يبق في مرو وضواحيها وجود للجيش دخلها القرويون الذين ظلوا أحياء ، وعدد من البداة سكان الصحراء ، وجلس فيها الأمير زاده[1] أرسلان باز أميراً عليهم • ثم تجمع إليه عدد من الناس • وحين ترامى نبأ مرو إلى نسا جمع تركماني ● عدداً من التراكمة وقدم إلى مرو ، فرغب فيه العامة ، وتوافد عليه الناس حتى بلغ عدد تابعيه عشرة آلاف • وبعـد مرور ستة أشهر على إمارته عليها أخذ يرسل رجاله إلى حدود مرو الروذ[2] وبنج ديه[3] وطالقان حتى يسرقوا من عتاد المغول وزادهم وأنعامهم • وفي هذه الأثناء ركبه هوس نسا هو ورجاله ، فاتجه نحوها وحاصرها • وكان حاكمها نصرة[4] يدافـع عنها • واستمر عليها الحصار حتى تسلقها يـازر بهلوان بسرعـة ، وترصد لحاكمها ، وحين مر من جانبه مد له قدمه ليوقعه • وسقط فعلا ، وكاد يقتل لولا أنه سقط على حامي القلعة تحته فقتل حامي القلعة ونجا نصرة • وهرب إلى طالقان قاصداً قراجه نوين • وعاد ومعه ألف من الفرسان والمشاة بسرعة نحو مرو ، وزاد من خرابها • وقتل كل من لقيه ليشفي غلته من التركماني • وتعقبه قتقو نوين بمئة ألف من الرجال ، فساق الغزنويين والأفغانيين حشراً عقوبة وإيذاء • لم ير أحد مثل هذا القائد ؛ فقد أحرق بعضهم وأفنى فئـات بألوان العذاب لم تخطر على بال بشر ؛ ولم يبق منهم أحداً حياً • واستمر على

---

(1) أي ابن الأمير (ت) •
(2) تقع اليوم في افغانستان وتدعى « بلا مرغاب » (ت) •
(3) أي القرى الخمس (ت) •
(4) هو نصرة الدين حمزة (ت) •

حاله أربعين يوماً ، حتى لم يبق في المدينة وما حولها مئة شخص ، حتى من انعدام وجود الغذاء زال هؤلاء أيضاً . ومع كل هذا فإنه أرسل بعض الرجال المحتالين لينقبوا الثقوب ويفتشوا الجيوب ، فإن رأوا فيها ضعيفاً كامناً قتلوه ، عدا عشرة أو اثني عشرة من الهنود ، من الذين قدموا إلى مرو منذ سنوات . ولم يبق غيرهم في الدار ديّار :

ليالي مرو الشاهجان وشملنا	جميع سقاك الله صوب عهاد
سرقناك من صرف الزمان وريبه	وعين النوى مكحولة برقاد
تنبه صرف الزمان فاستحدث النوى	وصيّرهم شتى بكل[1] بلاد

ذكر واقعة نيشابور :

إذا عدت الأرض من الفلك ، فإن بلادها بمثابة النجوم ، ونيشابور من بين هذه الكواكب زهرة زهراء السماء . وإذا أردنا تمثيل ذلك بالنفس البشرية كانت نيشابور عين الإنسان التي هي أنفس أعضاء جسمه وأعزها :

وماذا يصنع المرء	ببغداد وكوفان
ونيسابور في الأرض	كالإنسان في الإنسان[2]

« حبذا مدينة نيشابور التي على وجه الأرض ، فهي من الجنة ، وغيرها ليس كذلك » .

وعزم السلطان محمد على الرحيل من بلخ إلى نيشابور ، والفزع من اليوم الأكبر باد على صفحات أحواله ، والهلع والهول ظاهران في أقواله . وكثيرة هي تأثيرات الأفلاك على مركز الأرض ، فلو أن الجبل يتصور شيئاً قليلا جداً مما يتوقع له لظل أبد الدهر مزلزلا ، وأوصاله منحلة :

---

(١) الأبيات مذكورة في معجم البلدان مادة (مرو) مع اختلاف في كلمة (صيرهم)·

(٢) ذكر الأبيات الثعالبي في تتمته · والإنسان بؤبؤ العين (ت) .

صبت علـي مصائب لو أنها صبت على الأيام صرن لياليا(1)

وبالإضافة إلى تلك الأهوال أحداث ستأتي من عالم الغيب وأوهام تحوم فوقه . من ذلك الأحلام ، وأشباه التفاؤلات فهي كلها تورث العجز والقصور ، فيستولي على العقل والتدبر الخور والعجز . فقد رأى السلطان ذات ليلة في منامـه أشخاصاً نورانيين ، وجوههم مجرّحة ، وشعورهم مشتتـة ، وثيابهم السوداء ممزقـة كثياب الثواكل ، تبكي عليهن النساء . فسألهم عـن حالهم فأجابوه : نحن مسلمون . وكانت أمثال هذه الحالات تتهيأ له كثيراً . ومرة أخرى زار (في منامـه) مشهد طوس ، فوجد في الدهليز قطتين : بيضـاء وسوداء ، تختصمان . والخصوم ينظرون إلى الاثنتين بعين ملؤها التفاؤل . وجمد بصره حين لمح القطة الخصم غلبت وقطته قهرت . فتنهد وتابع سيره :

أهاجك والليـل ملقي الجران غراب ينوح علـى غصن بانِ
يحـق لعينيك أن لا تجـف دموعهما وهمـا تقطرانِ
ففـي نعبات الغراب اغتراب وفي البان بين بعيد التداني(2)

ومن أسباب هجوم جيوش الهموم والغموم على ليله الذي يشـده إلى الصباح شد العجوز ، ومن الحرارة التي تغلي في داخله وثوران مافي نفسه أن هجم الجرب على أعضائه كحباب الماء المغلي ، فبرز على جلده كله . روى لي أبي قال : في أثناء انهزام السلطان ، ووقت توجهه من بلخ عـلا ربوة يقصد الراحة ، فنظر إلى محاسنه فتعجب من آفاته . فاتجه نحو شمس الديوان وتنهد بحسرة وقال : الشيخوخة والإدبار تجمعتا عليّ والجمـال والإقبال والصحة أدبرت عني ! هذه الآلام من بقايا كأس الزمان ، ما علاجها ؟ وهذه القِتبة على ظهري هي من فعل الفلك الدائر مَن يزيلها ؟

---

(1) ينسب إلى السيدة فاطمة (ع) .
(2) تنسب الأبيات إلى أبي الشيص ، وورد منها بيت في (الأغاني : ١٥/١١٠) .

ووصل إلى نيشابور ، وهو على هـذه الحال ، في ليلة الثاني عشر من صفر سنة سبع عشرة وستمئة ، دخل المدينة وهـو خائف وجل من رجـال التتار ، ويتألم من تخريب القلاع التي بناها طوال حكمه ، وكان الظن يستولي عليه من أن التتار سيهجمون عليه ويأسرونه ، ويفرقون الناس من حوله. وكان يقول لهم : إذا تكاتفتم أيها الناس فلن يقدر المغول علينا . وهي قاعدتهم ولهذا وصلوا إلى المقام المشار إليه ، وجلسوا على صدور المملكة . ولن يتركوا أحداً حيـاً ، وسيفنونكم بسيوفهم ويأسرون نساءكم وولدانكم ، ولا تنفع الحيلة بعد ذلك . وسيفرقونكم فتجمعوا . وإن حب الوطن عند أبناء آدم يشبه جلاء الروح عن الجسد ، والجلاء في القرآن المجيـد في مقابل العذاب الشديد ، فهو يقول وهو أصدق القائلين : « ولولا أن كتَبَ الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا » . والأجل يضرب في أطنابكم ، بل إنه على رؤوسكم ويحيط بلبات أثوابكم : « وهو أقرب إليكم من حبـل الوريد » . فلا تميلوا إلى التفرقـة .

حين أيقن السلطان ، ولمس ، أن النصيحة لم تلمس شعاف قلوبهم قال : مع أن قوة السواعد لن تنفع معهم ، ولا التحصن يمنعهم فإن الواجب يحدوكم إلى أن ترمموا أسواركم . وفعلا أخذ الناس يبنون أسوارهم .

ووصلت إليه أنباء تحرك المغول ، لكنه أيقن تماماً أنهم لن يقطعوا الماء بهذه السرعة ، فاطمأن قليلا واسترخى . وفكر السلطان جلال الدين بالمحافظة على بلخ ، ولكنه قبل أن يبتعد مسيرة منزلة واحدة وصله خبر عبور يمـه وسبتاي الماء ، وكادوا يصلون إليه . فعاد جلال الدين ، وكيـلا يظن الناس بخوفه ، وحتى لا يؤلمهم جلس للصيد ، لكن عينيه كانتا متجهتين نحو الطريق :

رحـل الأمير محمد فترحلت عنها غضـارة هذه النعمـاء
والدهر ذو دول تنقل في الورى أيامهن ، تنقـل الأفيـاء

رحل بعد أن ترك أكثر ملازميه في نيشابور أمثال : فخر الملك نظام الدين أبي المعالي الكاتب الجامي وضياء الملك عارض الزوزني ومجير الملك الكافي عمر الرخي ، وطلب إليهم أن يقوموا على مصالح المدينة بالاتفاق . ولكن ما أن رحل السلطان حتى نصّب شرف الدين أمير المجلس الذي كان خادماً وركناً من أركان السلطان نفسه ملكاً على نيشابور ، قدم من خوارزم بعزم ، لكنه قبيل وصوله إلى نيشابور توفي بطريقة غامضة ، فسرق خدمه خزائنه وأمواله ، وخرج مجير الملك من المدينة ليستقبله ، فأدخل غلمانه المدينة، غير أنهم لم يبدوا ميلاً بالبقاء فيها وآثروا اللحاق بالسلطان .

وفي اليوم الثاني أي التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة وستمئة وصلت طلائع جيش يمه وسبتاي إلى المدينة ، وأسرع أربعة عشر فارساً وعدة فرسان على الجمال حين علموا بخبر غلمان شرف الدين ، واستطاعوا أن يبلغوا على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة ، وكان عدد الغلمان ألفاً ، فقتلوهم عن بكرة أبيهم ، وعادت الطلائع إلى المدينة ليستفسروا عن السلطان ، ولم يظفروا من الناس إلا القسم والحسرة ، والناس ميالون إليهم ، وأخبرهم مجير الملك أن السلطان سلمني المدينة ، وأنا رجل عجوز من أصحاب الكتابة ، أسرعوا خلف السلطان ، فإن ظفرتم به فالملك لكم وأنا أيضاً عبدكم .

وأعطوهم ذلك اليوم علوفة لدوابهم ، وأسرعوا ، وبين اليوم واليوم الآخر كانت وفود الجيش تصل ، فتأخذ علوفتها وتسرع . حتى غرة ربيع الآخر حيث وصل يمه نوين ، فطلب إحضار شيخ الإسلام والقاضي والوزير فأمرهم أن يقدموا العلوفة اللازمة وأن يهدموا الأسوار ، وأوصاهم بتلبية طلبات المغول القادمين،وسار يمه بعد أن كتب توصياته كلها بالخط الأويغوري، وكان في كل موضع يطيعه يضع فيه الزاد والشحنة .

ومضت مدة ليست باليسيرة لم يعد جيش المغول ، وأشيع بأن السلطان وصل إلى العراق ، فوسوس الشيطان في نفوس الناس ، فأرسل شحنة طوس الذي عينه المغول عدة رسائل إلى شادياخ[1] بواجب تقديم الطاعة لكنه ماكان يسمع من نيشابور إلا الجواب القاسي ، وفي هـذه الأثناء سراج الدين لقبي صاحب العقل الرزين وقائد الفرسان الحشر قتل شحنته وأرسل رأسه إلى نيشابور ، ولم يعرفوا أن بذلك الرأس كم رأساً من الخلق ستقطع ؟ وكم شرا سيستيقظ ، وكما يقولون : « شرٌ أهرٌ ذاناب » .

كان أبو تراب من قواد طوس ، فاختفى فجاءة وذهب إلى « أُسْتُوا » . في حين أن قشتمور الذي وضع تحت سلطته ثلاثمئة رجل مع مركوباتهم ، أرسل شخصاً لإعلام الأمراء ليشرح لهم قتل الشحنة والفتنة التي جرت . ثم جاء قشتمور من أسْتُوا إلى طوس مع فرسانه الثلاثمئة مفاجئاً سراج الدين الذي كان أميراً على طوس وتحت إمرته ثلاثة آلاف رجـل ، فقتل قشتمور أغلبهم ، وقبل أن يصل الجيش الكبير خرّب أسوار طوس ، وحين وصل تغاجار كوركان[2] صهر جنكيز خان مع الأمراء العظام بعشرة آلاف رجل في مقدمة جيش تولي إلى أبواب نيشابور في أواسط رمضان تهوّر الناس واستقلوا رجاله فخرجوا من المدينة يحاربونه . وشرع السيف يعمل عمله ، واستمرت الحرب قرابة شهر ، وفي اليوم الثلاثين اشتدت الحرب من طرف برج قراقوش ، فكانت النبال تتقاذف من على الأسوار والجدران ، ومن سوء طالع السكان ، وسبب هلاك الخلق ، أن سقط نبل على تغاجار فقتله ، وما كان الناس يعلمون

---

(١) شادياخ : ضاحية من نيسابور (ت) .

(٢) كوركان : بلغتهم بمعنى الصهر ، واستمر عليه هذا اللقب .

بقتله ، فعاد الجيش من حيث جاء بعد أن أخذ السكان منه أسيرين ، فأعلمهم الأسيران بمقتل تغاجار ، فعمت البهجة أرجاء المدينة ، فها هم قد قاموا بعمل عظيم ! وما علموا أنْ « سيعلمُنَّ نبأه بعد حينٍ » .

حين عاد الجيش قسم نائبه نوركاي نوين ● الرجـال قسمين ، فذهب بقسم إلى « سبزوار » ، واشتعلت الحرب في سبزوار بعد ثلاثة أيام ، وأعمل القتل العام في الناس ، حتى بلغوا سبعين ألف نفس ، وأرسل القسم الآخر من الرجال مدداً لقشتمور إلى طوس ، واستطاعوا استخلاص ما قد عجز قشتمور عن فتحه .

ومع أن سكان « نوقان » و « قار » كانوا كثيري العدد وقاوموا مقاومة عنيفة فإن العاقبة حلت عليهم فقتلوهم جميعاً ، واستطاعوا الاستيلاء على نوقان وسبزوار في اليوم الثامن والعشرين وإبادة أهلهما ، وقد أثار سكان نيشابور عصياناً عنيفاً ، وكانوا يستهدفون العساكر المغولية بالملاحقة والقتل ، وقد عمَّ الغلاء في نيشابور في ذلك الشتاء ، وكانوا يمنعون الناس من الخروج إلـى خارج البلدة ، فعانوا من ذلك كثيراً .

وحين حلّ ربيع سنة ثمان عشرة ، وانتهى تولي من أمر مرو عزم على الذهاب إلى نيشابور ، ولم يُعلم أحداً عن خطته ، كما كتمها عن جنوده ، ولم يكثر من تعبئتهم ، وبعث أنْ تصرَّفوا بولاية طوس مرة أخرى ومعها قراهـا التابعة لها ، وألحِقوا باقيهم بسابقيهم عن طريق السيف ، وأرسل إلى شادياخ عدداً كبيراً من الأسلحة والمنجنيقات .

أما السكان في نيشابور فمع أن الحجارة كانت متوفرة لديهم فإنهم حملوا كثيراً منها من مسافات بعيدة إلى داخل المدينة، كما أدخلوا المحاصيل والحبوب،

ومع يقينهم أنهم لن يروا المغول فإنهم رفعوا إلى أعلى السور ثلاثة آلاف آلة قاذفة للحجارة وثلاثمئة منجنيق وعرّادة ، وعبّؤوا النفط وأعدوا الأسلحة ، كان أساسهم لهذا كله ضعيفاً ، ولم يفكروا إلا بإرسال قاضي الممالك ركن الدين علي بن إبراهيم المغيثي الى تولي ، وعرض عليه مطاليب أهل نيشابور وهي : الأمان ودفع الجزية، لكن تولي لم يجبه على شيء ، كما لم يسمح له بالانصراف وفي يوم الأربعاء الثاني عشر من شهر صفر أعلن النفير للحرب ، ووقت صلاة الجمعة كانت الحرب مشتعلة علــى أسوار نيشابور وفي خندقها ، فصدعوا السور ، واشتدت الحرب أكثر من طرف بوابة الجمالين وبرج قراقوش،ورفع المغول الراية على جدار قصر خسرو • وتقدّم الجيش ، وشغل الرجال الواقفين على السور بالحرب • فدخل المغول من بوابة الجمالين ، واستمرت المعارك الطاحنة متتالية على الأسوار طيلة النهار والليل ، وما أن حل يوم السبت حتى كانت الأسوار كلها والمدينة بأيدي المغول • وفي يوم السبت أيضاً وصل تولي، وكان في قرية « جنكرك »[1] التي تبعد ثلاثة فراسخ عن نيشابور • وسرعان ما باشر الجند بقتل الناس ونهب المدينة • فتفرق الناس يحاربون بين المنازل والحواري •

كان مجير الملك يحث المغول على التوجه نحوه ليخلصوه من ربقة الحياة، كان يوجه إليهم كلمات قاسية ، حتى يقتلوه بسرعة •

أما من تبقى من السكان من رجال ونساء فساقوهم إلى ظاهر المدينة • وأمر تولي ، ثأراً لدم تغاجار ، أن يهدموا المدينة بشكل يمكن زراعة أرضها ،

---

(١) لا يعرف نطق هذه الكلمة جيداً ولا إملاؤها ولا مكانها ، كما يتضح من حاشية المحقق وحاشية النسخة الانكليزية (ت) .

(أي تتحول المدينة إلى سهل ، لا يبقى فيها حجر على حجر) ، وأن يقتصوا من كل حيٍّ فيها ، لا يتركون هراً ولا كلباً حياً • وكانت ابنة جنكيز خان حرم تغاجار ترافقهم في هذه الحملة ، فدخلت المدينة بنفسها فمن وجدته ما زال حياً امرت بقتله في الحال • إلا أربعمئة حرفي وصانع فقد أبقوا عليهم أحياء ، وأرسلوهم إلى تركستان ، وما زال أبناؤهم موجودين حتى الآن • وقد فصلوا رؤوس القتلى عن أجسادهم ، وجمعوا رؤوس الرجال في ناحية ورؤوس النساء والأطفال في ناحية أخرى •

وبعد أن تمت مهمة تولي عزم على الذهاب إلى هراة،وترك هناك أربعمئة عسكري من التابعين للمغول ، ليفتشوا عمن بقي حياً ليلحقوه بإخوانه الموتى• كانت الذئاب والذباب تحتفل في صدور الجثث ، وعيّدت العقبان من كثرة ما أكلت من لحم الغيد ، وبنت النسور من نحور الحور سوراً :

ماتت لفقدِ الظاعنينَ دِيارُهم ْ فكأنهم كانوا لها أرْواحا

تساوت المساكن والأماكن مع التراب ، وذلّت الجدران الشاهقة كبرياء، حتى بلغت نجم زحل وغدت تراباً حقيراً ، وقصّرت القصور في تبيان مقامها فتهاوت ، وغدت رياض الأزهار ناراً مستعرة ، وتحولت مدرجات البقاع إلى قاعٍ صفصف :

بلى اسْتعبدتْهُ الحادثاتُ فأصبحت خواشعَ تعتادُ السجودَ رُباهُ
وعهدي به كالمنْدل الرطبِ عودهُ يبيساً ، وكالمسكِ السحيقِ ثَراهُ

ذكر جلوس ملك العالم قاآن (بارئ) على عرش الخان وكرسي العالم

يمتحن الحق ، تقدست أسماؤه وعظمت نعماؤه ، عبيده كما يدل على ذلك قوله : « ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » ، ويضعهم على محك اختباره ، ويذيبهم في بوتقة التجربة والمعاناة :

« يبلوني بالنار كقطرات الندى في الزهرة ، ويمتحنني على الحجر كما يختبر الذهب بالحك » .

وكل ينال عقابه على حسب خبث أفعاله . وبنسبة سوء الأعمال ورجس الخصال يسقونهم شراب : « جزاءُ سيئةٍ بمثلها » . ولما كان مقرراً لكل عمل غاية ، ولكل مبدأ نهاية فإنه إذا تم أمر بدا نقصه ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لن يَغلب عسر يسرين »، ويجب أن يستفاد من طريق العقل والنقل ، وخزائن رحمة الله جل جلاله مفتوحة أبوابها ، ووسائل رفاهية عبيده ومنفعتهم معدة ، وصنوف البر والرحمة لا تعد ولا تحصى تفوق أنواع عذابه كما جاء في النص : « سبقت رحمتي غضبي » تسبق ، وأولياتها بأخرياتها لاحقة :

« إذا كانت مدة العمر لا تناسب ، فلا تكره الجسم على التحمل »

« لست يائساً إذا رحمة صانع الطهر ، يصل منها ذرة إلى خلائقه »

وبدا تدريجياً أثر ذلك ، وتحددت العلامة ، ووضوح هذه المعاني والإشادة بها وتركيب هذه المباني مبنية على أساس انتقال الملك إلى أباطرة

أوكتاي قا آن ومنكو قا آن • وسنبدأ ، بترتيب وولاء ، شرح أحوال العالم :
جلوس قا آن[1] وسنلتزم الإيجاز والاقتصار حتى لا يتهم مطالعو هذا الكتاب
المباركون المكرّمون مؤلف هذه الحكايات بالإطناب • ويعلمون أن الغرض
من هذا التقرير هو الإفادة مما نظمه قاآن وحفظ أموره ورعى رعيته ، على أي
منهج كان ، والأقاليم الأخرى التي كانت حائرة بين الرجاء واليأس كيف قادها
إلى الإذعان ؟ فبعضها عن طريق الترهيب ، وبعضها على منهج الترغيب ، بحيث
غدت كلها تحت إمرته وبعد وفاته كيف ذلل منكو قاآن الانحراف ليساير
بناء العدل ، ويمهد قواعده ، هيأ الله له التوفيق الصادق والصواب الكريم
في تشييده •

كان اسم قاآن قبل أن يغدو ملكاً أوكتاي • وقد هيأ له جنكيز خان
كل ما يساعده على تسنم هذا المنصب من أفعال وأعمال وأقوال وإخضاع
ملوك وتجهيز جيوش • وقد تفرس في أمور المملكة : من فتق ورتق ، ومن
حل وعقد ، فبدت فيها شهامته وصرامته ، فحفظها من أيدي العداة العتاة •
وكان يدأب على نقش تلك الصفات والمعاني في قلوب أبنائه الآخرين كالنقش
في الحجر ، وتمكن شيئاً فشيئاً أن ينمي جذور المصلحة في أفئدة كل واحد
منهم ، حتى بلغ في ذلك الوقت جنكيز خان مخيمه الشرقي القديم قادماً من
الممالك الغربية ، موجهاً العزم نحو ولاية « تنكوت » • وبعد أن طهر تلك
الرباع من الأعداء أهل الخداع مال إلى التفرغ لمرضه مما أصابه من عفونة
ذلك الطقس ، ولكنه توفي بسبب الدواء •

ودعا أبناءه جغتاي وأوكتاي وتولي وكلكان وجورجتاي

(1) يعني أوكتاي قا آن ، إذا لم يذكر الاسم (ت) •

وأورجان[١] لزيارته ، وأبلغهم أن المرض استولى عليه ، وعلى كل واحد منكم أن يحافظ على عرشه وممتلكاته ، وأن يمد سلطانه على أساس استحكامه :

يكفيه إن نحن متنا أن يُسبَّ بنا وهوَّ إن ذُكر الآباء يكفينا[٢]

فإذا أراد جميع الأبناء أن يكونوا خانات وحكاماً وآخر لا يكون فسيكون مصيركم كمصير الثعبان ذي الرأس الواحد والمتعدد الرؤوس ، الذي ورد ذكره في أول الكتاب . وحين أنهى نصائحه وأوامره عند هذه الكلمة ركع الأولاد وقالوا : إنَّ :

« أبونا الملك ونحن العبيد ، قد أصخنا لأمرك ورأيك »[٣] .

قال جنكيز خان : إذا كان هذا أملكم فستعيشون في نعيم ودلال كل عمركم ، وإن رأيتم رأيي ، بعد أن سمعت منكم ولاءكم ، فإنني أختار أوكتاي ليجلس على سرير الخانية لما يمتاز به من رأي متين وعقل راجح ، ولما يتمتع به من رعاية للجيش ، وحماية للرعية ، ومحافظة على الثغور بفكر ثاقب وتدبير حسن ، كل هذا جعلني أختاره ولياً للعهد ، وأتوقع منه أن يمسك بدفة الحكم بصرامة وكفاية .

وعاد الأبناء إلى ركوعهم بعد أن سمعوا نصائح أبيهم ، يعبرون له عن شكرهم وانقيادهم ، معلنين الطاعة لأوامره التي لا راد لها ولا اعتراض :

---

(١) يرى المصحح أن أصل الكلمة « أورجقان » ثم حذفوا القاف على قاعدتهم بحذف الحرف الحلقي . أو أن أصل الكلمة هو أورخان .

(٢) لم يتناسب البيت والمعنى المطلوب ، ولعل المعنى يتطابق إذا قصد مكان الآباء كلمة الأبناء . والبيت لبشامة بن حزن النهشلي (خزانة الأدب للبغدادي طبعة بولاق : ٣/٥١١) .

(٣) البيت من الشاهنامة (ت) .

« الفلك فتح أعيننا والدهر وسع مسامعنا ، ونحن موافقون على أحكامك » •

وتابعوا : إن صلاح أمورنا وحشمنا منوطة برأي جنكيز خان ، وهو منوض في ما يراه• قال جنكيز خان : إذا انطوت نيتكم على الاتفاق ، ولسانكم مع فؤادكم على وفاق فليقرن الكلام بالكتابة بأن الخان بعدي هو أوكتاي وأمره كالروح في الجسد ، ولن يتغير ما رسمته اليوم ولن يتبدل • فكتب الأولاد جميعاً امتثالا لأمر والدهم ما طلبه •

واشتد به المرض فاستحالت عليه الحركة والنهوض ، وفي الرابع من شهر رمضان من سنة أربع وعشرين وستمئة لفظ أنفاسه الأخيرة • وتوزع الأبناء إلى مواضع إقامتهم على أن يجتمعوا ثانية ، وبحسب لغة المغول «قوريلتاي»(١) • ووصل كل واحد منهم إلى معسكره ، يشعرون برغبة صادقة نحو النقاط التي استعرضوها في اجتماعهم • وبعد حين انكسرت حدة البرودة ، وعاد نسيم الصبا يهب على الرباع بسعادة ويمن :

« أخصب نسيم الصبا الدنيا ، فغدت البسيطة جزءاً من مروج الجنان »
« لقد قام نسيم الصبا بالمعجزة في هذا التراب ، فجاء بالمطر تماماً كمعجزات عيسى » •

وتواترت الرسائل بين الإخوة بأن أنباء نعي جنكيز خان شاعت من غير أن يحدث خلل يذكر في المملكة • ورأوا أن عليهم جمع الرجال ، ليحافظوا على مصلحة الخانية • وتحرك كل واحد منهم من معسكره إلى مكان الاجتماع « القوريلتاي » • وسار من أطراف القفجاق الأبناء : أبناء توشي وهردو وباتو

(١) قوريلتاي : اجتماع الطبقة الحاكمة والأمراء لدراسة الأوضاع العامة وتعيين الخان (ت) •

وشيبقان[1] وتنكوت وبركا وبركجار وتغاتيمور . ومن قناس[2] : جغتاي ، ومن إيسيل وقوتاق أوكتاي . ومن طرف المشرق أعمامهم : أوتكين وبيلكتاي نوين[3] وإيلجتاي[4] وبكوب وركاي[5] ● . ومن المناطق الأخرى تحرك عدد من الأمراء والأحفاد . وكان ألغ نوين وإخوته الأصغر منه سناً لبثوا في معسكر جنكيز خان . ووصل الجميع إلى موضع « كلران » ، وتم فيه اجتماعهم . ولما تبسمت الدنيا من حلول الشمس في منزل الحمل ، وبكى الفضاء بعين السحاب مدراراً :

ورد الربيع بحسنه وبهائه فحكى هوى العشاق طيب هوائه

وتفتحت الرياحين والأزهار في الحقول، وتغزلت الفاختات في الربى لتفتح الأزهار ، وحكى الهزار مئة حكاية للبساتين :

« ونرتشف الآن الخمرة اللذيذة الصافية ، هذه الخمرة المسكية تأتي بها الجداول » .

«وعج الفضاء بزئير الرعد وغلت الأرض،ورطبت تلك القلوب السعيدة»

اجتمع[6] الملوك وأبناؤهم وأمراؤهم مع عساكرهم في ذلك الفضاء الرحب والوديان الواسعة :

---

(١) وتلفظه كتب التاريخ شيبان لأن المغول يسقطون الحرف الحلقي من وسط الكلمة (ت) .

(٢) ولعلها قباس . ومثلها بعدها : قوباق (ت) .

(٣) أخو جنكيز خان لأحد أبويه (ت) .

(٤) ابن أخي جنكيز خان (ت) .

(٥) لم يتضح للمحقق قراءتهما ، انظر المستدرك في آخر الجزء (ت) .

(٦) جواب (لما) هنا (ت) .

إذا خاض بحراً لم تبقَ صدورهُ لأعجازهِ في البحر بُغيــة شارب
وإنْ رام براً لم يَدعْ سَرعانُه لساقَته في البرِّ وَقفةَ راكبِ

فأمضوا ثلاثة أيام بلياليها بالحبور والسرور والاحتفال ، مبعدين عــن نفوسهم شوائب الغل والحسد :

وجَنَوا زهرة التَّصابي وأدْلَوا شجرَ الوصــلِ يانعَ الثمراتِ
في محلٍّ سُقوا بهِ رغــدَ العيـ ـش وعزَّ الهوى وطيبَ الحياةِ

وبعد تلك الأيام المعدودات استعادوا أقوال جنكيز خان ووصاياه إبان كانوا في دار الملك ، وتذاكروا ما قد كتبوه على أنفسهم مثبّتين بذلك زعامة أوكتاي ، معلنين جميعاً اتفاقهم الذي لا تشوبه شائبة على تثبيت أوكتاي محل حكم جنكيز خان بعون الله ، مدافعين عن الملك ورقابهم دون ذلك ، مقدمــين عبوديتهم وأرواحهم في سبيل ذلك ، وعيونهم وآذانهم رهن إشارته . وأعلن أوكتاي استمرار الحكم كما كان في عهد جنكيز خان ، فالأخ الأكبر والأعمام أفضل مني في هذا الميدان ، وبحسب قانون المغول يخلف الأخ الأصغر أباه في الحكم ، وألغ نوين[1] الابن الأعقل .

ولازموه ليلاً ونهاراً ، واستجابوا لأوامره ، وجلسوا حوله جلوسهــم الخان الأعظم ، وهم يتشاورون بغبطة وحبور ، واستمروا على هــذه الحال أربعين يوماً ، وكانوا في كل يوم يرتدون ألبسة قشيبة ، ويقرعون الكؤوس ويستعيدون الدروس ، وفي أثناء ذلك كان أوكتاي يكرر على مسامعهــم

(1) لقب تولي .

عباراته الدقيقة ملتزماً في معاينة ما اتفقوا عليه ، وخُتمت جلسة الأنس بواحد وأربعين يوماً :

« حين برز الصباح بيوم متفائل ، رفع راية الدنيا »

« وفد الغيم الحبشيُّ من الصين ، أنْ برزت مرآة الصين من الصين »

واتنظمت عقود اجتماع أبناء الملوك وكل صنف من الأحرار والعبيد ، واكتمل حسن الاحتفال بتقدم أبناء الملوك نحو أوكتاي يضعون بين يديه مصلحة الإخوة والأبناء التي فرضها جنكيز خان ، وفوّضوه أمر الحل والعقد والنقض والإبرام ، ولن نبدل من أوامرك شيئاً ، وسنستجيب لكل ما تراه ، واليوم باتفاق المنجمين والفلكيين يوم مسعود ووقت مبارك ومحمود ، يتمكن من كرسي عرشه بسعادة بعون الله الباري عزّ اسمه ، ويزين الدنيا بالعدل والعمل الصالح ، فقد امتثل أمر أبيه بعد إلحاح إخوته وأعمامه ، وبحسب العادة القديمة رفعوا قبعاتهم عن رؤوسهم ورموا أحزمتهم على أكتافهم • وفي سنة ست وعشرين وستمئة[1] تأبط يد أخيه جغتاي اليمنى ويد أخيه أوتكين اليسرى وجلسوا جميعاً على كرسي العرش يتداولون أمر البلاد برأي الرجل العجوز وهمة الفتى • وصبّ ألغ نوين الكؤوس ثلاث مرات للحاضرين جميعاً داخل البلاط وخارجه ، فركع الجميع يبتهلون إلى الله دوام الملك وسعادته :

وإذا الدرُّ زانَ حسنَ وجوهٍ كان للدرِّ حسنُ وجهكِ زَيْنا
وتَزيدينَ أطيبَ الطيب طيباً إنْ تمسّيهِ ، أينَ مثلُكِ أينا ؟

ولقبوه قاآن ، وعلى حسب ما ألفوه فإن أبناء الملوك جميعاً تعبيراً عن العبودية والامتثال لقاآن يركعون للشمس ثلاث مرات ، ثم دخل الناس وعادوا إلى لهوهم وطربهم ، وجلس ملك العالم على كرسي السعادة مؤيداً ، والأمراء

(١) أي بعد عامين من وفاة جنكيز خان (ت) .

وكأنهم في نضارتهم أزهار وفي نظافتهم مروج الربيع :

حوله ، محلهم من الشمس محل الجوزاء ، يتمثلون بالمحبة والحسن والملاحة،

« ربيع العالم روحــه ، ووجهه كبستانه ، جعــل رقبته صبراً وضفائره كالدروع »

« وجهه مدور كالهلال وحاجبه مقوس ، جمال وجهه نادر يفوح مـــن زلفه العنبر »

وقد أخذ الحضور من مجلس الأنس هذا لكثرة ما كان فيه حور وولدان وخمور وألبان ، حتى شابه جلسات الخلد[1] ... وهكذا حصل قاآن على الدنيا بعين مضيئة ، من غير ضغينة ولا غضب :

« نزل الشاه حديثاً إلى السوق ، فأخبره أن الدنيا مالكة مثله »

« إذا لم يكن هنا ريح مع عزمه فسيغدو التراب وحلمه ذليلين »

وعادت أغصان الدوح إلى أمنها وأمانها بعد أن اكتهلت وذبلت ، وابتسم وجه الأمل بعد أن خدش باليأس والعدم ، وتحركت الأيام الساكنـة فمنحت الأرواح سعادة ، ونهلت الليالي من حرارة الخمرة وطربها فأشرقت ، وأمر قاآن أن تجمع ممتلكات جنكيز خان بعد أن كانت مفرقة في الممالك الشرقية والغربية وتوزع ، فأغلق أفواه اللائمين برده النصيحة ، ووزع كل ما فيها على أقاربه وعساكره وعشائره ؛ الشريف منهم والوضيع ، والرئيس والمرؤوس ، والسيد والغلام ، وكلٌ أخذ ما يستحق من هذا الميراث ، ولم يدخر للغد شيئاً :

إذا ادخر النملُ الطعامَ لعامــهِ ولن يَدخرَ الضرغامُ قوتاً ليومهِ[2]

(١) بياض في الأصل عدة كلمات .
(٢) نسب الثعالبي البيت مرة إلى ابن التمار الواسطي ومرة إلى ابن المعاني (التتمة) .

وحين انتهت مراسم المواهب وختمت احتفالات الكرم علـى عادتهم : « إنّا وجدْنا آباءَنا على أمةٍ » أمر أن تطبخ الأطعمة وتوزع مدة ثلاثة أيام متعاقبة على روح جنكيز خان،كما جمع الأبكار الصَّبيحات اللطيفات الحلوات من ذوات الدلّ والظرافة والملاحة والإغراء ، مما « وُعد المتّقون » ، وكان عددهم أربعين حسناء ، وكنّ من نسل الأمراء ، ممن لازمن الخدمة الخانيـة فحلاهنّ بالجواهر والحلي والحلل الغالية الثمن،مع خيول خفيفة خفة الأرواح.

وشرع ، بعد أن أتم تلك المراسم ، بضبط أمور الدولة وكفاية مهماتها ، وكان أول أمر ملكي صدر عنه أن تستمر الأوامر السابقة التي كانت في عهد جنكيز خان . كما أعلن عن عفوه العام من أفسد أو بدّل أو أخل أو نمّ حتى يوم جلوسه هذا ، أما بعد هذا ، فكل من خالف أوامره أو الأوامر الماضيـة فسيخضع للتأديب والعقاب ، ثم حدد لكل قائد وجهته من الأقاليم ، ولا سيما أن الفتنة في خراسان ما زالت متقدة ، والسلطان ما زال طليقاً ، فعين جورماغون قائداً لحملة تتجه نحو القفجاق وسقسين وبلغار كوكتاي يرافقه ثلاثون ألف رجل مع بعض الأمراء ، وسنتاي[1] بهادر ومعه مثل هذا العدد من الرجال ، كما حدد الجيوش التي ستذهب إلى التيبت وسلِنْكاى وغيرهما ، أما هو فاتجه نحو ختاي ، وكذلك أمر لإخوته مما سيأتي شرحه في حينه ، لتتضـح مهماتهم إن شاء الله العزيز .

---

(١) الكلمة غير معلومة لدى المحقق ويراها الانكليزي « سبتاي » (ت) .

ذكر حركة ملك العالم قاآن إلى ختا وفتحها :

حين تقلد ملك العالم التاج الخسروي ، واحتلت عروس الملك في حضنه الكفء ، ووجه الجيوش إلى أقاليم الربع المسكون اتجه نحو ختا اتجاهاً مباركاً ، ورافقه في مهمته إخوته : جغتاي وألغ نوين[١] وعدد آخر منهم ، كما رافقه رجال بواسل تلمع سيوفهم في أطراف الصحراء وتتصادم خيولهم كالبحر وأمواجه الصاخبة، فتتلاطم طولاً وعرضاً، وعددهم لا يُعرف له أول ولا آخر، يطون الصحارى والهضاب ، فتميد لثقلهم التلال :

يقود الخميس الحر[٢] غصّ به الفلا وأصبحَ هام الأكْم وهوَ مشدّخُ

ووصلوا في أول رحلتهم إلى بلدة تدعى « خوجاتبونسقين »[٣] وحاصرها على حافة نهر منزل « قراموران »[٤] ، وضاعف من عدد المحاصرين مدة أربعين يوماً عسيرة ، كان فيها الرماة الأتراك يقذفون نبالهم وكأنهم يريدون جرح أحداق الأفلاك ، مثل :

« كلُّ رمح قاسٍ يتجه مستقيماً ، ليصيب هدفه »

---

(١) لقب تولي خان .

(٢) لم يتضح لنا نطق الكلمة ، ولا معرفة المقصود منها .

3 - Koguigangui

(٤) ترجمة اسمه المغولي : النهر الأسود ، في حين أنه في الصينية « هوا نك هو » أي النهر الأصفر . والنسخة الانكليزية ترجمت الكلام نفسه للمحقق .

وحين أدرك الأهالي أنهم لن يجنوا من ضرباتهم سوى الندامة ، وان الإقدام على النزاع نتيجته الإدبار ، طلبوا الأمان ، وهم عاجزون خائفون :

« في آخر الأمر أمام بلاط الملك ، طأطؤوا برؤوسهم على عتبة القصر »

والجنود الختا الذين قتلوا من المغول عشرة آلاف توقفوا عن الحرب وانسلوا خاسرين فقتلوا جميعاً إلى نار الله وسقره،ثم أخذوا الصبيان والأولاد وبعد أن قيدوهم بقيود العبودية أرسلوهم إلى مواضع أخرى .

وبعد ذلك سار ألغ نوين وكيوك في المقدمة مع عشرة آلاف جندي ، بينما لحقهم الخان على مهل من أمره ، كان ألتون خان ملك تلك الأقاليم ، فعلم بأمر جيش المغول ، فأعد مئة ألف محارب يرأسهم قداي رنكو وقمر نكودر . فاغتر جيش ختا بقوته وعدده ، فانساق شيئاً فشيئاً نحو حصار معين له ، حتى إذا دارت عليه الحلقة أرسلوا إلى خانهم يطلبون منه ليمتع ناظريه بهذا الصيد السمين . وحين أدرك ألغ نوين أن نطاق المقاومة ضيق عمد إلى الخداع ، والحرب خدعة ، فأرخى لهم نور الأمل الخادع ، كان في الجيش قنقلي وكان على علم باستخدام حجر المطر[1] . وباشر بحك حجارة المطر ، فأمر القائد أن يرتدوا ثياباً تقيهم المطر ، ويظلوا على ظهور جيادهم ثلاثة أيام بلياليها ، مالبث المطر أن هطل فوق المغول ، ثم تبعه الثلج ، واشتد البرد كثيراً على جيش الختا، فأخذهم الذهول ، ونسوا أنفسهم ، وفوجئوا بهجوم جيش المغول عليهم :

---

(١) يزعم أقوام الترك والمغول أن لبعض الأحجار خاصية خارقة للعادة ، فمن اصطكاك حجر بحجر بنحو معين تهطل من السماء الثلوج والأمطار . ويدعى هذا الحجر « جده » أو « يده » . وهي خرافة استمر الاعتقاد بها حيناً طويلا من الدهر ، ذكرها ياقوت في تركستان والقزويني في كتابه عجائب المخلوقات . وقد اهتم بها عدد من المستشرقين أمثال « كاتر مير » .

« حتى أشرق الجوهر الصباحي الأحمر ، أبيض ناصعاً من بين السواد »
فرأوا جيش الختا وكأنهم قطعان من الأغنام ، يخبيء الواحد منهم رأسه تحت إبط الآخر ، وهجموا عليهم : « فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية » . وحين وقع البزاة على سرب الحمام ، بل أسود هاجمت رتلاً من الغزلان ، هربوا ، فحملوا على الغزلان ذوات الرقاب كرقاب الجآذر ، قدموا كالطواويس وطاروا كخلية النحل :

« أمسك العقاب بذيل الحمامة بعنف ، كسر الأسد رقبة الغزال في الغابة»

ولم يلوّثوا سيوفهم بدمائهم ، بل لحقوهم يشكونهم بالحراب ، فألحقوهم بجهنم :

فأصبح جسمُ الجامدِ القلبِ منهمُ بقلب الحديد الجامد القلب ذائبا [1]

وفاز القائدان[2] بالنجاة ومع كل واحد منهما خمسة آلاف ، فرموا أكثرهم في النهر فماتوا من أثر ضرب الرماح مع الماء ، وعبر بعضهم ومنهم الشيطانان السيئا الحظ ، وقد أمر قائد المغول بأن يفعلوا بمن لم يعبر البحر فعل أصحاب لوط :

أنَّى ودونك من سُمر القَنا أجَمٌ مرّ الشجاعُ بها فانصاع مسؤوتا[3]

وجمعوا من آذان القتلى أكواماً ، وأرسلوا البشير لحضرة قاآن بأمر الفتح ، فقدم قاآن على عجل ، وكان ألتون خان آنئذ بمدينة « نامكينك »●• وبعد أن جاهد ألتون خان مدة أسبوع ، وأيقن أن أمر الدولة خرج من يده ،

---

(1) البيت للغزي أبي إسحاق (ديوانه مخطوط بباريس • ورقة ٣) •
(2) يعني : قداي رنكو وقمر نكودر ، وهما قائدا ألتون خان •
(3) من قصيدة لإبراهيم بن عثمان الغزي • الشجاع : الحية • المسؤوت : المخنوق •

وأن أغلب عساكره قتلوا ، أمر من كان معه من نسائه وأبنائه أن يجمعوا حطباً ويضعوه حول منزله ، وأحرق به نفسه حياً :

« خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين » ، وحين دخل الجند المغول المدينة :

مدّوا إلى النهبِ أيديهم وأعينَهم وزادهُم قلقُ الأخلاقِ تَشْتيتا[1]

ونهبوا وأغاروا وقتلوا أعداداً لا حصر لها ، وغنموا مالاً لا يقدر ، ثم فتحوا مدناً عديدة أخرى فأدوا فيها قلوب الثكالى وأراحوا أرواح رجالها ، بحيث تركوا البلاد عامرة بالجثث والقتلى ، ثم عاد الملك المؤيد الموفق إلى معسكره ، وأمر عساكره أن تتخذ طريقها نحو « سِلْنكاي » وغيرها من مدن التيبت وتنكوت وسومغول ، كما تأتي مطالعته .

ذكر القوريلتاي[2] الثاني :

حين أنهى الملك الحاتميّ السخاء والمعاشرة غزو إقليم ختاي عاد الى مقر عرشه سعيداً ، ووجه كل من حوله من الأمراء إلى المناطق المعمورة لفتحها وإذلالها ، وحيثما وصلت هذه الجيوش كانت تبلغ مقصودها ظافرة وتعود سعيدة ، ورأى صاحب الهمة العلية أن بعض الأمراء ما زالوا بينه لم يأخذوا حظهم بعد من الحروب ، فأصدر أحكامه لإعداد الجيوش الجديدة التي يرى من المصلحة الملكية أن تبلغها وتذللها ، فأغدق على الأمراء والأقارب الأموال

---

(١) هذا البيت من أبيات الغزي السابقة .

(٢) ذكرنا أن القوريلتاي هو الاجتماع العام للملك والأمراء لدراسة أهم القضايا (ت) .

في سبيل هذه الحروب ، كما أرسل رسله تستعيد القواد الذين يخوضون غمار الوغى ، ليلقاهم ، وذلك سنة...[1] . وفي الأيام التي غدت الدنيا فيها بستان إرم ، وسخت الطبيعة بسحبها على الأرض سخاء خلق الملك بالجود والكرم ، فارتدت الروابي حللاً ذات ألوان من تواتر أيادي السماء عليها ، وامتصت الأشجار والأفنان رحيقها من هذه المياه فتطبعت بالنضارة والغضارة :

نسج الربيع لربعها ديباجة ... من جوهر الأنوار بالأنداء
بكت السماء بها رذاذ دموعها ... فغدت تبسم عن نجوم سماء
في حلة خضراء نمنم وشيها ... حوك الربيع بحلة صفراء

ووصل أبناء الملوك إلى خدمة الملك ، فتحلقت نجوم الثريا السعيدة حول البدر المنير ، فتزين المجلس بأبهى حلله :

جمعوا شملهم بشط الفرات ... بعد شط النوى وبعد الشتات
فأعادوا مرعى النسيب خصيباً ... ورياض التشبيب خضر النبات

كما توافدت جموع الأمراء والعمال وأصحاب الأشغال . فتلقى ملك العالم أولاً إخوته وأعمامه بأنواع الإكرام والاحتشام والإعزاز والاحترام ، ورحب بالصغار من إخوته وبأبناء إخوته ، وأحلهم لديه بمنزلة أفلاذ الأكباد ، وأولاهم فنوناً من العاطفة والرأفة ، واستمر لقاء الأحبة شهراً عمت فيه المحبة والصفاء ، ودارت الكؤوس والأقداح صباح مساء ، قاصدين التمتع منزهرات هذا الزمان الواهي باستيفاء جميع أنواع الملاهي ، وأمضى الحاضرون جميعهم أياماً عمها الرخاء والسعادة في ظل الملك ، ثم أمر بإغلاق الاجتماع ليحسنوا الاستماع :

---

(1) بياض في الأصل ، ويرجح المحقق أن يكون ذلك سنة اثنتين وثلاثين وستمئة .

« أيا أيام العمر اصدقيني ، كم من ملوك الأرض مرّوا بك ؟ »

« ومن مدة عمري هذه ، كم أخاً مثله يأتي ؟ »

وعلى عادة قاآن المعروفة وشيمته المألوفة فتح أبواب خزائنه ، التي لم توصد أمام أحد ، ونثر ما جاءه من أموال بعد الاجتماع السابق على الحاضرين من الأقرباء والغرباء كما تنثر الأنوار على الأشجار في فصل الربيع :

فاضتْ بَنانك في النوادي بالنّدى   فاستصرختْ غرَقاً بنو الغَبْراء

وعاد أصحاب الأشغال من تجارين وأصحاب الانتجاع والتجار مظفرين بحصول أمانيهم ونجاح آمالهم ومآربهم ، بل بأضعاف ما كان في ضمائرهم ؛ فكم من درويش أثري ، ومن مفلس غني ، ومن خامل الذكر لمع اسمه !

وحين انتهت مراسم الأعياد والابتهاج صب الملك اهتمامه بمهام الدولة وترتيب الجنود ، ولما كان كثير من بلدان العالم يعيث في فساد وطغيان ، فقد عيَّن لكل صقع واحداً من أقربائه ، وأمرهم بالمسير ، وبعد ذلك برز من بين الحضور مونككا قاآن ، ومع أنه في أول درجات الشباب فإن عقلـه ووقاره جعلاه في مرتبة الشيوخ وأصحاب النظر ، وأخذ يعدّد مآثر قاآن ومقامـه ، فقـال : نحن دائمـاً نمتثل الأوامر ، ونضع نصب أعيننا تنفيـذ المهمات والمعضلات التي يراها الملك . وقصدنا أن يسعد قاآن ويلتذ بعيشه ويستريح من عناء الأسفار ومكابدة الأخطار ، وإلا فما الغرض من كثرة الإخوة والأقارب والعساكر التي لا تحصى ؟ « تأنَّ فأوجُ الشمس لا يتحركُ » .

حين استمع الحاضرون إلى هذا الكلام أيدوه واقتدوا به ، ونفذ كـل واحد المهمة الموكلة إليه ، فاتجه بجيشه الوجهة المخصصة له ، وهكذا ملؤوا الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ولما كانت أقوام القفجاق والكلار (؟) ما زالت لم تسحق تماماً بعد فقد عين لها الملوك باتو ومنكوقاآن وكيوك ،

ولكل واحد جيش عظيم من أقوام التاجيك والأتراك ، وحدد لهم مطلع الربيع لينطلقوا ، فذهبوا إلى معسكراتهم ليعدوا العدة اللازمة للرحيل .

واستغنى قاآن عن أتعابه ، فاستدعى العمال والكتبة ، وكانوا مسلمين ، وأغمد السيوف في بطون الغافين ، وسدّ سبل الظلم والجور ، وبسط رقاع العدل والبذل ، وأمر الكتّاب بأن يعمّموا الأوامر على الأطراف بألا يتعدى القوي على الضعيف . فسكن غبار الفتن واطمأنت الخلائق ، وشاع صيته كالنسيم المعطر بريح الشمال في الآفاق وعمّ عطاؤه وعدله في فضاء العالم كالنسر المحلق :

بلدٌ أقمتَ به وذكرُكَ سائرٌ يَشْنا المقيلَ ويكرهُ التَّعريسا[1]

وتمثل بجميل صفاته أصحاب الأطراف مع رعيتهم ، وتطبعوا بمتابعته للأمور ومطاوعته لها ، ولهذا أكثروا من إرسال التحف والهدايا إليه ، وتحدثوا عن عجيب صفاته في أقاصي البلاد ، والحديث عن الملوك أشبه بالأساطير ، كما أقاموا مجالس الطرب والاستماع إلى الغناء والاستمتاع بالغواني الملاح وصب الخمور بالأقداح :

ما العمرُ ما طالَ به الدهورُ العمرُ ما عمّ به السرورُ
أيامُ عزّي ونفاذِ أمري هي التي أحسبُها من عُمري[2]

وتتالت أيام السرور حتى هاجمهم مهدّم اللذات في الخامس من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وستمئة ، فصبّ نبل الأجل على حين غفلة من الملك :

« هاهي ذي عادة الفلك الداكن ، يفاجىء السعداء بالزوال »

---

(1) البيت للمتنبي . شناه : أبغضه (ت) .
(2) من طردية لأبي فراس .

فتكدر مشرب الحيـاة بتراب المنيـة المكدر[1] :

« إن حصلت على زهر بلا شوك ، فانتهب لذات الحياة كلها »

« فمساكن حياتنا العتيقة هذه ، جميلة مالم يعكرها هجوم الموت »

ذكـر

نتائج أعمـال قـاآن

منذ وضع في أنمله القادرة خاتم المملكة ، وأرسل الجيوش إلى الأطراف ، وعادت بعد أن طهرت أكثر الأقاليم من المخالفين ، وشنفت أعماله وأقاصيص عدله الآذان ، وقلدت أياديه وعوارفه الأيدي والسواعد كالسوار غدا بلاطه ملاذ العلماء ، ومقامه مسكن المشهورين من أهل الدنيا ، وأضاءت أنوار صباحه كيلةً منيرة بلا غبار ، بلغت مساحة مملكته من أقصى بلاد الصين والماجين إلى منتهى ديار الشام ، وعمت خيراته على الناس كافة من غير انتظار لقدوم شهر أو حلول عام ، وكان وُجوده وَجوده جوادي رهان ، وذاته وثباته رضيعي لبان ، غطى في أيامه ذكر حاتم طيء ، وحلم أحنف بالنسبة إلى حلمه لا شيء ، وهدأت في عهده دنيا العالم ، وأطاعت له صعاب الفلك ، فغدت خانيته في زمانه :

« كان قوياً وجباراً ، حتى أطاعته الجياد الوحشية » .

وأملاً برأفته ورحمته اطمأنت القلوب ، ومن لم تطله السيوف حتى الآن لقي الأمان ، ورفرفت ألوية الإسلام حتى أقصى بلاد الكفر والشكر في عهده ، مع أن الدين المحمدي لم يدخل قلبه ، وبنى في محاذاة معاهد الأوثان مشاهد الرحمان ، صيت عدله قيد الشوارد ، وأنغام بذله موجب الصيد الأوابد . ذلت لهيبته الفئات المتمردة ، وتواضعت أيدي القتلة من سياسته الصارمة ،

---

(١) يعني مات قا آن (ت) .

وعملت أوامره عمل السيف ، وفعلت صحائف كتبه بريق صفائح كتائبه :

يفلّهم بالرعبِ قبل طِرادهم ويهزمهم بالكتْبِ دون الكتائبِ (1)

جهز العساكر والجيوش إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وشاركهم في الغزو بنفسه لأن :

« نصف الدنيا من حصة الأمل السعيد ، ونصفها الآخر من حصة الاسم المشهور »

« فإذا لنت فُلت القيود عنك ، أو شَددت غُللت بها »

مخالفاً نصح الناصحين ولوم اللائمين ، فـ :

إذا غـدا ملك باللهـو مشتغـلا فاحكم على ملكه بالويل والخراب

فقد كان أكثر من مد بساط النشاط ، وداوم علـى المدام والمنادمة مع الحسان حتى أفرط ، ومنح المستعطين بإسراف حتى وصل إلى القاصي قبل الداني . ولقد دونت حكايات الملوك القدماء ، ففاقتهم كرماً وإسرافاً ، ولم يسمع أحد منه لا ولم :

لا في الجواب تقُصُّ أجنحة المنى ولأجـل هـذا تُشبه المِقراضا

يفد عليه أصحاب الحوائج من الأطراف فيعودون من غير انتظار مقضيي الأوطار ، والمنتجعون والسائلون يغنمون بما في الأماني :

وصوتُ المعتفي أحلـى وأشهى على أذنيـه من نغمِ السماعِ (2)

ولم يعد من مقام حضرته مأيوس ولا مخذول . وكـان بعض أركان

---

(1) البيت لأبي الفتح البستي (يتيمة الدهر : ٢١٤/٤) .
(2) البيت لأبي تمام (الديوان طبعة بيروت : ١٩٤ ، مع اختلاف) .

دولته يلومونه على إسرافه ، وإذا لم يكن ثمة إحجام فباقي العبيد والرعايا محتاجون وكان قا آن يجيبهم : أنتم لا تتحلون بزينة العقل ، وكلامكم باطل لأمرين : الأول : أن سمعة سيرتنا ومنهجنا تصل إلى جماعة العصاة المتمردين ، ولا بد من أن تميل قلوبهم إلى طاعتنا ، والإنسان عبد الإحسان ، وبهذه الرحمة تخف أتعاب جنودنا من لقاء الجيوش والرعايا • والثاني أكثر وضوحاً ، فالمعلوم أن الدنيا غير وفية للإنسان ، فتعصف به جزاء إحسانه • فعلى المرء أن يتحلى بنور العقل وإن كان يقظاً ، ليترك له اسماً خالداً :

« أقبل لنتخطى الدنيا السيئة ، لنعمل حسناً جميعاً »[1]

« فإن مت بسمعة طيبة ، يبقى اسمي مستمراً فوق جسدي الفاني »

وإن عدتم إلى ذكر أسلاف الملوك والسلاطين وعاداتهم ورسومهم ، ووصلتم إلى حديث الاكتناز من الذهب والفضة وقعتم على أخبار جماعة ماتوا وتركوا الكنوز الثمينة وديعة تحت الأرض • فقد حرموا من نعمة العقل والرأي المتين • فلا فرق بين الكنز والتراب عندهم ، لعدم استغلاله في دفع مضرتهم ، أو لتحقيق منفعتهم • فكأن أموالهم جاءتهم لتقيدهم وتستعبدهم :

أين الأكاسرة الجبابرة الأُلى كنزوا الكنوز فما بقين وما بقوا[2]

ونريد ــ نحن ــ أن نضع كنوزنا مقابل أسمائنا في قلوب العالم ، ولن ندع للمستقبل شيئاً :

« لا يفكر السلاطين بالآفات لغفوتهم ، أن عشر ما لديهم من أموال لنا »

« لقد منحنا كل ذهب العالم وفضته ، فلا يخشوا من سخاء أيديهم »

---

(١) البيت الأول من الشاهنامة ، والثاني غير معروف (ت) •
(٢) البيت للمتنبي •

وما ذكرناه مجمل لأفعاله • ويمكن للمستمعين والمطالعين أن يأخـذوا علينا ما في هذا الكلام من قبيل « أحسن الشعر أكذبه » لأننا قدمناه على سبيل الإيجاز المصون من عوارض البهتان والمجاز ، فقد رأينا أن عدة حكايات تكفي للاستدلال والبرهان على ما ورد في هذا التاريخ •

ومن القليل جداً بالنسبة إلى الكثير جداً ما نورده هنا • من ذلك في عرف المغول قديماً أنه لا يجوز للإنسان أن يجلس في الماء نهـاراً في الربيع والصيف ، ولا يغمس يده في جدول ، ولا يغرف الماء بأوان ذهبية أو فضية ، ولا ينشر ثوباً مغسولا في الصحراء ، فهذا كله في زعمهم يسبب زيادة في الرعد والبرق ، ونزول الغيث في مرابضهم من أول الربيع إلى آخر الصيف ، ويشتد الرعد حتـى يذهلهم : « يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حـذَرَ الموت » ، وحين يبرق البرق يصمتون صموت الحوت : « يكاد البرق يخطف أبصارهم » • ومن سبب البرق أخرج وقومه من ديار المغول ثلاث سنوات ، ولا يجوز له أن يجوس في معسكر أبنـاء الملوك • وينطبق الحرمان علـى أنعامهم كذلك ، فإن نزل البرق على دابة ما تخرج ثلاثة أشهر • وإذا كـان المصاب بالبرق يأكل حرم من إتمام طعامه •

وهم كذلك في مراسم تعزيتهم ، فتراهم في نهاية الشهر من يوم الموت يصخبون ويعلنون السرور والغبطة •

في أحد الأيام ، وفيما كان قا آن وجغاتاي عائدين من الصيد لمحا رجلا مسلماً في النهار ، جالساً وسط الماء يستحم • فاستشاط جغاتاي غضباً إذ كيف يخالف هذا الرجل أعرافهم ؟ واتجه نحوه ليقتله ويفنيه ، فاستوقفه قا آن وقال له : لقد تأخرنا اليوم وحل بنا التعب • فلنأمر بحبسه حتى الغد ثم ندرس وضعه ونعلم لماذا خالف مراسمنا • وأمر حاجبه أن يحتفظ بالرجل إلى الغد ، ليحكـم عليه بالبراءة أو الإعدام • وأعلمه الحاجب خفية أنـه رمى مكان

استحمامه عملة فضية ، حتى إذا ما سألوه غداً عن سبب مخالفته يقول لهم : إنني رجل فقير ، قليل البضاعة ، كثير العائلة ، وكل حيلتي هذا « البالش »[1] الفضي ، فحين سقط مني في الماء تجرأت أن أنزل الماء بحثاً عنه . وفي اليوم التالي دعـي الرجـل المتهم للحضور بين يدي الملك ، فشرح له ما علمه إياه الحاجب . فأمر الخان من يذهب إلى الماء ليخرج « البالش » ليعرف إذا كان الرجل صادقاً أو كاذباً . وحين عاد المأمور بالمال مبلولا بالماء قال القا آن : إن من يخالف مراسمنا وأحكامنا قطعنا رأسه ، ولما كان هذا الرجل ضعيف الحال قليل المال فقد عفونا عنه ومنحناه عشرة أضعاف ما كان في المـاء ، على أن يمتنع في المستقبل عن المخالفة مهما كانت الأسباب . ولهذا عُفي عن الذين خالفوا لهذا السبب :

ولـه من الصفح الجميل صفائحٌ   أُسِر الطليق بها وفُكّ العاني[2]

حكايـة أخرى : في بدء أمرهم[3] أصدروا حكماً يمنع الناس بموجبه من البسملة حين الذبح ، وعليهم أن يشقوا بطن الذبيحـة . اشترى مسـلم من السوق خروفاً وأخذه إلى منزله ، فأحكم إغلاق الباب وبسمل ثم ذبح الخروف من رقبته . وبالمصادفة لمحه قفجاقي فيما كان في السوق ، وتبعه وصعد السطح يراقبه ليرى كيف سيذبحه . فما أن أمضى الرجل المسلم سكينه علـى رقبة الخروف وحلقه حتى قفز القفجاقي من على السطح فقيده وساقه إلى ملـك العالم . حين شاهد قا آن هـذه الحالة طلب من كاتبـه أن يذهب ليتفحص

---

(1) البالش يعادل ثمانية مثاقيل ، والفضي أقل قيمة من الذهبي (المعجم الذهبي للمترجم) .

(2) البيت لإبراهيم الغزي في مدح صاحب كرمان .

(3) يعني المغول (ت) .

القضية تماماً ، فحكى له الموضوع كاملا . فأمر الملك أن هذا الرجل لم يخالف قواعدنا ، فعفي عن المسلم وقيد القفجاقي إلى يد الجلاد[1] :

« إذا خطرت نسائمك اللطيفة في أحد الحقول ، نلت صرة غزال تتري من فم الأسد »

حكايــة أخرى : قدم لاعبون مهرة من أهل ختا ، وقدموا ألعابــاً نادرة عجيبة . فقــد كانوا يخرجون من خلف ستارة أشياء طريفة ، من جملة ذلك يخرجون صوراً تمثل جميع الأقوام . وفي أثناء ذلك يخرجون رجلا شيخــاً ذا هيبة ، ملتفاً بمنديل أبيض من خيمة وخلفه جواده . ويسأل : صورة من هذا ؟ فيجيبون : صورة مسلم متمرد عاص . فأمر الملك جنوده أن يطردوا أشالهم من البلاد ، ويمنعوهم من عمل مثل هذا اللعب ، فقد استولى المسلمون على أنواع من جواهر خراسان والعراقين كاللعل والفيروز ، وعدد من أنواع النسيج والألبسة المزركشة والخيل والأسلحة من بخارى وتبريز . وما استولى عليه الختا قليل جداً من ألبسة رخيصة الثمن وخيل ضعيفة ، وتفاوت ذلك معلوم . وقال : إن لدى أفقر رجل من المسلمين عدداً من العبيد الختا ، وليس لدى كبار أمراء الختا مسلم أسير واحد ، وهذا من لطف الخالق ، فهو يعلم مرتبة كل قوم . وقانون جنكيز خــان القديم يوافق هذا . فقصاص المسلم أربعون بالشاً[2] في حــين أن الختائي قصاصه شديــد . فكيف تستخفون بالمسلمين وهذا جرم عليكم عقابه . غير أني أهبكم حياتكم ، فعودوا إلــى بلادكم ولا تعودوا لمثل هذا .

---

(١) لأن المسلم لم يذبح علناً ولأن القفجاقي دخل منزله بطريق غير مشروع (ت) .

(٢) انظر (بالش) قبل صفحة (ت) .

حكايــة أخرى : ...[1] أرسل إليه رسولاً يوماً يقدم له الطاعة باسمه ، ومن بين التحف ياقوتة مسطحة وصلت إليه أيام الفتوح من الآباء والأجداد نقش عليها « محمد رسول الله » وتحتها أسماء آبائه بالترتيب ، فأمر الحكاكين أن يبقوا اسم « محمد » تبركاً وتيمناً ويمحوا أسماء السلاطين ، ويضعوا اسم قاآن في آخر اسم النبي عليه الصلاة والسلام ، واسم مرسلها .

حكايــة أخرى : كان هناك فقير عاجز عن كسب قوته ، ولا يجيد حرفة معينة . كان يقطع الحديد على شكل رايات ويعلقها على الباب ، ويترصد مرور مواكب قاآن ، فوقع بصره المبارك على هذا الفقير عن بعــد ، فأرسل أحد ملازميه إليه ليستطلع له حاله ، فحكى له الفقير ضعف حاله وقلة ماله وكثرة عياله ، وأعطاه الرايات . ومع أن الرسول عانى للذهاب إليه ، وحكى للملك حكايته إلا أنه ــ بتقصير منه ــ لم يحكِ أمر الرايات الحديدية ، وعرف قاآن ذلك فأشار بأن يعيد الرايات إليه ويمنحه على كل راية بالشاً مع كثير من العطاء .

أخــــرى : رجل عجوز حطت بــه الأيام ونام أياماً بلا طعام جاءه والتمس منه مئتي بالش ذهبي للتجارة ، فقال واحد من حاشية الملك : هذا الرجل الذي بلغ من مرحلة العمر غروبه بلا أولاد ولا أحفاد ولا مسكن ! إن مثل هـذا الرجل عليه أن ينتظر القبر ، قال قاآن : لقد كان يحلم هذا الرجل بأن يكون تاجراً يوماً ، وها هي ذي الفرصة واتته ، فلم يرجعه الخان مأيوساً محروماً ، فالله تعالى حقق له الربح على يد الملك :

أعاذلَ إنَّ الجودَ ليس بمُهلكي ... ولن يُخلد النفس الشحيحة لومها

---

(1) بياض في أصل المخطوطة . ولدى رشيد الدين : أن أحد الملوك أرسل إليه رسالة (ت) .

وتذكر أخلاق الفتى، وعظامُه مغيَّبة في اللحد بالٍ رميمُها(١)

فلا يجب أن نحرمه من تحقيق حلمه،ومثل هذا الرجل كثير ممن وفد عليه:

دلّ على إنعامه صيته كالبحر يدعوك إليه الخرير

اخرى : وفد عليه شخص ورجاه أن يعطيه خمسمئة بالش من أجل تجارته ، فأعطاه وانصرف ، فلامه المقربون من حاشيته بأنه رجل مفلس فكيف يدفع له كل هذا ؟ فأجاب : ضاعفوا العطاء حتى يجعل نصفه رأس ماله ونصفه يدفعه لغريميه :

هذي المكارمُ لا قَعْبان من لبنٍ(٢)

اخرى : حصلوا على رسالة عن كنز ، تبين أن في المكان الفلاني كنزاً وضعه أفراسياب . وتذكر رسالة الكنز أن الدواب لا يمكنها أن تبلغ المكان، فقال : وما احتياجنا إلى كنز وضعه غيرنا ؟ إن كل ما نملك نوزعه على عبيد الله:

لهُ هِممٌ لا مُنتهى لكبارها وهمّتُه الصغرى أجلُّ من الدهر

اخرى : جاءه تاجر يطلب منه خمسمئة بالش رأس مال لتجارته . وبعد أن أخذ المال وذهب عاد ثانية يعتذر إليه لنفاد المال لديه ، فأمر بإعطائه المبلغ ، وجاء ثالثة بعد سنة ، وهو أبأس حالاً من السابق ، وقدم عللاً واهية ليأخذ خمسمئة أخرى . لكن كتبة الخان خافوا من عرض أمره خشية أن يأمر بقتل هذا الرجل المسرف ، وشرح أحد الكتبة للخان أن فلاناً من البلاد الفلانية يبذر المال ، فسأل : ومن أين يأتي به ؟ فأخبره أنه يأخذ من البلاط ويأكل رأس ماله . فقال : أعطوه كما أخذ في السابق واطلبوا إليه أن يحجم عن إتلاف ماله :

---

(١) البيتان من الحماسة لحاتم الطائي .
(٢) صدر بيت لأمية بن أبي الصلت (الأغاني : ١٦/٧١) ، وعجزه :
شيبا بماء فعادا بعدُ أبوالا

وبلوتُ حالَيْه معاً فوجدتُــهُ   في العَود أكرم منه في الإبداءِ (١)

أخــرى : في إقليم ختا بلدة تدعى « طلمغو » . طلب أهاليهـا قرضاً جماعياً قدره ثمانية آلاف بالش ليوزعوه على الدائنين الذين يطالبونهم ويلحون في طلبهم،أو فليأمر الغرماء بتأجيل مطالبتهم حتى يردوا لهم مبالغهم بتؤدة،وإلا تفرقنا في البلاد . فقال : إذا أمرنا الدائنين أن يسامحوهم فإنهـم سيعذبونهم أكثر ، وإن تركناهم هكذا أخرجوا من ديارهم وتشردوا ، ثم أمر منادياً ينادي في تلك البلدة ، يُعلم القاصي والداني أن كل من عليه دين فليأت بحجة ودليل، أو فليحضر الغريم ، وليأخذ ما عليه من خزائننا ، وباب الخزانة مفتوح للجميع. والذي حصل أن كثيراً من الناس لم يكن عليهم دين فتدبروا غريماً ونالوا المال باسمه ، وآخرون أخذوا ضعف ما عليهم :

فــإذا فاضَ جودُهُ خجل القَطْـ   ـرُ وغاضَ الفرات ، وأين الفرات؟

أخــرى : أحضر شخص إلى مكان القنص حبتين من البطيخ أو ثلاثاً . وحين قدمها لهم لم يعطوه شيئاً من البالش أو من الثياب ، كانت موكا خاتون موجودة بينهم ، فأعطته لؤلؤتين كالفرقدين أشبه بالقمر المنير ، كانت تحلي بهما أذنيها ، وقالت : يجب أن يعطى هذا الرجل هاتين اللؤلؤتين ، ولا نضنُّ بهما عليه . فقال أحدهم : لا يقدِّر هذا الرجل قيمة اللؤلؤتين ! والفرق عنده بينهما كالفرق بين الزعفران والحمار ، وإذا أمرت فإننا نستدعيه غداً ونعطيه البالش والثياب ، قالت : هذا رجل مسكين ، وليس عنده الصبر حتى الغد ، وحيثما ذهب بهاتين اللؤلؤتين فمصيرهما إلينا حتماً :

فأعطِ ولا تَبخلْ إذا جـاءَ سائلٌ   فعندي لها عُقْلٌ وقد زاحت العلل (٢)

---

(١) البيت لابن العميد (يتيمة الدهر طبعة دمشق : ١٨/٣) .
(٢) البيت في شرح الحماسة : ٦٧/٤ ، ١٢٣ .

وأعطي اللؤلؤتين ، بحسب إرادتها ، ففرح المسكين وعاد ، فباعهما بأزهد الأثمان كالفرق بين الدينار والألفين ، وسُرَّ الشاري ، وقال : لقد حصلت على جوهرتين نفيستين ، ولعل ما لدى الملك من تحف أقل منهما ، وذهب إلى الملك باللؤلؤتين ، وكانت موكا خاتون حاضرة آنئذ ، فتناولت اللؤلؤتين وقالت : ألم نقل إنهما ستعودان إلينا ؟ لم يعد الرجل المسكين ميؤوساً من عندنا وحصل على مبتغاه ، وعادت إلينا اللؤلؤتان ، وخصت صاحبهما بكثير من الإكرام :

ومَن قال:إنَّ البحر والقطر أشبها نداكَ فقد أثنى على البحر والقطر

اخــرى : أحضر رجل غريب إلى الخان نبلين ، وركع عن بُعد . فقال : انظروا ما يريد هذا الرجل وما حاجته ؟ فقال : إن صنعتي هي تقليم النبال ، وقد استدنت سبعين بالشاً وضاقت أحوالي ، فإذا سمح الخان بأن يدفع لي هذا المبلغ فإنني على استعداد لتقديم عشرة آلاف نبل سنوياً . فقال حاتم زمانه : إن هذا المعدم بحاجة إلى مال أولاً لإصلاح حاله وإنقاذ روحه ، وهذا المال الحقير الذي طلبه لا يكفي لتقليم عدد من النبال ، أعطوه مئة بالش ليصلح ذات نفسه ، وحين جيء بالمال لم يستطع صانع النبال أن يحمله ، فأمر الخان أن يمنح بقرة ليحملها عليه ، وضحك :

وأثقلتَهُ بالمال وهو الذي بهِ تخِفُّ على طاوي الفلاةِ المراحل[1]

اخــرى : في الوقت الذي أمر ببناء « قراقورم »[2] ، وانشغل الملك بهمة البناء ، جاء إلى خزانة المال يوماً فرأى فيها عشرين ألف بالش ، فقال :

(1) من قصيدة لإبراهيم بن عثمان الغزي .
(2) قراقورم : العاصمة (ت) .

إن وجود هذا المال لا يريحنا ، فنحن دائماً بحاجة إلى المحافظة عليه ؛ فلينادِ المنادي على كل من عنده رغبة في الحصول على مال فليأت وليأخذ ما يشاء . وركض الناس من المدينة ، واتجهوا نحو خزانة المال ، وكان منهم سادة ومنهم غلمان ، شرفاء ومساكين ، عجائز ورضع ، وكل واحد نال نصيبه من هذا المال، وشكروا الملك ودعوا له :

إنّا إذا اجتمعت يوماً دراهمنا ظلت إلى طُرق المعروف تَستبق[1]

أخرى : حين اشتدت البرودة انعدمت الزراعة حول قراقورم ، ولكن في عهده باشر الناس بالزراعة ، كان هناك شخص يزرع الفجل ، وكان نادراً ، وكلما نبت الفجل عنده أحضره إلى الملك . وكانوا يعدون الفجل مع ورقه فيرونه مئة ، فيأمر بأن يعطى مئة بالش :

« إذا وجد قلب ويد كالبحر ، كان ذلك قلوب العظماء وأيديهم »[2]

أخرى : بُني على بعد فرسخين من قراقورم قصر على طرف من التل، يزوره في وقت ذهابه إلى مشتاه وعودته منه ، ثم توسع المكان ودعي « تزغو باليغ »[3] . غرس رجل في أسفل التل بضع شجرات من اللوز والصفصاف ، ولم يغرس أحد غيره شجراً في هذا المكان ، واعتنى الرجل بشجراته حتى اخضرت ، فأمر الخان أن يمنح الرجل على كل شجرة بالشاً :

وكاد يحكيه صوب المزن مُنسكباً لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا[4]

---

(1) من الحماسة .

(2) البيت للأنوري في مدح السلطان سنجر (ت) .

(3) أي مدينة « تزغو » (ت) .

(4) البيت لبديع الزمان الهمذاني .

أخــرى : عندما استقر على كرسي العرش ، واتشرت سمعته العطرة في الوجود ، توافد عليه عدد من التجار من كل جنس وصقع ، يعرضون عليه بضائعهم . وكان يختار وينتقي ، ويدفع أكثر مما يطلبون . وظن أن أسعار القماش قليل فسألهم عن القيمة ، فراح بعضهم يضاعف القيمة عشرة أضعاف ، وآخرون يطلبون دراً ثمن الصدف ، وحصل الجميع على ما طلبوا ، وعاد التجار إليه يعرضون البضائع وكأنهم يغرفونها من بحر عمان ، وكانوا ينالون ثمنها . وطلب إليهم أن يحضروا بضائع أخرى ، وسيمنحهم عشرة أضعاف أثمانها . وحدثه بعض الكفاة يوماً أن دفع عشرة أضعاف الثمن في غير محله ، ومجرد دفع قيمتها كاف وزيادة ، وهذا هو العدل . فقال : هـذا هو النفع الذي يجنيه من يتعاملون مع خزائننا ، وما نرجوه لهم هو المنفعة . فإذا أتى هؤلاء الجماعة فادفعوا لهم حتى لا يعودوا خاسرين :

وما ثنـاكَ كلام الناس عن كـرمٍ ومن يسد طريق العارض الهطل ؟ [1]

أخرى : أحضر جماعة من الهنود نابين لفيل ، فسألهما عن قيمتهما فقالا : خمسة آلاف بالش ، فأمر أن يعطوا المبلغ . فأنكر رجاله المبلغ واستكثروه ، ثم إنهم من بلاد متمردة . فقال : ليس هناك من يعصيني :

يبالغ جاهداً في الجود حتى ينيـلُ نوال كفيه الأعادي

أخرى :حين انتشى من شرابه وغرق في مجلس أنسه جاءه رجل بقبعة من قبعات خراسان وطلب عليها مئتي بالش ، فأمر له بذلك . لكن رجاله أوقفوا أمر الدفع ظناً منهم أنه وافق في حال سكره ، وأرجؤوه إلى يوم آخر . وحين قدم الرجل عرضت على الخان موافقته السابقة ، فأمر أن يدفع له ثلاثمئة ، ولا يعودوا إلى مثل هذا ثانية ، ثم أمر أن يضاف له مئة بالش عن كـل يوم

[1] البيت للمتنبي .

انتظر فيه ، فحسبها له الكتبة فكان أن نال الرجل ستمئة بالش • ثم جمع الأمراء والكتاب وسألهم : أمن الممكن أن يبقــى الفساد أبد الدهر ؟ فقالوا : كـلا لا يمكن • فقال : غلط هذا الكلام ، لأن الاسم الحسن والسمعة الطيبة باقيان أبد الدهر • ثـم نظر نحو الكتاب وقــال : عدوي الحقيقي أنتم ، لأنــكم لا تريــدون لآثاري الحسنة أن تشيع • أو تظنون أننــي أمنح وقت الشراب وأمتنع عند صحوي حتى توقفوا الرجل وتمنعوه من حقه • ما لــم تقدروا أفعالي هذه فلن تستفيدوا :

غيري طوع اللحاة ، غيري	يسمــع لِلائمــين أمــرا
معصيةُ اللائمين فيهــا	كهي (؟)[1] وكلتاهما وتمرا

أخــرى : أيام لم تلن شيراز لحكم المغول جاءه رجل منها وركع وقال : قدِمت من شيراز على ما بلغني من كرم الملك وبره ، فأنا صاحب عيال ، كثير الدين ، قليل المآل ، ألتمس خمسمئة بالش هي الديون المتراكمة علي • فقال : أعطوه ما التمسه ، وزيدوه مثلهــا • لكن رجال الخزينة توقفوا عن الدفــع فالزيادة إسراف • فقال : لقد طوى هذا المسكين عدداً من الجبال والصحارى ، وتحمل الحر والقر ، وما أعطيته لا يكفيه مصروف عودته ، وقرضه وحده لا يكفي ، فإن لم نزده ظل محروماً فكيف يعيش بعد ذلك ؟ وهذا المسكين سيدخل على أهله وأولاده فهل يدخل عليهم خاوي الوفاض • فأعطى الرجل استحقاقه فوراً ، وعاد إلى أهله يلهج بالثناء على الملك :

(١) راجعنا دمية القصر (٧٨٦/٢) فوجدنا اننا قرأنا العجز (فهي ٠٠٠) وبهذا يستقيم المعنى ، والعذر أن المحقق راجع دمية القصر طبعة الشيخ راغب وهي ممتلئة بالنقص والأخطاء • والبيت الثاني لأبي بكر القهستاني ، اما البيت الأول فلم يذكره الباخرزي (ت) .

إذا المعتفي وافى من البعد سائلاً   يــراه حراماً رده وهو عائلُ(1)

اخــرى : جاءه درويش ، وقد لف عشرة جلود على قطعة خشب ، وأخذ يعدو للملك . فنظر إليه من بعد ، وأدرك حاجته ، وقال الرجــل : في بيتي عنزات أطعمت عيالي لحمها ، وهيأت جلودها لأصحاب السلاح وأحضرتها . تقبّل الملك الجلود بيديه وقال : لقد أحضر لنا المسكين أفضل ما في عنزاته ، وأمر أن يعطى مئة بالش وألف رأس من الخرفان ، فأعطوه ، ثم قال : إذا جاء الرجل ثانية أعطيناه :

ورسولَ الأرزاقِ والأقواتِ   قد غَدا سيبُه رسيلَ الغَوادي

اخـرى : أحضر شخص مئة نصلة عظمية وطلب قيمتها مئة من البالشات على عددها . فأمر له بذلك .

اخـرى : من عادته أنه يقضي فصل الشتاء كله في الصيد ، وما تبقى من السنة ، أي تسعة أشهر ، يمضيها علــى الشكل التالي : بعد تناول طعــام الغداء يجلس على كرسي خارج البلاط ، يوزع ما يفد عليه من الأقطار على الناس ؛ المسلمين والمغول ، ويأمر أن يتناول ضخام الجثث ما يريدون بالنظر إلى حجمهم . وفي أحد الأيام قدم شخص من هذا النوع الجهم وحمل قطعة ثمينة من القماش تكفي لعدة أشخاص . وفيما كان عائداً سقطت قطعة منها على الأرض ، فأعيدت إلى مكانها من موضع القماش لكن الرجل عاد ثانية يطلبها فلم يعطها . فقال قا آن : كيف تمنعونه عنها ؟ خلوها له حتى لا يتألم ويمتنع عن المجيء ثانية :

« إذا كان حاتم حياً ورأى جودك ، فلا شك أنه سيقدم لك الطاعة »

اخــرى : أحضر شخص مثنــي عصا (سوط) مهلكة ، غــير ما كانوا يستخدمونه وليست قوية ، وطلب بالشاً على كل سوط :

(1) البيت لإبراهيم بن عثمان الغزي ، وهو تابع لبيت سبق ذكره

من الآفـاق طامحة الهـوادي
فصار المجتدون إليـه طـُـراً
وبشّرهم نَداه[1] بالمَعـادِ
وألـْفـَوا من يديـه ما تمنـّوا

اخـرى : وأحضر شخص ثلاثة من هذا النوع من المتاع ، وطلب قيمة لها مئة بالش .

اخـرى : في أثنا ءالمراحل الأولى من بناء قراقورم مر يوماً بالسوق ، فوقع بصره على بائع عنّاب ، فمال إلى العناب . وحين دخل بلاطه طلب من الحاجب أن يأخذ بالشاً من الخزانة ويذهب إلـى البقّال ليشتري عنّاباً له . حمل الحاجب طبقاً من العناب ، ونقده ربع بالش ، وهو أضعاف قيمة ما اشترى . وحين وضع الطبق أمام الملك قال : لقد حصلنا على عناب كثير مقابـل بالش واحد . فقدم الحاجب بقية البالش للملك قائلا : بل إن قيمته أقل من ذلك بكثير . فتألم الملك وقال : هو حتماً لن يلقى شارياً مثلنا بقية عمره ، أعطوه عشرة بالشات :

واذكرْ صنائعه فلسن صنائعاً
لكنهنَّ قلائـد الأعنـاقِ[2]

اخـرى : عزم الملك على الصيد، فالتقى بمنزل صاحب الرسائل،فمدوا له سماطاً ، وشابه ذلك حكاية سليمان والنمل وساق الجرادة[3] . ولما كان المكان نزهاً ، وغمره النشاط من شرب الخمرة ، ومال قلب موكا خاتون إلى الخواتين الأخريات فسمحت لهن بمجالستها ، نثر صاحب الرسائل خارج الخيمة أنواعاً من الأقمشة المطرزة بالذهب ، ورمى داخل الخيمة عدداً من عقود اللؤلؤ .

---

(١) البيتان لأبي علي الطرستي ، ذكرهما الثعالبي في التتمة (مخطوطة في باريس ورقة ٥٦٣) . الهوادي : الأعناق ، مفردها هادية .

(٢) البيت لأبي الحسن البستي (تتمة اليتيمة . ورقة : ٥٧٥) وهـو من أبيات الإجازة ، أي نصف له ونصفه لغيره .

(٣) القصة معروفة ، وهي مذكورة في كلستان سعدي ، وهـو مترجم إلى العربية « روضة الورد » (ت) .

وحين جلسا على سريرهما عاد صاحب الرسائل فنثر اللآلىء الملكية على رؤوس الحضور ابتهاجاً بالملك :

ولـو كنت أنثرُ ما تستحق   نثرت عليك سعـود الفلك[1]

وأمضى الملك ذلك اليوم بسعادة كبيرة ، فوزع على كل من كان حاضراً ثوباً وجواداً . وفي اليوم التالي أمر أن يخص صاحب الرسائل بالعناية الزائدة، وأن يمنح أربعة آلاف بالش :

عـمَّ الرعيَّـة والرُّعاةَ نَوالُهُ

اخـرى :أمر أن يعطى فقير مئة بالش ، فقال القائمون على إدارة البلاط : لعل هذا الرجل الفقير لا يفرق بين البالش والدرهم . ثم وضعوا بين يديـه مئة بالش . فسألهم : ما هذا ؟ قالوا : بالشات الفقير ! فقـال : ضاعفوها له أيها الحقيرون . فضاعفوها وأعطوه إياها :

قبِّـلْ أناملهُ فلسْن أناملاً   لكنهـنَّ مفاتـحُ الأرزاق[2]

اخـرى : جرت صفقة تجارية على مئة بالش بين رجل وبعض الأمراء . فأمر القاآن أن يدفع للرجل ماله نقداً . وقف فقير يوماً على باب القصر الخاني، فوقع بصره عليه ، فظن أنه الرجل الذي كان يجب أن يدفعوا له مئة بالش ، فأمر أن يدفع لهذا الرجل المال فوراً ، ولكن الرجل ظل واقفاً في مكانه ، فعاد الرجال إلى الخزانة ثانية وأحضروا للرجل مئة بالش ، فقال الرجل الفقير : ولمَ كل هذه البالشات ؟ فأجابوه بأنها قيمة البضائع ، لكن الرجل كان في كل مرة يردُّ المال ، فقال الملك : وكيف تردون مالاً خرج من خزانتنا ؟ فعادوا ثانية وسلموها للرجل :

وتحكم في مالي حقوق مروءةٍ   نوافلها عند الكرام فروضُ

---

(1) البيت لأبي الفتح البستي (يتيمة الدهر : ٣/٩٨) .
(2) البيت لابن دريد (الأغاني : ٩/٢٩) .

اخـــرى : بينما كانت فتاة هندية تمر بباب القصر ، كان قاآن عائداً من الصحراء ، فرآها على حالها هذه ، فأمر خازنه أن يدفع لها خمسة بالشات ، وحين دنا الخازن منها وضع واحداً في جيبه وأعطاها أربعة ، وأدركت الفتاة أن واحداً نقص من العطاء ، فطالبته به . فسأل قاآن : وماذا تقول المـرأة ؟ فاضطر الخازن عندئذ لأن يقول : إنها تطالب بأكثر لكثرة ما لديها من الأولاد وتدعو لك . فسأله الخان ثانية : وهل لها من تعولهم ؟ قال : طفلان يتيمان . حين دخل القصر استدعى الفتاة الهندية ، وأدخلها الخزانة وطلب إليها أن تحمل ما تستطيع حمله من هذه الثياب ، فانتقت ما طاب لها من النسيج الغالي وهي تدعو لهذا الرجل الغني :

وتكفّلَ الأيتامَ عن آبائهم حتـى وددنا أننا أيتـامُ[1]

اخـــرى : قدم بازيار[2] إلى الملك وعلى يده باز ، فسأله : ما هـذا ؟ أجاب البازيار : باز عليل وعلاجه لحم الطيور ، فأمر خازنه أن يدفع له بالشا. فأخذه الخازن إلى الصراف ليدفع له ، لكنه أخذ يماطله ، وحين لقي الخـان الخازن سأله عن أمر البازيار ، فقال : لم ندفع له بعد . فغضب وقال : لقـد وضعت بين يديك أموال العالم ، التي لا يمكن إحصاؤها أو عدّها ، ألا يكفي لدفع ما آمر به ؟ إن كل من يطلب مني شيئاً يريد أن ينتفع به لا تعطونه ، في حين أن أشخاصاً لا يقدمون شيئاً ولا يطلبون يأخذون ، أعرف كل من يمـد شباكه ليكسب مني ، وهذا ليس خافياً علي ، لكنني أريد أن ينال حقه كل من جاءني بطلب أو بشيء . وأمر أن يعطى صاحب الباز كثيراً من البالشات .

اخـــرى : كان هناك رجل حرفته صناعة الأقواس ، ولكنه يصنع أقواساً سيئة ، حتى عُرف في قراقورم ، فلم يرغب أحد بالشراء من عنده ، حتى عاف حرفته، وافتقر لأنه لم يعرف وسيلة أخرى للعيش . حمل عشرين قوساً، وعلقها

---

(1) البيت لأبي تمام في مديح المأمون (الديوان طبعة بيروت : ٢٨٠) .

(2) بازيار : مربي البزاة ، صاحب الباز (ت) .

على عصا ، ووقف على باب المعسكر • وحين خرج الخان من المعسكر ورآه ، أرسل شخصاً يستفسر منه عن حاله ، فأخبره : إنني صانع أقواس ولم يطرق باب دكاني مشتر ، فافتقرت • فأحضرت للقاآن عشرين قوساً ، فقال : خذوا أقواسه وأعطوه عشرين بالشاً •

أخرى : أهدي قاآن حزاماً نفيساً مرصعاً ، وحين تفحصه بنظره المبارك، لاحظ أن في وسطه مسماراً بارزاً ، فطلب من أحد خواصه أن يصلحه لـه ، فأعطاه هذا الأمير إلى صائغ اسمه رشيد السكاب • فأخذه الصائغ وباعـه • وكان الأمير يطالبه كل يوم بالحزام ، وفي كل مرة يتعلل بسبب • وحين طالت المماطلة عن حدها أخبر الموكّل (لعله الشرطي ، أو المسؤول الأمني) بالأمر ، ولما لم تنفع معه الوسيلة سيق إلى الملك وحكوا له حكاية إنكاره للحزام ، قال قاآن : إن جريستك كبيرة ولكنها تدل على عجز وضعف وفقر ، وأمـر بإطلاقه لأن الأمر لا يحتمل كل هذه الشدة ، وأمر بأن يعطى من الخزانة مئة وخمسين بالشاً ليصلح الصائغ أحواله ، على ألا يعود إلى مثل ذلك :

« إذا غدا لطفك بمقدار الوجود ، فإن الجسم صورة لهذه الروح »

ما جاد بالوفْر إلا وهو معتذرٌ   وما عفا قطُّ إلا وهو مُقتدرُ[1]

اخرى : أحضر شخص كأساً مصنوعة من « الصَّفيح » ، فأخذها منه رجال القصر ، من غير أن يدخلوا صاحبها القصر ، وعرضوها علـى الملك • فقال : لقد تعب حاملها حتى جاءنا بهذه الكأس الدقيقة الصنع ، ولا شك أنه قطع مسافات بعيدة ، أعطوه مئتي بالش • وكان صاحبها جالساً علـى باب المعسكر يفكر ويسمع ليطمئن إلى وصول الكأس إلى يد الملك ، ثم خـرج الحجاب يبشرونه بذلك وأعطوه مئتي بالش ، وسمع في ذلك اليوم أيضاً كلام خادم حبشي ، فأمر أن يُسأل الصانع : هل يرضى أن يكون من خدمنـا ؟

(1) البيت لأبي الغوث المنبجي (تتمة اليتيمة • باريس ورقة : ٥٢٤) •

فأجاب الصانع : هذا هو عملي ، فأمر أن يعطى مئتي بالش أيضاً ، واستأذنهم ليشتري بعض ما يلزمه ليلبس لباس الخدم ، لكنه ذهب ولم يعد ، ولم يعرف أحد مكانه :

وإني لأسدي نعمتي ثمّ أبتغي لها أختها من أن أعلّ وأشفعا

اخرى : عاد شخص من عنده مأيوساً إذ لم يستمع إليه ، فراح يعلن للناس أنه رجل من « مالين باخرز[1] » يعرف الجميع أنني حصلت على كنز ثمين ، ولن أبوح عنه بشيء حتى تكتحل عيناي بجمال قاآن ، وكلما جاءه رسول يستفسر منه عن الكنز كان جوابه هو هو . وفي النهاية وصل أمره إلى مسامع القاآن ، فأمر بإحضاره ، وحين دخل معسكره سأله عن كلامه الذي شاع عنه . فقال : كنت أبحث عن وسيلة ما توصلني إليك ، فلم أر إلا هذه الطريقة ، والحقيقة أنني لا أعرف شيئاً عن الكنز ، وهأنذا قد متعت برؤية وجهك ، فقال الملك : ما دمت رأيت وجهنا فانصرف بسلام. وأوصى رسوله أن يوصله الى منزله بسلام :

وما السحاب إذا ماانجاب عن بلدٍ ولا يلمّ بـه يومـاً بمذموم[2]

اخـرى : كان في قراقورم رجل معدم وضعيف ، كان يصنع كؤوس الخمرة من قرون الوعول الجبلية ، وكان يترصد عبور الموكب ، وحين رأى موكب الأمير قادماً من بعيد ، نهض إليه وفي يده كأس ، فأخذها الأمير منه ، وأمر له بخمسين بالشاً ، فطلب إليه الكاتب أن يعيد ذكر الرقم ، فقال : كم مرة طلبت منك أن تنفذ ولا تستكثر ماآمر به! .وقال : أرفض نصائح العاتبين:

---

(1) باخرز : بليدة في أقصى خراسان . انظر مقدمتنا في « ديوان الباخرزي »(ت).

(2) البيت لأبي ذفافة المصري (تتمة اليتيمة . ورقة ٥٠٩) .

يا ملكَ الوقت والزمـانِ ومَن عَلا في عظيم شانِ
ضدّانِ ما استَجْمعا لخلْقٍ : وجهُك والفقـرُ في مكـانِ[1]

أخرى : اقترض رجل مسلم أربعة بالشات فضة من أحد أمراء الأويغور، وعجز عن دفعها . فعذبه الأمير الأويغوري وأجبره إما أن يترك دين محمد عليه الصلاة والسلام ويدخل في عبادة الأوثان ، وإما أن يفضحـه وسط السوق ويضربه مئة عصا . فطلب المسلم المهدَّد من الأمير مهلة ثلاثة أيام . وذهب إلى بلاط قاآن وحكى له قصته وأراه آثار العصا على رأسه ، فأمر بإحضار غريمه ، ولامه على تعذيبه الرجل المسلم ، وأمر أن يضرب مئة جلدة في السوق وأن يعطى المسلم مئة بالش :

بحرٌ إذا حلَّت الورّادُ ساحتهُ لم ينههمْ عَلل منهم عن العِلل[2]

أخـرى : كان شخص سيد[3] من أهل جرغ بخارى[4] يدعى « العلوي الجرغي » . أخذ مالاً من القاآن للتجارة ، وحين جاءه المطالبون برد المبلـغ في الوقت المحدد قال : لقد سلمته . فسألوه : وأين الرقعة بتسليم المبلـغ ؟ قال : لقد سلمتها إلى القاآن يداً بيد ، فساقوه إلى البلاط ، فسأله : في أي وقت وبحضور من سلمتني المبلغ ؟ فأنا لا أذكرك ولا أعرفك ! أجاب : كنـا ذلك اليوم وحدنا . وبعد أن فكر الخان قال : إن وقاحته واضحة وافتراءه معين . وبما أنه قال هذا الكلام فلا يسمح له بأن يأخذ شيئاً مرة ثانية مـن

---

(1) البيتان لأبي الوفاء الدمياطي في عزيز مصر (تتمة اليتيمة ، ورقة : ٥٢١) .
(2) تصحيح العجز مشكوك فيه .
(3) يعني بكلمة سيد أنه منسوب إلى آل البيت (ت) .
(4) شرغ تعريب « جرغ » : قرية كبيرة قرب بخارى ينسب إليها قوم من أهل العلم (معجم البلدان) .

الخزانة • وفي ذلك الوقت قدم عدد من التجار ومعهم أقمشة فاشتراها منهم بأثمان باهظة ، ثم فجاءة سأل هذا السيد ومن أين جاؤوا بك ؟ لقد ضاق ذرعك حين أمرنا بعدم منحنا إياك مالاً أو شرائنا بضاعتك أليس كذلك ؟ فتضرع السيد وبكى • ثم سأله الملك : وكم قيمة بضاعتك ؟ قال : ثلاثون بالشاً وإذا رأيت أن تأمر بمئة فهذا أكثر كرماً •

اخــرى : جاءته سيدة من قريباته ، ورجته أن تنظر في الجواهر واللآلىء والثياب ، لأنها ترى جواريه ومحظياته يتحلين بها ، وهي تريد النظر فقط ، فأمر القاآن من صاحب الديوان أن يحضر ذلك إلى أمامه • فأحضر صاحب الديوان اثني عشر صندوقاً من اللآلىء كان قد اشتراها بثمانين ألف دينار ، وأمر أن يرمى ذلك كله في حضنها • ثم قال : أشبعت ؟ خذيها كلها حتى لا تنظري إلى غيرك من النساء :

سلك ابن أرمك في السماح مسالكاً   لــو مرَّ فيها حاتــم" لــم يَهتــدِ
وسمــا بهمَّتــه التي قــد ذَلَّلت   هام السِّماك وقرن سعد الأسعدِ[1]

اخــرى : أحضر إليه شخص رمانة نادرة الشكل ، فأمر أن تعد حباتها ، وتوزع على الحضور ، ويدفع لصاحبها بالش عن كل حبة :

فلذاك يزدحــم الورى في بابــهِ   شرْوى ازدحام الحب في الرمان[2]

---

(١) البيتان لسهل بن أحمد النيسابوري في ابن أرمك (تتمة اليتيمة ، ورقة : ٥٨٨) • وسعد الأسعد : من منازل القمر •

(٢) من قصيدة للغزي •

اخرى : قدم إليه عربي ملحد وقال : لقد رأيت في منامي جنكيز خان ، قال لي : قل لابني أن يقتل المسلمين لأنهم قوم سيئون ، وبعد أن فكر ساعة قال للمترجم : اسأله هل قال لك هذا الكلام ، أم قاله لنفسه ؟ أجاب : قال هذا الكلام لنفسه وبلغته ، فسأله : أتعرف اللغة التركية أو المغولية ؟ فأنكر العربي أن يعرف لساناً آخر . قال : وأبي لا يعرف إلا لغته المغولية ، وهذا دليل على كذبك ، وأمر أن يقتل .

اخرى : يقال إن مسلماً كان في ناحية تنكوت بموضع يدعى «قراتاش» . احضر إلى الملك طبقاً من الطعام متأملاً أن ينال حريته ويسمح له بالعودة إلى بلاده ، فأمر أن يعطى بالشاً ويطلق سراحه .

اخرى : حضر شخص احتفالاً ، وانتظر حتى رأى الحرس قد غرقوا في سكرهم ، فدخل القصر وسرق قدحاً ذهبياً وهرب . وفي اليوم الثاني طُلب القدح الذهبي فلم يجدوه ، فأمر منادياً ينادي : من أعاد القدح أعطي الأمان ونال ما تمنّى . فجاء السارق في اليوم الثاني ومعه القدح ، فسألوه : ولمَ فعلت هذا ؟ أجاب : حتى ينتبه ملك العالم ولا يأمن للحراس الليليين ، وإلا فقد كثيراً من متاع خزائنه ، فقال الأمراء يجب أن ينال جزاءه ليكون عبرة للآخرين، فقال : لقد سبق أن أعطيناه الأمان ، وإلا فكيف سيصدقنا غيره ؟ وإن مثل هذا الشخص يجب ألا يقتل لأن قلبه ممتلىء ندماً . وأمر له بخمسمئة بالش وخيل وثياب ، وعينه أميراً على عدة آلاف وأرسله إلى ختا .

اخرى : بعد أن نما الزرع هطل برد شديد فأتلف الزروع ، مما سبب في غلاء الأسعار في قراقورم ، حتى بيع المنّ الواحد بدينار ، وكان ذلك نادراً أيضاً ، فأرسل منادياً ينادي : لا يتألمن أحد من موت مزروعاته ولا يتكاسلن . فليحاول مرة ثانية هذا العام ، فإن لم يأته مردود فإن خزائن الملك ستفتح

ومخازنه ستوزع على المتضررين ، وشاء القدر أن غلّت الأراضي في السنة الثانية غلات كثيرة ، بحيث لم يعمّ مثل هذا الخير على المنطقة منذ زمن .

اخرى : سيق ثلاثة أشخاص لجرم قاموا به ، فأمر أن يقتل الثلاثة . وحين خرج من البلاط رأى امرأة تعفّر نفسها بالتراب وتبكي . فسأل عن سبب بكائها فقالت : إن من حكم عليهم بالإعدام واحد زوجي والآخر ابني والثالث أخي ، فقال : اختاري واحداً نبقيه لك حياً ، فقالت : الزوج يعوض والابن مرجوّ ، أما الأخ فلا سبيل إلى تعويضه ، فأمر بالعفو عن الثلاثة[1] .

اخرى : رغب في مشاهدة مصارعة يوماً ، في القديم كان يأتيه جماعة المغول والقفجاق والختا ، ولما غدت خراسان تابعة لهم بدأ يفد عليه مصارعو خراسان والعراق ، فأرسل رسولاً إلى « جور ماغون » ليجلب له مصارعاً ، ومن همدان أرسل إليه بطلاً ضخماً كالفيل ، وحين دخل على قاآن أعجب بمنظره وشكله وتناسب أطرافه وضخامة جثته ، فمال قلبه إليه ، وحين وفدت جماعة أخرى من المصارعين أمرهم أن يباشروا اللعب . وتمكن ذلك المصارع أن يغلب أنداده جميعاً ، ولم يستطع أحد أن يلصق ظهره على الأرض ، فأمر أن يقدم له خمسمئة بالش ، ثم أمر له بجارية في غاية الحسن والدلال ، لكن هذه الفئة من الناس تحجم عن مباشرة النساء لصيانة قوتها وكمال أجسادها ، أو أنها لا تكثر من ذلك، فاعتذر عن أخذ الجارية. وجاءت الجارية إلى الملك يوماً تسأله عن سبب عدم قبولها ، وكيف يكمّل العرب (أو الفرس) نصيبهم من

---

(1) هذه الحكاية بعينها مذكورة في « مرزبان نامه » تأليف سعد الدين وراويني ، وقد ألف كتابه قبل أن يؤلف عطا ملك كتابه بخمسين سنة ، وتنسب هذه الحكاية إلى الضحاك .

الهوان ، في حين أن هذا المزاج موجود لدى المغول ؟ وأننا نعلم أن عضو الذكر عند العرب مشهور بكبره ، كما يقول الشاعر :

ويحك يا أيري أما تستحي تفضحني ما بين جلاّسي
تخرج عن جيبي بلا حشمة وترفع المنديل عن رأسي ؟[1]

وقالت الجارية : ولكنني مشتاقة إلى إمضاء سروري معه ، دون غيره . طلب الملك البطل . وبحث معه الأمر ، فأجابه : لقد حظيت في حضرة الملك بالشهرة ، ولم يتمكن أحد من أن يغلبني . ولا أريد من أجل السرور أن أضعف قوتي . فقال الملك : إن ما أقصده أن تنجب أطفالاً ، وبعد ذلك نعفيك من الجاريات . فطلب المصارع ، واسمه محمد شاه أن يستدعي له عدداً من أهل حرفته ، وحين وصلوا نازلهم محمد في الميدان وغلبهم جميعاً ، ثم ركع هذا الضخم على ركبتيه وقال : ها قد رأيت يا مولاي كل قوتي فأنا طوع أمرك . فأمر بتزويجه من الجارية . وبعد خمسة أيام منحه كثيراً من الأموال ، وقدرها سبعمئة بالش :

تيقن المال حين تحل في كفيه أن ليست بدار مقام[2]

وأقام للعروسين حفلة زفاف ، وأجرى عليهما ، كالماء الجاري ، الألبسة والجلود والتحف ، كما سمح لهما بأن ينتقيا ما شاءا بأنفسهما من أنواع الملبوسات .

---

(1) البيتان لأبي السمط الرسعني المنسوب إلى رأس العين (تتمة اليتيمة ، ورقة : ٥٢٠) .
(2) البيت لأبي الحسن التهامي (تتمة اليتيمة ، ورقة : ٥١١) .

اخـرى : حكى لي أحد أصدقائي قال : كنت في بلاد الروم في عهد السلطان علاء الدين كيقباذ[1] ، وكان بين الناس شخص مختل العقل يحصل على خبزه عن طريق السخرية والتهريج ، وكانت أقاصيص ملك العالم الحاتمية على أفواه الناس ؛ بأن ملكاً في المشرق من نسل المغول تساوى عنده الترْب والتبر :

« لدى مقدار همته العالية ، يتحول النقد القليل العيار إلى سبعة نجوم»

وفكر هذا الرجل (المسخرة) بالسفر ، وانطلق في رحلته ، ولـم يعطه أصحابه زاداً ، ولكنه اشترى حماراً وتابع سيره . ورآني بعد ثلاث سنوات في السوق . رأيته (راوي الحكاية) سيداً محترماً يملك الخيل والبغال والجمال والغلمان ، والخدم الختائيون حوله ذات اليمين وذات الشمال ، وحين وقـع بصره علي نزل عن جواده ورحب بي وأظهر سروراً عميقاً بمشاهدتي ، ودعاني إلى ضيافته بإصرار ، وقدم لي الأطايب من ألوان الطعام والشراب على أوان من الذهب والفضة ، والقينات والمغنون والسقاة ماثلون حولنا ، كما هي عادة أصحاب المروة والفتوة تماماً ، وألح على الاحتفاظ بي ، مع الاستمرار علـى الكرم ، ثلاثة أيام متواليات ، من غير أن أتذكره ، حتى عرّفني بنفسه قائلاً : أنا هو صاحب الحمار ، وسألته عن أحواله : « إني رأيتك سفيهاً فمتى صرت فقيهاً » ؟ قال : حين سافرت من بلاد الروم شحاذاً على حماري قصدت قصر الملك ، وما كنت أحمل معي من الزاد غير قدر من الفاكهة المجففـة . وهناك ترقبت خروجه من ممر بلاطه ، وحين خرج تفحصني قليلاً بنظرة ، ثم أرسل إليّ شخصاً سألني عن حالي ومطلبي ، فشرحت له ما أنا فيه من الفقر المدقع ،

---

(١) هو علاء الدين كيقباذ الأول من سلاجقة الروم في تركيـة ، حـكم (٦١٦ - ٦٣٤ هـ) (ت) .

لاجئاً إليه من بلاد الروم ، قاصداً نواله وعطاياه ، ساعياً إلى رؤية الملك الطويل العمر ، فلعله يرفق بحالي ويحول حظي التعس إلى طالع مسعود :

« إذا أراد أبي أن يهديني ، قدم لي النصح ؛ نصح العجوز المجرب »

« إن هربت كالريح هائماً ، فاقصد صاحب الدولة في القمة »

وفي أثناء الحديث وضعوا أمامه طبقاً من الفاكهة وإلى جانبه وعاء فيه ماء ليغسل فيه الفاكهة ، وأركان الدولة ينظرون إليّ شزراً بازدراء ، فرمى في الوعاء بضع حبات من الفاكهة ، ثم اتجه نحو رجاله وقال : قدِم هذا الرجل من بلاد بعيدة ، متخطياً بلاداً كان يمكنه أن يلقى لدى أمرائها العون الذي ينشده، وهم أيضاً سيغنمون من مساعدته ، لهذا رميت بضع حبات من الفاكهة في وعاء الماء ، لآكل منها أنا وأولادي ، وأترك بعضاً تقتسمونه فيما بينكم ، ثم قدم جواد إلى المعسكر ، عند ذلك أخرج الفاكهة من وعاء الماء وأحصاها ، واتجه نحو الحاجب وسأله عن منزلي فأجاب : لا أعرف أين يقطن ؟ ثم سألني : أي مسلم أنت ؟ فقير معدم قدمت إلينا من ديار نائية ، ولا تعرف ماذا ستأكل أو تشرب ، وأين تنام وتستيقظ ؟ إذهب أيها الحاجب الآن إلى أهلك ، وأضفه وأحسن وفادته تمام الإحسان . وهكذا أخذني إلى السوق ، وبحث طويلاً حتى أنزلني في منزل له .

وفي أحد الأيام طلب من الحاجب أن يحصي عدد البالشات في الخزانة ، فأخبره أن في الخزانة سبعمئة بالش جاءته من فتح « منزي »[1] ، فأمر باستدعائي وأعطانيها كلها ، ثم أمرني أن أمرّ به بعد أيام ، فكان كلما جاءته عائدات من البلاد منحني إياها ، وهكذا تحولت حياتي من ضيق ذات اليد إلى ثروة وغنى وسعة :

---

(1) منزي : الصين الجنوبية .

وإذا أتــاهُ سائــلٌ ربُّ الشُّويهــةِ والبعــير
أبصرْتَــهُ بفنائــهِ ربَّ الخَورْنقِ والسَّديرِ (١)

اخرى : كان مغولي يدعــى سنقولي بوكــا● ، كان يملك قطيعــاً من الخراف • فهجم على قطيعه ذئب في ليلة باردة وضرب الخراف فأتلف كثيراً منها • فجاء المغولي إلى الملك في اليــوم الثاني ، وشرح له حال قطيعــه مع الذئب ، وأخبره أنه فقــد ألف رأس في تلك الليلة • فسألــه : وكيف هرب الذئب ؟ وبالأمر المقدر دخل عليه صيادون مسلمون وأحضروا ذئباً حياً ، لكن فمه مربوط • فقال لهم : أشتري منكم هذا الذئب بألف بالش • وقال للرجل صاحب القطيع : إن قتل هذا الذئب لا ينفعك في شيء ، وأمر له بألف خروف• وقال : سأدع الذئب طليقاً ، ليخبر أصحابه عن هذه الحكاية • وما أن أطلق سراح الذئب حتى انقضت عليــه كلاب كالأسود ، فلحقته وقتلته • فتغــير القاآن وغضب وأمر أن يقتص للذئب من الكلاب • وراح يفكر داخل بلاطه مهموماً ، ثم نظر إلى رجال قصره وقال : حين أردت إنقاذ هذا الحيوان أمرَ الحق تعالى أن يضع الحق في مكانه ، لأن هذا الحيوان نجس ، وليس كمــا أخطأت وفكرت ، وهكذا انتهت حياته • وليس خافياً على المفكرين واليقظين أن الملوك ملهمون من عند الله • وقد ورد نظير ذلك في الكتب • فيحكى أن

---

(١) البيتان لأبي بكر الخوارزمي (تاريخ يميني • طبع دهلي : ٧٢) • وقد نظمها على قصيدة المنخل اليشكري المشهورة والمذكورة في (شرح الحماسة للتبريزي : ٢/٤٥) (المحقق) • يروى أن القصرين بناهما النعمان بن المنذر في الحيرة لبهرام كور (الحمار) •ومعنى الخورنق : القصر الصيفي العظيم ومعنى السدير : القصر ذو القباب الثلاث • وانظر المعجم الذهبي (ت) •

المأمون أرسل طاهر بن الحسين وعلي بن عيسى بن ماهان[1] لمحاربة أخيه محمد الأمين إلى بغداد . وفي تضاعيف القصة أن حماداً الراوية كان من ندمائه . فقال حماد : كنا اليوم تتنزه ونشرب ، وفيما نحن كذلك رسا زورق فيه بعض الجواري ، فركبناه معهن لنتم سرورنا . وكان بينهن جارية جميلة اسمها قبيحة ، لها سن ذهبية كملت حسنها وملاحتها . وكان في يد الأمين طاس ياقوتي أحمر ناري ، شكله بشكل السفينة ، ويعد هذا الكأس من نفائس الدنيا ونوادر البلاط . وحين علا الصخب وعم السرور نهضت قبيحة من مكانها لأمر تقضيه ، فعلق ثوبها بحذائها فسقطت على الطاس فانكسر ، وانصدم فمها بحافة الزورق فانكسرت سنها الذهبية التي كان محمد الأمير مشغوفاً بها . فاتجه نحو حماد وقال : دنت نهايتنا ، وهي كذلك نهاية الندماء ، فدعا ربه مبعداً هذه الطيرة عن رأسه . وفيما كنا منشغلين في أمرنا هذا سمعنا هاتفاً أن « قُضي الأمرُ الذي فيه تستفتيان » . فقال محمد الأمين : أسمعت يا حماد؟ لكن حماداً تصامَّ عن الصوت . وعاد الهاتف ثانية يعيد الآية . عندئذ صرخ محمد الأمين في وجه حماد : لم يبق بعد هذا شك ، فانهض ، وانتبه لنفسك ، ولقاؤنا أنا وأنت يوم القيامة .

اخرى : قدم رجل عجوز من حدود بغداد ، وجلس في نهاية الشارع المؤدي إلى قصر الملك . ولمحه الملك في أثناء مروره . فسأله : لمَ أنت واقف

---

(1) سها المصنف هنا سهواً غريباً ، فبإجماع أهل التاريخ أن علي بن عيسى بن ماهان كان قائد جيش بغداد من قبل الأمين ، وان طاهر بن الحسين كان قائد جيش خراسان من قبل المأمون ، والتقى الجيشان في الري ، فقتل علي في المعركة ، ولم يكونا معاً في جيش واحد . ومثل هذه الخطيئة لا تغتفر عند مثل هذا المؤلف .

هنا في نهاية الشارع؟ فأجاب الرجل : أنا فقير وعجوز، عندي عشر بنات، ومن شدة فقري لم يتقدم إليهن عريس. فقال الملك: ولم َلم تذهب إلى الخليفة مادمت من بغداد ؟ فأجاب : كلما طلبت من الخليفة صدقة نقدني عشرة دنانير ذهبية، أصرفها على عيالي . فأمر الملك أن يُعطى ألف بالش فضــة . وحين وضع المال أمامه استكثره واستثقله ، فقال : وكيف أحمل كل هذا المال وأنا عجوز ضعيف ؟ أكتفي بأخذ بالش أو بالشين . فأمر الملك أن يوضع المال في جوالق، ويُعطى حماراً. فقال: ولكنني لاأستطيع الوصول إلى بلدي بهذا المال سالمين، فإن حصل في الطريق ما لا يحمد عقباه حرمت بناتي من إنعام الملك، فأمر الملك أن يحرسه مغوليان حتى ولاية « إيل » . وقبل أن يسير المغوليان معــه مات الرجل ، فأعلموه بالأمر ، فقال الملك : ألم يعطنا الرجل عنوانه ، أولم يقل لنا أين مسكن بناته ؟ فأجابه المغوليان : بلى قال لنا . فأمر الملك عندئذ أن يحملا المال إلى بغداد ويسلماه إلى بناتــه ، وأن يقولا : هذا المال صدقة الخــان لزواجكن" .

أخرى : أُعرست إحدى قريباته وأرسلت إلى زوجها ، وأمر لها بصندوق لآلىء يحمله ثمانية أشخاص زينة لها . وحين أدخل الصندوق على الملك كان قد شغل بالشراب والطرب . فأمر أن يفتح الصندوق ، وكل حبة منه قيمتها دينار أو ديناران ، فنثره على الحاضرين . وقال له أحد رجال حاشيته : كان هذا الصندوق معداً لجهاز فلان فتاة . فقال : في الخزانة صندوق آخر مثله ، أرسلوه غداً إليها .

أخرى : أرسل أمير شيراز أخـــاه البطل[1] إلى قا آن يحمل لــه بعض الهدايا ومن جملتها قربتان مملوءتان ذهباً ، لأن «كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون» متباهياً بما يقدمه . وأدرك قا آن ذلك ، فأمر بصندوق حديدي كبير فملأه

---

(١) هو طهمتان أبو بكر ممدوح سعدي الشيرازي (ت) .

كبيرة الحجم ، فدهش الرسول والحاضرون . فقال قا آن : فاقتسموه فيما بينكم وأنتم تشربون وتطربون :

« إذا حملت قطرة إلى البحـــر ، ظنك الناس مجنوناً بهذا الدواء »

●

لقد ذكرت هنا بعض ما يجب ذكره ، راجياً من الله حلمه وعفوه وعطاءه وتربيته . وهـــذا غيض من فيض ، قصدت من ورائه أن لكل زمـــان صولة رجال ، كما في سالف الأزمان حاتم وأنوشيروان وغيرهما ، وذكر كل واحد في حياته حتى نهايتهـــا كعين الشمس المشعـــة ، وحكاياتهم ورواياتهم مذكورة مسطورة « وفي كـــلّ ما قرن سدوم" وجندب" »[1] . ولو أننا تقصينا هذا الميدان لأطنبنا ، فاكتفينا بهذا المقدار من الاختصار . على أنني أختم بحثي بحكاية تدل على قهره وصولته وسياسته وهيبته ، وكما أوضحنا ما عرف عنه من فيض نعرض في هذه الحكاية ما اشتهر به من السطوة والانتقام ، وكيف يدلل ذلك كله :

له يومُ بؤسٍ فيه للناسِ أبؤسٌ	ويومُ نعيمٍ فيـــه للناسِ أنعُمُ
فيمطُرُ يومَ الجود من كفه الندى	ويمطر يوم البأس من كفه الدم[2]

كان في قبيلة أويرات أمير ألف ، تناقلت عنه الأنباء أنه أمر أن يستولي بعض رجاله على بنات البلاد التي يفتحها . وانتشر هذا الخبر حتى وصـــل إلى الملك ، فعين عدة أمراء للذهاب إلى هناك والتحقق من النبأ . وحين جاءه الخبر الأكيد ، وأن الناس سلموا بناتهن خوفـــاً ، أمر أن تجمع البنات اللائي عمرهن سبع سنوات فما فوق ، فكان عددهن أربعة آلاف ، من بلاد العدو . وكان جمالهن بجمال الأقمار :

« حين بدا حسنها من وراء السجف ، خجل القمر وانخسف »

---

(1) لم يتضح لنا تركيبه العربي هذا ، ولعله محرّف (المحقق) وهو مثل .
(2) البيتان للحسين بن مطير الأسدي (شرح الحماسة طبعة بولاق : ٣/٢) .

وأمر في البــدء أن يفصل بنات الأمراء منهن ، ثــم أمر الحاضرين أن يختلوا بهن . وكان من بينهن فتاتان في غاية الجمال . أما الباقيات الصالحات فقد صفّوهن مقابل المعسكر ، فمن كانت لائقة أرسلوها إلى الحرم الملكي ، وأشبعوا الفهود والجوارح من لحوم فئة منهن ، وخصوا بعضهن رجال البلاط والعاملين فيه ، وفئة حولوهن إلى منازل الرسل ليؤدين الخدمات اللازمة . أما الباقي منهن فبإمكان أي مغولي أو مسلم أن يختار ويأخذ ما يشاء . في حين أن الآباء والإخوة والأقربــاء والأزواج ينظرون بعيونهم وقلوبهم تحتــرق وتتفتت ، من غير أن يجرؤوا على المعارضة .

وهذا الحدث دليل واضح على قهره وتنفيذ أحكامه ، وانقياد عساكره ورجاله لأوامره .

ذكر منازل قاآن ومراحله :

حين تمكن حاتم الزمان وحاكم المكان على عرشه ، وارتاح خاطره من أمر الختا حــن ً إلى معسكر أبيه الكبير ، الذي هو موضع إقامتــه حوالي « إيميل » ، أمر لابنه كيوك بلاده ومحل إقامته ، وهي الممتدة من حدود مياه « أرقون » وجبال قراقورم ، ولم يكن هناك موضع للمدينة ولا للقرية ، إلا اسم « معسكر باليغ » وجدار من آثار سور حجري مسجل عليه أن بانيه هو بوقاخان . وقد فصل في أمر هذا الموضوع في أثناء الحديث عن بلاد أويغور ، وهو مسجل عندهم « مآوو باليغ » . فأمر الملك أن يبنى على هذا السور مدينة وسموها « معسكر باليغ » ، لكنها عرفت باسم قراقورم . واستقدموا من الختا أصحاب الحرف وكذلك من بلاد الإسلام جلبوا الصناع والزراع . ولكثرة المال وفيضان المواهب وغزارة الرغائب تم بناء المدينة بسرعة ، وبنوا

المدينة في القسم المرتفع حقولا وبساتين ، بوابتها ممر خاص للملك ، وبوابة لأولاده وأقربائه ، وثالثة للحريم ، ورابعة لدخول العامة وخروجهم . المعماريون الختائيون قصر الملك في وسط المدينة ، أبوابه تتصل ببوابات المدينة بحسب توزعها،وبنوا عرشاً بثلاثة أجنحة : الأول للملك، والثاني للملكة والثالث للسقاة والطباخين . وعلى يمين القصر ويساره منازل الإخوة والأبناء والحرس . وزينوا القصر والعرش والمنازل بنقوش وزخارف . ووضعوا في أماكن السقاة جراراً ضخمة لا يمكن حملها أو نقلها ، كما بنوا كل ما يلزم للآلات الأخرى أو لمرابض الفيلة والجمال والخيل ، ومنازل مخصصة للمشرفين عليها . حتى إذا أقيم احتفال جيء بالأشربــة والأطباق الذهبية والفضيــة والمرصعة بسهولة .

كان الملك ينزل فيه مرتين في السنة ؛ في الوقت الذي تحل فيه الشمس برج الحمل ، حين تتبسم الدنيا ، وتغدو الأرض من بكاء سحب الربيع ضاحكة الأزاهير مندّاة بالطـلّ . ويمضي فيه شهراً يتمتع بعـين الشمس ، فيقيم في العرش احتفالا ، وحين تبلغ الأمطار مرتبة فيضه ، يُنعم على الصغار والكبار ، فيتحول فقيرهم إلى غني :

ما ضرَّ أهل الثَّغرِ إبطاءُ الحيـا   عنهم وفيهم يوسُفُ بنُ محمدِ

حتى إذا بلغ الربيع أقصى غايته من الجمال ، ونمت الأعشاب يبحث عن متنزهٍ آخر أشرف على هندسته المسلمون على الرغم من أن البنائين ختائيون، وسمي هذا المكان « قَرْشي سوري »(1) . وهو قصر جميل شاهق ، محلى بأنواع النقوش والفرش الملونة ، وبنوا عرشه في صدر البناء . وفي مجلس الملك أنواع نادرة من الأواني والخوابي الياقوتية الحجر ، والمرصعة باللآلىء،

---

(1) قرش بالمغولية : قصر الخان (ت) .

وإلى جانبها ما يناسبها من أدوات وأوان • وفي القصر حوض وجداول فيها من الطيور (من بنات الماء) السابحة عدد كثير ، وكانوا يتمتعون بصيدها ، وبعد ذلك ينعمون بالشراب ، وبساط الكرم فيه لا يغلق ولا يطوى • وفي كل صباح يوزع هباته ، طيلة بقائه في هذا القصر • وكان يجد النشوة في هذا القصر، فيدمن العشرة والشراب، فكأنه سمع قول القُهستاني[1] واتصح به:

تمتّع من الدنيـا فأوقاتُها خُلَسْ وعمرُ الفتى مُلّيتَ أكثرُه نَفَسْ

وسارعْ إلى سهمٍ من العيش فائزٍ فما ارتدّ سهمٌ مرّ قطّ ولا احتبسْ

وقضّ زمان الأنسِ بالأنسِ وانتبهْ لحظّك، إذ لا حظّ فيه لمن نَعَسْ

ولا تتقاضَ اليومَ همّ غدٍ، ودَعْ حديث غدٍ فالاشتغال بـه هَوَسْ

هي الروحُ كالمصباح والراح زَيتُها فدونك عني إنّمـا الرأي يُقتبسْ

أُنَبّيك عن نفسي وعمّا اختبرت لا أحاديث تُروى عن قتادة عن أنسْ

فإذا بلغ الربيع مرحلة الاكتهال،ونهاره آلَ إلى زوال عاد إلى مصيفه يمضي فيه أيامه • ولما كان طريقه على القصر والبساتين أقام فيه ، على عادته ، أياماً ، حيث يأمر فيه بالمعروف • ومن هناك يتجه نحو مكانه الذي يبتعد ثلاثة أميال عن المدينة ، وهناك قصر صغير بني على حافة تل ، يعود إليه كذلك حين يؤوب من مشتاه • وفي كل مرة يمضي بضعة أيام في التجول والنزهة بين تلك الرباع• وصيفه يمضيه بين الجبال ، حيث بنى له الختائيون بلاطاً جدرانه خشبية مخلّلة، ونوافذه مُذْهبة ، وسقوفه مغطاة باللباد الأبيض ، واسم مصيفـه « سيد

---

(١) يعني أبا بكر علي بن الحسن القهستاني من أعيان الدولة الغزنوية • وقصيدته مذكورة في (تتمة الثعالبي ، ورقة : ٥٧٤) •

« وردو » ، وفي هذه البقعة مياه باردة ، وأعلاف وافرة ، ويستمر في مصيفه حتى يندر الثلج بهطوله ، وهناك كذلك في تلك المتنزهات يعم سخاؤه وكرمه.

حتى إذا أشرف الشتاء وبدت أوائله انتقل إلى مشتاه ، وعاد الى ملهاه ثلاثة أشهر ، وفاضت فيه نعماؤه ، وإليك بيتين من نوع ذي الوجهين :

لقد حالَ دون الورد بَرْدٌ مُطاولٌ كأنَّ سعوداً غُيِّبتْ في مناحسِ
وحُجِّبَ في الثلج الربيعُ وحسنُهُ كما اكتن في بيض فراخ الطواوس[1]

وبحمد الله تعالى ما زالت هذه المنازلُ المباركة مسعدة بقدم الملك المباركة ملك الملوك المشهور أنو شيروان زمانه منكو قاآن ومزينة بوجوده ، والدنيا مستظلة بسياسته وعدله ، والرباع مزهرة بخيره ، وهبه الله تعالى مزيداً من العدل ونفاذ الرأي والأمر والنهي ، وأهداه عمراً مديداً ، وقوّى بسلطانه دين الحق .

(1) البيتان في (تتمة اليتيمة ، ورقة : ٥٦٣) لأبي منصور القايني من شعراء الدولة الغزنوية .

الخارجي بها ... المصرية، حيث وتاكيد...

ذكر توراكينا خاتون

حين حلّ حكم الله وودع ملك العالم حاتم الزمان هذه الأرض ، ولم يعد ابنه الأكبر كيوك من حربه مع جيش القفجاق ، فقد اجتمع الخاصة والعامة على باب زوجته موكا خاتون وهي التي ورثها عن أبيه جنكيز خان على حسب عاداتهم ، واستعانوا بها على تنفيذ الأحكام • ولما كانت توراكينا خاتون زوجته الكبرى ، أكثر حصافة وحكمة من موكا خاتون وأماً لأولاده الكبار ، فقد تصدت للحكم وأسرعت في إرسال الرسل إلى أبناء الملوك من إخوة قاآن وأبنائه ، تشرح لهم أحوال البـلاد وتطلب منهم تعيين خان ، ويجب أن يكون حاكماً ورئيساً يتعهد أمور الدولة بحزم ، ويراقب وضع الرعية باهتمام، ويثبت دعائم الجيش والحشم • فأعلن جغاتاي وغيره من أبناء الملوك أن توراكينا خاتون هي أم أولاد الخان الراحل ، وأكثرهم حقاً بالخانيـة ، فتتسلم إدارة البلادحتى يحين موعد الاجتماع الرسمي العام • وسيساعدها أكفاء القصرحتى لا تختلّ القوانين القديمةوالحديثةالمرعية ، وتواكينا معروفة بدهائها وكفاءتها •

وهكذا كان بل لقد أثبتت توراكينا خاتون براعة في متابعة حكم قاآن ، فضبطت أمور الملك بلطف وحيلـة ، وجذبت إليها قلوب الأقرباء بأنـواع الاصطناع والهدايا والتحف ، ومال إليها أكثر الأجانب والعشاير والأقارب ، وانقاد الناس إلى أوامرها طوعاً ورغبة ، وانضووا تحت قوانينها • قال رسول الله ﷺ : : « جُبلت القلوب على حب مَن أحسن إليها وبغض من أساء إليها» • واصطف إلى صفها كلّ الرجال ، واتبعها جينقاي وغيره من رجال البلاط ، وكذا ولاة الأطراف والأقطار •

وفي أيام قاآن كان لتوراكينا خاتون خصوم وحساد ، واستطاعت بعد أن تمكنت أن تذلهم ، وهكذا لم يثبت أمام منازعتها أحد ، منتهزة فرصتها

قبل فوات الأوان ، بحكم القول : « بادرْ فإن الوقت سيف قاطع »[1] . ثم أخذت ترصد لكبار الخصوم لتعطي كل واحد حقه من العقاب ، وقد أرسلت سفيرها إلى ختا ليستدعي الصاحب يلواج كي يقتص لها من الأمير جينقاي . ولكن جينقاي تفرس بدهائه وضعه وأيقن أن سبباً يخصّه جعلها تستدعي صاحب الرسل يلواج ففكر بالسلامة لرأسه ، ولم يلق إلا الهرب منجاة ، وهرب خلسة إلى ابنها كوتان[2] ، وتمسك بأهداب حمايته ، وحين وصل السفير إلى الصاحب يلواج تلقاه بالترحاب والإكرام . وكان يتلقاه كل يوم بنوع من أنواع التقدير . وحين مضى يوم أو يومان على قدوم السفير أعد العدة ليلاً وفرَّ مع بعض الفرسان ، فأيقظ الحرس صاحب الرسل وأخبروه بهرب يلواج على جواده إلى كوتان ، وقد نجا منه :

فأُبتُ إلى فهمٍ ولم أكُ آئباً وكم مثلها فارقتها وهي تصفِرُ[3]

وحين وصل الاثنان الكبيران إلى خدمة كوتان ، وضمنا اللجوء لديه وأمّنهما أرسلت توراكينا خاتون رسولاً يطلبهما فأجاب ابنها : لقد احتمت بُغاثُ الطير بي هرباً من مخالب الباز القوية ، وهي الآن في حمايتي ، تتمسك بأهداب دولتي ، وإرسالها مخالف لشروط المروءة والهمة ، ولا يقبل بذلك أي قانون لدى أي ملّة ، وقريباً يعقد الاجتماع الرسمي ، وسنعرض آثامهما ، وسيبتُّ بذلك الأمراء والأقرباء ، وسيجدان الحكم اللائق . وتكرر إرسال الرسل ، وكان كوتان يجيب على طلباتها كالسابق ويعتذر عن تسليم اللاجئين . وحين وثقت أنها لن تتمكن من استعادتهما اتفقت مع الأمير عماد الملك محمد الختني الذي كان من جملة رجال قاآن ، وعلى اتفاق تام معها منذ زمن ، على

---

(1) هذا صدر بيت لأبي اسحاق الغزي (من ديوانه المخطوط في باريس . ورقة : ٧) . وعجز البيت :

والعمر جيش والشباب أمير

(2) كوتان : من أبناء أوكتاي قا آن وأمه توراكينا خاتون .

(3) البيت لتأبط شراً (شرح الحماسة طبعة بولاق : ١/٣٧) .

تلفيق التهم ضدهما لكي تضمن تعليق الأغلال في أقدامهما أيام محاكمتهما في الاجتماع الرسمي . ولما كانت شيم العظماء تقتضي الوفاء والكرم ، ولم يكن في نفسه أحلام بعيدة المرمى ، فإنه لم يقبل بالوشاية ولا بالسعاية ، وقرر سجن نفسه اختياراً حتى ينقذه الله تعالى مــن هذه الورطة الهائلة بسبب عقيدته الطاهرة . ولهذا كانت له مكانة كبيرة في عهد كيوك خان ، وكذلك حين لاحظ الأمير مسعود بك هــذه الأوضاع عن كثب رأى مــن الصلاح ألا يمكث في ممالكه في هذه المدة،ففضل المبادرة والرحيل إلى باتو.أما الأمير قرا أغول[1] وخواتين جغاتاي وقوربغاي فقد صحبوا الأمير أرغون رسولاً إلى كوركوز، ليعيدوه إلى العاصمة[2] .

وفي هذا الوقت استطاعت امرأة تدعى فاطمــة أن تتمكن في خدمتها وتسيطر على جملة من الأعمــال الملكية مستعينة بكفاءتها ورأيهــا ، فأقالت عبد الرحمن من منصبه في بلاد الختا وعينت مكانه محموداً[3] ، وسيرد ذكر هذه المرأة على حدة في نهاية هذا الفصل ، وحين قاد الأمير أرغون كركوز إلى توراكينا خاتون حبسته لحقد قديم بينهما ،وعينت الأمير أرغون مكانه علــى خراسان . أما من كانت تودّه فكانت ترسل إليه الرسل تحمل الأموال والهدايا، إلا من كان من طرف سرقويتي بيكي ،وأولادها فإنها لم تفرض عليهم شيئاً ولم تخضعهم لقانون معين .

وكانت توراكينا خاتون تستدعي السلاطين شرقاً وغرباً ، وكذلك الأمراء والعظام لعقد الاجتماع الرسمي مع أن كيوك لم يصل بعد ، ،وساحة الخانيــة ما زالت خالية ، وعلى القول المشهور :

---

(١) قرا أغول أو قرا هولاكو : حفيد جغاتاي (ت) .
(٢) وكان أميراً على خراسان ، كما سيأتي بعد (ت) .
(٣) هو نفسه محمود يلواج الصاحب السابق ذكره (ت) .

مَن عزَّ بَزَّ وعزُّ الحُرِّ في طَلَقِه[1]

فقد تهور أوتكين[2] بسعيه للوصول إلى الخانية ، إذ أعدَّ جيشاً وتوجه وإلى معسكر قاآن ، فقد ترصد له الحفيد منكلي أغول مع أقوام وأفواج من رجاله ، فندم أوتكين على فكرته هذه ، وأعلن أنه قادم لتقديم التعازي ، وهكذا قبل عذره على هذا الأساس . وفي هذه الأثناء وصلت الأنباء تعلن عن وصول كيوك إلى معسكره على شاطىء إيميل ، فازداد أوتكين ندماً وتألماً .

وحين وصل كيوك الى أمه لم يقبل أن يباشر الحكم بنفسه ، بل اكتفى بتنفيذ أحكام أمه ومشاركتها ، إلى أن حل محل أبيه شيئاً فشيئاً ، إذما هي إلا بضعة شهور حتى قتلت فاطمة كما سيأتي . وماتت الأم كذلك هي الأخرى .

ذكر فاطمة خاتون :

حين استولى المغول على مشهد علي الرضا المقدس ، عليه أفضل الصلاة والتحية وقعت فاطمة أسيرة في أيديهم ، فأتوا بها إلى قراقورم ، وبيعت بواسطة الدلالين في السوق الى دلالة . فعلمت هذه الدلالة أجيرتها كل فنون الذكاء والدهاء ، وكانت تأتي بها كثيراً معها في عهد قاآن الى معسكر توراكينا خاتون .

---

(1) صدر بيت للغزي ، ورقة : ٥٨ . وعجزه :

فإنما يسغب الهرماس من أنفه

غير أن الديوان يذكر « ظلفه » مكان « طلقه » .

(2) هو أخو جنكيز خان أو ابنه .

وحين تطورت الأحوال ، ورقي الأمير جينقاي في الوسط الحاكم تقربت منه ، حتى غدت محرم أسراره وموضع ائتمانه ، وتمكنت من السيطرة عليه حتى طالت يدها إلى منع أناس عن الوصول إلى غاياتهم • فتقرب إليها العظام من الأطراف يطلبون ودها ، ويتوسلون إليهـا بمالها من قدرة على تذليل الصعاب ، حتى إن عدداً من سادات المشهد المقدس كانوا يتقربون منها لزعمها أنها من نسل سلالة السادات العظام •

وحين وصلت الخانية إلى كيوك خان برزت شهرة رجل من سمرقند ، علوي المذهب اسمه شيره ، فادعى ساقيه قداق[1] أن فاطمة سحرت كوتان[2] قاصداً من وراء ذلك الغمز بعلاقاتها ، ولهذا السبب وقع الرجل في علّتـه • وحين عاد كوتان ، وكان مرضه قد اشتد وطؤه عليه ، أرسل إليه رسولاً يعلمه أن سبب مرضه هو سحر من فاطمة ، فإن جرى لك شر فإننا سندعوها ونقتص منها • وبالأمر المقدر ما إن عاد الرسول حتـــى جاءهم نعي كوتان • واطلـع جينقاي على هذه الإشاعة فأرسل فاطمة إلى أمه (الملكة) • لكن الأم لـم ترض عن تصرفاتها في أثناء محادثتها لكثرة مزاحها ورفع الكلفة معها ، ودعتها عدة مرات ، وكانت في كل مرة تتمادى في مزاحها معها حتى تضايقت كثيراً ، وتوفيت الملكة الأم في هذه الأثناء •

وعاد السمرقندي إلى إصراره على استدعاء فاطمة ، وتهديده بضرورة ذهابها إليه • وحين ذهبت إليه أخيراً استجوبها فعارضت ونفت ، فتركها عارية

---

(۱) قداق : أمير من قبيلة نايمان ، وكان مسيحياً • كان أتابك كيوك ومربيه ، وقد وصل إلى مرتبة الوزارة في عهد خانية كيوك •

(۲) كوتان أخو كيوك •

مغلولة بلا طعام ولا شراب مع ألوان من التعذيب • حتى وصل بها الأمر إلى أن اعترفت عن جرم لم ترتكبه وعن تهمة لفقت عليها • فأمر بلفها داخل لباد ورميها في الماء :

« اتخبوا واحداً ونصّبوه ملكاً ، فكأنهم منحوا البحر سمكة »[1]

وأمر بإعدام كل من له بهـا علاقة • كما أرسلوا الرسل إلى خراسان يستدعون الذين ادعوا قرابتهم بها فعذبوهم كثيراً •

وفي تلك السنة التي خلف فيها كيوك أباه اتهم علي خواجه أمير « إيميل » شيره بالتهمة ذاتها ، من أن شيره يسحر خواجه[2] • فوقع شيره كذلك في الأسر والقيد ، وسجن مدة سنتين مع كثير من ألوان التعذيب ، حتى يئس من حياته • وحين أيقن شيره أنه يعاقب كما عاقب فاطمة أدرك أن هذه العقوبات « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ، وأن الموت لاحقه حتماً ، فأعلن عن اطمئنان وقدر عن جرمه (المزعوم) الذي لم يقترفه ، فرموه في الماء ، ولحقه أبناؤه ونساؤه بقطع رقابهم جميعاً :

« قتلوا الكبير فبقي وحيداً ، فلم تؤيد الدنيا أمر قتل الكبير »

في تلك السنة حل السعد المبارك وتسلم منكوقاآن مقادير السلطنة والخانية ، فعين بزنكو تاي[3] على « بيش باليغ » • في هذا الوقت استدعوا خواجه ، وكان علي خواجه من أقـرب الناس إليه ، واستدعوه كذلك لأن شخصاً ادعى على علي خواجه بالسحر السابق الذكر • فقطعوا أوصاله حتى غدا مِزقاً ومات ، وأسروا أسرته كلها وعذبوها حتى أذلوها •

---

(١) البيت من الشاهنامة (ت) •

(٢) خواجه : هو خواجه أغول بن كيوك خان ، وأمه أوغول غايمش خاتون •

(٣) ورد الاسم من غير تنقيط ، فرأى المحقق أن يلفظ هكذا ، كما في المتن • بينما في النسخة الانكليزية « برلكتاي » (ت) •

فلا تنسب إلى أحد مالا تقبله على نفسك ، وعلا هاتف الفضاء أن « يداك أوكتا وفوك نفخ »[1] :

« إن كان حريراً فأنت غزلته ، وإن كان شوكاً فأنت غرسته »[2]

وقد صدق سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام : « قتلت وقتلت وسيقتل قاتلك » . وقديماً قيل :

وما مِن يــدٍ إلا يدُ اللهِ فوقَها ... وما ظالمٌ إلا سيُبلى بظــالمِ[3]

وعلى العاقل النبيه أن يتبصر بنور هذه المعاني ، ويتأمل ويتأنق بها . ولم يعد خافياً أن عاقبة الخداع وقصارى المكيدة التي هي من خبث الدخيلة وفساد النحلة مذمومة ، وخاتمتها شؤم . والسعيد من اتعظ بغيره :

ولو عَلموا ما يُعقِبُ البغيُ أهلهُ ... ولكنهم لــم ينظــروا في العواقبِ

عافانا الله عن أمثال هذه المقامات ، والتخطي إلى خطط الخطيئات .

★ ★ ★

---

(١) المثل في مجمع الأمثال (باب الياء) .
(٢) البيت من الشاهنامة (ت) .
(٣) المعروف أنهـا : بأظلم .

ذكر جلوس كيوك خان
في جهار بالش الخاني

ودع قاآن حياة الدعة ، وامتنع عن نعمة الدنيا الدنية . ودُعي كيوك ليتسلم زمام الأمور ، وأقدم على الأمر بعزيمة وهمة ، على وفق منهج الراحل. فسابق الحياة بسرعة خاطفة محاولاً إزالة الآفة التي حاقت بالدولة ، فقام بالقضاء المبرم من غير أن يمنح فرصة لأحد ، ولا قطرة تروي سكان البادية ، ولا أن تكتحل عينا أب بولده. فحين سمع بحادثة أوتكين التي لم يجد لها دواء عجّل بالذهاب إلى « إيميل » ، ولم ينتظر دعوته إليه بل توجه مباشرة إلى معسكر أبيه ، وحسم معه أمر أطماعه ، وأقام إلى جوار أمه التي فوضته بأمور المملكة في الحل والعقد والنقض والإبرام ، ملتزماً بقوانين المغول المعروفة ، ومن غير أن يتدخل كثيراً في أمر الملك ، ريثما يعود الرسل من استدعاء الملوك والأمراء من الأطراف ، ويكتمل الحضور بالكتاب والعظماء . وجاء الربيع فبشر بالخير ، ووضع على النجوم قدم السعد ، ورسم قلم النسيان على صفحة البستان صورة إرم ، وتحلت الوديان بأزهار شهر فَرْوَرْدين ووفود الرياحين من كل لون ، وشكر الربيع فضل البديع بالبراعم المفتحة ، ولهج السوسن بالبهجة بكل لسان ، وخسرت الحمائم المطوقة مداعبة العشق مع الفاختات ، وغنت البلابل مع العصافير في الفضاء هذا الغزل :

« نصبت خيل الربيع خيامها في الربى، فعلى المرء أن ينصب خيمته هناك»

« فليشرب من الصباح حتى العشي ، وليقطف الأزهار من المساء إلى وقت السحر »

ووصـــل الملوك والأمراء بخيلهم ورَجلهم ، ودهشت أعين البشر من تنظيمهم وتناسق صفوفهم ، وسهم في عين من يحسدهم • وقد وصلت بادىء ذي بدء سرقويتي بيكي[1] وأولادها بأهبة وعـــدة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت • ووصل من المشرق كوتان مع أولاده ، وأوتكين وأولاده ، وإيلجتاي ، والأعمام ، وأبناء الأعمام • ومن معسكر جغتاي وصل قرا[2] ، وييسو[3] ، وبوري[4] ، وبايدار[5] ، ويسنبوقه[6] ، والأمراء الصغار من الأبناء والأحفاد. ومن بلاد سقسين وبلغار لم يأت باتو بل أرسل عوضاً عنه أخاه الكبير هردو وأخوته الصغار: شيبان وبركة وبركجار وتقاتيمور ، وعدداً من الأمراء الصغار المعتبرين • ومن بلاد ختا قدم الأمراء وكبار العمـــال • ومن ما وراء النهـر وتركستان الأمير مسعود بك مع كبار أمراء الحدود • وقـــدم بصحبة الأمير أرغون مشاهير خراسان والعراق واللور وآذربايجان وشروان • ومن بلاد الروم قدم السلطان ركن الدين والسلطان باكور (تاكور)[7]• ومن كرجستان

---

(١) هي زوجة تولوي خان وأم منكو قا آن وقوبيلاي قا آن وهو لاكو خان وأريق بوكـــا •

(٢) هو نفسه قرا أوغول السابق الذكر •

(٣) الابن الخامس لجغتاي • وقد ورد اسمه في مواضع أخرى : ييسو منكو •

(٤) هو ابن ماتيكان بن جغتاي •

(٥) الابن السادس لجغتاي •

(٦) اخو بوري بن ماتيكان • وقرأه الانكليزي : « يسنتوقة » (ت) •

(٧) هو ملك أرمينية (ت) •

الداؤدان (اثنان) • ومن حلب أخو صاحب حلب[1] • ومن الموصل رسول السلطان بدر الدين لؤلؤ • ومن دار السلام بغداد قاضي القضاة فخر الدين • وسلطان أرزروم[2] • ورسل من الفرنجة • وكـذا من كرمان وفارس • ومن طرف علاء الدين حاكم ألموت قدم شهاب الدين وشمس الدين حاكما قهستان• ومع كل واحد منهم أحمال لائقة بالخان • كما قدمت رسل عديدة من شتى الأنحاء ، حتى بلغ عدد الوافدين قرابة الألفين • وقد أعد لهم جميعاً المكان الناسب • ونهض إلى المكان تجار من شتى البلاد يعرضون نفائسهم وطرائفهم، فمثل هذه الجمعية لن يروا مثلها في زمانهم ، ولم يسبق لها مثيل في التاريخ • وضاقت البلاد بما رحبت من كثرة الناس، وتعذر البحث عن تأمين أماكن أخرى للقادمين :

« فمن كثرة الخيام والرجال وستائر القصور ، لم يبق في الساحات مكان واحـد »[3]

وغلت الأسعار ، وندرت الأعلاف • وقد اجتمعت كلمـة الأمراء وأبناء الملوك على تقليد الخانية وتفويض مقاليد المملكة إلى أحد أولاد قا آن • وعاد الهوس إلى رأس كوتان[4] لأن جده أشار إلى ذلك يوماً • وأعلنت فئـة أن سيرامون[5] لأنه كبر قليلا يمكنه تسلم حكم البلاد • وكان كيوك من بين الأبناء أكثر غلبة واقتحاماً وشططاً كما هو معروف عنه ، وهو الأكبر سناً من

---

(1) وكان حاكمها آنئذ الناصر يوسف الأيوبي (ت) •

(2) يعني أرض الروم • وكان حاكمها ركن الدين جهانشاه (ت) •

(3) من الشاهنامة (ت) •

(4) الابن الثاني لأوكتاي قا آن •

(5) هو ابن كوجو بن قا آن • كان ولي عهد قا آن ابنه الثالث « كوجو » • لكنه مات في حياة والده • ولهذا عين حفيده سيرامون ولي عهده •

إخوته وأكثر ممارسة لصعاب الأمور ، وشاهد السراء والضراء ، وبيّن أن كوتان مريض معلول ، وأن سيرامون ما زال طفلا . وكانت توراكينا خاتون تؤيده وتقف في صفه ، وبيكي[1] وأولادها موافقون على ذلك ، ومعهم عدد من الأمراء والقواد . وهكذا غلبت الرغبة في تعيين كيوك على دفة الحكم . ولكن العرف يتطلب من كيوك أن يتمنع ، وبعد كثير من التشجيع والملاطفة يقبل أخيراً . فقام الأمراء جميعاً ورفعوا قبعاتهم تحية وإجلالا ، وعلقوا أحزمتهم على أكتافهم . وأنهضه هردو و ...[2] وأجلساه على العرش . وركع كل من كان في المجلس وخارجه ثلاث مرات ، وهم يذكرون اسم كيوك خان. وعلى عادتهم تعهدوا خطياً أن يأتمروا بأمره ولا يحرفوا من قوانينه ، ودعوا له . ثم خرجوا من القاعة ، وركعوا للشمس ثلاث مرات .

وحين جلس الباز على عرش العز ، اصطف عن يمينه الأمراء وعن يساره الخواتين ، وكان منظراً عجيباً من كثرة اللآليء اللماعة . وقام على خدمة السقاية كل غلام ظريف المنظر ، بنفسجي العذار ، مورد الوجنتين ، معطر التجعيدات ، سروي القد ، زهري الفم ، لؤلؤي الأسنان ، صبيح الطلعة :

فلو أنه في عهد يوسف قُطّعت° قلوبُ رجالٍ لا أكفُّ نساءِ

« إذا نظر المشاهدون جمالهم ، قدم الزهاد إلى النمر يتبركون »

وشمروا عن أذيالهم ليستقبلوا هذا اليوم بكاسات الخمر وأقداح النبيذ :

إذا رقصَ الحبابُ بحافتَيها رأيتَ الدرَّ في حُمر الحِقاقِ

وجعلت كوكبة الزهرة تتطلع إلى ذلك المجلس ، وتشيع أنغامها على سقف القبة الخضراء . فغار القمر والمشتري فنشرا أشعتهما المنيرة على الأرض ، وانطلق المغنون يترنمون في حضرة ملك العالم بترنيمات

---

(١) أي سرقويتي بيكي أم منكو قا آن .
(٢) بياض في الأصل ، ولعله ييسو أو نيسو (عن النسخة الانكليزية) (ت) .

باربدية[1] ، وأغلق الحاضرون أفواههم هيبة وتقديراً • واستمر سرورهم على هذا المنوال حتى منتصف الليل وهم بين القصف والشراب ، والأمراء يحوطون الملك برعايتهم التامة :

« على أنغام الأوتار وعزف الناي ، وقف كل غلام صبيح على خـدمة الملك »

« وكانوا يشربون الخمرة حتى منتصف الليل ، والمغنون يقدمون أعذب الألحان »[2]

وحـين غرقوا في نشوتهم ركعوا أمام الملك ثنـاء ودعـاء ، واستأذنوا بالانصراف للنوم • وحين طرح النور نقاب السواد نهض الملك :

حتى إذا مـدّ الصباحُ رِواقَهُ ومضى الظلامُ يجرُّ فضل ردائهِ

وأبناء الملوك والأمراء وعامة الناس :

« قدِموا إلى بلاط الملك يتبخترون ، منشرحي الصدور مستبشرين »

وحين ارتفعت الشمس إلى كبد السماء ، ورغب الملك الجبار السعيد في أن يخرج من خلوته :

« ارتدى الحلل الذهبية الملكية ، وتقلد التاج الملكي »وبخيلائه وكبريائه

« أقبل يتمايل من خلف ستائر القصر ، تتبعه الرايات البراقة »

وجلس على عرشه « جهار بالش » في بلاطه بحشمة ووقار • وشرع يُنعم بالإذن عليه للخاص والعام • وكل شخص يحتل مكانه بهدوء :

« وأثنوا على البطل ، بأنك يقظ وسريع سرعة خاطفة »
« فلتدم الدنيا تحت قدميك ، ولتبق على عرشك على الدوام »

---

(1) نسبة إلى مغني الفرس المشهور « باربد » (ت) •
(2) البيتان من الشاهنامة ، وكذا الأبيات الفارسية الثلاثة (ت) •

وتمايلت الخواتين والمحظيات بشبابهن حين توافدت مواد السرور، وكاسات الخمور :

حيَّيتُ خدَّيكَ بل حيَّيتُ من طربٍ ورداً بوردٍ وتفاحاً بتفاحِ

وتمايل الرجال والنساء والبنون والبنات على طرف الشمال كنسيم الشمال ، وقد لبسوا ثياباً وشِّيت باللآلىء ، فلمعت وبرقت وكأنها أنجم السماء تناثرت غيرةً من تناثر اللآلىء ، ومدوا أيديهم إلى أقداح السرور، وأنصتوا إلى ميادين الطرب ، ومتَّعوا أنظارهم بالغواني ، وشنَّفوا آذانهم بالاستماع إلى الأغاني ، وتواترت عليهم لذائذ الحياة ؛ ففي يد الأقداح ، وبين أناملهم ضفائر الملاح . وكذلك مضى اليوم السعيد ، وتبعته سبعة من الأيام ؛ من المساء حتى الفلق ومن الصباح حتى الشفق ومعاطاة كؤوس المدام من أيدي حسناوات متناسقات الهندام على الدوام :

ونغمةِ شادنٍ تُوحي يداهُ إلى الأوتارِ آياتِ اشتياقِ

حتى إذا تمت ليالي الحبور فتحت أبواب الخزائن ووزعت الأثواب والنقود والجواهر عن طيب خاطر ، وفُوضت سرقويتي بيكي بأمر التوزيع لأنها أحكم مَن في المجلس ، فرأت أن يكون النصيب الأول لأبناء الملوك الذين هم من نسل جنكيز خان وأصله ، ممن حضروا هذا الاجتماع من الرجال ومن النساء ، ومهما كانت مراتبهم يتلوهم الأحفاد فأمراء عشرة الآلاف ، فأمراء الألف ، فأمراء المئة ، فأمراء العشرة ، ثم كل أعوان الملوك وأنصارهم وكتابهم وأرباب أعمالهم والمتعلقون بهم كائناً من كان ، على أن لا يحرموا أحداً من نصيبه إذا حضر هذا المجلس .

وبعد ذلك باشروا باستعراض أمور الملك ، وكان أن باشروا أولاً بقضية أوتكين ، فرأوا ضرورة تقصِّي البحث عن موضوعه ، غير أنهم رأوا تفحص الأمر بكثير من اللطف ، إذ لم يجد أحد في موضوعه جرماً بعد أن استعرض

منكو وهردو ، وحين أشبعوا الدراسة والاستعراض رأوا ضرورة الوضوع إلى قوانينهم بشأنه ، وعلى هذا النمط ساروا في قضاياهم كلها من غير العودة إلى أن يعارض أحد من الأمراء من بين الحضور .

وبعد حين قصير توفي جغاتاي عقب قاآن ، فخلفه حفيـده قرا أوغول (أغول) من غير أن يعارض ييسو ابنه ، ولما كان ييسو مع كيوك خان علـى صداقة وصفاء ، فقد تساءل : وكيف يرث الحفيد مع وجود الابن ؟ في حـين أن قاآن وجغتاي اتفقـا (في حياتهما) على تعيين قراغول ولياً للعهـد[1] . وهكذا خلف ييسو أباه جغتاي ، وسانده وعاضده على حكمه ، ولكن منذ وفاة قاآن أقدم أبناء الملوك وغيرهم من العظماء على طلب تدوين عهودهم على براءات مسجلة ومختومة،بأمر من كيوك خان نفسه، وليبرزوها حين الضرورة أن : « اقرأ كتابك » .

كانت بيكي[2] موجودة هي وأولادها ، فلم يجرؤ أحد على مخالفة أمرها (أي من دون خط معين) ، وكان كيوك خان يتخذها مثلاً في أحاديثه ويثني عليها ، وأعلن ، منذ جلوسه ، أن كل قرارات قاآن أبيه نافذة ، ولن يبدل فيها شيئاً ، وأعلن أن كل مرسوم ممهور بختم أبيه المبارك ينفذ من غير عرضه عليه، ولا حاجة إلى توقيعه ثانية .

---

(1) الصحيح أن ماتيكان هو الابن الأكبر لجغاتاي لكنه قتل في عهد جنكيز خان وهو محاصر قلعة باميان . فاتفق أوكتاي قاآن وجغاتاي آنئذ على تسليم ولايـة العهد لابن ماتيكان وهو قرا أوغول (= قرا هولاكو) أي حفيد جغاتاي . وحين تولى كيوك الحكم لم يرض بالحفيد وعين ييسو الابن الآخر لجغاتاي . حتى إذا استلم الحكم منكو قا آن أعاد الحكم إلى قرا أوغول ليكون ملكاً على « الوس » ، وأمر بقتل ييسو .

(2) يعني سرقويتي بيكي أم منكو وهولاكو .

ثم وجّه اهتمامه إلى ترتيب الجيش وتوزيعه في أطراف المعمورة ، وتشاور مع الحضور بهذا الشأن ، وكما هو معلوم أن « منزي »(١) ، التي هي في أقصى بلاد ختا لم تفتح بعد ، فعين على فتحها سبتاي بهادر وجغان نوين مع جيش لجب كامل العتاد ، وكذلك عين الرجال على تنكت وسِلِنْكاي ، كما وجه إيلجيكتاي مع جيش غزير الجنود نحو الغرب ، وأمر أن يرافق كلّ ابن ملك اثنان من عشرة ممن يخصونه ، ويبقى الآخرون ، ويذهب من غير المغول اثنان من أصل عشرة للحرب ، على أن تبدأ الحرب بملاحقة الملاحدة ، وكان مقرراً أن يلاحق هذا الجيش (جيش إيلجيكتاي لحرب الملاحدة) ، ومع أنه خصصه لحرب الملاحدة فإنه كلفه كذلك ببلاد الروم وكُرج وحلب والموصل ودياربكر، حتى لا يفكر بها أحد ، وعلى ملوك تلك الديار وسلاطينها أن يتصلوا به مباشرة ، وسلم أمور ممالك ختا إلى الصاحب المعظم يلواج ، وبلاد ما وراء النهر وتركستان وبلاداً غيرهما تحت تصرف الأمير مسعود بك . أما العراق وآذربيجان وشروان واللور وكرمان وفارس وطرف الهند فعهد بها إلى أرغون، ومنح كل واحد منهم أمره ممهوراً بختم رأس الأسد ، أما سلطنة الروم فإنه أبقى على السلطان ركن الدين لأنه قدم إليه ، وعزل أخاه الأكبر(٢) وعين داود ابن ملكة الكرج بعد أن حكم على داود الآخر (؟)، ومنح سلاطين باكور(٣) وحلب والوفود مراسيم ملكية ، أما وفد بغداد فبعد أن أكرمه ومنحه المرسوم الملكي عاد واسترجعه وحمّله لوماً وشتماً لأمير المؤمنين بسبب شكوى جاءته

---

(١) يعني الصين الجنوبية (ت) .

(٢) اسمه عز الدين كيكاوس الثاني (ت) .

(٣) لعله يقصد من هذه الكلمة ديار بكر (المحقق) . وترى النسخة الانكليزية أنها تكوار أو تاكور ، ويعني بها أرمينية (ت) .

ن ميرامون بن جورماغون ، كما أعاد وفود الموت بالإذلال والإهانة .

وبعد أن أنهى كل عظائم الأعمال طلب أن يتفرغ لنفسه ، فعاد الأمراء بعد
ن أخذ كل واحد منهم مرسومه ، ليستعدوا لتنظيم جيوشهم ، وانتشر نبـأ
جلوسه على عرش العالـم . ورافق هذا النبأ ما يتحلى به من خشونة وهيبة
سياسية ، وقبل أن تبلغ هذه الجيوش البلاد المتجهة نحوها ، فعمها الخوف
والهلع حتى توجّس له الجريء والشجاع :

« وجّه لخصمك سهام جيشك الجرار ، يُعدْ جيشك هيبتك ويضعها
في حصن حصين وكل من سمع بسطوته وصولته « يبتغي نفقاً في الأرض أو
سلماً في السماء » :

« لا أرى خصماً في العالم ، لا ظاهراً ولا متخفيّاً »

« فهو من اسمك لا يضطرب ، أي اضطراب ، بل يفقد روحه »[1]

ولم يجرؤ رجاله والمقربون منه على الدنوّ منه ، ولم يستطيعوا الكلام
وهم في مواضعهم لعرض رغباتهم ، حتـى القادمون من بلاد بعيـدة يتهيبون
لقائه ، ويتمنون أن يعودوا من حيث أتوا من غير أن يلقوه ، والذي طبعه بهذه
الطباع ورسخها في تربيته كالنقش في الحجر قداق المسيحي العقيدة ، فقد كان
مربيه منذ نعومة أظفاره ، فعلمه أن يكون شديداً قاسياً ، وأضاف جينقاي على
هذه الشدة التي تلقنها الخان من القساوسة والنصارى ، فعلمه حسن الاستقبال
أيضـاً .

هذه التربية التي أخذها عن النصارى شجعت الرهبان والقسيسين أن
يفدوا عليه من ديار الشام والروم وبغداد وروسية،وكان أطباؤه الذين يلازمونه

---

(1) البيتان من الشاهنامة (ت) .

نصارى غالبـاً ، وبسبب ملازمته لقداق وجينقاي تولـّد لديه بغض للديـن المحمدي عليه أفضل الصلاة والسلام .

ولما كان طبع هذا الملك الملل سلم أموره وإبرام قضايا الدولة لقداق الذي كان في عهده قوة ولا كلمة ، وكان كيوك خان يحرص على زيادة كرمه ليفوق وجينقاي ، مما رفع من مقام النصارى في بلاده وفي عهده ، ولم يكن لأي مسلم كرم أبيه ،حتى بلغ حد الإفراط في هذا الميدان،من ذلك أنه أمر أن يعيد التجار، الذين كانوا قد أحضروا لوالده نفائسهم ، تقييم بضائعهم التي سيأتون بها ودفع قيمتها سبعين ألف بالش ، وطلب إلى أمرائه في المشارق والمغارب وحتى بلاد الروم أن يجمعوا هذه البضائع ، وينقلوها من مصروف خزانة قراقورم ، وفائدة ذلك ستعود ليس فقط على التجار بل على الجنود والموظفين . وقسمت الأموال عليهم واستفاد منها الناس جميعاً حتى الأطفال،وزاد من هذه الواردات أموال كثيرة . جاء يوماً إلى المعسكر فرأى في الخزانة أموالاً كثيرة فقال : ألم أقل لكم : وزعوا الأموال على الجيش والرعية ؟ فأخبروه أن هذا المال زاد بعد التوزيع مرتين ، فقال لمن كان حاضراً : بإمكان كل واحد أن يحمل ما يستطيع حمله من الأموال الآن .

وبعد أن أمضى تلك السنة في مشتاه ، وأقبلت السنة الجديدة ، وولى برد الشتاء ، وحلّ الـدفء ، وتلونت الأرضون بألوان الربيـع ، وارتوت الأشجار من المياه ، وهبت الرياح اللواقح ، وغدا الهواء كهوى العاشقـين ، وتوردت البساتين كخدود النساء ، وتصادقت العصافير مع القواضم من صغار الحيوانات ، وانتهز العاشقون أيام طربهم قبل أن يأتي فصل الخريف ، فصنعوا هذا البيت :

« انهض واحمل بمحبتك هدوء الياسمين ، كي نلتقي وقت ازْهراره » .

« نقطف الأزهار من خد البستان الملون ، نشرب الخمور من شفـاه كالياسمين »

عندئذ عزم كيوك خان على ترك مقر مملكته ، وكلما مر بمزرعة أو جمع أمر للسكان البالشات والثياب ، ليزيحوا عن كاهلهم عبء الفقر والفاقـة . وتابع مسيرته وهو على هيبته المعروفة نحو الغرب حتى وصل إلى سمرقند ●، والتي تبعد عن « بيش باليغ » مسيرة سبعة أيام ، وهناك فاجأه الأجل الموعود، فلم يُمهله قيد خطوة ، فلم تنفعه سطوته ولم تمنعه صولتـه ، ولا خدمتـه جيوشه ولا عدته[1] . عجباً لهذا الفلك الجافي ! والأعجب من هذا أن المـرء يـرى ولا يتعظ من ذلك كله ، بل تـرى الناس يزدادون جشعـاً ونهمـاً ، ولا يرتدعون :

« تقول لك الدنيا في كل زمان : اتّعظ وانتصح ولا تغتر »

« عليك أن تسلّم بنصائحها وتنفّذ أوامرها »

« ألم ترَ الدنيا كيف لعبت بالاسكندر ، وتركته بلا روح ؟ »

« وكيف أهدت تربته الملك دارا المحبة والعطف ؟ »

« ألم تر أن الدنيا تتقلّب وتتلون كل ساعة ؟ »

« فكم من ألاعيب ونكبات وقعنا في أحبلها !؟ »

---

(1) توفي سنة ٦٤٦ (ت) .

ذكر أحوال أغول غايمش[1] خاتون وأولادها

وحين نكب كيوك خان بما لا بد منه لجميع المخلوقات ، وكما هو المعترف به والمعهود ، أن الملك إذا أصيب بمكروه تغلق الطرق · وصدر أمر أن على كل فرد حيث هو وبالموضع الذي وصل إليه في العمار أو الخراب أن يتوقف (حزناً على الملك) ، وحين هدأت حدة مصاب (أوغول غايمش) بعثت الرسل إلى سرقويتي بيكي وباتو يعلمونهما نبأ الفاجعة، ثم قدحت فكرها واستشارت المقربين من الملك : هــل تعود إلى معسكر قاآن أم تسارع إلــى « قوناق » و « إيميل » حيث معسكر كيوك خان القديم · ولكن هواها هو الذي ساقها إلى طرف إيميل ، وعلى حسب العادة فإن سرقويتي بيكي أرسلت إليها النصائح اللازمة وثوباً و « بُغْتاغاً »[2] ، وكذلك فعل باتو محاولاً التخفيف عـن مصابها ، وأشار عليها أن تباشر مصالح الملك بنفسها يعاونها رجــال البلاط · وذهب باتو بنفسه إلى « ألاقماق » ، وأعلم الأمراء والأبناء جميعاً ليحضروا ويفوّضوا بيكي في الخانية ، كي تستمر أمور المملكة ثانية على نسقها السابق، من غير ما خلل ، وعلى خواجه وناقو أن يأتيا ، ولا حاجة لقداق[3] .

---

(١) هي زوجة كيوك خان بن أوكتاي قا آن بن جنكيز خان · انجبت زوجته ولدين : ناقو وخواجه (المحقق) · وهي مركيتية الأصل (ت) ·

(٢) بغتاغ (ق) : ضفائر حريرية مغولية تعلقها النساء المتزوجات على شعورهن بواسطة قبعة ·

(٣) قداق : سبق ذكره أنه قسيس مربي كيوك خان (ت) ·

نجيه أخذ يهذي هذياناً لاحدَّ له، ويصدر من لسانه حماقات وجهالات وأقوال وبالفعل أسرع خواجه وناقو نحو باتو في ألاقماق • أما قداق فحين علا جعلت الرغبة بإبعاده ضرورية ، حتى إن أغول غايمش وولديها نفـروا من تصرفاته ، وما إن وصل خواجه وباتو (إلى باتو في ألاقماق) حتى سارعا بعد يوم أو يومين إلى الرحيل ، وقبل أن يصل الأمراء الآخرون ، بسبب حظهمـا التعس ، وأوكلا تيمور نوين بأن يقوم مقامهما ، ويوقع عوضاً منهما على كل ما يتفق عليه الأمراء وأبناء الملوك •

ولما وافق الجميع على تعيين منكوقاآن الملك العادل وقـع معهم تيمور نوين ، مراعين الأخوين بأن يبقى الحكم بأيديهما[1] حتى يحين موعد الاجتماع الرسمي • وأرسلوا إليهم رسولاً يقول : لما كان جينقاي منذ القديم حتى الآن محل الاعتماد ؛ يتصدى للمعضلات من الأمور ، والله تعالى ألهمهالسداد في سيرة الأحداث والمصالح بقي في خدمة الدولة ، يكتب المرسوم الذي اتفقوا عليـه •

ومن هناك عاد الأمراء وأبناء الملوك إلى مواقعهم بعد أن اتفقوا علـى الاجتماع الرسمي العام ، وعاد كذلك تيمور نوين لخدمة خواجه وناقو ، وأعلمهما عن اتفاق الأمراء على تعيين منكو قاآن ملـك البلاد ، وأنه وقـع باسميهما على هذا مع القوم جميعاً ، لكن الأخوين خطّطا للغدر بمنكو قاآن فقد أعدّا كميناً في طريقه ليضربوه بنبل الغدر والضغينة ، لكن الحظ الصاحي ووجود المحبين والطالـع السعيد وفضل الله الباري ، جلَّت نعماؤه وكثرت آلاؤه ، حماه • فحين كشف أمر الكمين أقلع الأخوان عن مسعاهما ، وخرجا

---

(١) أي إنهم في اجتماعهم في ألاقماق وافقوا على بقاء الحكم بيد أغول زوجة كيوك وولديه ما دام الاجتماع الرسمي العام لم ينعقد بعد (ت) •

من مكامنهما ، واتجه الجميع إلى مصالح البلاد ، ولأن القضايا لم تكن معقدة فقد شغلوا بمعاملات التجار ، وبإرسال الرسل إلى الأمصار . كانت غايمش تختلي كثيراً برجال الدين « القامان » وتسرح في تخيلاتها مع خرافاتهم ، وكان ابناها خواجه وناقو على خلاف معها دائماً . وهكذا جلس على العرش ثلاثة ، في حين أن الأمراء يحكمون ويتصرفون على هواهم من غير استشارة أحد منهم. أما علية القوم فإنهم يميلون نحو الأمراء الذين يطيب لهم الميل نحوهم . وقد ازدادت الفرقة بين الحكام الثلاثة مع مرور الأيام ، واستمال كل واحد منهم بعضاً من الأصدقاء والأقرباء حتى فشا أمر الخلاف ، وتجاذبته الأهواء ، وانحازوا عن جادة الصواب . وانعدمت ، حينئذ ، الحيلة لدى جينقاي وعجز عن رتق الأمور ، وتاه عن الطريق الذي يساعده على تهدئة الأزمة لعدم انصياعهم إلى نصائحه . فقد استبد الولدان بآرائهما الفجة ، في حين أن غايمش أبدت استعداداً لردع أهل الرأي والصواب مسايرة هواها :

شيئان يعجزُ ذو الرياضة عنهما : رأيُ النساء وإمرةُ الصبيانِ
أمّا النساءُ فميلهنَّ إلى الهوى وأخو الصبّا يجري بغيرِ عِنانِ[1]

وعلى هذا فقد كتبوا إلى باتو يعلمونه عدم موافقتهم على ملك آخر :

قضاءٌ جرى وكتابٌ سَبَقْ فهل ينفعنْ جزَعٌ أو قلقْ ؟
قضَى اللهُ ما شاء من حكمه ففيم اضطرابُك والأمرُ حَقْ ؟

كما أرسلوا أمثال هذه الرسائل إلى ييسو . وكان كثيراً ما يكتب إليهم يحضهم على المصافاة والتوافق ، ويأمر الولدين بضرورة الإشفاق على أمهما . وكذلك باتو لم يقصر في إسداء النصائح اللازمة .

---

(١) البيتان لحسين بن علي المروروزي معاصر الدولة السامانية (يتيمة الدهر : ٢١/٤) .

وهكذا اشتدت الحاجة إلى عقد الاجتماع الرسمي العام حيث يجتمع الإخوة الكبار والصغار ، ويتشاورون •

وأرسل الثلاثة إلى باتو رسالة يقولون فيهـا : إن تثبيت خانيـة منكو قاآن لا شك سيعود خيرها عليك • ولما كان الاثنان ينظران إلى الأمور بمنظار البطر والصبيانية ، ولم تعظهما تجارب الحياة ولم تؤدبهما فقـد أصرا على رأيهما • كما أن قداق وافقهما على هواهما خوفاً مما لا تحمد عقباه • وقـد سعيا إلى تثبيط الهمم لعقد الاجتماع الرسمي العام ، محاولين تأجيله قدر استطاعتهما ، ساعيين إلى بث الخلاف بشأن هذا الاجتماع • ولكن الرسل فاجأتهما بوصول أبناء الملوك والأمراء • فطار ناقو لساعته ، وتبعـه خواجه وتلتهما غايمش •

وسيأتي ذكر جلوس ملك العالم ، وكيفية تردي الأوضاع بسبب قصر النظر والتمسك بالرأي ، حيث حار العقلاء في كيفية تسوية الوضع ، وصعوبة الخروج منه •

ذكر توشي[1] وأحواله

وجلوس باتو خلفاً له

حين وصل توشي ، الابن الأكبر[2] ، إلى حدود « قلان تاشي » للقاء أبيه وعاد من هناك ، لقي حتفه ومات . فاستقل أولاده السبعة ؛ كل في مكانه، وهم : بمحل[3] وهردو وباتو وشيبقان وتنكوت وبركة وبركجار . فحل باتو محل أبيه ، وخلفه على الحكم مع إخوته . وحين تقلد قا آن أمور المملكة استعاد سيطرته على تلك الحدود من القفجاق وآلان وآس والروس ، وبلاد أخرى كالبلغار ومكس . وحدد لباتو مقامه من حدود « إيتيل »[4] . فبنى باتو هناك مدينة أسماها « سراي »[5] . وغدا ملك تلك البلاد ، لا يدين بدين ولا عقيدة ، كما لا يعتقد بوجود الله ، وكذلك لم يكن معادياً ديناً معيناً ولا متعصباً لمعتقد ، كريماً يدفع بلا حساب ، سخياً إلى أقصى حدود السخاء . يهب القاصي والداني . وكل أمير من الأطراف زاره ، أو شخص مثل بين يديه

---

(١) ويلفظ : جوجي وجوجي ؛ جيم فارسية (ت) .

(٢) الابن الأكبر لجنكيز خان (ت) .

(٣) ورد اسمه في جامع التواريخ « بوقال » . ويرى مسيو بلوشيه أن الكلمة في الأصل « بوخل » ، والقاف والخاء في لغة المغول تختلطان دائماً . والنساخ حرّفوا الخاء إذ أسقطوا نقطتها وحرفوا الكلمة . وهذا قريب جداً من الصواب .

(٤) هو نهر الفولغا ، ذكره ياقوت .

(٥) سراي : فارسية بمعنى القصر . وتقع على بعد ٦٥ ميلا شمالي استراغان (ت) .

وقدم له الهدايا الثمينة • وإذا وصلت إليه التحف والأموال وزعها على كل من في حضرته من مغول ومسلمين قبل أن تدخل باب الخزائن • وإذا جاءه التجار بضائعهم دفع لهم أضعاف قيمة بضائعهم • وينعم على سلاطين الروم والشام وغيرهم • ولم يرجع أحد من عنده خائباً •

وحين جلس كيوك خان على العرش استدعاه إليه فلبى دعوته فوراً • وحين وصل إلى « آلاقماق » بلغه موت كيوك خان • فتوقف في هذه البلدة واستدعى أبناء الملوك إليه • فلبوا دعوته ، وقرروا تنصيب منكو قا آن ، وسيرد تفصيل كامل عن منكو قا آن وشرح أحوال تنصيبه • وعاد من هناك وشغل بأمور بلاده وسروره • وكان ، حين تجهيز الجيوش ، يشارك بجيوش مناسبة ، وينصب عليها الأقرباء والأمراء • حتى إذا كانت شهور سنة ثلاث وخمسين وستمئة طلب منكو قا آن عقد اجتماع رسمي آخر • فأرسل باتو ابنه سرتاق إليه • كان سرتاق يدين بالنصرانية ، وقبل أن يصل سرتاق إلى منكو بلغه أن أباه قد توفي فجاءة في شهور سنة ...[1] •

وحين وصل سرتاق لخدمة منكو قاآن أكرمه وأعزه ، وأولاه رعاية أبوية خاصة ، وأعاده بكثير من المال اللائق بالملوك • ولكنه ، قبل أن يصل إلى بلاده توفي فلحق أباه • فأرسل منكو قا آن فوراً رسولا يخفف عن النساء والإخوة • وأشار إلى أن براقجين خاتون ، التي هي أكبر نساء باتو ، تتسلم إدارة البلاد ، وتربي « أولا غجي بن سرساق »، حتى إذا كبر واشتد عوده حل محل أبيه • لكن القدر لم يمهل ، فقد توفي أولا غجي في السنة ذاتها

---

(1) بياض في الأصل (المحقق) • ولعله مات بحدود ٦٥٣ (ت) •

ذكر استخلاص البلغــار

وحدود آس والروس :

حين عقد قا آن الاجتماع الرسمي الكبير للمرة الثانية ، تشاور مع الأمراء حول ضرورة استئصال الطغاة وقمع بقاياهم . وانتهوا إلى أن حدود البلغار وآس والروس المتاخمة لحدود باتو ، ولم يتم استئصال شأفة الطغاة منها ، وملوكها متباهون بمقدرتهم يجب تجهيز جيوش لهم ، على أن يمدهم باتو بمساعداته من بلاده . واستعد لهذه الحملة منكو قا آن وأخوه بوجك[1] ، ومن أولاد كيوك خان وقدعان ، وأمراء آخرون مثــل : كولكان وبوري[2] وبايدار ، ومن إخوة باتو : هردو وتنكرت ، وعــدد آخر من الأمراء . ومن القواد المعتبرين : سبتاي بهادر . فقد خرج كل واحد منهم من معسكره يقود جيوشه المنظمة في مطلع الربيع ، متجهين نحو حدود البلغار . وأخذت جموعهم تتوافد حتى ضاقت الأرض بما حملت ، وامتلأ الفضاء بالهياج والمياج ، وذهلت الوحوش من كثرة ما رأت من جيوش . واستطاعوا في البدء قهر مدينة البلغار على الرغم من منعتها ، وقتلوا من الناس خلقاً كثيراً أسوة بغيرها ، كما أسروا أعداداً هائلة . ومن هناك اتجهوا نحو بلاد الروس ، وأخذوا يستخلصونها جزءاً جزءاً حتى وصلوا إلى مدينة « مكس » ، فصادفوا فيهــا خلقاً كالنمل

---

(١) بوجك بالتركية بمعنى الشقيق وليس الأخ ، ولعله شقيق أريق بوقا (ت) .
(٢) هو ابن ماتيكان بن جغتاي بن جنكيز خان .

الجراد ، متجمعين في الغياض وغابات القصب ، كأنهم الثعابين . واتفق الأمراء أن يقفوا على جانبي الغابات ، ويختاروا ساحات عريضة يؤلفون فيها حلقات متباعدة ، وينصبون في الوسط المنجنيقات ، ويقذفون السكان . وما هي إلا أيام حتى لم يبق من المدينة والغابات إلا الاسم ، وغنموا منهم كثيراً . وأمروا أن تقطع آذان الناس اليمنى وتجمع ، فكان عددها مئتي ألف وسبعين ألف أذن . وعاد الأمراء أدراجهم من هناك .

ذكر خيل كلار وباشغرد● :

لم تطأطيء بـلاد الروس والقفجاق وآلان برؤوسها بعـد . وكانت « كلار » و « باشغرد » أغلبها على النصرانية ، ويقال إنهم يتصلون بالفرنجة . لهذا فقد عزم باتو على سحقهم ، وأخذ يعد الجيوش اللازمة لهـذا الفتح . وحين أهلت السنة الجديدة سار في حروبه . كانت تلك الأقوام مغرورة بما لديها من عَدد وعُدد ، لكنهم ما إن سمعوا بقدوم باتو إليهم حتى أعدوا لاستقباله أربعمئة ألف فارس مغوار . وقد أرسل باتو أخاه شيبقان طليعـة للجيش ومعه عشرة آلاف رجل ، ليكشف قوة العدو وقدرته . وسار أخوه بطلائعه وغاب قرابـة أسبوع ، فأخبره أن عددهم أضعاف أعـداد المغول ، رجالهم محاربون أشاوس .

واستمر باتو في طريقه حتى اقترب الطرفان . فصعد باتو ذات ليلة إلى أعلى التل وحيداً ، وركع يدعو ربه ويتضرع ، وأمر المسلمين الذين معه كذلك أن يجتمعوا ويبتهلوا إلى ربهم بصوت عال . وبدأت المعركة في اليوم التالي ، فاعترض الجيش ماء عظيم[1] ، فعبره جيش باتو ، بينما التصق شيبقان بالعدو.

---

(١) يقصد النهر سايو (ت) .

ولما كان جيش الخصم قوياً فإنه لم يتحرك من مكانه • فجاءهم جيش من خلفهم وجيش من أمامهم ، وأخذوا بتقطيعهم وضربهم بالسيوف • وهكذا انهزم جيش « كلار » • فاستطاع المغول أن يتملكوا تلك البلاد • وكان هذا الفتح من جملة أعمالهم الحربية العظيمة •

ذكـر جغتاي :

كان جغتاي خاناً معروفاً بالتهور والغلبة والسياسة والخشونة • وحين فتح بلاد ما وراء النهر وتركستان جعـل إقامته وإقامة أبنائـه وعساكره من سمرقند إلى أطراف بيش باليغ • وقد أحسن اختياره للمكان ، فهو مكان نزه ، ولائق بالملوك • وكان مصيفه « الماليغ » و « قوناس » ، وهو في الربيع والصيف أشبه بجنات إرم ، يتألف من أوديـة عظيمة يدعونها « كول » • تجتمع فيها سربان البط المائي ، وبنى في هذا المكان قرية أسماها « قتلغ » • ويمضي خريفه وشتاءه في « مراوريل إيلا » • وكان في كل مكان يقيم مجالس أنسه وأطايب شرابه وطعامه مع صبيحات الوجوه ، ممسكاً في كل وقته بأمور السياسة بحزم ، ولم يجرؤ في عهده أحد على التعرض لجيشه • ومن بـاب المبالغة عن المرأة التي تحمل طبقاً من الذهب على رأسها وتمشي وحيدة بلا خوف • فقد كان يضع القوانين الدقيقة وعلى الناس أن ينفذوها بحذافيرها • من ذلك عدم الذبح على الطريقة الإسلامية ، وعـدم الجلوس نهاراً في الميـاه الجارية • وكانت قوانينه هذه ، ولا سيما الذبح الشرعي موزعة على الأمصار، ومعمولا بها بدقة ، حتى لم يعرف أن شخصاً ما في خراسان ذبح خروفاً بشكل علني • كما أمر المسلمين بأكل لحم الميتة •

وحين توفي قا آن غدا هو مرجع الناس ، يأخذون برأيه من قريب ومن

بعيد . ولم يطل به الأمر حتى داهمه مرض عضال ، لعله بسبب تعاطي الدواء .
وكان وزيره تركياً اسمه هجير . وقد تولى في أخريات عمر جغتاي أغلب أمور
الدولة لتزاحم الأوجاع على الملك . وكان يعالجه الطبيب مجد الدين ، ويخلص
في مداواته ، ويشفق عليه . وحين نزل عليه القضاء المحتم أمرت زوجته الكبرى
بسُلون أن يقتل كلاهما (هجير ومجد الدين) مع أولادهما . وقد استطاع
الأمير حبش العميد الذي فتح ما وراء النهر ، واستمر صديقاً لجغتاي ، أن
حظي بمنصب الوزارة . وقد تمكن موقفه في عهد الملكة .

وقال أحد الشعراء ويدعى سديد الأعور عدة أبيات يوم العيد في الأمير
حبش العميد :

« غدا واضحاً أن ظلام هذه الدنيا مصيدة البلاء »

« وضح أن الدنيا تُظهر الدلال وهدفها الغدر »

« ماذا استفاد قَرجي[1] وكيول[2] والجيش الجرار ؟ »

« أتت الدنيا بالآجال وحصدت يميناً وشمالاً »

« مَن كان في الماء لا يغوص فيه خوفاً منه »

« والغرق يكون في البحر المحيط لعمقه واتساعه »

خلّف جغتاي كثيراً من الأولاد والأحفاد ، لكن ابنـه الأكبر ماتيكان
هو الذي كان يرد اسمه كثيراً وقتل في « باميان » . وله كذلك قرا[3] الذي

---

(١) البيتان لأبي الفرج بن أبي حصين القاضي الحلبي(تتمة اليتيمة، ورقة:٥٢٠).

(٢) يرى بلوشه أن هذه الكلمة يجب أن يكون أصلها « كوتوال » بمعنى حافظ القلعة ، وهذا قريب جداً من الصواب .

(٣) يعني قرا هولاكو ، والمعروف بقرا أغول .

مات في حياة جنكيز خان .وتسلم ولاية العهد بعده قا آن .وجغتاي . وعين بعده اثنان ؛ فبعد موته[1] أشرفت على الحكم زوجه يسلون ومعها حبش عميد الملك ، في حين أن أركان الدولة أقبلوا على قرا .

وحين جلس كيوك خان على العرش ، بسبب صداقته الحميمة مع يسو الذي هو ابن جغتاي صلبية قال : مع وجود الابن كيف يكون الحفيد ولياً للعهد ؟ وهكذا أجلس يسو على عرش أبيه ، وأوكل إليه أمور حل القضايا . كان يسو سكيراً قليل الذكاء ، لا يصحو من سكره من الصباح إلى المساء . وحين جلس على عرش أبيه أبدى غضبه من حبش العميد لمناصرته لقرا ، ثم وزع أولاد حبش على أولاد جغتاي ؛ كل واحد تسلم ولداً . ولكن بسبب العلاقة الطيبة بين جغتاي وبهاء الدين المرغيناني وتقديراً لعلمه وفضله سلم أولاد حبش إلى يسو ثانية . ونظراً لقدم خدمته (بهاء الدين) فقد توصل إلى منصب الوزارة في عهد يسو حين أنهى خدمة حبش العميد . ومع أن الأمير الإمام بهاء الدين كان يؤدي واجباته الملكية خير أداء،وتوسط مراراً لدى يسو بشأن حبش العميد ومنعه من إيذائه فإن جبلّة حبش العميد مجبولة على الضغينة ، حتى إذا وجد فرصة تشفّى بها .

وكما هو معلوم فإن منكو قاآن حين جلس على عرشه لم يكن يسو موافقاً على ذلك ، لهذا فإن منكو خلع يسو وعين مكانه قرا ، حيث أعاد كل شيء إلى مكانه بحسب ما ورد في الوصية ، وأولاه العناية والعطف الفائضين. وفي الطريق ، كما ورد ، مات . فقرّر أن يخلفه ابنه (ابن قرا)[2] ، ولأنه صغير السن سلم مقاليد الأمور إلى زوجة قرا واسمها أورقينة .

(١) يقصد وفاة جغتاي .
(٢) واسمه مباركشاه .

أما ييسو فقد كان قريباً من تلك البلاد، فاستأذن باتو بالتخييم في أراضيه، فلم يسمح له[1] ، أما الأمير حبش العميد وابنه ناصر الدين فقد استعاد وضعه في عهد خاتون أورقينة وأيام رجعة قرا إلى الحكم[2] ، فانتقم من بهاء الدين المرغيناني فسلب أمواله وسجن أولاده ، وقيده بخشب ذي فرعين لتعذيبه ، فقال بهاء الدين هذه الرباعية :

« إن مَن حَبسوا عمري ، أنقذوني من محن الدنيا وآلامها »

« تكسّر جسدي من ذنوبي ، وهم بهذا أعادوا لجسمي وَصله »

ثم أرسل هذه الرباعية على سبيل الاستعطاف :

« خذ أيها الملك لحمة نسيجي وخيوطي ، وإن احتجت إلى روحي فخذها»

« فقد بلغت روحي التراقي وبلغ صدري الآخرة ، فلا فائدة من التضرع والتوجـع »

كما كتب هذين البيتين وبعث بهما إلى حبش العميد :

« عملت مع الصديق والعدو بإخلاص وولّيتَ »

« وهكذا حياتنا تنتهي بسرعة »

« سلّمني أجلي المحتوم الحب المسهّل لا تنثال الروح »

« أرسلت مئة لعنة نقداً إلى حبش وولّيت »

فأمر حبش أن يلفوه داخـل لباد ، ويشدّوا عليه اللفّ حتى تتكسر عظامه ويموت .

---

(1) يذكر رشيد الدين فضل الله أن « أورقينة خاتون » زوجة قرا هولاكو . وحين مات زوجها في الطريق حكمت البلاد بعده عشر سنوات . أما « ييسو » فقد قتله منكو .

(2) المعروف أن قرا مات في الطريق ، فلعل حبشاً كان يرافقه (ت) .

وفي شهور سنة تسع وأربعين وستمئة في أثناء عودتي من عاصمة غايش ذهبت إلى بيسو ، وكنت آنئذ في خدمة أرغون ، وحين تشرفت بلقاء الأمير الإمام بهاء الدين خاطبني بهذا البيت قبل أن يبتدرني بالكلام :

إنَّ السَّرِيَّ إذا سرى فبنفسهِ وابن السَّريِّ إذا سرى أسْراهما

ورعاني وأولاني التقدير ، وهو ذو نسب عال وشرف مكتسب ، جمع بينهما فأحسن ، فهو من جهة آبائه يرجع إلى شيخ إسلام فرغانة ، واستمر المنصب لديهم أباً عن جد . وأما والدته فيرجع نسبها إلى طغان خان ، أما شرف الاكتساب فهو في علو مقامه في الوزارة ، وفي كسبه لأنواع العلوم الدينية والدنيوية معاً .

والحق أنني رأيت فيه مجمع بقية فضلاء العالم ، ومرجع صدور الآفاق ، له فضل على كل إنسان ؛ يمنح البرَّ والشفقة ، وذكر مناقبه وفضائله لا يكفيه حصر، وليس هذا موضعه، ومتى أعطى الزمان كل ذي حق حقه حتى يستثنيه؟!

« اغترَّ بنفسه وتكبر ، حتى حين انكسر لم يطأطىء رأسه »

يا دهرُ مالك طول عهدك ترْتعي روض المكارم بارِضاً وجَميما
يا دهر مالك والكرام ذوي العلى ماذا يضرك لو تركت كريما ؟[1]

وبقي للأمير بهاء الدين أولاد وأطفال ، وكم كان يودُّ الأمير حبش العميد أن يُلحق أبناءه الذكور به !

« تم الجزء الأول من تاريخ جهانكشاي ، ويليه إن شاء الله الجزء الثاني »

---

(١) البيتان لأبي الفرج بن أبي حصين القاضي الحلبي (تتمة اليتيمة، ورقة: ٥٢).

باسمه تعالى

الجزء الثاني من تاريخ جهانكشاي

ذكر مبدأ سلاطين خوارزم
أنار الله براهينهم

جاء في كتاب «مشارب التجارب»[1] الذي هو ذيل «تجارب الأمم»[2]، تأليف ابن فندق البيهقي، وفي «جوامع العلوم»[3]، تأليف الرازي باسم السلطان تكش في فصل التاريخ المذكور أن بلكاتكين[4] كان من أركان الدولة السلجوقية (كما كان البتكين[5] في مملكة السامانيين الذي كان صاحب جيش خراسان) . فقد كان عبداً تركياً من غَرْجِستان[6] يدعى نوشتكين غَرجه . وتمكن شيئاً فشيئاً، بما تحلى من عقل وكياسة، أن يرقى في سلم

---

(١) مشارب التجارب وغرائب الغرائب : لأبي الحسن علي بن زيد بن أميرك .. بن فندق البيهقي (ت) .

(٢) تجارب الأمم: لأبي علي أحمد بن محمد مسكويه . ويبدو أن «مشارب التجارب» كان ذيلا لكتاب «التاريخ اليميني» وليس لتجارب الأمم (ت) .

(٣) موسوعة علمية كبيرة ومشهورة لفخر الدين أبي عبد الله بن محمد بن عمر الرازي (ت) .

(٤) معناه بالتركية : الملك الحكيم . وكلمة تكين تعني الملك والأمير (ت) .

(٥) معناه بالتركية : الملك الشجاع . وهو مؤسس الدولة الغزنوية (حول الأدب في العصر السلجوقي للمترجم : ٣٢) .

(٦) منطقة جبلية تقع شرقي بادغيس (ت) .

المراتب حتى احتل أعلاها في الدولة السلجوقية (كما حصل لسبكتكين[1] في آخر عهد الملوك السامانيين)، وكسب لقب « طشت دار »[2] . وكانت خوارزم آنئذ تابعة لوظيفة « طشت خانه »[3] (كما كانت خوزستان تابعة لوظيفة « جامه خانه »[4]) . فدُعي بشحنة خوارزم ، كان له عدد من الأولاد ، فأرسل أكبرهم وهو قطب الدين محمد إلى مرو ليلقَّن آداب الرئاسة ورسوم الإمارة.

في تلك المرحلة كان قاضي القضاة أمير خراسان حبشي بن التونتاق ينوب مناب السلطان بركيارق[5] بن ملكشاه في إدارة البلاد ، وكان الشعراء يكثرون من مديحه ، ولا سيما شاعره الخاص أبو المعالي النحاس[6] الرازي . وقد عيَّن قاضي القضاة حبشي غلاماً خوارزمشاهياً من غلمان السلطان سَنْجَر ويدعى اكنجي[7] بن قُجقار خوارزمشاه لتربية قطب الدين محمد ، وهو الذي لقبه بخوارزمشاه ، في شهور سنة إحدى وتسعين وأربعمئة . وتمكن من التقرب لدى السلاطين السلاجقة ، فحصل على مقامات محمودة ، وقد جاء في

---

(١) سبكتكين : الملك المحبوب (تركية) (ت)

(٢) طشت دار : الخادم الموكل إليه أمر صب الماء على يدي الأمير عقب الطعام (المعجم الذهبي) .

(٣) طشت خانه : غرفة الغسيل (المعجم الذهبي) .

(٤) جامه خانه : غرفة الملابس (المعجم الذهبي) .

(٥) بركيارق : معناه القوي اللامع ، حكم (١٠٩٤ – ١١٠٤ م) وكان من سلاجقة العراق الضعاف (ت) .

(٦) وورد بالخاء المعجمة (النخاس) أو (النخاسي) .

(٧) في الأصل (النجي) ، وما ذكرناه بناء على رواية ابن الأثير حوادث سنة ٤٩٠ ، وهو الأقرب للمعنى ، واكنجي بالتركية : الثاني (ت) .

كتب التاريخ أنه حكم خوارزم مدة ثلاثين سنة ، نَعم في أثنائها برفاغ[1] الحال وفراغ البال . وقد خدم في بلاط سَنْجَر سنة وأرسل ابنه مكانه ويدعى أتسز[2] . لكنه توفي في هذه السنة ، فخلفه ابنه أتْسز في شهور سنة اثنتين وعشرين وخمسمئة ، وقد عرف بفضله وعلمه ، وكانت له أشعار ورباعيات (بالفارسية) كثيرة ، وقد فاق أقرانه بشهامته وصرامته ، وحقق للسلطان سنجر فتوحات كثيرة ، فأثبت أهليته لخدمة السلطان الدائمة ، من ذلك أنه في شهور سنة أربع وعشرين (وخمسمئة) اتجه السلطان سنجر نحو بلاد ماوراء النهر لإخماد ثورة طَمْغاج خان . وحين وصل بخارى شغل السلطان بالصيد والقنص ، فاتفق جماعة من غلمانه وحشمه ، ممن عُينوا مؤخراً لخدمته ، على إهلاك السلطان ، لم يخرج أتسز خوارزمشاه ذلك اليوم معهم للصيد ، وظل نائماً . وفجاءة استيقظ من نومه وامتطى صهوة جواده ، وعدا نحو السلطان ، فتضايق الخدم من وصوله وأُسقط في أيديهم . لكن أتسز لم يُمهلهم بل حمل عليهم وخلص السلطان من شرورهم .

وسأل السلطان أتسز : وكيف وقفت على حالنا ؟ أجاب : رأيت في حلمي أن السلطان وقع في فخ الصيد ، فنهضت مسرعاً إليك . وهكذا علا مقامه ، واشتدت شوكته يوماً فيوماً ، وتألب عليه حساده من كثرة ما رأوه يلقى العناية السلطانية ، وسعوا بمكرهم وقصدهم عليه عند السلطان . حتى كان شهر ذي القعدة من سنة تسع وعشرين (وخمسمئة) ، فقد عزم السلطان إلى غزنين لتهدئة عصيان بهرامشاه ، واستمر في سيره حتى شوال من السنة الثانية حيث وصل إلى بلخ ، واستطاع أتسز أن يكتشف أمر المكائد والأحقاد وسعايات

---

(١) رفاغ ورفاغية ورفغ : سعة العيش والخصب (لسان العرب) .

(٢) اتسز : الذي ليس له جواد (ت) .

الحساد من الأمراء ، فخاف السلطان ، فرجا السلطان أن يجيز له العودة ، وحين
عاد قال السلطان لخواصّه : لن أرى وجهه ثانية • فسألوه : إذا كان هذا رأي
مقامكم فلماذا أجزتم له العودة إلى بلاده ؟ أجاب السلطان : إن حقوق خدمته
على ذمتنا جمّة ، وإيذاءه محظور علينا على حسب مذهب الكرم والمرحمة .

وما إن وصل أتسز إلى خوارزم حتى رفع عصا العصيان ، وازدادت شقة
الخلاف بين الطرفين يوماً فيوماً ، وحين تأزم الموقف اتجه السلطان سنجر نحو
خوارزم في شهر محرم من سنة ثلاث وثلاثين وخمسمئة• وتقابل الجيشان،وقبل
أن يحترب الطرفان هرب جيش أتسز لضعفه وقلة رجاله،وأسر رجال السلطان
آتليغ[1] بن أتسز فساقوه إلى السلطان فأمر بأن يُشقّ نصفين،وبعين ابن أخيه
سليمان بن محمد أميراً على خوارزم وعاد السلطان إلى خراسان ، فرجع
خوارزمشاه أتسز إلى خوارزم وهزم سليمان ، الذي لجأ إلى السلطان
سنجر • وفي سنة ست وثلاثين وخمسمئة خسر السلطان سنجر المعركة ضد
الختا على أبواب سمرقند وتراجع إلى بلخ ، وفي ذلك حكاية مشهورة •

انتهز أتسز هذه الفرصة وتقدم نحو مرو فقتل وأغار،ثم عاد إلى خوارزم•
والمكاتبات التي تمت بين الحكيم حسن القطان[2] ورشيد الدين الوطواط
كانت بسبب كتب فقدها حسن القطان في مرو ، ظناً منه أن الوطواط استولى
عليها وتصرف بها ، هذه الرسالة :

---

(1) آتليغ بالتركية : الفارس أو الرجل المشهور ، ولم يقتل أتسز (ت) •

(2) عين الزمان حسن القطان المروزي من مشاهير علماء القرن السادس وحكمائه •
اشتهر بدراساته العروضية • وكان من جراء غارة أتسز على مرو أن فقدت
مكتبته العامرة ، فظن القطان أن مكتبته سرقت بأمر من رشيد الدين الوطواط،
ولهذا جرت مراسلات بينهما كثيرة ، ما زال أغلبها محفوظاً ضمن رسائل
الوطواط في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم :
(ARABE, 4434, FF. 33 b - 40 b)

والرسالة هذه

« قرع سمعي من أفواه الواردين وألسنة الطارقين على خوارزم أن سيدنا ، أدام الله فضله ، كلما يفرغ[1] من مهمات نفسه ووظائف درسه يُقبل بمجامعه على أكل لحمي ، والإطناب في سبي وشتمي ، وينسبني إلى الإغارة على كتبه ، ويبالغ في هتك أستار الكرم وحجبه . أهذا يليق بالفضل والمروءة أو يحمد بالكرم والفتوة ؟ تفتري على أخيك المسلم مثل هذا الكذب المقلق والبهتان المؤلم ؟ والله إذا نفخ في الصور يوم النشور ، وبعثت هذه الرمم البالية من الأجداث متدرعة ملابس الحياة الثانية ، وجمعت عباد الله في موقف العرَصات ، وتطايرت صحائف الأعمال إلى أربابها ، وسئلت كل نفس عما كسبت :فمن مسيء يسحب على وجهه في النار ، ومن محسن يحمل على أطاف الملائكة إلى الجنة ، لم يتعلق في ذلك المقام الهائل أحد بذيلي طالباً مني ملكاً غصبته ، أو مالا نهبته ، أو دماً سفكته ، أو ستراً هتكته ، أو شخصاً قتلته ، أو حقاً أبطلته . وهأنا آتاني الله من الوجه الحلال قريباً من ألف مجلدة من الكتب النفيسة والدفاتر الشريفة . وأنا وقفت الكل على خزائن الكتب المنبثة في بلاد الاسلام ، عمَرها الله تعالى لينتفع المسلمون بها . ومن كانت عقيدته هذا كيف يستجيز من نفسه أن يغير على كتب إمام من شيوخ العلم أنفق جميع عمره حتى حصَّل أويراقاً يسيرة لو بيعت في الأسواق مع أجلاد أديم ما أحضرت بثمنها مائدة لئيم ؟ الله الله ، فليتق الله ، ولا يقترفن سيدنا ، أدام الله فضله ، بافتراء الكذب على مثلي ،ولا يجترحن به ذنباً يتعلق في أذياله

---

(1) كذا في الأصل ، والصواب أن الفعلين بعد « كلما » يأتيان ماضيين (ت) .

يوم القيامة . فليخافن الله الذي لا إلــه إلا هو ، وليتذكرن يوماً يثاب فيه الصادق على صدقه ، ويعاقب الكاذب على كذبه والسلام » .

وبناء على ما أصيب به السلطان من وهن ازدادت في مخيلة أتسز نخوته وتضخمت . وفي هذا يقول رشيد (الدين) الوطواط قصيدة ، مطلعها :

« اعتلى الملك أتسز عرش السلطنة ، فبرزت دولة سلجوق وآله »

وتضايق السلطان سنجر من أمثال هذه القصائد ، فعزم على الانتقام في شهور سنــة ثمان وثلاثين وخمسمئة ، قاصــداً خوارزم . فحاصرها ونصب المجانيق حولها ورفع لــواء الحرب والانتقام ، وحــين دنت أيام وهن مدينة خوارزم ، وبدت المنغصات علــى ملامح أتسز ، أرسل الهدايا والتحف إلــى الأمراء التابعين للسلطان ، يرجو بذلك قبول السلطان لأعذاره ، ويستعطفه . فلان السلطان ووافق على الهدنة والمصالحة وعاد من حيث أتى . غير أن أتسز عاد إلى مخالفته كعهده السابق . فأرسل إليه السلطان رسالــة يحملها أديب صابر ، فمكث في خوارزم حيناً من الزمان . وتمكن أتسز من تحريض اثنين من متوحشي خوارزم ، وخدعهما على طريقة الملاحدة ، فاشترى روحيهما ، ودفع لهما ثمنهما ، وأرسلهما ليغتالا السلطان . فعلم أديب صابر بالخطة ، فكتب رسالة على ساق امرأة عجوز وصف فيها ملامح الرجلين القادمين لاغتيال السلطان ، وأرسلها إلى مرو . وإذ وصل أمر الرسالة إلى السلطان أمر بالتحري عن هذين القادمين ، وتمكنوا من القبض عليهما في إحدى الخرابات ، فقتلوهما . وحين علم أتسز بسر الرسالة أمر بإغراق أديب صابر .

وعزم السلطان مرة أخرى على قصد خوارزم في سنة اثنتين وأربعين وخمسمئة في شهر جمادى الآخرة . وحاصر أولاً « هزارسف »[1] وقد غرقت هــذه

(١) وتلفظ كذلك : هزار أسب (ت) .

[illegible] بعد مرور جيش المغول في الماء • واستمر على حصارها شهرين • وكان [illegible]عر أنوري في خدمة سنجر في هذه الرحلة ، فكتب هذين البيتين على نبل [illegible]رماه إلى هزارسف :

« أيها الملك ، إن كل ملك الأرض لك ، وبالحظ والاقبال كسبت الدنيا »

« أقدم اليوم على هزارسف بحملة واحدة ، وغداً خوارزم ومئة ألف جواد لك »

كان الوطواط آنئذ في مدينة هزارسف ، فأجابه ببيت كتبه على نبل كذلك وقذف به :

« إن كان خصمك أيها الملك رستم البطل ، لم يقدر نقل حمار من ألف الجواد »

وبعد مشقة كبيرة تمكن السلطان من الاستيلاء على هزارسف • لكنه تضايق كثيراً من هذا البيت وأمثاله مما قاله الوطواط العظيم ، وأقسم أنه إن ظفر به قطعه إرباً إرباً • وجدّ في طلبه ، وأرسل المنادين ينادون في طلبه • لكن الشاعر كان ينام ليله في الأكواخ ويمضي نهاره في الوديان • وحين أيقن أن لا مفر من أمر السلطان اتصل بالحاشية سراً ورجاهم التوسط لدى السلطان • ولكن أحداً لم يقبل بالتورط لما وجدوه من غضب السلطان • وبحكم مراعاة الجنسية تقدم خال جد أبي كاتب هذا الكلام[1] منتجب الدين بديع الكاتب[2] ، سقى الله عراض رمسه بسحائب قدسه ، وتعهد له بالتوسط

(١) يعني عطا ملك الجويني نفسه (ت) •

(٢) انظر ترجمته في لباب الألباب للعوفي : ١/٧٨ — ٨٠ •

لدى السلطان . ومع أن منتجب الدين كان يحتل منصب ديوان الإنشاء فإنه كان من الندماء المقربين . كما كان يرافقه بعد صلاة الصبح ، مع أركان الديوان والقضاء ، وبعد الانتهاء من الصلاة يأخذ في نصحه ، ويورد له بعض النوادر الطريفة . وآناء الجد يستشيره السلطان في أمور الدولة . وفي أثناء ذلك ، حين قرر مفاتحته ، أخذ يمهد للحديث عن الوطواط . وما إن ورد اسمه حتى نهض منتجب الدين وقال : لعبدك التماس إن سمحت به . فوعده السلطان بتنفيذ التماسه . فقال منتجب الدين : الوطواط طائر ضعيف لا طاقة له حتى تقطعه إرباً إرباً . وإذا أمرت اكتفيت بتقطيعه قطعتين فقط . فضحك السلطان وعفا عن الوطواط .

حين وصل السلطان إلى أبواب خوارزم كان فيها زاهد يدعى « الزاهد الغزالي الثياب » . قيل إن طعامه ولباسه من لحم الغزال وجلده . فقدم إلى السلطان ، وبعد أن قدم إليه الموعظة المناسبة شفع لأهل البلدة لديه . كما أرسل أتسز التحف والهدايا مع كثير من الأعذار والاعتذار ، راجياً منه العفة والإغضاء عن زلاته . وللمرة الثالثة عفا عنه ، شريطة أن يأتي أتسز إلى شاطىء جيحون ويقابل السلطان . وفي يوم الاثنين الثاني عشر من محرم سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة قدم أتسز ، وقدم طاعته إلى السلطان . وقبـل أن يلوي السلطان عنان جواده عـاد أتسز من حيث أتى . ومع أن هـذا التقصير سبب غضب السلطان ، إلا أنه عفا عنه ، وأخفى مـا في نفسه بفضل الآيـة : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » و « والله يحب المحسنين » .

وحـين بلغ السلطان خراسان أرسـل رسله إلى أتسز مـع الإنعامات والتشريفات . وأبدى أتسز التقديم والتعظيم اللازمين مع تحف وهدايا وافرة . وبعد ذلك شغل أتسز بغزو الكفار عدة مرات ، وحظي بشرف النصر فيها .

كان في تلك الأيام كمال الدين بن أرسلان خان محمود[1] والياً على جند ، واتصفت العلاقة بينه وبين أتسز بالمودة الصافية . وحين استطاع أن يدمج في حدوده في محرم سنة سبع وأربعين وخمسمئة عزم على احتلال جناق وغيرها ، غير أن أتسز قبل أن يباشر بفتحه رأى أن يحصل على موافقة كمال الدين . إلا أنه حين دنا بجيشه من جند اضطرب كمال الدين وتراجع بجيشه نحو رودبار[2] . وحين وصل نبأ تراجع كمال الدين إلى أتسز أرسل جماعة من الأعلام المشهورين إليه يطمئنه ويؤمنه . فقدم إليه كمال الدين . أمر أتسز أن يقيد حتى الموت . وكان بين كمال الدين والوطواط صداقة وود نيسان . فظن أتسز أن الوطواط وقف على حال كمال الدين . ولهذا السبب أبعد الوطواط عن خدمته حيناً من الزمان . وقد نظم الوطواط عدة قطع شعرية في هذا المعنى ، تثبت بعضها :

« أيها الملك ، حين لمس القدر قلة اهتمامك بي ، تطاول عليَّ وسحق جسدي قهراً »

« من دون رضاك وفضلك ، حرمتني الدنيا الدلال وزاد القدر من إيلامي »

« أولني مزيداً من عطفك فإن مت ، فوالله لن يجود القدر عليَّ بمثلك »

وهذه الأبيات من قطعة أخرى :

« ثلاثون عاماً تغنى عبدك بمدائحك وهو عند موضع النعال ، وأنت متربع على عرش المديح »

« يعلم إله العرش أن أحداً لم يقف ، في بلاطك وأثنى عليك بمثل مدحي »

---

(1) لعله من الأمرة القره خانية (ت) .
(2) رودبار : النهر الكبير . وربما كان في مقاطعة « شاش » ، والتي تسمى اليوم « تاشقند » .

« والآن قد ملّني قلبك بعد هذه الثلاثين ، فوجدت الملالة طريقها إلى قلبك لطول الزمان »

« لكن المثل يقول : إذا ملّ المخدوم ، فتش عن الأخطاء وعبدك التعس بلا أوزار »

وحين خلت « جند » من العصاة أرسل أتسز أبا الفتح إيل أرسلان[1] إلى هناك وعيّن له تلك المواقع . وفي تلك السنة استولى الغز الحشم وأسروا السلطان سنجر ، فكانوا يجلسونه على العرش نهاراً ويضعونه في القفص الحديدي ليلا . فغر أتسز الطمع فرغب في الملك ، متعللا : بأن عليّ أن أقضي حق ولي نعمتي . فاتجه بكامل جيشه وحشمه في طريق « آمويه » ، حتى إذا وصل إلى آمويه سعى لأن يحتل قلعتها بأنواع الحيل ، فأبى حاميها . وأرسل إلى السلطان سنجر رسولا يظهر له الطاعة والإخلاص ، ويرجو أن يمنحه القلعة . وجاء جواب السلطان بعدم مضايقته . ولكن عليه أولا أن يمدنا بجيش عليه إيل أرسلان ، وبعد ذلك له قلعة آمويه وأضعافها . واستمرت المراسلات بين الطرفين مرتين أو ثلاث مرات ، وفي النهاية عاد أتسز إلى خوارزم ، وشغل بالغزو . وفي هذه الأثناء بايع الجيش ركن الدين محمود بن محمد بغراخان ● ابن أخت السلطان سنجر وعينوه نائباً للسلطان سنجر وأجلسوه على العرش . وكان على علاقة طيبة مع أتسز . فأرسل إليه من خراسان رسولا ، يستعينه على إخماد ثورة الغز . فتحرك أتسز ومعه إيل أرسلان على طريق شهرستانه ، وعين ابنه الآخر ختاي خان نائباً له في خوارزم . حتى إذا وصل إلى شهرستانه طلب أمراء الأطراف ليطلع منهم على وضع البلاد . وفي أثناء ذلك بلغه أن الأمير عماد الدين أحمد بن أبي بكر قماج أرسل ألف فارس إلى مكان الصيد وقبضوا على السلطان سنجر وأحضروه إلى ترمذ ، فاستبشر

---

(١) أبو الفتح هو ابن أتسز .

الخاص والعام من الناس لهذا النبأ • فتوقف خوارزمشاه في نسا ينتظر قدوم محمود خان والأمراء الآخرين فأظهروا الأسف والندم ، وأرسلوا إليه عزيز الدين الطغرائي وعقدوا معه ميثاقاً وعهداً على رحيله • فرحل إلى « بخبوشان إستوا » • وقدم كذلك الخاقان ركن الدين من نيسابور وتلاقيا ، واتفقا على الولاء • ومكثا معاً مدة ثلاثة أشهر ، ساعيين إلى إصلاح فساد الملك • وأقام خوارزمشاه احتفالا دعا إليه الخاقان ركن الدين ، أذكر بيتاً في مديحهما من شعر الوطواط :

« اجتمعا معاً كنجمين في برج واحد ، ملكان في قصر سعيد »

وبعد حين داهم خوارزمشاه المرض • وفي أثناء مرضه وصل إلى مسامعه صوت قارىء[1] للقرآن ، فأصغى إليه مرتاحاً فصمت الندماء ، حتى إذا بلغ القارىء « وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ » تشاءم ، وازداد عليه عبء المرض حتى وافته المنية ليلة التاسع من جمادى الآخرة من سنة إحدى وخمسين وخمسمئة ، فزال عنه كبرياؤه وتجبره • وكان في الجنازة رشيد الدين الوطواط يبكي ويشير بيده إليه ويقول :

« لقد اهتز الفلك من سياستك أيها الملك ، يجهد تجاهك كأنه عبد »

« أين هو الرجل البصير ليرى ، ويدرك قيمة هذه المملكة بك ؟ »

وافتضح أمر موته بعد أربعة أيام ، فعاد إيل أرسلان بجيشه نحو خوارزم • وبايعه الأمراء والقواد جميعاً في الطريق ، وقيد أخاه الأصغر سليمان شاه الذي ناصبه العداء • وعيَّن أتابكه أغلبك على سياسة البلاد •

---

(١) خطأ أن يدعى قارىء القرآن « مُقرىء » وأن يقال « قرّاء » • بل يقال قارىء أو « قرّاء » جمعها « قراؤون » • والقَرّاء : الحسن القراءة (لسان العرب) • أما المقرىء فهو الذي يطلب القراءة (ت) •

وفي الثلاثين من رجب من هذه السنة جلس على عرش الخوارزمشاهية • وأسر الجماعات المناهضة • في حين أنه منح الأمراء الآخرين إقطاعات زيادة عما كان أبوه قد قطعهم ، ووزع الخيرات على الناس • وأرسل ركن الدين محمود خان رسولا يهنئه على منصبه الجديد ويعزيه بفقد أبيه • وحين علم السلطان سنجر نبأ موته بتاريخ السادس والعشرين[1] من ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وخمسمئة[2] جلس أهل خوارزم ثلاثة أيام للعزاء •

وفي سنة ثلاث وخمسين وخمسمئة هاجمت جماعــة من رؤساء قــرلغ المقيمون في ما وراء النهر ؛ وكان مقدمهم لاجين بك وأبناء بيغوخان• وأمثالهم كخان سمرقند جلال الدين علي بن الحسين[3] الذي كان يعرف بكوك ساغر ، وقدموا إلى خوارزم ليقتلوا رئيس القرلغ بيغو خان • وكان قصد الرؤساء الآخرين استمالة خوارزمشاه إيــل أرسلان • وفي جمادى الآخرة من هــذه السنة اتجه نحو ما وراء النهر ، فعلم خان سمرقند نبأ الحملة ، فحصن المدينة ، وأدخل جميع البدو التراكمة من قراكول إلى جند ، وطلب المدد من القراختا • فأمدوه بملك[4] الترك مع عشرة آلاف فارس • وبعد أن أظهر أهل بخارى الطاعة لخوارزمشاه اتجه نحو سمرقند • واستعرض خان سمرقند جيوشه ، ثــم عسكر الجيشان علــى طرفي ماء سُغد • وأقــدم الفتيان من الجيشين

---

(1) أخطأ المترجم الانكليزي J. Boyle فذكر التاريخ « السادس » وأسقط كلمة « العشرين » والأصل واضح (ت) .

(2) وصل نبأ موت اتسز إلى السلطان متأخراً (ت) .

(3) اسم أبيه الحسن (وليس الحسين) قلج تمغاج خان عبد المعالي حسن بن علي ابن المؤمن • كما كان يعرف « حسن تكين » (ت) .

(4) في الأصل : إيلك تركان (أو تركمان) • وإيلك كلمة تركية قديمة تعني الملك أو هي الدهقان الأعظم لهم (ت) .

ى الكر والفر والمطاردة • ولكن حين شاهد ملك الترك خوارزمشاه وجيشه
ابدى التذلل والطاعة ، وجاءه أئمــة سمرقند وعلماؤها يتضرعون ويطلبون
الصلح • فقبل خوارزمشاه طلبهم ، وأكرم مثوى أمراء قرلغ وأظهر احترامه
لهم ثم عاد إلى خوارزم •

وبعد وفــاة السلطان سنجر جلس على العرش محمود خــان •
وبسبب الغز واستيلاء مؤيــد آيبه[1] ، الذي كــان من المماليك السنجرية
المعروف بفروسيته وشجاعته من بين سائر الغلمان • فقد أثار خراسان وأخرج
السلطان محمود من مدينة نيسابور في رمضان سنة سبع وخمسين وخمسمئة ،
وقلع عينيه وحبسه في القلعة ، فتوفي فيها في شهور سنة ثمان وخمسين• فتوجه
خوارزمشاه بجيش جرار وعسكر كرار نحو شادياخ ، وحاصرها حيناً ، حتى
توسط السفراء من الجانبين وتصالحوا ، فعاد إلى خوارزم •

وفي سنة ستين وخمسمئة انشقت جماعة من حشم الختا وما وراء النهر ،
واتجهوا نحوه • وحين ترامى إليه نبأ اتجاههم نحوه استعد لحربهم • وكان
على مقدمة جيشه عيار بك الذي كان من قرلغ ما وراء النهر ، وأرسله إلــى
« آمويه » • والتقى الجمعان قبل وصوله ، فانهزم جيش عيار بك وأسر •
فمرض إيل أرسلان ، وحين وصل إلى خوارزم في التاسع عشر من رجب هذه
السنة توفي[2] • فحل محله ابنه الأصغر وولي عهده سلطانشاه ، وجلس على
العرش الخوارزمشاهي ، وقامت أمه الملكة تركان بإدارة البلاد •

---

(1) ورد اسمه « آي أبه » في جميع كتب التاريخ • والجويني ذكره مختصراً • انظر راحة الصدور للراوندي ، والكامل لابن الأثير ، وتاريخ السلجوقية لعماد الدين الكاتب • وكلمة « آي » بمعنى القمر ترد قبل الأسماء التركية كثيراً مثل : « آيندمُر » أي القمر الحديدي و « آيتكين » بمعنى الأمير القمر •

(2) يعني سنة ٥٦٠ أو ٥٦٥ على اختلاف النسخ • على حين أن ابن الأثير يذكر وفاة إيل ارسلان سنة ٥٦٨ •

كان أخوه الأكبر تكش في ذلك الحين في مدينة جند ، فأرسلوا إليه رسولا يطلبه ، لكنه رفض تلبية الدعوة ، فوجهوا نحوه جيشاً . وبلغه نبأ تحرك الجيش ضده ، فلوى عنان جواده قاصداً ابنة خان خانات القراختا[1] ، وكانت آنئذ تحظى بلقب « خان » لانشغالها بتدبير ملك زوجها فرما[2] وعرض عليها تكش أموال خوارزم وخزائنها ، وإذا تسلم حكم خوارزم يدفع لها جزية سنوية . فأرسلت زوجها فرما مع جيش كبير يرافقه تكش . حتى إذا بلغ الجيش برخوارزم اتصل سلطانشاه وأمه بالملك المؤيد ولجأ إليه من غير أن يستعدا للحرب . ووصل تكش يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وخمسمئة[3] إلى خوارزم ، واعتلى العرش الخوارزمشاهي . ووفد عليه الشعراء والبلغاء يطنبون في مديحه والثناء عليه وتهنئته . حتى رشيد الدين الوطواط الذي كان شاعر آبائه ، حُمل على محفة لبلوغه سن الثمانين ونيف ، ووضع أمام السلطان . وقال له : لقد أفاض أصحاب القرائح قبلي بمدحهم ، أما أنا فرجل ضعيف البنية منهوك العزيمة ، وسأحاول تقديم رباعية واحدة لك على سبيل التبرك :

« لقد غسل جدك أوراق الظلم القديمة ، وقوّم أبوك أسس العدل » .

« أيا من ارتديت قباء السلطنة المحكم ، دعنا نر ما يجيء به حكمك »

---

(1) هي الإمبراطورة Pu - Su - Wan ، وكانت أخت آخر خان ويدعى Yi - Lieh وابنة كورخان (ت) .

(2) أورد ابن الأثير اسمه بالقاف . بينما جاء في النسخة الانكليزية فوما ـ Fuma ويؤيد Boyle في الحاشية أنه بالفاء والواو ويرجع أصله إلى الصينية ومعناها: امبراطورية الابن في القانون (ت) .

(3) في إحدى النسخ سنة ٥٦٥ . وفي نسخة ثالثة سنة ٥٦٠ ، وابن الأثير يجعل وفاة إيل أرسلان وجلوس تكش على العرش في سنة واحدة هي ٥٦٨ .

وثابر تكش على مسيرة العدل ، وأعاد فرما معززاً مكرماً بعد أن دفع له
بحق عليه . أما والـدة سلطانشاه[1] فإنها أهدت المؤيـد نفائس الجواهر
وأجناس الذخائر ، وعرضت عليه ملك خوارزم وما يحيط بها ، وأوهمته أن
الشعب والجيش يميل إليها وإلى ابنهـا . واستمرت على إغرائـه حتى ركبه
الغرور ، ووسوس له الشيطان وأفسح له مجال الملك والمال ، فأزاحه عن جادة
الصواب . فجمع شراذم من الجيش ، واتجه به إلى ساحة الحرب يرافقـه
سلطانشاه وأمه . حتى إذا وصلوا إلى « سوبرلي »[2] ، وقد غمرتها الميـاه
هذه الأيام ، لكنهم لم يبلغوها دفعة واحدة ، بل قدموها على دفعات وأفواج ،
لم يكونوا ليعلموا أن خوارزمشاه متربص لهم في هذه المدينة . كان الملك
المؤيد في طليعة الجيش ، فحين دنا من المدينة فاجأه تكش وأفنى طليعة جيشه
وأسر الملك المؤيد ، فأمر أن يقصم شطرين بالسيف أمام عينيه . كان ذلك
يوم عرفة[3] سنـة تسع وستين وخمسمئة . فهرب سلطانشاه وأمـه إلـى
« دهستان »[4] ، فتعقبهما تكش إلى دهستان حيث ألقى القبض على الوالدة
وقتلها ، في حين أن سلطانشاه هرب إلى شادياخ لاجئاً لدى طغانشاه بن الملك
المؤيد ، الذي حل محل أبيه . أقام سلطانشاه في نيسابور مدة من الزمان .
ولما لم يجد لدى طغانشاه القوة الكافية ليمده بالجيش أو بالمال لجـأ إلـى
السلاطين الغورية ، وتعلق بأهداب مساعدتهم ، فأضافوه وأكرموه .

---

(١) والدة سلطانشاه ليست والدة تكش (ت) .

(٢) سوبرلي : بليدة على عشرين فرسخاً من خوارزم (ابـن الأثير حوادث سنـة ٥٦٨) . وسوبرني بالنون في معجـم البلدان ، ويرى ياقوت أنها موضع في خوارزم على الطريق إلى « شهرستان » .

(٣) أي يوم ٩ ذي الحجة (ت) .

(٤) دهستان : صحراء تدعى اليوم تركمانستان (ت) .

أما السلطـان تكش في خوارزم فإنه تمكن من توطيد أمور مملكتـه ، وراسل الختا مرات ، مؤكدين له قبول المودة ، إلا أنه كان يلمس منهم قلـة مراعاة الآداب ، فأبى شرف نفسه أن يتحمـل الضيم والحيف ، و « سجية نفسٍ حرةٍ مُلئت كِبراً » . وحين جاءه رسول من الختا مرة أمر بقتله لسوء تصرفه ، فتأزم الوضع بينه وبين الختا . وسُر سلطانشاه حين بلغه نبأ سوء العلاقة بين الطرفين ، وتوقع بذلك انتهاء حكم أخيه . وعلى الرغم من أن الختائيين تضايقوا من تكش ، والتمس العفو له السلطان غياث الدين وسعى لدى الختا فإن سلطان شاه أسرع إلى غياث الدين . لكنه قال للأمراء : أعتقد أن خراسان ستصيبها الفتن من جراء هذا الرجـل ، وعلينا أن نتحمل العنـاء لأجله ونساعده . ولعل إلهاماً ربانياً حل ، فحين وصل سلطانشاه إلـى الختا وبدا لهم أن أهل خوارزم وجيشها منحازون إليه ، أرسلوا فرما بجيش لمدده . وحين وصلوا إلى حدود خوارزم أمر السلطان تكش أن تفتح مياه جيحون في وجوههم ، فتعذر عليهم التحرك في المنطقة ، بينما كان السلطان في مدينتـه يستعد للحرب ويعد العدة للمجابهة . حتى إذا دنا فرما وجنوده من أبواب المدينة بدا عليهم الجفاء فُجاءة نحو سلطانشاه ، وندموا على مرافقته ، وعزموا على العودة . وحين رأى سلطانشاه أن أمر خوارزم لن يتم له ، ولن يستجيبوا له رجاهم أن يمنحوه كتيبة من الجيش يذهب بها إلى سرخس ، فأجابه فرما إلى طلبه . فأسرع بغتة إلى سرخس وملكُها دينار من أمراء الغُز ، وأعمل فيهم السيف ، ورمى الجنود والملك دينار في خندق القلعة ، فاحتمت بقية الغز وراء الأسوار منه . ثم اتجه سلطانشاه إلى مرو ، واستقر مقامه فيها ، وأعاد من هناك كتيبة الختا التي كانت معه . وكان يغير منها على سرخس باستمرار ، حتى تفرق أغلب الغز . وحين بقي الملك دينار وحده في القلعة عاجزاً ، بعد أن

أكثر حشمه من حوله ، وبدا كأنه دينار مغشوش في قعر الصرّة بعث
لا إلى طغانشاه ، يرجوه أن يبادله مدينة بسطام بمدينة سرخس . فوافق
رجائه ، وأرسل الأمير عمر فيروز الجبلي إلى سرخس ليستلم القلعة من
، وبعد أن استلمها ذهب دينار إلى بسطام .

حين اتجه السلطان تكش من خوارزم إلى جاجرم في طريقه إلى العراق ،
ترك الملك دينار ملكه ولجأ إلـى طغانشاه . فاستدعى طغانشاه عمر فيروز
الجبلي من سرخس وعيّن مكانه الأمير قراقوش وكان من غلمان أبيه . فتوجه
سلطانشاه إلى سرخس بأقل من ثلاثة آلاف رجل متعمداً نقض الميثاق ، في حين
أن طغانشاه وافاه بعشرة آلاف رجل بكامل عتادهم ومعـه دينار . ودارت
رحى الحرب بين الطرفين في « مطحنة حفص » في يوم الأربعـاء السادس
والعشرين من ذي الحجة سنة ست وسبعين وخمسمئة[1] ، بعـد المصاولات
والمبارزات . فاضطرب جيش طغانشاه أمام ضربات جيش سلطانشاه فاختل
نظامه وتبددت رجاله . وبقوة ربانية انتصر سلطانشاه ، وغنم كثيراً من الأموال
من ذلك ثلاثمئة صندوق ، دخلت كلهـا خزانة سلطانشاه . وهكذا سيطـر
سلطانشاه على سرخس وطوس وما حولهما ، وتبعه السعد والإقبال بعد سوء
الحال . ولما كان رجل صولة وحرب ، ولم يكن مثل طغانشاه رجل دف ووتر
فإنه لاحق طغانشاه وتتبعه حتى فل جيشه وتبعه أغلب أمراء طغانشاه وأعيانه .
فالتمس المدد مراراً من السلطان تكش ومن السلطان الغوري ، وهرع بنفسه
مرة إلى هراة يستمد منها عوناً ، ولكن مساعيه كلها باءت بالخسران . وظل
على فقدان أمله يتخبط حتى جاءه الأجل المحتوم ليلة الاثنين في الثاني عشر من
محرم سنة إحدى وثمانين وخمسمئة . ففي هذه الليلة أجلس ابنه سنجر شاه

---

(1) يوضح ابن الأثير : ١١/٢٤٨ المعركة بدقة .

مكان أبيه على عرش السلطنة ، فاستولى أتابكه مِنْكلي بيك[1] على مقلدات الأمور ، وعاث بمصادراته فساداً . فانفض أغلب الأمراء الطغانشاهيين من حوله وارتبطوا بخدمة سلطانشاه ، فاستولى على ممتلكاتهم . وانحدر الملك دينار إلى كرمان ، وارتبط به الأتراك الغز حيث كانوا .

وفي أوائل شهور سنة اثنتين وثمانين قدم السلطان تكش من خوارزم إلى خراسان . فاهتبل سلطانشاه الفرصة وهاجم خوارزم بجيش كثيف . فأقبل السلطان تكش إلى مرو ، وعسكر على أبوابها . وفوجئ سلطانشاه بأن خوارزم لم تستجب له ، على عكس توقعه ، وفي الوقت نفسه لم يستطع صد تكش عن مرو . وحين بلغ « آمويه » ترك أغلب جيشه فيها ، واختار خمسين من المحاربين الأشاوس ، وهاجم جيش تكش ليلاً ، وعبر من وسطه ودخل مرو . وحين علم السلطان في اليوم الثاني أن أخاه دخل المدينة وتمكن منها ، لوى عنان جواده وعدا نحو « شادياخ » من غير توقف ، وعسكر على أبوابها ، واستمر حصاره لها مدة شهرين ، وفيها سنجر شاه ومِنْكِلبك، وكان أول حصاره لها في ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وخمسمئة . ولم يرحل عنها إلا بعد أن عقد صلحاً . ثم أرسل من عاصمته الحاجب الكبير شهاب الدين مسعود و سيف الدين شير مردان[2] خوانسالار[3] وبهاء الدين محمد

---

(١) أسماه ابن الأثير في حوادث سنة ٥٦٨ : منكلي تكين (المحقق) . وكلمة «تكين» بمعنى الأمير والبطل . وقريبة منها كلمة « بك » . فاسمه « منكلي » والقسم الثاني صفته . وقد ورد ذكره مفصولا وموصولا (انظر بعد سطور) ، أما في ابن الأثير فجاء مفصولا ، وكل ذلك صحيح (ت) .

(٢) شير مردان : صفة بمعنى أسد الرجال (فارسية) (ت) .

(٣) خوانسالار : الطباخ (فارسية) (ت) .

بهادي الكاتب لإتمام إجراء المصالحة وإقرار العقد الذي يلتزم به الطرفان.
تي منكلبك ، بسبب غيبة سلطانهم ، قيدهم وأرسلهم إلى سلطانشاه حتى يتم
صلح بين الأخوين .

كان في خدمة السلطان (تكش) الأمام برهان الدين[1] أبو سعيد بن
إمام فخر الدين عبد العزيز الكوفي ، وكان من أكابر العلماء وفحول الأئمة
في زمانه ، مقرباً من سلاطين زمانه ، موقراً ، وشيخ الإسلام في خراسان . قد
كتب من بنات أفكاره بضعة أبيات في ذكر الكوفة ، كتبها لي أحد الأصدقاء
حين كنت أدوّن ترجمته :

الا هل إلى أكناف كوفة عودة	تَبلّ غليل الشوق قبلَ مماتي
وهل أغتدي بين الكُناس وكندة[2]	أسحّ على تلك الرُّبى عَبَراتي ؟
رعى الله صحبي بالعراق وإنْ همُ	رمَوا شمل عهدي منهم بشَتاتِ

وقد قدِم إلى شادياخ عقب المصالحة ، فقيده منكلبك وقتله ، وحين علم
سلطانشاه نبأ عودة أخيه ، وكان طامعاً في تملك نيسابور ، اتجه نحو شادياخ،
وباشر في حربها . إلا أنه أدرك أن النصر لن يحالفه ، وأن السكان أقوى منه ،
فعزم على « سبزوار » وحاصرها وأعدّ المجانيق لدكها. فشتمه أهالي سبزوار،
وأغلظوا له في القول . فحقد السلطان عليهم واتقد ضغينة ، وجد في احتلالها.
وحين أحس سكان سبزوار أن الأمر سيخرج من أيديهم ، ولن يجدوا مهرباً

---

(1) وردت ترجمته في لباب الألباب : ١/٢٢٨ .
(2) الكناس : لعلها مخففة من « الكناسة » ، والتي كانت محلة معروفة في الكوفة (ياقوت) . أما كندة فإن ضبطها وتعيين موضعها غير معلوم . وهي حتماً ليست من مخاليف اليمن .

توسلوا إلى الشيخ أحمد بَديلي أحد عدول زمانـه وفريد أوانه في العلوم الدينية والحقيقية ، لكي يخلصهم ، فخرج من المدينة وشفع لهم لدى سلطانشاه، فأكرمه سلطانشاه وعظمه ، وصفح عما بدر من السكان صفحاً جميلاً ، وأغضى عن هفواتهم • كان الشيخ أحمد من سكان سبزوار • فحين خرج من المدينة بقصد طلب الشفاعة لأهلها ، بسبب إنكارهم لأهل الصفة[1] ولشيوخها ، أتبعوه بغليظ القول ، فقال : « لو كان هناك قوم أكثر إنكاراً من هذه الفئة لكان شيخي أحمد[2] أرسلني إليهم » • ورماه الناس بالنبال فيما كان ذاهباً ، لكن الشيخ أحمد لم يعبأ بهم ولم يلتفت إليهم ، وسجل كل الحقائق في أشعاره وغزلياته ورباعياته ورسائله ، وهذه إحدى رباعياته :

« أيتها الروح ، إن طهرت الجسم من غباره ، بلغت الروح المقدسة فوق الأفلاك »

« العرش مقامك • وفنك لا يخجل ، مجيئك ومقامك أن تكوني تراباً »

ورحل سلطانشاه عن سبزوار وافياً بوعده بعد أن أقام فيها زهاء ساعة ، وتحول عنها إلى مرو • بينما كان السلطان تكش يوم الجمعة في الرابع عشر من محرم سنة ثلاث وثمانين وخمسمئة بظاهر شادياخ يدكها بالمجانيق ويحارب رجالها ، مما اضطر منكليك إلى إرسال الأئمة والسادات راجين عفوه وشفاعته،

---

(1) أهل الصفة : كانوا أضياف الإسلام ، وكانوا يبيتون في مسجد النبي ﷺ • والصفة : موضع مظلل من المسجد • وانظر المستدرك ، رأي بويل في نسخته الإنكليزية (ت) •

(2) لعله يعني أحمد الجامي (٤٤١ ـ ٥٣٦ هـ) المدفون في خراسان بمدينة « تربة الشيخ جام » •

فأجابهم إلى التماسهم ، وأقسم لهم على ذلك • وجاءه منكلبك فدخل السلطان المدينة يوم الثلاثاء السابع[1] من شهر ربيع الأول من هذه السنة • فبسط بساط العدل ، وأزاح شوك العدوان والجور ، ولام منكلبك وطالبه بالقصاص العادل في قتله ظلماً برهان الدين ، لأن فتاوى الأئمة تقول : لحوم العلماء مسمومة • ولأن « النفس بالنفس والجروح قصاص » فقد قتل له ابنه • وهكذا أعاد لرباع نيسابور العدل بعد الجور الذي حاق بها من منكلبك ، فغدت تابعة لملك خوارزم • وسلم زمام مصلحة هذه المنطقة إلى ابنه الأكبر ناصر الدين ملكشاه • وفي رجب من السنة المذكورة اتجه نحو خوارزم •

حين لاحظ سلطانشاه الساحة خالية ، جهز جيشاً أعمل به الفتك بسكان شادياخ ، وهدمها • واحتدم القتال بين الطرفين • وتمكن ملكشاه من إخطار أبيه (تكش) يطلب منه النجدة والعون على جناح السرعة • فأسرع تكش فوراً بجيشه • ولكن أحد غلمان سلطانشاه الخاصين هرع من بلدة نسا يخبر سيده بدنو قدوم جيش تكش اللجب ، وهو الآن في خراسان • حين علم سلطانشاه بالنبأ أمطر المدينة بوابل من القصف بالمجانيق حتى اختلط ترابها بسمائها • وحين قدم السلطان إلى المدينة رمم خرابها وأصلح فاسدها ، ثم قصد مازندران ليشتو فيها ، فقدم له أمراء خراسان ، ممن لم يتصلوا به قبلا ، الطاعة راجين أن يشملهم بعطفه وعنايته • وحين كشف الربيع وشاح الشتاء ، واتشحت الدنيا بزينة الجمال عاد إلى خراسان ، ونزل في مروج « رادكان طوس » • ومن هناك تكررت وفود السفراء بينه وبين سلطانشاه ، وختمت بعقد الصلح ، فمنحه خوارزمشاه : جام وباخرز وزيربُل محبة ومودة • فبادله سلطانشاه المودة فكبّل منكلبك وأهداه إياه مع أركان دولته • فأعادهم

---

(1) إحدى النسخ تذكر اليوم السابع عشر •

معززين مشرَّفين . وهكذا تصافت شوائب الطرفين ، وتطهرت خراسان من الطغاة والعداة .

وجلس خوارزمشاه في مروج « رادكان طوس » على سرير السلطنة يوم الثلاثاء في الثامن عشر من جمادى الأولى سنة خمس وثمانين وخمسمئة ، وشاع صيته في الأرجاء ، وانغرست هيبته في ضمائر الخلائق وخواطرهم ، وأقبل الشعراء عليه يهنئونه بجلوسه على العرش ، وتعالت أصوات الخطباء تلهج بمكانته . من جملة ذلك قصيدة للعمادي الزوزني ، والتي مطلعها :

« بحمد الله سلّم العالم من مشرقه إلى مغربه ، بسيف ملك العالم »
« القائد الأعظم ملك الدنيا ، واهب الملوك وحاكم العالم »
« تكش خان بن أرسلان بن أتسز ، من أصل الملوك منذ آدم »
« يزهو على العرش المظفر السعيد ، كالشمس في القبة الزرقاء »

وفاض خير السلطان على الشعراء بخاصة والخلائق بعامة . ثم عزم في خريف السنة المذكورة على الرحيل إلى خوارزم . وفي أثناء انعقاد معاهدة الصلح بين الأخوين وقعت معارك بين سلاطين الغور وسلطانشاه . وإثر انخذال سلطانشاه في معركة مرو الروذ وبنج ديه[1] ، وانهدام قوة الطرفين (الغورية وسلطانشاه) رأى الجانبان ضرورة عقد المصالحة ، ويبدو أنها كانت مهادنة مؤقتة . كما كان سلطانشاه يترصد أخاه فينقض العهد وينكث بالميثاق . مما اضطر السلطان إلى تأديبه ، فخرج من خوارزم في شهور سنة ست وثمانين وخمسمئة وقصد قلعة سرخس التي كانت ذاخرة برجال سلطانشاه وذخائره وعتاده فخربها قهراً وقسراً ، ثم عاد إلى رادكان حيث أمضى فيها صيفه . وعادت بعد ذلك أواصر الاتفاق بين الأخوين متوطدة ، فقام سلطانشاه بإعادة بناء قلعة سرخس ، وملأها بالعدة والعتاد . وظلت المودة بين الأخوين قائمة

(1) ذكرها ابن الأثير في حوادث سنة ٥٨٦ .

في شهور سنة ثمان وثمانين وخمسمئة ، عندما جاءه رسول من قتلغ إينانج بن الأتابك محمد بن إيلدكز[1] يعلمه بهرب السلطان طغرل السلجوقي من وجهه[2] واستيلائه على مملكة العراق[3] بعد أن انتزعها منه . فلبى السلطان استنجاده ، واتجه من خوارزم . وكان برفقته آنئذ بهاء الدين الكاتب البغدادي . فحين وصل إلى جوين (السلطان) ودخل قصبة « آزادوار » أسرع جد أبي بهاء الدين محمد بن علي لخدمته ، فدارت بينهما مباحثات . وفي أثناء الحديث أهدى جد أبي هذه الرباعية بديهة إلى السلطان :

« لقد سرق شرف الجوهر المكنون لطفك ، وتشبه جيحون بجود كفك »

« إن أبديت حكمك لحظة ، حلت المنافع المحالة من العدم »

وسكر السلطان طيلة ليلته على أنغام هذا النشيد . كما تغنى جدي كثيراً واحتفى به أيما احتفاء . وفي أثناء تحول الشمس إلى برج الحمل اتخذ السلطان طريقه نحو العراق قاصداً المخالفين . حتى إذا بلغ نبأ دنوه إلى مسامع قتلغ إينانج ومسامع أمه ندما على استدعائه ، وتحصنا في القلعة . ووصل السلطان إلى الري ، وأمضى يومين من القتال على قلعة طبرك[4] ، وبعد صراع مرير تمكن من الاستيلاء عليها ، فغنم جيشه غنائم كثيرة . وأقام صيفه بحدود الري . غير أن قسماً كبيراً من جنوده لقي حتفه بسبب عفونة الطقس ورنق الماء .

---

(1) هو شهاب الدين إيلدكز (١١٣٦ - ١١٧٢) مؤسس الأسرة الأتابكية في آذربيجان . وابنه محمد جهان بهلوان (١١٧٢ - ١١٨٥) لم يكن ابا قتلغ وحسب بل كان اباً للأتابك أبي بكر والأتابك أوزبك (ت) .

(2) كان طغرل الثاني (١١٧٧ - ١١٩٤) آخر سلاجقة إيران (ت) .

(3) يعني عراق العجم (ت) .

(4) بنيت هذه القلعة على تل قرب الري (ت) .

حين اطلع السلطان طغرل على الوحشة التي اعترت السلطان وقتلغ إينانج أرسل تحفاً وهدايا إليــه وطلب منــه الاستئمان • وهكــذا أخذت رواسب العلاقات تصفــو ، وكأس الموالاة يطفو • فاستخرج السلطان الضرائب مــن المناطق ، وأجلس الأمير تمغاج على إمارة الري بالقوة لأنه أكبر الأمراء الأتراك سناً • وعاد ، وفي طريق عودته أنهى إليه أن سلطانشاه اهتبــل فرصة غياب السلطان وحاصر خوارزم • فجعل السلطان تكش في سيره قاصداً خوارزم • وحين بلغ « دهستان » جاءه المبشرون يخبرونه بتراجع سلطانشاه عن حصاره، فدخل خوارزم • وكان الشتاء قد حل ، فعكف على مجالس الأنس الشتائية حتى أهلّ الربيع بأعشابه ، وتفتحت أكمــام الأزهار وتبسمت ، فعــزم على السفر إلى خراسان لتربية أخيه • وما أن بلغ « أبيورد » حتى تلاحق سفراء الأخوين باللقــاء ، فعادت ميــاه المودة إلى مجاريها ، وتعددت المراســلات والمكاتبات بينهما من غير أن تنقطع بينهما فكرة النزاع • ولقد كان سلطانشاه في غاية الشراسة ، بعيداً عن سكة الصواب ، غير ميال إلى الإصلاح •

في هذه الأثناء تخوف حاكم قلعة سرخس بدر الدين جغر[1] من سلطانشاه بسبب نميمة وصلت إليه عنه • فما كان منه إلا أن قيد جماعة ممن لا يطمئن إليهم وأسرع نحو السلطان في أبيورد • كان في المقدمة فوج عظيم من الفرسان الخفاف ، وتحرك السلطان خلفهم • حتى إذا دنا السلطان برز إليه جغر ، وأظهر له المودة والإخلاص ، وسلمه مفاتيح القلعة وخزائنها • فاسودت الدنيا في عيني سلطانشاه حين بلغته هذه القصة ، فزادته غصة • ولم يمض يومان على هذا النبأ أي في يوم الأربعاء سلخ رمضان[2] سنة تسع وثمانين وخمسمئة،

---

(1) جغر : معناها النسر الصخري (ت) .
(2) سلخ رمضان : آخره ، والسلخ : آخر الشهر كمنسلخه (قاموس المحيط ــ ت) .

نى وافاه الأجل فغابت شمس دولته . ووصل الخبر في اليوم الثاني إلى أخيه
سلطان فأقام الأفراح ! لجلوسه على عرشه وعرش أخيه جميعاً . وورث
نه العرش والبلاط والخزائن والجيوش ، فأمـر بإحضار الملك قطب الدين
محمد(1) نوراً إلى خوارزم . لكن ابنه الأكبر ناصر الدين ملكشاه والـي
نيسابور ، الذي كان حريصاً علـى صيـد الفهـود والصقور ، بسبب كثرة
ما اصطاده من نيسابور ، فطلب استبدالها بمرو :

نبئس البديل الشأمُ منكم وأهله — على أنهم قومي وبينهمُ رَبْعي(2)

وتحقق طلبه وأجيب رجاؤه ، فأعيد الملك قطب الدين إلى نيسابور .
وتمكن الأخوان من الدولة في الحل والربط ، والنقض والإبرام .

وفي أثناء اختصام الأخوين وصلت الأنباء بنكث السلطان طغرل العهد ،
فبعد أن هاجم تمغاج اتجه في هجومه نحو خوارزم واستولى على قلعة طبرك
الزاخرة بأتباع تمغاج . فاتجه السلطان للانتقـام من طغرل والانتهـاء من
مشكلته . وقصد تلك الديار في مطلع شهور سنة تسعين وخمسمئة . فمثـل
لخدمته إينانج مع أمراء العراق حتى سمنان ، معبراً لـه عن تقصيره السابق
مبيناً خجالته وندامته ، وطالباً المغفرة . فمنحه السلطان عفوه وعطفه . وأعاده
معه في مقدمة الجيش نحو العراق . أما طغرل فقد أعد جيشاً جراراً لجباً
طوله ثلاثة فراسخ قرب الري ، واستعد للمجابهة ، وألوى عنـان المقاومة ،
وحين دنا إينانج عبأ جيشه كذلك ، وارتدى بزة الحرب . وكان لدى السلطان

---

(1) هو محمد خوارزمشاه الشهير، تلقب بعد موت أبيه باسم « علاء الدين » (المحقق) .
وهو ابن السلطان تكش ، وأصغر من ناصر الدين (ت) .

(2) هذا البيت لأبي العلاء المعري يخاطب به أهـل بغداد ، وهو من أبيـات سقط الزند . وما ذكرناه رواية الديوان . أما رواية الجويني فهي :

فبئس البديل الشأم عنكم وأهلها

طغرل دبوس ثقيل يتباهى به ، فيهجم على الجيش عادة وهو ينشد هذه الأبيات من الشاهنامة :

« حين هجم مثل هذا الجيش الكثيف، اعترى وجوه الأبطال الاصفرار »

« لقد حملتُ اليوم الدبوس وجَرحتُ جرحاً ، رميتُ به الجيش أجمع »

« وزأرتُ زأرة من خلفهِ ، فغدا كأنه حجر رحىً تطحنهم طحناً »

لكنه في هذه المعركة وقع تحت رحى الفلك ، فدهست حبة حياته ، وجاءه اليأس عوضاً عن البأس ، إذ سقط عن صهوة جواده . فدنا منه قتلغ إينانج وهو على الأرض ، فحاول أن يتلافى ضربته بأن خبأ وجهه بالنقاب . لكن إينانج أدركه وناداه : أنت طلبي . وضربه ضربة وضع فيها كل جبروته ورهبوته ، فأطار دماغه المحشو كبراً ، فعادت روحه إلى بارئها ، فما نفعه دبوسه الكبير تجاه الفلك الدوار ، ولا أفاده صراعه في هذا الجيش الجرار . وحملوه على جمل ورموه قرب السلطان . فحين رأى خصمه على هذه الحالة سجد شاكراً لله ، وترجل عن جواده ، وعفر وجهه بالتراب . وأمر بأن يرسل رأسه إلى أمير المؤمنين الناصر لدين الله ببغداد ، وبأن تعلق جثته في سوق الري . حصل هذا في يوم الخميس في التاسع والعشرين من ربيع الأول سنة تسعين وخمسمئة . وأخذ شاعره كمال الدين والذي كان نديمه أيضاً ، وسيق إلى الوزير نظام الملك مسعود . وقال له الوزير : لقد كان لطغرل كل هذه القوة والمنعة ، ولكنه لم يصمد أمام طلائع جيش ملك الإسلام . فقال كمال الدين على البديهة :

« كان هومان أقوى من بيزن ، ولكن بدا عيبه حين أفلتِ الشمسُ »[1]

---

(١) هومان بطل طوراني نازل بيزن . وبيزن : أحد أبطال الشاهنامة وعاشق منيژه (ت) .

ولم يقم السلطان في الري طويلا ، بل توجه نحو همدان ، فاستخلص أكثر قلاع العراق بمدة وجيزة • فطمع أمير المؤمنين الناصر لدين الله[1] بأن يتنازل له عن العراق ، أو بعضها، فتتالت الرسل بين الطرفين•وحين لم يستجب السلطان للخليفة ، أرسل إليه وزيره مؤيد الدين ابـن القصاب[2] ، وحمّله خلعاً وأصنافاً من التشريفات • وحين بلغ الوزير « أسد آباد » استقبله أكثر من عشرة آلاف من أكراد العراق والأجناد العرب • فأصاب الوزير الغرور وقلة الاعتناء بأن نقل إليه رسالة الخليفة بأن الديوان العزيز يمنحه التشريف وعهد السلطنة ، ويوكل إليه أمر مصالح المملكة • والوزير بهذا العمل كأنـه قدم لتثبيت قضاء حقه • فاستقبله السلطان بتواضع جم ، ومشى إلى جانب جواد الوزير ، وخيلاء الملك والسلطنة باد على محياه ، ويغطي باستقباله هذا مكره وخديعته ، من غير أن يذيق أهل بغداد شيئاً من انتصاره • وعاد الوزير ذليلا بعد أن أراق وجه الخلافة ، والجيش يحفه ويودعه حتى دينور[3] ، وهكذا عاد مكسور الخاطر •

واتجه السلطان نحو همدان بحثاً عن المال ، فأرسل العمال والجباة إلى العراق يجمعون له الضرائب • كما فوّض أمور المملكة في العراق إلى الأمراء والأتباع • فمنح اصفهان إلى قتلغ إينانج •كما عين ابنه يونس خان على الري، ونصّب أتابكه ميانجق نقيباً على عسكره ، وأتم توزيعات أخرى على هـذا النسق • ثم قرر السلطان المظفر العودة إلى خراسان • وجاءه وهو في الطريق أن ملكشاه[4] أقضه المرض بسبب عفونة هواء مرو ، فأرسل بطلبـه • فحين

---

(1) حكم الناصر من (٥٧٥ ـ ٦٢٣) (ت) •

(2) هو مؤيد الدين أبو عبد الله محمد بن علي المعروف بابن القصاب (ابن الأثير ـ حوادث سنة ٥٩٠) •

(3) تمتد خرائب دينور على الطريق بين كنجاور وكرمانشاه (ت) •

(4) يعني ناصر الدين ملكشاه بن تكش (ت) •

وصل إلى طوس وتماثل للشفاء عاد فعينه على نيسابور ، ثم تابع مسيرته نحو خوارزم بعد أن عيَّن محمد إقطاعي على خراسان، وأخذه معه رفيقاً في سفرته.

وحين مضى شتاء سنة إحدى وتسعين وخمسمئة نوى غزو قاتر بوقو[1] خان فاتجه نحو سقناق. وحين بلغ السلطان جَنَد بكثير من الجُند فر قاتربوقو من أمامه حين بلغه نبأ اتجاهه نحوه ، فتعقبه السلطان . كان من بين جند السلطان قوم من أصل أوراني[2] ، وهم أعاجم أيضاً ، فأبلغوا قاتربوقو برسالة يطلبون فيها منه ألا يتراجع ، ويثبت في مكانه ، ويستعد للحرب ، لأنهم حين يلتقي الجمعان سيحمونه ويحاربون معه . فاطمأن قاتربوقو وعاد . وفي يوم الجمعة السادس من جمادى الآخرة من هذه السنة [3] اصطفت الجيوش ، وفجاءة خرج الأورانيون من وسط الجيش وأغاروا عليهم ، فانهزم جيش المسلمين ، وهلك كثير منهم تحت ضرب السيوف ، وكثير منهم هاموا في البوادي فأحرقتهم حرارة الشمس فماتوا عطشاً .

وعاد السلطان إلى خوارزم بعد ثمانية عشر يوماً ، وبينما كان السلطان مغموراً بأحداث المعركة اتجه يونس خان نحو العراق لوصول نبأ إليه بتحرك جيش بغداد نحو العراق ، فطلب عوناً من أخيه ملكشاه ، فتبعه أخوه نحو العراق تلبية لطلبه ، ولكن قبل وصول المدد إلى يونس خان هزمه جيش بغداد وغنم منه مالاً كثيراً. ووصل الأخوان إلى همدان ، وبعد أن أمضيا حيناً من

---

(١) يلفظ « قاتر » بالتاء وبالدال ومعناها العظيم والقهار . كما وردت بالياء « قاجر » . والاسم تركي ، يلفظه المغول وهو غير صحيح . بوقو بمعنى الغزال الذكر . وليس له علاقة بقادر العربي .

(٢) الأورانيون : اسم قوم من الترك .

(٣) يعني سنة ٥٩١ هـ (ت) .

زمان معاً في القصف والحبور عاد ملكشاه ، وحين وصل إلى خراسان أناب
نائبه في شادياخ أرسلانشاه[1] واتجه لزيارة أبيه في خوارزم . وقد اضطربت
الأوضاع في نيسابور بسبب غيبته عنها ، سببها رجال خبثاء كانوا مغلولي
الأيدي عن الظلم والجور منذ أيام السلطان سليمان[2] . فسلوا سيوفهم من
قرابها ظلماً وجوراً بتحريض من سنجر شاه بن طغانشاه الذي كان السلطان
قد رباه وأولاه رأفته وعطفه كأولاده لسببين : الأول لأن أمه كانت زوجة
السلطان . (والثاني)[3] لأن أخت السلطان تبعت ابنته في مؤازرة سنجر شاه
في ثورته لسوء حظه ونحوس طالعه ، فرفع عصا العصيان ضد السلطان، ساعياً
إلى بقاء الأمر سراً حتى يتمكن من الأمر . وآزرته أمه[4] في ثورته، وأرسلت
من خوارزم إلى نيسابور ذهباً وجواهر ليشتروا بـه ضمائر أعيان البلدة ،
ويسكتوا عن الحق ، غير أن سرها كشف وافتُضح أمر ابنها ، فاستدعي
سنجر شاه إلى خوارزم ، وأوقفوه بعد أن عميت عينا الدنيا عنه من غير أن
نعمى تماماً ، لكنه نفى كل شيء نسب إليه . وله هذه الرباعية[5] :

« حين أغمضت الدنيا عيني ، علا صراخ من العالم الفتيّ »

---

(١) أرسلانشاه بن ملكشاه (ت) .
(٢) يعني تكش . والمقصود أن هذه الجماعة معادية لتكش ومؤازرة لسنجر (ت) .
(٣) لم يذكر الجويني الرقم ولم يشر المحقق إلى سقطه (ت) .
(٤) أي أم سنجر وزوج السلطان (ت) .
(٥) من عادة الجويني أن يذكر كلمة رباعية (بيتان) ولكنه يكتفي بذكر بيت واحد (المحقق) . لعل ذلك إشارة إلى العمى ، إما أنهم وضعوا الميل في عينيه من غير أن يفقد كل بصره ، وإما أن ضعف البصر جاءه من إقامته في السجن ، والسياق يدل على الميل ولكن من غير عمى كامل (ت) .

وبعد حين من الزمان توسّط له الأمراء وأركان الدولة ، وأصلحوا ذات البين للقرابة الوطيدة بينهما ، فأخليت ساحته ، وأعيد إلى إقطاعاته التي كان يحكمها ، واستمر الأمر على هذا المنوال حتى جاءه الأجل الموعود في شهور سنة خمس وتسعين وخمسمئة ، بعد أن زال أثر الميل عن عينيه ، وهو نفسه لم يخبر أحداً عنه ، مهما كـان مقرباً إليه ، صابراً على الخير والشر الذي كـان يعتريه ، والعاقل تكفيه الإشارة .

واستعد السلطان للحرب بعد وفاة سنجر شاه ، فأخـذ بترتيب آلات الحصار ، وأمر الأمراء بالمثول بين يديه، ليتلافى كل تقصير . وفي هذه الأثناء بلغه اختلاف أمراء العراق فيما بينهم ، وبسبب خلل أصاب عيني ابنه يونس خان ، ومعالجة هذا الخلل متعذر ، وقد قال تعالى : « العينُ بالعين » اضطر إلى أن يعود إلى الري[1] ويُنيب مَيانْجق منابه . كما تجهز جيش برئاسة وزيره لغزو العراق . فقدم قتلغ إينانج إلى الري لنجدة ميانجق . وأمضى الاثنين أياماً معاً ، وبغتة قتل ميانجق قتلغ إينانج ، وأرسل رأسه إلى خوارزم بحجة أنه خالفه في رأيه . فتضايق السلطان كثيراً من هذا العذر الشنيع والعذر الظاهر ، وأيقن أن الإمارات شرعت في عصيانها، لكنه لم يشأ التصريح عن ذلك، وأخيراً، في سنة اثنتين وتسعين وخمسمئة[2] قرر الذهاب إلى العراق ، ولا سيما أن الوزير بلغ بجيش الخليفة بلدة همدان . فنزل السلطان في «مزدقان[3]» .وبعد نزال دام عدة أيام طلب جيش الخليفة الأمان ، وجرياً على عادة السلطان فقـد

(١) لأنه حاكمها (ت) .

(٢) بياض موضع السنة ، أضافه المحقق من ابن الأثير ، حوادث سنة ٥٩١ . ولعل الصواب هو ٥٩٢ .

(٣) تقع آثار مزدقان غربي ساوه (ت) .

الأمان ، وأعاده إلى بلاده معززاً مكرماً ، ولكن قبل بدء القتال مع الجيش ، فكتم رجاله سر موته • بل إنهم حتى حين انهزموا لم يعلنوا عن وفاة الوزير ، بل قطعوا رأس الوزير الميت وأرسلوه إلى خوارزم ، ولا شك أن هذا عمل غير لائق ، ويسيء إلى سمعة السلطان •

وقد شاعت أنباء انتصار السلطان في العراقين ، فعلا مقامه أكثر مما كان• وقد وفد عليه من آذربايجان الأتابك أوزبك هارباً من أخيه • فأعزه السلطان وأكرمه ، وعينه على همدان ، ثم انصرف السلطان من هناك إلى إصفهان ، حيث أقام فيها ردحاً من الزمان • وهذه القطعة للخاقاني[1] مناسبة :

«بشرى لقد حظي ملك الجيوش خوارزمشاه، بالعراق وكذلك خراسان»

« انتشرت رايته الضخمة فوق الفلك، كما نالت ظُبا سيوفه ملك سليمان»[2]

ثم انصرف بعد حين ، بعد أن عين على إصفهان ابن أخيه أربوزخان[3] ابن تغان تغدي[4] ، وعين بيغو سبهسالار[5] الساماني ، والذي كان من خواصه، أتابكاً عليه • وحين بلغ خوارزم أرسل منشور تفويض ابنه ناصرالدين ملكشاه على خراسان، وأمره بأن يجتنب الذهاب إلى مرو لأن طقسها لايناسبه، فانتصح برأيه في باديء الأمر، إلا أنه عاد فذهب إليها، فوقع في المرض فيها ، فعاد إلى نيسابور • لكن المرض ظل حاطاً على كاهله حتى أنهكه فرحل عن الدنيا في

---

(1) وتنسب كذلك إلى كمال الدين اسماعيل (ت) •
(2) يريد بالبيت الأخير أن بلاده غدت واسعة (ت) •
(3) وهو عند الكاشغري : إروز (ت) •
(4) تغان تغدي بالتركية : النسر الوليد •
(5) سبهسالار بالفارسية : قائد الجيش (ت) •

ليلة الخميس التاسع من ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين وخمسمئة. وحين بلغ النعي إلى السلطان بكى جزعاً من غير جدوى . ولما كان أبناء ملكشاه على غير وفاق مع السلطان فقد أرسل نظام الملك صدر الدين مسعود الهروي إلى شادياخ ليضبط الأمور ويتدارك المختلات . على أن يرسل كبير أبناء ملكشاه وهو هندو خان إلى خوارزم ، ويتابع تهدئـة الفتن ويرتق حادثات الزمان .
وأرسل عقب الوزير ابنه الآخر قطب الدين محمد[1] ليتدبر مصالح خراسان. وحين وصل إليها كان الوزير قد فرغ من مهمته تماماً ، وبعد يومين ، أي في الثاني من ذي الحجة عاد إلى السلطان ، بينما شغل قطب الدين بإدارة البلاد مُبدياً كل كفاءة . حتى وقعت الجفوة بين قادر بوقو وابن أخيه ألب درك، فجاء ألب درك إلى جَند ، وبعث بالرسل إلى السلطان يعلمه أنه مستعد ليخلصه من قادر بوقو إذا أرسل إليه مدداً ، وسيسلمه ملكه . فغلت ثورة الغضب في عيني السلطان ، مستجيباً لطلب الغرباء ، وفوراً أرسل الرسل إلـى الأطراف تأمرهم بتجهيز الجيوش ، كما استدعى الملك قطب الدين من شادياخ إلـى خوارزم . وفي ربيع الأول سنة أربـع وتسعين وخمسمئة خرج الجميع مـن خوارزم[2] . في حين أن قادر بوقو تقدم نحو جند قاصداً حرب ألب درك . وكان وصوله إلى جند موافقـاً تماماً لوصول قطب الدين ، ومناسباً للحظ السلطاني . فتصادم الطرفان فانهزم قادر بوقو ، وتبعه قطب الدين حتى جيء بـه وبأعيانه وأجناده مقرنين في الأصفاد ، فساقهم إلى حضرة السلطان مغللين في شهر ربيع الآخر من هذه السنة. بينما عاد الأمراء المظفرون إلى مقر أعمالهم.

---

(١) هو نفسه الذي سيحكم بعد أبيه باسم علاء الدين خوارزمشاه .

(٢) ولم يذهب السلطان معهم (ت) .

فلول جيش قادر بوقو فحين يئسوا من ظفر قائدهم آبوا إلى « كنار درك »[1] والتفوا حوله واتفقوا معه على إثارة القلاقل والفتن .

وقد أدرك السلطان أن الحديد يفلح بالحديد[2] ففك قيد قادر بوقو ومنحه الحرية بعد الأسر والإمارة بعد الذل ، وبعد أن أخذ عليه المواثيق والعهود أرسله بجيش كبير ليتدارك ثورة درك . بينما عزم السلطان على زيارة خراسان . وفي يوم الثلاثاء الثاني من ذي الحجة سنة أربع وتسعين وخمسمئة نزل شادياخ . ومن هناك ، بعد ثلاثة أشهر ، قرر إنهاء أمر ميانجق الذي طال أمده في إمارة العراق ، وشرع يميل إلى الاستبداد في الحكم والاستقلال في الرأي، حيث أوهمه الشيطان بأنواع من التخيلات، بما تهيأ له من قوة ودولة. واتجه نحو العراق ، لكنه توقف في مازندان ليمضي فيها شتاء تلك السنة . واستعد السلطان لحربه في مطلع الربيع . وكان ميانجق نفسه قد أعد جيشاً ضخماً ، لكنه حين سمع بجيش السلطان كأنه البحر الهادر اعتراه الهلع ، فندم على ما فعل ، ولم يجد وسيلة إلا الهرب بفلوله حول العراق ، وإرسال الوفود تلو الوفود ترجو لـه العفو والمغفرة . لكن السلطان حين أيقن اضطرابه ووهنه ألحق به فوجاً من العسكر ، طاروا خلفه كالريح . حتى إذا كبسوه وضعوا السيف في رقاب أعوانه . فلم يثبت في المعركة ، بل انسل مع فئة غير مظفرة من رجاله ودخل قلعة « فيروز كوه »[3] ، التي كان قد استولى عليها

---

(1) يتضح من سياق الكلام أن ألب درك وكنار درك شخص واحد (المحقق) . في حين أن النسخة الانكليزية تزعم أن كلمة كنار مركبة من Kun التركية . بمعنى الشمس واللاحقة er بمعنى الرجل (ت) .

(2) في مجمع الأمثال – باب الهمزة : إن الحديد بالحديد يفلح .

(3) قلعة مشهورة كانت مبنية على سفوح جبل دماوند ، وهي غير فيروزكوه في بلاد الغور . والاسم فارسي معناه : جبل الانتصار (ت) .

من ضباط السلطان بخداعه ومكائده ، ثم قتلهن أجمعين . ثم مكّن أصحابه منها فاستولوا على ذخائرها وأموالها . حتى إذا وصل جيش السلطان أكملوا حصارهم للقلعة ، وضربوها بالمجانيق حتى قهروه وأخرجوه من القلعة جريحاً ثم قيدوه على جمل ونقلوه إلى قزوين ليمثل بين يدي السلطان . فعدد السلطان ـ على لسان الحجاب ـ أنواع الصنايع والأيادي التي أنعم بها عليه ، لكنه خان هذه النعم ، وامتنع عن دفع الضرائب ، وأزعج أربز خان في إصفهان ، وطرد عمال الخراج . وأعلن السلطان أن جزاءه على كل هذا شديد النكال ، غير أنني ، إكراماً لأخيه أقجه الذي لم يقصر في حقي مطلقاً فلن أقطع رأسه ، وأكتفي بسجنه مع القيد مدة عام ، وبعد ذلك عليه أن يمضي بقية عمره في ثغر من ثغور الحرب على أطراف جَنْد .

وجاءته الأنباء ، بعد هذا النصر ، بخبر انتصار قاتر بوقو على كنار درك ، أما النبأ السعيد الثالث الذي ورد عليه فهو ورود الرسل من دار الخلافة تمنحه التشريفات وتقدم له الصلات ومنشوراً يقضي بحقه في سلطنة ممالك العراق وخراسان وتركستان .

وبعد أن اطمأن على أوضاعه نهض ليقطع دابر الملاحدة ، فاتجه نحو القلعة القاهرة ، التي كان السلطان أرسلان بن طغرل قد فتحها ، والتي دعيت ، وبلا سبب « قلعة أرسلان كشاي »[1] . وحاصرها السلطان مدة أربعة أشهر ، ولم يدعها حتى هدمها وتصالح مع أميرها . ثم اتجه نحو «ألَموت» فاستسلمت له . تقع قلعة أرسلان كُشاي قرب قزوين على حدود نهر ألموت ، قريبة من الأرض وبعيدة عن السماء . وهي قليلة التحصين وقليلة الرجال . يذكر

(١) قلعة أرسلان كشاي : أي التي فتحها أرسلان (ت) .

سيد صدر الدين في زبدة التواريخ السلطان[1] معظماً عمله في وصف هـذه القلعة : « وهي قلعة حصينة ، بنيت من صخرة صماء على قلّة شمّاء ، تناصي السماء وتناطح الجوزاء ، مشحونة برجال يغتنمون بذْل الأرواح ، مستظهرين بأنواع السلاح »● • ولو أن سيد صدر الدين اطلع على فتح هذه القـلاع الحصينة في هذه الأيام على يد جيش هذا الملك العلم بمدة وجيزة ، وشاهـد بأم عينه كيف فتحت وكيف غدت لاعتراه الخجل ولمني بالحيـاء • وبيت العنصري يوضح ذلك :

« هكذا تكون الأعمال العظيمة عندما يتهيأ لها العظام ، هكذا تبدو آثار سيوف الأكاسرة »

والمرء إن لم يشاهد هذه القلاع لم يصدق الوصف ، ولاعتقد أن ذلـك من الخيال • وتأييداً لكلام واصف قلعـة « أرسلان كشاي » ما جاء بـه أبو الفضل البيهقي في كتابه « تاريخ ناصري » ؛ فحين عـاد السلطان مـن « سومنات »[2] اصطاد أحد الصيادين ثعباناً ضخماً ، فقشروا جلده فكان طوله كزاً[3] وعرضه أربع كزات • والغرض من ذكر هذه الحكاية أن أبا الفضل يقول : إذا لم يصدق أحد كلامي فليذهب إلى قلعة غزنين ويرى ذلك الجلد معلقاً على الشادروان[4] • ويقول جامع هذه الحكايات[5] أيضاً : لم يبق من هذا الجلد سوى الحكاية •

---

(1) يعني السلطان أرسلان بن طغرل وليس السلطان تكش • وتوجـد نسخة من زبدة التواريخ في المتحف البريطاني •

(2) سومنات : معبد هندوسي ضخم ، كان موجوداً في السند قرب Kathiawar هدمه السلطان محمود الغزنوي في إحدى فتوحاته في الهند (ت) •

(3) كز : وحدة قياسية فارسية مقدارها ستة عشر ذراعاً (المعجم الذهبي) •

(4) شادروان (وبالذال المعجمة) السرادق • ولـم نجـد هـذه الحكاية في الكتاب المذكور (ت) •

(5) يعني جويني نفسه (ت) •

وتمتد غرباً من طارم● إلى حـدود سجستان بمسافة ثلاثمئة فرسخ مجموعة من الجبال والقلاع الراسخة في مكانها حتى يحين حكم « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » ، وإلى ذلك الحين تبقى مطمح الأنظار . وسيلقى الرائي أن كل حصن حصين من هذه أحكم مئة مرة من حصن «أرسلان كشاي» والتي فتحت وذللت في عهد هولاكو الجبار بعون الله القهار في هذه الأيام .

وعلى أية حال فإن السلطان بعد أن ذلل تلك القلعة ، وأخمد فتن العراق عيَّن ابنه تاج الدين عليشاه على إصفهان بعد أن مكنه من الحكم ، وعاد السلطان إلى خوارزم ، حيث وصلها في العاشر من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وخمسمئة . ولما أدرك الملاحدة أن خصومة السلطان ضدهم كانت بتحريض من وزيره نظام الملك[1] ، فقد كمن له في طريقه بعض الفدائيين ، حتى إذا برز من باب قصره هجم عليه أحد الملاعين فطعن الوزير في ظهره ، وأتبعه الآخر بجرح في رأسه بسكينه فمات لوقته . ومن عجائب الزمان أن الوزير المذكور كان على عداوة مع الحاجب الكبير شهاب الدين مسعود الخوارزمي وحميد الدين عارض الزوزني ، وكان يكيد لهما في هذه الأيام لدى السلطان. وقبل حادثة الاغتيال قطع رأس عارض في القصر . وكان هم نظام الملك أن يُلحق شهاب الدين مسعود به . لكن الزمان الغدار استبق مسعى نظام الملك، فقبل أن يصدر الحكم بذلك الرجل سفك الفدائيون دم الوزير بدم عارض . وقد قـتل القاتلون فوراً في مكان الجريمة ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله « قَتلتَ فقُتلتَ وسيُقتل قاتلك » . فتأثر السلطان تكش كثيراً لهذه

(١) بالطبع هو ليس نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي الذي اغتاله الملاحدة كذلك سنة ٤٨٥ أي قبل أقل من مئة سنة (ت . وانظر تفصيلا عنه في كتابنا حول الأدب في العصر السلجوقي : ٥٣) .

بجريمة ، فقرر الانتقام لوزيره • وقد اختار لهذه المهمة قطب الدين ، فأرسل إليه رسولاً يطلب إليه البدء بإعداد الجيش ، علـى أن يباشر بقهستان[1] • استجاب قطب الدين لأمر السلطان ، فاتجه نحو « تُرشيز »[2] ، وشُغل بمحاصرة قلعتها بجيش ، لم يطأ هذا الجبل قبل ، مدة أربعة أشهر • ولما كان خندق القلعة عميقاً فقد ملأه ، وكاد يحتله ـ بعد أسبوع • أما في خوارزم فإن السلطان جمع جيوشه من الأطراف ، وأعد العدة لنجدة ابنه • وفي هذه الأثناء أصيب السلطان بعارض دموي ، ثم تحول إلى خنّاق ، نعوذ بالله • فتسارع الأطباء لإسعافه ، فنصحوه بعدم الحركة والسفر ما دامت صحته سيئة • لكن السلطان لم يستجب لنصيحتهم لغضبه ، فسافر بجيشه • لكنه حين وصل إلى منزل « بئر العرب » كان دلو حياته قد سقط في القاع ، فقد انتكست صحته واشتدت ، ثم فارق الحياة في التاسع عشر من رمضان سنة ست وتسعـين وخمسمئة • فأرسل أعيان الدولة إلى قطب الدين يُعلمونه بالفاجعة • ومـن عجب أن راية الملك قطب الدين انكسرت بلا سبب وقلبت ، فتطير الملك من ذلك • ثم جاءه النعيُّ ، فأخفى الأمر على الجيش ، وأمر بالعودة فوراً متعللاً بالمرض • وكان السفراء بين الطرفين تتوافد ، ويتحدثون بأمر الصلح • ولـما لم يعلم قواد ترشيز بسر الموت فقد بذلوا مسعاهم لإرضائه ، على أن يدفعوا له مئة ألف دينار • وعاد الملك قطب الدين من هناك مسرعاً كالسيل المنحدر والمطر المنهمر ، يصل ليله بنهاره ، حتى بلغ بوابة « شهرستانه » ، فجلس فيها للعزاء ، ثم عجّل مسيره نحو خوارزم •

---

(1) قهستان : معناها المنطقة الجبلية ، كانت اسمـاً للمنطقـة الواقعة جنوبي نيسابور (ت) •

(2) ترشيز : ما زالت تحمل اسمها ، وهي مقاطعة إلى الغرب من تربة الحيدري •

ذكر جلوس السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه[1]

وحين حل بمركز الدولة ، اجتمع الأمراء وأركان المملكة وأحيوا مجلس طرب احتفالاً بذلك ، وأجلسوه على سرير العرش بيمن التأييد الإلهي في يوم الخميس العشرين من شهر شوال سنة ست وتسعين وخمسمئة . فتحولت أفنان الملك الذابلة إلى طرية غضة ، واستعادت روح العدل حياتها بعد عدم . وانطلق المبشرون سعداء يحملون البشرى إلى الأطراف . ولكن حين بلغ خبر موت السلطان إلى سلطاني الغور : شهاب الدين وغياث الدين وسوس لهما الشيطان خططاً ، وتهيأت لهما الآمال ، ونقشت في أدمغتهما تصورات مستحيلة ، وأغراهما بعض المقربين ، فلونت المشاطات العروسين بألوان من الغرور الإنساني ، فأعدا الجيوش التي اتخذت طريق مرو أولاً ، وعينا عليها محمد بن خَرَنْك[2] ، ثم قدما بجيش كثيف ، في مقدمتهم تسعون فيلاً ، كل واحد منها كالطود ، وابتدؤوا بطوس فأغاروا عليها ونهبوها ، ثم انتقلوا إلـــى شادياخ في رجب

---

(١) كان لقب علاء الدين محمد قبل جلوسه على العرش قطب الدين . وعلاء الدين لقب أبيه تكش أيضاً . انظر في ذلك ابن الأثير في حوادث سنة ٥٩٦ .

(٢) خرنك : اضطربت النسخ في نطق الاسم ، وما ذكرناه أكثر احتمالا لأنه من الأسماء المعروفة في الدولة الغورية . وقد ورد في طبقات ناصري المطبوع في كلكتة « حرنك » بالحاء المهملة . بينما ورد عند ابن الأثير في حوادث سنة ٥٩٤ و ٩٦ و ٩٨ جربك بالجيم والباء الموحدة .

سنة سبع وتسعين ، وكان عليها محمد عليشاه أخو السلطان بعد أن عاد من العراق وعدد من أركان الدولة . ووقف من ورائها السلطانان (شهاب الدين وغياث الدين) يطوفان حول أسوارها ، بينما وقف الناس من الداخل ومن على الأبراج ينظرون إلى الجيش القـادم . وفيما كانوا كذلك سقط البرج المقابل للسلطانين فاستبشرا خيراً ، فأغار جيشهما على المدينة وغنموا منهـا واستولوا عليها ، بينما أرسلا الشحنة إلى منازل الزهاد والعباد ليحموهم من شر الأذى . وشغل الجيش بجمع الأسلاب حتى منتصف النهار . ثـم خرج المنادي يأمر الجنود بكفّ أيديهم عن الإغارة ، وكان الجيش في غاية الطاعة، إذ ما إن سمع صوت المنادي حتى توقف عن غارته ، ورمى ما كان بيده . ثم جمع الجيش ، ودُعي الناس فمن تعرّف إلى قماشه أخذه ، لأن الغرض من هذه الإغارة سياسي وحسب . وأخرج من المدينة جيش خوارزم مـع تاج الدين عليشاه وأركان إمارته وأعيان المدينة ونُكل بهم شر تنكيل وعوقبوا وأهينوا ، ثم سيقوا إلى دار الملك الغورية . وصادروا أموال كل من كان يعمل في الديوان . وأرسلوا الشحنة ووزعوهم حتى جرجان وبسطام ، ليضبطوا أمور البلاد ثم عادوا من هناك بعد أن عينوا الملك ضياء الدين في نيشابور مع جيش كامل . وأعادوا بناء البرج المتهدم . واتجه غياث الدين نحو هراة ، بينما اتجه شهاب الدين نحو قهستان لتخريب تلك الرباع واقتلاع هذه القلاع التي يتحصن فيها الملاحدة . وبعـد حرب شديدة أطاع لهم سادة « جُنابِد »[1] واستجابوا للمصالحة ، فعين عليها قاضي تُنَك[2] . ثم اتجه نحو هراة .

---

(1) وتدعى اليوم جناباد (ت) .
(2) تنك : مدينة ما زالت تحتفظ باسمها ومقامها إلى الشرق من هراة (ت) .

حين سمع السلطان محمد بخبر اضطراب الأوضاع في خراسان ، وهو في خوارزم ، ثارت ثائرته ، فأعدَّ جيشاً جراراً بسرعة البرق . فوصل إلى ظاهر شادياخ في السابع عشر من ذي الحجة من السنة المذكورة[1] ، وأحاط بها ، فخرج منها الغوريون واحتربوا معه . لكنهم أدركوا أن حربهم بلا جدوى لقوة جيشه وجلادته ، فهربوا كالفئران تلوذ بأوكارها . واشتغلت المجانيق من خارج المدينة ، حتى هدموها ، فردموا بها الخندق . وحين رأوا أنهم سيقعون في ذل الأسر بعثوا رسلهم يتوسطون ، وشفع العلماء والمشايخ لهم ، فضرعوا إلى السلطان يطلبون لهم الأمان . ونظر السلطان إليهم نظرة « إذا ملكت فأسجِحْ »[2] فعفا عن زلاتهم بل منحهم الأموال والعطايا الجمة وأرسلهم إلى سلطان الغور ، ليدرك شيمة العفو عند المقدرة ، وطريقة الحلم والإغماض على كثرة الضغائن والإحن . ثم أمر السلطان بأن تُهدم أسوار المدينة تماماً .

ومن هناك اتجه نحو مرو وسرخس حيث كان عليها هندوخان ابن أخيه من قبل سلاطين الغور . وحين بلغه قدوم عمه عمَّه الغم فاتجه بنفسه نحو الغوريين . وحين بلغ السلطان سرخس لم ينزل إليه حامي القلعة ، فوضع السلطان عليه من يحاصره حتى يستجيب إليه ويُسلم القلعة . بينما عاد السلطان إلى خوارزم عن طريق مرو ، وكرر تهديمه لأسوارها . وفي ذي القعدة من هذه السنة[3] قفز نحو هراة ليُذلَّ سادتها ، فنزل في « مرغزار رادْكان » ،

(1) يعني سنة ٥٩٧ .

(2) أصل المثل : « ملكت فاسجح » كما في مجمع الأمثال باب الميم . والإسجاح : حسن العفو (ت) .

(3) أي سنة يعني ؟ محال أن يقصد ذا القعدة من سنة ٥٩٧ ، لأنه ذكر قبل سطور أن خوارزمشاه حاصر شادياخ في ١٧ ذي الحجة سنة ٥٩٧ ثم اتجه نحو خوارزم ومن هناك تحرك إلى هراة . فعلى الأقل يقصد ذا القعدة من سنة ٥٩٨ .

حيث جمع جيشاً كبيراً من التازيك والترك ومنها اتجه نحو هراة وأحاط بها كالسوار في الساعد ، فكنت ترى الخيمة بلصق الخيمة • واشتغلت المجانيق من الطرفين فغدت البروج ذات فروج والأسوار ذات شعاب • ولما كان حامي القلعة عز الدين المرغزي رجلاً ذا تجارب ، أسعفته بها الأيام لم يجد سوى طلب الأمان والتضرع • فأرسل رسله فغنم من السلطان مالاً عظيماً • كما أرسل إليه ابنه وثيقة إلى السلطان لتهدأ ثورته وتتؤمن غضبته ، ويعفو عن الرعايا ، ويغضي عن قطع الأعناق فتكون له المنّة عليها ، وكذلك كان •

واستعد سلاطين الغور بقوة أعظم للعودة إلى خراسان ، وبينما كان السلطان يحاصر مدينة هراة انتهزوا فرصة خلو الديار من السلطان ومن رجاله، فتوجهوا بجيوشهم نحوها • وحين سمع السلطان ذلك أفل عن طريق مرو الروذ • ووصل كذلك السلطان شهاب الدين من جانب طالقان • وقد رأى السلطان محمد من الخير له ألا يعبر النهر ، لتكون المياه حاجزاً بين الجيشين ، لكن اختلفت الآراء وتعارضت ، بل عبر بعضهم الماء • فحين لم يجد السلطان رغبة في المقابلة رأى أن يتجه نحو مرو ، فتبعه سلاطين الغورية • لكنه توقف عند سرخس ، وراسلهم فطالبوه بتسليم بعض ولايات خراسان ، إلا أنه أنف ذلك ، فاتجه من سرخس نحو خوارزم • وتحول السلطان شهاب الدين بجيشه نحو طوس ، فحلت اللعنة على سكان طوس ، إذ أمر بالمصادرات والإهانات • ولما كانت أعلافه غير كافية أمر الرعايا أن يبيعوه أغلالا ، وإلا فإنه سينقل تربة مشهد طوس[1] • فنفر منه الناس وتضايقوا ، إضافة إلى ما فعل بهم في بادىء الأمر ، فمالوا عن حكومته ورغبوا في حكم خوارزمشاه •

(1) طوس : عاصمة خراسان ، وهي الآن في الشمال الشرقي من إيران • فيها مرقد الإمام الثامن، ولذا دعيت مشهد الإمام الرضا• ثم تحول اسمها إلى «مشهد»(ت)•

وفي هذه الأثناء وصل إليه خبر وفـاة أخيه غياث الدين ، فقرع طبل العودة . وحين وصل إلى مرو أقدم محمد بن خرنك ، الذي كان من أمـراء الغور وشجعانهم ، وهاجم أبيورد هجوم البطل رستم[١] ، فأسر بعض أمراء السلطان ، وقتل بعضهم . وقصد من هناك تاج الدين خلج في طرق ، فأرسل إليه ابنه رهينة . وفي طريق عودته أرسل إليه أمير « مرغة »[٢] ابنه أيضاً . فأصابه الغرور من جراء هذا النصر ، فاتجه نحو مرو ، وكان قد وصله نبأ قدوم جيش من خوارزم ، وهو الآن في سهول مرو ، فاتجه لمحاربته . وحين التقى الجمعان هبت الرياح الربانية لصالح الحظ السلطاني ، فارتجف الخصوم . ومع أن جيش خوارزمشاه أقـل من نصف الجيش الغوري ، فـإنهم حملوا عليهم ، وهزموا جيش ابن خرنك ، وبألف حيلة تمكن من الهرب إلى المدينة . فلحقه الجيش وتمكنوا من القبض عليه . وخوفاً من مصاولته ضربه أحـد الأمراء وأرسل رأسه إلى خوارزم ، فأخفى السلطان نبأ قتله . وحين وصل نبؤه إلى السلطان شهاب الدين تريث يفكر بأوضاعه ، ويتصدى لعجزه وضعفه ، لأن ابن خرنك كان من زمرة سلاطين الغور ، ويحميهم في الحروب . وكانت قوته قوية ، حتى إن سلاطين الغور كانوا يواجهونه بالأسد والفيـل فكان ينتصر عليهما دائماً ، وفي النهاية قتلهما . وقال (السلطان) : وهكذا قتل بين أيدي حفنة من الكلاب والخنازير في حرب الشؤم هذه .

ولما تهيأ النصر على يـد حشم السلطان فإن أركان دولته أغروه بفتح هراة[٣] ، فتزين ذلك للملك في عينيه وقلبـه . وقالوا له : لأن أخـاه الأكبر

(١) رستم : بطل أبطال الفرس في الشاهنامة (ت) .
(٢) مرغة : يبدو أنها كانت قلعة مرو .
(٣) وكانت هراة من ضمن مملكة الغوريين (ت) .

[غي]اث الدين رحل من ديار الدنيا ، وأولاده في نزاع بسبب الملك والميراث ، وأكثر الأمراء ميالون إليه (إلى السلطان) راغبون في الانضواء تحت رايتـه العالية . فمال السلطان شيئاً فشيئاً إلى رأيهم ، ولا سيما أنه تمثل كثرة المال والجـاه . وفي جمادى الأولى سنة ستمئة جهز جيشاً فيه كثير من الرجـال الشجعان وتوجه به نحو هراة . وكان عليها ألب‌غازي أحد زعماء أمراء الغور . حتى إذا حاصرها شرع يدكهـا بالمجانيق ، فكانت الحجارة تمطـر الأبراج والمدينة والأسواق كالبَرَد الهاطـل من السماء ، حتى تعذرت علـى الناس الحركة فيها ، فراحـوا يستغيثون ويتضرعون . فاضطر ألب غازي إلى طلب الصلح ، فذهب إليه بنفسه وعرض عليه المصالحة الكلية ، لتحسين العلاقة ، وعدم مهاجمة أحد منطقة خراسان ، وعدم إيذاء أي كان من رجاله . فوافق السلطان على هذه الشروط إضافة إلى المواثيق المالية الكبيرة ، والتعهد بإعادة الصفاء بين السلطان وسلاطين الغور لحسم النزاع وإنهاء البغضاء ، والحفاظ على دماء المسلمين وحرماتهم . فسر السلطان أيما سرور بمقترحات ألب غازي وسكان هراة،فحفظ لهم المودة ووقاهم من إتلاف الأموال وإزهاق الأرواح. فقبَّل ألب غازي التراب في حضرته وعفَّر به جبهته شكراً فأعاده السلطان معززاً مكرماً إلى أهل المدينة. فباشر بجمع الأموال التي تعهد بتسليمها إلى السلطان من الشعب . لكن حين علم السلطان أنه يجور على العباد أمره بالنَّصفة وعدم الاستبداد ، ورأى أن يتنازل عن جمعه للمال ويعفيه من شرطه هذا .

ثم أغار على حدود بادغيس[1] هو وجيشه ، فغنم من إغارته كثيراً . ثم قدم السلطان إلى مرو ، ومن هناك صرف ألب غازي الذي تعهد بإصلاح ذات البين مع السلطان شهاب الدين ، لكنه توفي بأجله الموعود بعد انصرافه من عند السلطان بيومين أو ثلاثة أيام .

---

(١) كانت بادغيس مدينة مشهورة ، وهي اليوم مدينة ومقاطعة في افغانستان ، تقع شمالي هراة ، ومتاخمة لتركمانستان (ت) .

واستعد السلطان شهاب الدين للانتقام، واتجه هذه المرة صوب خوارزم، وحين بلغ السلطان هذا النبأ اهتم للأمر كثيراً واتجه نحـو سهول خوارزم، فسبق الجيش الغوري الذي كان عدد النمل والجراد إلى عاصمة بلاده • فأعلم السكان بقدوم الجيش، ونبههم بدنو حلول بلاء مفاجىء • فاجتمعت كلمة السكان وتحمسوا استعداداً، وإن كان الهلع يعتريهم بشكل ظاهر، كما أعدوا الأسلحة اللازمة من سيوف ورماح • وكان الإمام المعظم شهاب الدين الخيوقي صاحب الدين المكين والمقام الحصين يبالغ في إلهاب حماسة الشعب وضرورة تدارك هجمة العدو الغاصب، وكان يخطب فيهم على المنابر ويحثهم على الجهاد عملا بالحديث الصحيح « مَن قُتل دون نفسه وماله فهو شهيد » • فتضاعفت همة السكان، وتقوت بهم الأركان، وأرسل السلطان رسله السريعة إلى خراسان والأطراف يطلب منهم أن ينفذوا المشاة والفرسان • كما طلب مدداً من كورخان • ثم عسكر على ضفاف نهر « نوراور »● ، وبأيام معدودات اجتمع لديه سبعون ألفاً من خيرة الرجال • أما جيش الغور فكان مجموعة من الجيوش مع عدد كبير من الفيلة، واستعدادات هائلة تتجمع على الشاطئ الآخر من النهر، وكأنه صحراء واسعة، أو نهر زاخر بالأمواج[1] • وأمر سلطان الغور بأن يصنعوا معبراً للنهر ليعبروا عليه ويكدروا عيش السلطان • وشغل سلطان الغـور بالاستعدادات للحرب وبتجهيز الفيلة وإلهاب حماس الرجال طيلة الليل حتى الصباح •

وبغتة وصلهم نبأ وصول طاينكو طراز[2] قائد جيش القره ختا مع جيش

---

(١) إذا أراد المؤلف وصف نهر كبير قال عنه جيحون، ولهـذا اضطرب المعنى في النسخة الانكليزية (ت) •

(٢) كلمة (طراز) : اسم مدينة قديمة على ضفـة نهـر طراز، وتدعى اليوم جامبل (ت) •

كالنار ، يرافقه سلطان سلاطين سمرقند . حين علم أصحاب الفيل[1] أن رب الأرباب دلهم وقعوا في تضليل ويئسوا من الحرب ، فأغمدوا سيوفهم وأسرعوا في انصرافهم ، بل في هربهم خائبين منخذلين ، على المثل :

ماذا بعشِّكِ فادرُجي   عن منزلٍ بِـكِ نابِ[2]

فأمر الملك بنقل الأثقال ليرحلوا ليلا ، يسوقون أمامهم خيلهم وجمالهم وهم في غاية الضلال والغي . لكن السلطان لم يمهلهم فتعقبهم كالأسد الهصور والفحل الغيور حتى بلغ « هزارسف » . وهناك حمل جيشه على ميمنة الجيش الغوري فنكس أعلامهم وأسر أمراءهم وشتت باقيهم في المهامه والفيافي « كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران » . واستمر جيش السلطان خلفهم هائجاً كالفحل يتعقب الفرس حتى بلغوا « سيفاباد » ، حيث تركهم على فضيحتهم . وعاد السلطان مشمولاً برعاية صنائع اللطائف(الربانية) ومغموراً بلطائف الصنائع سائقاً أمامه الغنائم من الفيول والجمال والخيول والأموال ، يلهج بلسان الشكر في قوله تعالى : « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجَّل لكم هذهِ » . وأحيا السلطان حفلا كبيراً في خوارزم كانت فيه فردوس السمرقندية المطرِبة من ندمائه ، فأهدته من غنائها هذه الرباعية :

« يا ملكي لقد هرب الغوري منك خوفاً ، كفرخٍ يفرُّ أمام هر »

« ترجَّل من على فرسه وهرب ، فأعطاك فيلته ونجا من الموت »

وحين وصل الجيش الغوري إلى « أندخود »[3] رأى أن جيش الختا

---

(1) يشبههم المؤلف بالأحباش مع رئيسهم أبرهة الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل .. » (ت) .

(2) أصل المثل : « ليس هذا بعشك فادرجي » . انظر مجمع الأمثال في باب اللام ، ولسان العرب مادة : درج أو مادة : عشش .

(3) أندخود : مدينة هي اليوم في أفغانستان (ت) .

يترصد له . فأعمل الختائيون بهم السيوف والرماح من الصباح إلى الرواح ، فهلك كثير منهم . واستمرت المعركة دائرة الرحى حتى صباح اليوم الثاني . فكسر الختائيون رقبة جيشهم ، وصدموهم صدمة أزالت وجود أكثرهم ، ولم يبق من الخمسين ألفاً إلا القليل . وتمكن السلطان شهاب الدين بحيلة بارعة مع مئة من فرسانه أن يلوذ بالفرار ويدخل « أندخود » ويحتمي بالحصار . وتعقبه جيش الختا فثقبوا الأسوار ، وكادوا يدخلون عليه ويأسرونه لولا رسالة وصلت إليه من سلطان سمرقند يقول له فيها : « ما كنت أقبل ، من وجهة نظر الحمية الإسلامية ، أن يقتل سلطان مسلم بأيدي كفرة . فالخير لك أن تفدي روحك بكل ما تملك من فيول وخيول وصامت وناطق . وسأتوسط لك لديهم وأسترضيهم » . وقدم السلطان شهاب الدين كل ما يملك فداء لروحه ، إذ أفرغ لهم خزائنه ودور أسلحته . وتمكن سلطان سمرقند بعد كثير من المحاولات أن ينجيه . ولكن ، لات حين مناص ، إذ كان قد أسلم روحه إلى بارئها[1] :

إذا نحنُ أُبنا سالمين بأنفُسٍ ... كرامٍ رَجتْ أمراً فخاب رجاؤها
فأنفُسنا خيرُ الغنائمِ إنها ... تعودُ ، وفيها ماؤها وحياؤها[2]

حين وصل سلطان الغور خاوي الوفاض إلا من مئة ألف ذلٍ أرسل السلطان إليه أحد حجابه ، يذكره بأنه البادىء في هذه الوحشة ، والبادىء أظلم ، والآن سد طريق المناقشة وحيل مجال الموافقة . لكن السلطان

(١) الذي مات هو سلطان سمرقند كما يجيء بعد الشعر (ت) .
(٢) البيتان لعبد الله بن محمد بن أبي عيينة ، وهو من رؤساء البصرة . وقد تمثل بهما العتبي في « التاريخ اليميني » (انظر شرح اليميني للشيخ أحمد المنيني ٤١٧/٢ ـ طبع مصر) .

شهاب الدين أكد على رغبته بالمصالحة بأغلظ الأيمان ، وتعهد بمد يد العون إثر كل إشارة تأتي منه • وعلى هذا تصافى الطرفان • ولكن لـم يمض على ذلك شهران حتى توجه جيش الغور نحو حدود طالقان • وتاج الدين الزنكي والي بلخ الذي كان وراء هذه الفتنة زحف نحو مــرو الروذ ، وهكذا فسخ العقد • فقتل عامل مرو الروذ بغتة ، وحاول إثارة الفتن وتهييج الظلم وجمع الأموال • فوصل الخبر إلى السلطان ، فأمر بدر الدين جغر من مرو وتاج الدين علي من أبيورد بأن يدفعا هذه الفتنة ، ويتخلصا من هذا الفتّان • (فلبيــا الطلب)وبعد أن تخلصا من الزنكي بأسره أرسلاه مع عشرة من الأمراء مقيدين بالأصفاد إلى خوارزم • وجزاءً لحركته ، حاشا السامعين ، أمر بقطع رؤوسهم أجمعين ، فهدأت نائــرة الفتن ، وعادت المملكة إلى سكينتها • ومهما أقسم الملكان أغلظ الأيمان فإن السلطان شهاب الدين لن يرتضي غبن تلك الواقعة ، فكان يهتبل كل مناسبة ليجهز فيها عساكره ويعد أسلحته •

وفي شهور اثنتين وستمئة بدأ بغزو الهند[١] ، كي يحسن وضع خدمه وحشمه ، لأنهم في السنوات الأخيرة غدوا بلا عدة ولا عتاد من كثرة حروبهم في خراسان• حتى إذا وصل إلى الهند استطاع، ومن النصر الأول ، أن يستعيد قوته ويصلح خزائنه ، ويجنّد كثيراً من الجنود • وفي طريق العودة وقبل أن يعبر جيلم[٢] ، وعلى ساحل هذا النهر الضخم نصبوا خيام السلطان ، وكان

---

(١) يعني السلطان شهاب الدين (ت) •

(٢) اختار المحقق روايــة « حيلي » وأثبتها في المتن ، إلا أنه ذكــر في الحاشية أن احتمالا قوياً أن تكون « جيلم » ، وكذا في النسخة الانكليزية (ت) • جيلم : نهر عظيم معروف في البنجاب يصب في نهر السند ، وهي كذلك اسم مدينة على مصب النهر ما بين لاهور وبيشاور على بعد خمسة وعشرين فرسخاً من شمال غربي لاهور • وابن الأثير يؤكد هــذا الموضوع ، وكذلك ما جــاء في « طبقات ناصري » (ت) •

نصف مخيم الملك منصوباً على طرف الماء ، والحرس يحوطونه من كل جانب ، فباغته اثنان أو ثلاثة من الهنود من وسط الماء ، في وسط النهار وفي أثناء قيلولة الملك . ودخلوا خيمة السلطان ، وكان غافلا عن الرقيب والمترصد ، ذاهلا عن عناد الزمان الغادر ، فجعلوا يومه الأبيض كالليـل الدامس ، وأفقدوه طعم الحياة ، وماذا ينفع الرجال حين دنو الآجال ؟ بل ما نفع الأفيال تجاه إدبار الإقبال ؟ فلم يفده ما جمع من عدة وعتاد :

كـلُّ ذي دولةٍ وأمرٍ مطاعٍ ومتاعٍ وعسكرٍ جـرّار
ملكـوا برهةً فسادوا وقادوا ثم صاروا أُحدوثة السمّار[1]

وكم عانى السلطان حتى ولّى بلا عناء . والأعجب من هـذا حال ملك باميان ، فقد كان من أقربائه ، خالداً إلى السكينة ، ينتظر حلول موت قريبه ، حتى إذا بلغ أمنيته بحلول منية السلطان ظن أن أفنان مراده أثمرت وبستان دولته نضج واستوى ، فأسرع غير متريث يقطع المنزلتين في منزلة واحـدة ، ويتخطى كل ثلاثة فراسخ بلحظة ، حتى إذا دنا من مراده داهمه الأجل المتربص ، فقطع رحلة عمره المثمرة ليركب النعش بدلاً من السرير ، ويواتيه الشقاء بعد الحبور :

مَن نـال من دنيـاهُ أمنيّـة أسقطتِ الأيـامُ منهـا الألفْ
لأنَّ منهـا أصلَ تركيبـهِ حتى كِـلا حاشيتيه حُذِفْ[2]

كل هذا كان سبب إقبال السلطان ، كما سيفصل عنـه الكلام فيما بعد .

---

(١) من أبيات لأبي الفرج احمد بن علي بن خلف الهمذاني ، وهو من شعراء عصر الثعالبي (تتمة اليتيمة - نسخة باريس ورق ٥٨٣) .

(٢) يقصد الألفاظ : الأمنية ، المنية ، المني . لكن المعنى قاصر ، ولا سيما في المصراع الرابع ، فبالإضافة إلى ركاكته هو ملحون ، لأن الشاعر استخدم لفظة (كلا) مكان (كلتا) ، كما ذكّر ضمير (حاشيتيه) والصواب تأنيثه ، لأنـه راجع إلى الأمنية .

ذكـــر انتقال ملك سلاطين الغور

إلى السلطان محمـــد

حين توفي السلطان شهاب الدين وانتقل إلى دار العقبى استقل غلمانه في ممتلكاتهم ، وغـــدا كل عامل أميراً ؛ فقـــد انفرد قطب الدين أيبك● بدهلي وحدود الهند ، وغزا غزوات عدة في قلب الهند.وحين توفي ولم يكن له وريث اختار أركان الإمارة رجلاً ذا عقل وكياسة هو التتمش[1] فناب منابه في الحكم، وتلقب بالسلطان شمس الدين ، فشاع خبره في أغلب بلاد الهند وأطرافهـــا . أما قباجه فقد استولى على ظرف السند ، من ذلك : أوجا ومولتان ولوهاوور وبرشاور[2] . وقد استولى السلطان جلال الدين على تلك الحدود ، كمـــا سيأتي في حينه . كما تمكن تاج الدين إيلدوز من السيطرة على زابلستان[3] وغزنين بعد إخماد الفتن . وجعل غياث الدين مدينة هراة عاصمته ، بينمـــا

---

(١) لا شك أن اسمه بتامين لا تاء واحدة كما ورد في بعض النسخ والكتب ، وكذلك ورد اسمه في طبقات ناصري ، ومما يؤكد صحة رأينا ورود اسمه شعراً ، وهو بتامين صحيح الوزن ويختـــل إن أسقطنا واحـــدة . بينما يسميه ابن الأثـــير « الترمش » .

(٢) ورد في بعض النسخ : بيشاور ، وهذه ارتآها المترجم الانكليزي (ت) .

(٣) وتلفظ كذلك : زاولستان ، والفرس يلفظون الواو مثل V الانكليزية ، فلدى التعريب تحول إلى باء . وهي منطقة جبلية تقع في المناطق العليا لمياه هيلماند (ت) .

استولى ابنه الأمير محمود على فيروزكوه . لكن الأمير محمود غرق في الملذات والطرب ، شأن الورثة جميعاً[1] ، ولم يعزف عن الطرب بعد الحرب . وكان أتباعه ينظرون إلى أفعاله كاللين والخَوَر والضعف والسَدَر[2] ، فاختلفت آراؤهم بشأنه ، مما حث عز الدين بن خرميل الذي كان والي هراة ، وغيورا على وضع البلاد ، على مكاتبة السلطان محمد ، أنار الله برهانه ، قبل غيره من الأمراء . وتتالت الرسل بينهما ، فقدم السلطان واستولى على هراة وعلى غيرها ، وأضافها إلى ملكه .

وكان السلطان آنئذ قد أحس بتضايق خان الختا الذي ينبهه بعدم التطاول ، لأن بلخ وحدودها كانت من أملاك سلاطين الغور ، وهو إذا مد سلطته عليها تاخم حدود الختا . فامتنع في بادىء الأمر عن الاحتكاك بالترك ، وأرسل رسوله إلى شادياخ ليتوجه جيشه نحو هراة . فاستقبلهم خارج المدينة عز الدين حسين بن خرميل ، وسلمهم المدينة من غير اعتراض ، فحصل من السلطان على كثير من الإنعام والاهتمام مع صدور المنشور الملكي بتثبيته على تلك البلاد . في حين أن عدداً من الأمراء ، ومن بينهم الأمير محمود اتفقوا على محاربة الجيش السلطاني . وبسرعة فائقة قفز الجيش السلطاني عليهم قبل أن يتحركوا من مواقعهم ، هجوم الأسد على حجل ، ففرقوا جموعهم وشردوهم . وجاء المبشرون إلى السلطان يعلمونه بالنصر ويرجونه الحضور . واصطفت الجنود ورفعت الرايات على طرفي الطريق بانتظار قدوم السلطان . وحين بلغ السلطان حدود بلخ قدم له حماة القلاع الطاعة وسلموه مفاتيحها . وكان

---

(1) وكان أبوه قد توفي (ت) .

(2) السدر : الحيرة وعدم الثبات .

والي بلخ عماد الدين رأس أمراء منطقة « باميان » أول السابقين وأصحاب الهوى مع السلطان . فقد خرج لمشايعته ومتابعته . ولكن حين بدت الرايات الخفاقة في الأفق تلمع كالشمس تحولت محبته إلى حماقة وكلامه إلى خلاف، تحصن في قلعة « هندوان » التي كانت تعد حصناً حصيناً وركناً ركيناً ، وجمع فيها الذخائر والكنوز والجواهر . فنزل الجيش المنصور على أطراف السور، وأحاط الفرسان به كالسوار في المعصم،وأعملوا فيه القذف والضرب حتى انهدت أركانه وانهزم سكانه . ولما لم يجد عماد الدين وسيلة إلا الانصياع والإذعان نزل على أمر الطاعة لا عن اختيار بل عن إصرار واضطرار . فأجابه السلطان إلى رجائه ، مقروناً بعطفه وعنايته ، كما هو متوقع منه . بل أضاف على ذلك بأن عينه والياً على ما كان تحت يده . وحين خرج من الحصن ، وقبّل الأرض بين يدي السلطان حلت عليه بركات السلطان الملكية ، مؤمّناً على حياتـه ، مخصصاً لمنادمته « وربّك يعلمُ ما تُكنُّ صدورهم » .

وبغتة أمسك حراس الطرق رسالة مرسلة ، فأحضروها إلى السلطان . كانت الرسالة موجهة إلى والي باميان ، وتتضمن تحقير السلطان والتحذير من الانقياد إليه . وحين وقعت الرسالة في يد السلطان طرأ على فكره « اقـرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » ، ولم يعد لذلك الغدر من لسان عذر، فأمر السلطان بنقض ما منحه ، وهذا سبب كافٍ لفقد حياته . ولكنْ ، لمـا كان السلطان معروفاً بالكرم الملكي فقد بذل له الأمان ، وهذا من حسن مكارم الأخلاق ، فأرسله إلى خوارزم وبرفقته ما شاء من ذخائر النفائس والمقربات من الأوانس ، وكان ابنه على قلعة ترمذ ، فحين سمع ما حلّ بأبيه قرر العصيان لكن أباه حذره ووبخه ، فنزل عن القلعة للسلطان فسُلمت إلى سلطان قلعـة سمرقند .

وفوّض السلطان نواحي بلخ إلى بدر الدين جَغِر ، ووضع تحت يده جيشاً قوياً . وحين تطهرت تلك الرباع من الشوائب اتجه نحو هراة ، فانتصر في طريقه على « جُرْزُوان »[1] فهدأت البلاد لحكمه وصفت لمرامه . إذ جاءه المبشرون من طرف هراة يخبرونه بسرور السكان وسعادتهم ، واستعدادهم لاستقباله ، وهم مشغولون بتزيين معالم المدينة من أجله . وقد علقوا في ممرات الأسواق والأحياء أنواعاً من الأقمشة والثياب المذهبة والمزركشة. وفي منتصف جمادى الأولى من السنة[2] دخل السلطان المدينة بكل أهبته وهيبته النادرتين ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، فدعت له الملائكة « ادخلوها بسلام آمنين » ، والخلائق يقرؤون « الحمد لله ربّ العالمين » . فأعاد السلطان العدل إلى نصابه، وانتصف الناس جميعاً في ظل رحمته، وسارع أمراء الأطراف يقدمون واجب الطاعة . كما بادر ملك سجستان الى المثول بين يديه ، فغدا من زمرة أركان دولته ، فأولاه بحسن الرعاية وأعلى مقامه بين الأقران. وأرسل السلطان علامة كرمان لاستمالة الأمير محمود ، يعده بأفضل الوعود ، ونظم علامة كرمان قصيدة في حق الأمير محمود بنت ساعتها وأرسلها .

« سلطان المشرقين وملك المغربين،محمود بن محمد بن سام بن حسين».

فأناب محمود منابه أمير فيروزكوه رسولاً يصاحب علامة كرمان ليمثل بين يدي السلطان ، محملاً بتحف ٍ هي ذخيرة الآباء والأجداد مع فيل أبيض. وذكر علامة كرمان الفيل الأبيض في قصيدته في أثناء مصاحبته له :

---

(١) جرزوان : وتلفظ الواو بـاء لدى التعريب كمـا سبق . وتقـع في الشمال الغربي من أفغانستان (ت) .

(٢) أي سنة ؟ إنه لم يذكر سنة واحدة في هذا الفصل . لكن ابن الأثير ذكر هذه الواقعة سنة ٦٠٣ .

إلى حضرة المُلكِ فيلاً جَلبتُ ولستُ بأبرهـةِ بن الصباحِ[1]

فتقبل السلطان الهدية من نائب الأمير محمود ، وأقره على ملكه . فأمر (محمود) أن تضرب السكة باسم السلطان ، وتعدد ألقابه في الخطب ، حيث شنفت الآذان .

وحين فرغ من أموره في ذلك الصقع عزم على الانصراف ، فأناب منابه عز الدين حسين بن خرميل مع كثير من عطفه وعنايته ، وخصص له إقطاعاً معيناً قدره مئتان وخمسون ألف دينار ذهباً . وفي جمادى الآخرة من تلك السنة[2] أرخى عنانه نحو خوارزم ، محظوظاً بوفود النصر والإقبال ملحوظاً بالجد السعود والملك الموعود مع نجاح الآمال .

---

(1) المراد من حضرة الملك العاصمة خوارزم ، لأن « الحضرة » في عرف المتقدمين بمعنى العاصمة . والصباح جاءت في الشعر مخففة الباء ضرورة ، وهي في الأصل مشددة .

(2) أي سنة ؟ (انظر فوق) ، ولعل المقصود هو سنة ٦٠٣ كالسابق .

ذكر أحوال خرميل بعد عودة السلطان :

بعد أن وضع السلطان حكم ممالك هراة في قبضة ابن خرميل قفل راجعاً ، لينشغل بأوضاع بلاده وغزوه وجهاده . وترامى بعد حين إلى مسامع ابن خرميل أن جيش السلطان فني في لقاء حربه مع جيش الختا ، فأغراه الشيطان بمنافع محالة وأحلام باطلة . فكاتب السلطان محموداً يشجعه على مخالفة السلطان ، فلقي ذلك هوى في نفس الأخير ، بعد أن ضمن الوعود المغرية منه . فأعاد ابن خرميل سك النقود والخطبة باسم الغوريين ، وأسر من ظل على العهد مع السلطان . ولكن حين بلغه أن السلطان رجع إلى خوارزم مظفراً ارتجف ابن خرميل ، وتحولت سطوته وصولته إلى هلع شديد ، وشرع يعتذر بمعاذير لا تدخل الفؤاد مهما حاول أن يُلبسها من أثواب التّعلات . ومع ذلك فقد عفا السلطان عنه وتجاوز عثراته .

وإذ علم الغوريون بر َو َغانه ومداهنته بين محبتهم وميله إلى سلطان خوارزم ، قرروا محاربته . لكن ابن خرميل علم بخلية نفوسهم ، فراسل أركان السلطان الذين كانوا في خراسان ، ورجاهم أن ينجدوه ، فوفد عليه كبار الأعيان ، وعسكروا في ظاهر هراة . وبعد أن استحلفهم واستأمنهم لدى السلطان هاجم الغوريين فقمعهم واستأصل شأفتهم . وبعد هذه المعركة لم يبق للغوريين ذيول أو بقية ، على حكم الآية « أصبح ماؤكم غَوراً » ، وتفرّق من كان معهم .

هذه المداهنة دلت على اختلاف رأي ابن خرميل مـن قول وفعل . فهو
أطاع أولاً ، ثم خرج على السلطان بلا موجب ، وهو الآن حارب من غير إذنه .
وهكذا كثرت اتهاماته لدى السلطان ، وزادها أن رسائل وصلت إلى السلطان
توضح أن هراة غدت غابة وهو فيها أسد هصور ، أو بحراً يعيث فيه تمساح ،
فإن لم تتداركه أتعبك وأقلقك . فأرسل السلطان رسالة إلى الأمراء يأمرهم
بالتخلص منه . واتبع الأمراء معه عادتهم من الملاطفة والمعاشرة ، ولكن بخطة
محكمة . حتى طلبوه يوماً لزيارتهم وأخذ رأيه الصائب في إحدى القضايـا
(المفتعلة) ، فلبى الدعوة ، وباسطوه القول وسامروه . حتى إذا انفضّ المجلس
رجاه ملك زَوزن أن يزوره في قصره ، واسمه قوام الدين ، ويقبل دعوتـه
للطعام والشراب ، وألحّ عليه فلبّى الدعوة . وفيما كان في المجلس أعطى ملك
زوزن الإشارة إلى الأعيان فسلوا السيوف من أغمادها ، وفرقوا أصحابه بعد
أن تلوه . وقد نقلوه أولاً من خيمته إلى قلعـة « سلومد[1] خواف » ،
وبعد أيام أرسلوا رأسه إلى خوارزم .

كان سعد الدين الرّشدي رئيس أعماله والمدافع عنه ، وكان ذكياً فطناً .
فانتهز هذه الفرصة ، وقفز كالثّعْلبان في القنص ، فاحتمى بأسوار هراة . ووافقه
رجال ابن خرميل ، ولم يشاركوه إلا بالميل . وتدافع معه الأوباش والرنديون
القيسون في هراة . فأخرج كنوز ابن خراميل وخزائنه ووزعها على العامة ،
تحول حامل العصا إلى ثري ، لا لسبب إنما ليضعوا أرواحهم على أكفهـم
ويشاركوه في حربه .

---

(1) ذكرت هذه الكلمة في المسالك والممالك لابن حوقل والاصطخري والمقدسي باسم « سلوك » . بينما اختلفت روايات النسـخ في نطقها : سلومـد ، سلومل ، سلونك . وكانت هذه المدينة مركز ولاية خواف (المحقق) .

وفي هذه الأثناء رفع كزلي عصا العصيان في شادياخ ، وسيأتي تفصيله فيما بعد • فأقبل السلطان إلى شادياخ من خوارزم ، ومنها إلى سرخس • حتى إذا دنا السلطان أرسلوا إليه[1] أن يتوقف عن عصيانه وينزجر عن ثورتـه • فكان يجيبهم متعللاً : إنني عبد مطيع للسلطان ، ومنتظر قدوم راياته الملكية لأسلمه المدينة وأقدم مراسم العبودية بين يديه ، ولما كان الأمراء لا يطمئنون إلى كلامه هذا فقد كاتبوا السلطان وأعلموه أقواله هذه ، وحضوه على زيارة هراة ، وحين وصل السلطان إلى هراة ندم على ما أقبل عليه ، إلا أنه أصرّ على العصيان • فالتهبت حمية السلطان ، وأمر بأن تقطع المياه عن المدينة ، وبأن يُردم الخندق بالأشجار والتبن ، ثم تحول المياه إلى الخندق ، وما هي إلا مدة وجيزة حتى غدا الخندق مستنقعاً نتناً ، وغدا برجها المشهور يحمل اسم البرج الترابي (لانحلاله في الماء) • وبعد ذلك شرعوا يكدسون البوابات بالأتربة والأعشاب ، وصعد عليها المبارزون وتمكنوا من بعض ممرات السور •

وبينما كان الرندي مشغولاً يوماً بتقديم الطعام للطغام رفـع الأبطال الرايات فوق السور • وما إن فرغ هؤلاء من طعامهم حتى حل عليهم عشاء الانتقام•وحين لاحظ الرندي أن مساعيه باءت بالإخفاق ارتدى ثوب التصوف وخلع عنه لباس التعسف ، وحاول أن يتوارى عن الأنظار ، فأرسل من يتتبعه بين المحلات والأسواق حتى عثروا عليه ، وساقوه إلى السلطان • فأمر السلطان بأن يتوقف جنوده عن غارتهم ويتركوا ما بأيديهم • وطالب الرنديّ بأموال الخزائن وبما جباه من الشعب بغير حق • وبعد أن سلم كل ما في حوزته لقي جزاءه • وهكذا خلت هراة من الظلم ومن العصاة ، وامتلأت بالعدل السلطاني وعاد السلطان بعد ذلك إلى خوارزم •

---

(١) أعيان المدينة وأمراء الأطراف (ت) •

ذكر كُزلى[1] وعاقبة عملـه :

كان كزلي تركياً من أقرباء أم السلطان ، فوّض إليه إمارة نيسابور ، وحل أمورها ومعضلاتها كافة • وقد تخوف كثيراً من السلطان بسبب ما نقل إليه عنه • فقد عاد السلطان بغتة قبل أن يتجه لمحاصرة هراة ،وقدم إلى شادياخ بعد أن صرف جيش الختا إلى خوارزم • عاد من هراة واختاره ليحاصر لـه شادياخ ، ولهذا أصبحت هذه المدينة تحت تصرفه ، فصادر أصحاب الديوان والأغنياء بعنف وتضييق ، واشتغل بالاستحكامات وحفر الخنادق ، ثم أرسل إلى دار الملك خوارزم بطلبات قصده أن يموه على السلطان الذي كان مشغولا• واستمر في إحكام أسوار المدينة ، وكان يظن أن الأسوار المنيعة وكثرة الدرهم والدينار والإمارة كافية لتمنع السلطان عن الوصول إليه ، فيبلغ رأساً رأساً ، فلا يطاله الأذى • حين وصل رسوله إلى خوارزم واطلع علـى رسالته أدرك السلطان فوراً أن أميره انحرف عن جادة الصواب • وفوراً تحركت الرايات السلطانيـة ، يخطو تحتها جيش من الأشبال الرجـال ، كل واحد كجبـل « يستون »[2] ، مسرعين كالريح ، متحرقين غضباً كالنار ، حاملين سيوفـاً

---

(١) ورد ذكر هذا الرجل عند ابن الأثير في حوادث سنة ٦٠٤ باسم « كزلك خان » •

(٢) بيستون : جبل في كرمانشاه من الطرف الشمالي • وهو جبل عظيم الضخامة والأهمية لدى الفرس ، إذ فيـه نقوش من عهـد الأسرة الهخامنشية • والجبل شاهق متكسر الأطراف يصعب ارتقاؤه ، واسمه يدل على ذلك • فكلمة « بي » بمعنى بدون وكلمة « ستون » بمعنى عمود ، ومنها في العامية « إسطوانة » • فالمعنى : الجبل الذي ليس له أعمدة (ت) •

متعطشة ، مسقية بدماء المعارضين • وفر رسول كزلي إلى شادياخ وحكى له ما رأته عيناه • ولما لم يجد بحوزته ما يعينه لاذ بالفرار ، يصحبه أولاده وأنصاره ، كما أمر بأن يرافقه وزيره شرف الملك وسيد علاء الدين العلوي وقاضي القضاة ركن الدين المغيثي ، وغير ذلك من أعيان المدينة ، ولجأ إلى الصحراء ، ومنها قصد الطريق إلى « تُرشيز » مع من معه من الترك والتازيك. وحين بلغها رجاه محتشم المدينة ردّ الجماعة التي معه ، فكلفه أمرهم رهبة لا رغبة ، على أن يستبقيهم لديه ، وأودعه ما كان يحمله ، وقصد طريق كرمان.

وصل السلطان مدينة شادياخ في الحادي عشر من شهر رمضان سنة أربع وستمئة[1] • وانعطف من هناك ناحية طوس لزيارة مشهدها ، وقصد هراة . ولما لم يتمكن كزلي من السيطرة على كرمان ، وكان قد بلغه اتجاه السلطان نحو خراسان عاوده الطمع في الاستيلاء على أرض شادياخ • فعاد فوراً من كرمان نحو شادياخ•ووصل بعد حين جماعة من طبس يشيعون نبأ عودته، إلا أنهم لم يحددوا الوجهة التي كان يقصدها لدى رجوعه من كرمان • وعقب ذلك وصل نبأ آخر يؤكد أنه بلغ ترشيز • وفي اليوم الثالث ، عند الفجر وأوان شقشقة العصافير في أعشاشها جاء خبر ثالث يذكر أن الثورة اندلعت داخل المدينة ضد ابنه وعدد من أصحابه ، وسرعان ما أغلق أهل المدينة أسوارهم ، وتربص الجنود على الأسوار ، وقدمت تلك الجماعة بعد لحظات ، فطافت حول المدينة عن كثب مترددة بين الإقامة والعزوف •

ومن محاسن الصدف ولطف ذي المنن أن وصل نبأ قدوم الإسْبَهْبَد[2]

---

(١) السنة مطابقة لما ورد في كامل ابن الأثير •

(٢) الاسبهبد : رتبة عسكرية تعادل « الفريق » اليوم • وكانت تعني قائد فرقة • غير أنها هنا جاءت صفة لحاكم إحدى المدن • وانظر بعد (ت) •

إلى طوس . فأسرع شرف الملك إلى إرسال من يُعلمه بفتنة كزلي ، ويلتمس منه دفع شره عن المدينة . فجهز الاسبهبد ألف فارس ، وعجل في مسيرته من غير أن يفاجأهم وهزمهم . غير أن رجاله شغلتهم الغنائم ، فانقض كزلي عليهم وشتتهم . وحين تأكد كزلي أن لا طريق له إلى المدينة ، وأن الإسبهبد انسحب إلى شادياخ ، وأن السلطان على أبواب هراة ، طار من مكانه كالحمام ، أو قفز كالغزال من براثن الصقور أو من شباك الصيادين ، متأسفاً على كل ما بدر منه ، عاضاً على أنامله بالنواجذ على ما صدر عنه . وتشاور مع بقية صحبه لاتخاذ الوجهة المناسبة . فبعضهم عرض عليه طلب توسط السيدة الوالدة ، فاستصوبه وقرر الاتجاه نحو خوارزم . كما كان بين رجاله تركماني من يازِر[1] رأى الصلاح باللجوء إلى يازِر ، حيث يحتمون بأسوارها ، وقال : أذهب أنا في المقدمة ، فأصطنع حيلة سهلة لأستولي على واحد من الحصون . وافق كلامه المطلوب هواهم ، فأرسلوه مع بعض الرجال في المقدمة ، لكنه حين وصل إلى يازر كان أصحابها على معرفة في رغبته واطلاع على مكيدته . فقيدوه وأرسلوه مخفوراً إلى السلطان . ولما فشلت هذه المحاولة ازداد كزلي ضياعاً ، وكان بينه وبين ابنه وأصحابهما خلاف في الآراء . فقد كان ابنه يرى الاتجاه نحو بلاد ما وراء النهر والالتجاء إلى خان الختا ، أما الأب فكان يقول : بل نذهب إلى خوارزم ونتمسك بحماية تركان خاتون . لكن الرأيين رُفضا . فما كان من الابن إلا أن استولى على الخزانة وقصد بلاد ما وراء النهر . وحين وصل إلى معبر جيحون التقى بعدد من خواص السلطان كانوا قادمين من خوارزم . فصاولوه هو وأصحابه طويلاً ، وفي النهاية غنموا برؤوسهم فأرسلوها إلى السلطان .

حين وصل كزلي إلى خوارزم وعدته تركان خاتون بمواعيد غير أكيدة .

---

[1] يازر : مدينة كانت تقع في منتصف الطريق بين « أشك آباد » و « قيزيل أروات » (ت) .

وطلبت إليه أن يرتدي خرقة المتصوفين ويجاور تربة السلطان تكش ، فلعل السلطان ، بهذه الحيلة ، يصفح عن زلاته ، واستجاب لاقتراحها ولبس لباس المتصوفة وجلس على تربة تكش . لكن تركان خاتون فوجئت بقطع رأسه ونقله إلى السلطان . وهكذا خمد أوار الفتنة ، وشمل عدل السلطان الشريف والوضيع :

« واضح أن الفلك دوار ، وأن الحسن والسيء موجودان »

وقد أرى الحق تعالى في هذه السنة سنة خمس وستمئة هول « إذا زلزلت الأرض زلزالها » عباده ، كما أرى فضله . فمنذ بدء الخليقة يوم أضيئت الدنيا وحتى انتهاء خلقه ، رمى الله تعالى خلقه في البيداء . فبنوا المدن والمحال والقصور ، ثم عافوها ورحلوا ، ثم لم تبق هذه الأبنية عدا المساجد المنيعة وأمثالها . وعلى هذا النسق عاشوا في البيداء ، ومع ذلك فإن ألفين من الرجال والنساء لبثوا تحت سور المدينة ثم هلكوا في القرى مما لن يأتي شرحه . ولقد هدمت قريتان دفعة واحدة هما : « دانه » و « بنسك » ، ولم يبق منهما مخلوق ، عافانا الله تعالى عن أمثالها ، وعن عذاب الدنيا والآخرة[1] .

---

(١) لم تكن هذه السطور لنا واضحة تماماً (ت) .

ذكر استخلاص مازندران وكرمان :

وإذ أقبلت الدنيا إلى السلطان رأيته تراخى للدعة والتكاسل ، غير عابىء بما يخبئه الغيب من جلائل الأمور ، من ذلك أمر مازندان . ففي أثناء اتجاه السلطان نحو ما وراء النهر في شهور سنة ست وستمئة كان في مازندان الشاه غازي[1] من أولاد يزدجرد الشهريار[2] ، والذي لم يبق له من ملك آبائه وأجداده كثير. كان لديه شخص يدعى بو رضا يرتدي زي القواد . قد رباه احسن تربية ، وشاركه في حكمه ، كما زوّجه أخته . وكان كثيراً ما ينوب منابه في إصدار الأحكام ، لكنه طمع في الحكم ، فقتل الشاه غازي في رحلة صيد . لكن زوجته (أخت الملك) قامت بما يقوم به الرجال فقتلت زوجها .

حينما كان منكلي[3] عائداً من خدمة السلطان ، ووصل إلى جرجان ، سمع بهذا النبأ ، فطمع في ملك مازندران . فذهب إلى هناك ، وتصرف بخزائن

---

(1) اسمه الكامل : الإسبهبد ناصر الدولة شمس الملوك الشاه غازي رستم . كان آخر حاكم للأسرة الباوندية (ت) .

(2) كان يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين . وكلمة شهريار بمعنى الملك ، أصلها مركبة من « شهر » بمعنى المدينة ، و « يار » بمعنى صاحب ومالك ، أي : صاحب المدينة (ت) .

(3) لعله ناصر الدين منكلي غلام الأتابك مظفر الدين أوزبك ، الذي نصب نفسه أميراً على عراق العجم ، كما ورد سابقاً (ت) .

الشاه غازي التي كان قد ورثها عن الملوك الكرام القدماء ، ثم طلب يد أخت الملك لكنها رفضته وأرسلت إلى السلطان رسولاً تعرض نفسها عليه،ومملكتها جهازها . فبعث السلطان نائباً عنه ليتمكن من مازندران ويدعو السيدة . فذهبت إلى خوارزم طمعاً بأن تكون زوجته . لكنه أعرسها إلى أحد أمرائه . وبعد مضي عام فوض تلك المملكة إلى الحاكم أمين الدين . وهكذا انتقلت إليه هذه المملكة من غير عناء أو حرب . ثم خلصت إليه كرمان في السنة الثانية، وذالك في شهور سنة سبع .

ذكر استخلاص ما وراء النهر :

حين طهّر السلطان أرباع خراسان من شوائب المخالفين تكررت رسائل سادات ما وراء النهر ، وتواترت رجاءاتهم ليأتي ويخلصهم مما هم فيه من ظلم الختائيين وجورهم لأنهم ملوا العيش مع عبدة الطواغيت ، ولا سيما أهالي بخارى الذين تحكم بمصائرهم صبي بيع مجاناً ويدعى سَنجر . فقد استولى على المدينة ، وأهان الحُرم ، وسخر الناس ، ودعا نفسه الملك سنجر . وقد أنشد أحد فضلاء بخارى هذين البيتين :

أَلمُلكُ عِلقٌ يعِزُّ دونَ ثَمنٍ ... وإبْنُ مدّى[1] بَغاهُ مجّانا

لا يصلحُ الملكُ والسريرُ لمن ... كان أبوهُ يَبيعُ[2] مجانا

---

(١) غير واضحة المعنى ، ولعلها اسم أبيه ولقبه .

(٢) ضبط كلمة « مجان » غير معلوم ، والمعنى مضطرب .

كما أن السلطان نفد صبره من تحكم الختائيين ومن استخفافهم برسله. كما برم من أداء الجزية التي يدفعها ، منذ طلب منهم أبوه تكش العون على أخيه سلطانشاه . وكانت رسلهم تفد عليه كل عام لتسلم هذا الجُعل . وكم كان يغصُّ من هذا الدفع ! ، ويبحث عن علة ما لنقض هذا الميثاق . حتى كانت سنة ...[1] حين قدمت الرسل تطالب بالمال على عادتها . فجلس السلطان على عرشه ، ورفض أداء هذا الواجب ، رافضاً لنفسه الشريفة تحمل هذا الاستخفاف ممن لا يستحقون ، واحتقرهم ، وقتل الرسول ، بحكم أن :

عليك بهذا السيف فاقض ديونَهُ   فللسيف حقٌّ عند كفّك واجبُ

وأعلن مخالفته وكاشف معارضته . وفي سنة ...[2] توجه نحو تلك البلاد . وبعد أن ابتعد عن المعبر ووصل إلى بخارى غَمر الناس بعدله الشامل وجوده الفايض وإنصافه الوافر . ولقي الصبي المجاني جزاء عمله « جزاء بما كانوا يَعملون » . ثم اتجه نحو سمرقند ، وأرسل في المقدمة رسله إلى سلطان سمرقند عثمان . وكانت وحشة وقعت بين السلطان عثمان وخان الختا كورخان سببها طلب يد إحدى بنات الخان ورفضه هذا الطلب . فتقبل قدوم المواكب السلطانية بأريحية وانشراح ، بدا ذلك على محياه . فأعلن انقياده وامتثاله ، وأمر بأن يخطب للسلطان وبأن تُسك النقود باسمه . وخرج سكان سمرقند مع السلطان يتشاورون في كيفية دفع خان الختا . واتفقوا في النهاية جميعاً على

(1) بياض في بعض النسخ ، وفي إحداها : سنة سبع وستمئة ، وفي غيرها سنة ثمان. والظاهر أن هاتين السنتين غير صحيحتين ، لأنه اتجه نحو حرب الختاسنة ٦٠٦ ، ولعل قتل الرسول قبل هذه السنة .

(2) ليس من شك أن تكون سنة ٦٠٦ أو ٦٠٧ ، وذلك بناء على قوله السابق .

الجهاد والقتال . وأشار السلطان عثمان عليهم بضرورة التزام الحزم والحيطة، وإحكام أبواب المدينة .

وعين السلطان الأمير ترتيه[1] . الذي كان من أقربـاء أم السلطان ، نائباً عنه يشارك سلطان سمرقند في الحكم . وبوشر بالاستعداد للحـرب ، وحشد القوى لساحة الوغى . وتوافد عليه رجال أجلاد ، أبناء طعان وطراد ، بنيّة الجهاد . وحين وصل الخبر الى كورخان استدعى تايَنكو[2] ، وألبسه لباس الملك وعينه نائباً عنه في قيادة الجيش . فاعتلى تاينكو الغرور وهـو يستعرض الجيش ، فغدا أشبه بالثعبان والنمل (!) .

حين عبر السلطان من نهر « فناكت » أمر بأن يهدم الجسر الذي عبر عليه الجنود ، ليضع فيه الجنود قلوبهم من غير أن تبتلَّ ثيابهم ، ولا يستطيعوا العبور عليه . وظل هذا الماء حيناً من الزمان يدعى « ماء الإسلام » أو مـاء الهداية ضد نار الضلالة . بل إن النار التي « وَقودها الناسُ والحجارة أعدت للكافرين » سيُرمى بها عبدة النار ، ما لم تهب عليهم رياح الإسلام ، أو تعصف بديارهم عواصف الإدبار فتمحوهم من الوجود ، أو تزيل النكباء سعادتهـم ومرادهم ، أو تعميهم الرمال الصفراء ، فتنهي وجودهم . حتى وصل تاينكو الى صحراء « إيلامش »[3] مع جيش جرار معبأ بالاغترار ، فظن أنه سينتصر بهؤلاء الرجال المضطربين . وما إن عبر النهر ، حتى تغير عليه الحال بغتة « كنْ فيكون » :

---

(١) قراءتها مضطربة في جميع النسخ .

(٢) وردت : تانيكو وسانيكو .

(٣) إيلامش : مقاطعة تقع في القسم الشمالي من أندجان (ت) .

« لا تتكىء على الماء وإلا غدوت كالحباب ، منقوشاً على صفحة الماء تطويك الرياح »

وصادف أن تلاقى الجمعان واصطفوا يوم الجمعة من شهر ربيع الأول سنة سبع وستمئة . فأمر السلطان بأن يُبطئوا في الإقدام حتى يصعد الخطباء على المنابر ويدعوا : « اللهمّ انصر جيوش المسلمين وسراياهم » . وبعد ذلك يحملون وهم مطمئنون إلى خطب الخطباء و « آمـين » المسلمين ، والله سيمنح النصر المؤزر . وترصّد الجنود بأمر السلطان ذلك الوقت المحدد ، وظـل الفتيان يتخترون في ميدان الحرب حتى غلى تنور الوغى :

« زأر صوت طبل الحرب ودويّ النايات ، فنهضت الأرض من مكانها كالسماء »

« رفع حملة الرايات راياتهم في الفضاء ، فكسا الأبطال الأرض »

وتطايرت النبال من الطرفين ، وسُلت السيوف والمِدى . وارتفع صوت التكبير من صف السلطان ، وعزيف المزمار من قبل الشيطان ، وارتفع القتام[1] فصار كالغمام ، ولمعت السيوف التمـاع البرق . ورفرفت رايات السلطان بـ « إنّا فتحنا » ، ومُني الأعداء بـ « إنا من المجرمين مُنتقمون » . فهبت الرياح الربانية ، ورجفت أفئدة المخالفين ، وما جاء وقت الصلاة (الأخرى) حتى أحجم الجيش عن الحرب ، فقد توزع قوم الختا أيدي سبأ ؛ فجيش واحد منصور وألف من العدو مقهور ، لعب أسد مع ألف غزال وصقر مع ألف حجل . وأعدم أغلب فرقة الضلال تحت السيوف ، حتى تاينكو جُرح في المعركة ، وسقط على وجهه كأصحاب خان الختا . فوقفت على رأسه جارية ، وحينما

---

[1] القتام : الغبار (قاموس المحيط) .

أراد أحدهم قطع رأسه صرخت الجارية قائلة : إنه تاينكو ! فتنبه الرجل فوراً وحمله إلى السلطان ، فكان « كتاب الفتح » إلى خوارزم .

قوي الجيش بهذا الظفر ، وغدا بهذه النعمة صاحب دولة . وابتهج كل فرد على هواه ، واحتفل كل قوم على ما يشتهون ، وبهذا الفتح يناسب القول: لها محبّان : لوطيٌّ وزنّاء[1] . ووصل المجنون إلى ليلى ، ووامق إلى عذراء، وتمتع أرباب الملاهي بالصبيحات الوجوه ، بينما انتظر أصحاب الآمال الأموال وكسب الخيول والجمال . وطارت بشائر النصر في ممالك السلطان ، فحلَّ الأنس كل نفس،والروح كل روح ، وازدادت هيبة السلطان في القلوب أضعاف المرات ، فأضافوا إلى ألقاب السلطان محمد، كما هو معهود، لقب « الاسكندر الثاني » . فقال السلطان : لكن مدة حكم سنجر كانت أطول . فإذا أرادوا ، تفاؤلاً ، أن يضيفوا لقباً يفضل أن يضيفوا اسم سنجر . وهكذا أضيف هذا الاسم إلى ألقابه.وقد نظم الشاعر الإمام ضياء الدين الفارسي قصيدة بمناسبة هذا الفتح وهذا اللقب ، ما زال في خاطري بعض منها ، مطلعها :

« لقد منح وجهك العالم كمالاً ، ووهب عشقك لطف الوجه جمالاً »

« فحيناً يهب وجهك شعلة البدر ، وحيناً تنفخ طرتك ريح الشمال »

« انظر إلى هذا الطلسم الذي مزج الليل بالمسك الصافي[2] ، فعطر زلفك وخالك بالمسك »

« السرور الذي منحني رضاؤه ، كان من شمائل جمال قدوم الملك »
« منح السلطان علاء الدنيا سنجر ذو الجلال ، الناس الجاه والجلال »

---

(١) عجز بيت مشهور لأبي نواس ، وصدره :
من كفِّ ذات حِرٍ في زي ذي ذكر
(٢) المسك : أكثر الألوان سواداً (ت) .

« كان ملك العجم الاسكندر الثاني في رأيه ، لفتح ملك الترك مثالاً »

«حين عمّت عفونة الكفر رياح الزمان ، عدل سيفك بنفحة ظفرة الكون»

« برز سيفك اللامع من مشرق الصواب ، فأزال ملك الختا »

سمعت ابن خالي الصدر الإمام المرحوم أفضل المتأخرين شمس الدين علي بن محمد ، تغمده الله بغفرانه ، يقول : حين وصلت الأنباء إلى شادياخ تعلن نبأ نصر السلطان على الختا تقدم الناس إلى بعضهم بعضاً يتبادلون التهاني والبشائر ، وشغل الزهاد بتقديم الشكر إلى الله ، وأحيا الأكابر أفراحهم بالمزامير والمعازف ، ودارت الأفراح بين الشبان في البساتين ، حتى الأعجاز كانوا يتبادلون الأحاديث في هذه البشائر . فدنوت من سيد مرتضى بن سيد صدر الدين ، كساهما الله لباس غفرانه ، فرأيته جالساً حزيناً في ركن منزله ، فسألته عن سبب حزنه في هذا اليوم السعيد ! فقال : أيها الغافلون ، إن وراء هؤلاء الترك قوماً لجوجين في الانتقام والاقتحام ، وهم في الكثرة يزيدون على يأجوج ومأجوج ، وكان سد ذي القرنين[1] جداراً بيننا وبينهم ، والآن وقد تبدل السد ، فلن يكون لنا معهم سلم ، ولن يهدأ أو يتمتع أحد ، أو يتعزى بالإسلام :

« ما يراه الفتى في المرآة ، يبدو للعجوز آجراً مطبوخاً »

---

(1) يرى بعضهم أن ذا القرنين هو الاسكندر المكدوني ، وأن السد هو سد الصين . والحقيقة أن في هذا الرأي وهمين . الأول : أن ذا القرنين ليس الاسكندر ، وإن كان للاسكندر قبعة ذات قرنين . وأن سد الصين بني ضد هجوم المغول نحو الغرب ، ثم هو من الحجر والتراب ، وليس من المعادن المصهورة . فالمشابهة أوقعت البعض في المتاهة (ت) .

وهكذا ، حين عاد السلطان موفقاً في جهاده ، وكان ملك « أترار » مخالفا لعمل الأبرار ، وعلى عادة السلطان صاحب الشوكة والصولة ، راسله مراراً يستلينه • لكنه رفض الانصياع ، واستمر على خُيلائه وتكبره ، من غير أن تزجره النصيحة فيقع في مهالك الفضيحة ، فلم يرض أن يسير على الصراط المستقيم كالختا • قال تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذْ جاءهم الهدى ، ويستغفروا ربَّهم إلا أنْ تأتيهم سُنة الأولين أو يأتيهم العذاب قُبُلا »•حين بلغ السلطان إصراره واستكباره قرر الرحيل إليه ، حتى إذا دنا من القوم ، وشاهد أمراء أترار التلاطم الزخار من الجيش الجرار أيقنوا أن منع الهجوم لن يكون بالكلام • فدنوا من مليكهم وقالوا : لا نظن أننا نقدر على مواجهة هـذا الأسد الهصور ، ونرى أنك أوقعتنا في فك تمساح قوي ، ولا يمكن مجاملة هذا العُباب والحدث من سطوته • حين رأى صاحب أترار ، وأدرك ، أن بُغاث الطير محال لها أن تجابه مخالب الصقور[1] ، خرج من المدينـة ، وعفَّر وجهه بتراب أرض البلاط ، وطلب الرحمة من السلطان والمغفرة عـن الآثام والعثرات • فعفا عنه ، ومنحه الأمان له ولما يملك ، على أن ينتقل إلى مدينة نَسا بكل ما يحمل ، فلبى الطلب وأقام هو وأهله فيها • وهكذا نجـا الأهالي من الدم والنهب •

ثم وجه السلطان عنان جواده نحو سمرقند ، حيث السلطان عثمان يلتمس للصَّدف درة أسرة السلطان ، ويرجو لنجوم السماء بدراً ، فأجابه السلطان بموافقته على خطبته ، وشرفه بالرضا ، وهذا ما سنذكره فيما بعد •

---

(١) البغاث : طائر أغبر ، ضعيف بالنسبة إلـى النسر • وجملته هذه من المثل : « البغاث بأرضنا يستنسر » ، أي من جاوربنا عزّبنا (ت ـ قاموس المحيط)٠

كان ترتيه[1] أميراً من أقارب تركان خاتون ، فعينه شحنة على سمرقند، ثم توجه نحو خوارزم ، محملاً بوفود السعود يميناً ويساراً ، محاطاً بأنوار الإقبال من الخلف ومن الأمام :

« طرح جلال جواده خلف الشمس ، وجعل ركابه قمراً كأنه القرط »

« الراية الكاويانية[2] فوق رأس الملك ، كأنها قطعة من الغيم فوق القمر »

« كُفَّ عن الضحك لقد مزَّق فمك، قال: أبعد الفلك إلى أعالي السماء »

حين وصل السلطان إلى خوارزم ، أحيا مجالس الأنس ثم أمر بأن يقتلوا تاينكو ويرموه في الماء . فزاد هذا العمل من هيبة السلطان آلاف المرات في القلوب . وتوافدت عليه رسل ملوك الأطراف يحملون التحف والهدايا ، وقد كتبوا على الطغرا[3] المباركة : ظل الله في أرضه . قال منشيء الملك فخر الملك نظام الدين فريد الجامي :

« يا ملك الملوك لقد أهديت الدنيا ، ولهمتك سوف تقترض الفلك »

« تبدو الدنيا لعينك بطولها وعرضها ، أقل من ذرة من همتك »

« كل الطاهرين في عهدك ، بعد تقديم شروط السنة والفرض »

« يقولون ، لدى ختام كل ورد : إن السلطان ظل الله في الأرض »

---

(1) وتروى في النسخ الأخرى : ترتبه ، تربنه ، برتنه (المحقق) . وانظر قبل(ت) .

(2) كاوه : اسم الحداد الذي ثار على الضحاك الظالم وقتله . عاش في زمان « فريدون » . وقد حمل صدرته يوم ثورته ، فغدت فيما بعد راية إيران ذكرى الثورة على السفاك ، وبعد أن طعمت بالجواهر (ت . وانظر معجمنا الذهبي مادة كاوه وكاوياني) .

(3) الطغرا : تركية ، هي الخط المقوس الذي يرسم في أعلى الكتب الملكية ، وهي بمثابة توقيع الملك وختمه . وهي تعطي معنى المنشور الملكي كذلك (ت) .

ذكر عودة السلطان ثانية لحرب كورخان :

في أثناء غيبة السلطان في خوارزم ثارت جماعة هي البقية الباقية من أصحاب قادر خان في حدود جند ، ورفعوا عصا العصيان . لهذا لم تطل مدة إقامة السلطان في خوارزم ، فسرعان ما اتجه ناحية جند لحسم عصيانهم، فيما كان السلطان عثمان يطهر بقايا الثائرين . وحين أنجز السلطان مهمته في إخماد ثورتهم واستئصالهم وصلته أنباء حلول عسكر الختا على أبواب سمرقند ومحاصرتها . واتجه كذلك السلطان نحوها من جند بعد أن أرسل رسله إلى ملوك الأطراف ليبعثوا بجنودهم إليه . كما طالبهم بتجنيد الشعب وتحويلهم إلى سمرقند .وقد طالت مدة الحصار لمدينة سمرقند ، وهم يعسكرون على طرف النهر . وهاجموا المدينة سبعين مرة ، وكان النصر حليفهم في أغلبها . وظل جيش سمرقند داخل المدينة مقهوراً ، وقد أدركوا أن مجابهة جيش الختا مستحيلة ، تماماً كمن يقبض على الريح بيديه . وهم بالنتيجة سيفترشون التراب الأسود من غير أن يحصلوا على ثمرة . وبالتالي لم يصلهم من السلطان ما ينبيء عن اتجاهه نحوهم ، بل وصل إليهم نبأ انتصارات كوجلك خان . فلم يجدوا غير المهادنة وسيلة .

وحين وصل السلطان إلى سمرقند ، وأحاط جنوده بأطرافها ، عاد فتركها متجهاً نحو مدينة إغناق[1] . فمع أن واليها كان مسلماً لكنه لم يتصف

(١) إغناق : ويقال لها يغناق مدينة من نواحي تركستان من أعمال بناكت (معجم البلدان) وهي قرية قرب سمرقند (ت) .

بأخلاق الإسلام ، لكثرة ترجحه مع السلطان بين النفاق والاتفاق ، وميله نحو أهل الشقاق ، مما اضطر السلطان إلى مهاجمته عدة مرات ليفرض عليه طاعته ، بعد أن يعده بأفضل الوعود . لكنه امتنع عليه ، وتحصن داخل قلعة لديه ، وشيطان الغرور يداعبه . فأرسل إليه السلطان فوجاً ، بل أرسل إليه موجاً كالبحر الزاخر ، استطاعوا في النهاية أن يأسروه ويغلّوه ويأتوا به إلى السلطان .

وصلت إلى مسامع السلطان أنباء تسلط كوجلك . ووصلت إليه رسل من كوجلك سراً ، ثم تم الاتفاق بين الطرفين : على التخلص من كورخان ، وعلى : إذا لم يتيسر للسلطان أن يتحكم بختن وكاشغر ، ووصل كوجلك إلى مياه فناكت غدا أمير تلك البقاع . وتمكن كوجلك من الانتصار مرة ، لكنه غلب مرة أخرى[1] . وهذا الأمر مذكور في أخبار « القراختا »[2] .

حين عاد السلطان ، تاركاً سمرقند وصل إلى كورخان نبأ قدوم السلطان . فاستعد الطرفان ، ودنا الواحد من الآخر . كان إسبهبد حاكم « كبودجامه »[3] وترتيه[4] شحنة سمرقند على خلاف مع السلطان ، فاتفقا معاً وراسلا كورخان سراً وأخبراه : أننا يوم التقاء الجمعين سنتراجع عن السلطان ، شريطة ــ بعد النصر ــ أن تكون خوارزم من حصة ترتيه ،

---

(1) ذكر الجويني في مطلع الجزء الأول أن كوجلك انتصر بادىء الأمر على كورخان ولكنه غلب في المرة الثانية ، وأسر أغلب جيشه .

(2) لم يرد أي ذكر في الفصل القادم عن الحرب الأولى والثانية كما سترى في فصل القراختا ، ولكنه ذكرهما في مطلع الجزء الأول .

(3) اسم مقاطعة « كبودجامه » اليوم « حجيجلار » ، في أقصى شرقي « استراباد » (ت) .

(4) انظر الحاشية عنه قبل صفحات (ت) .

وخراسان خالصة للإسبهبد. فوافق كورخان ووعدهما بأضعاف ما اشترطاه.

وفي اليوم الموعود حملت ميسرة الختا على ميمنة السلطان . وبناء على الاتفاق السابق فقد تراجع ترتيه والاسبهبد وتبعهما جيشاهما خلف القلب . أما ميسرة السلطان فقد انتصرت على ميمنة الختا وانهزموا من أمامهم ، بينما التحم قلبا الجيشين . ولم يعرف من الغالب من الجيشين . وكان كل واحد يغير على خصمه ويفر . وكان من عادة السلطان يوم الوغى أن يرتدي لباس الخصوم . كما تمكن بعض خواصه المقربين من دخول قلب جيش الختا وإثارة الفوضى بين صفوفهم . وضاع السلطان بين صفوف جيش العدو (وهم لا يعرفونه) ، وظل يتخبط بينهم أياماً ، حتى واتته الفرصة فلوى عنانه راكضاً حتى بلغ مياه فناكت . وعدّ الجيش قدومه حياة جديدة له . فقد ترامت الأخبار والخيالات بأن السلطان وقع أسيراً في أيدي الأعداء ، أو أنه قتل في المعركة . ولم يحصلوا على جلية الأمر حتى عاد إليهم . فطارت البشارات والمنشورات إلى الأطراف . وعاد في النهاية السلطان إلى خوارزم، وما زالت مصلحة الحرب مهيأة .

ذكر استخلاص فيروزكوه وغزنين :

حتى إذا استولى السلطان على هراة خص السلطان محمود[1] بمدينة « فيروزكوه » من غير أن يتعرض له • فجعل الخطبة والسكة باسمه • وفي أثناء غزوات السلطان لجأ أخوه تاج الدين عليشاه إلى السلطان محمود لموجدة أخذها على أخيه السلطان • فأحسن السلطان محمود استقباله ، وقدمه على جميع الأعيان وأكرمه وأعزه بأصناف الهدايا والتحف • ولم يمض حين من الزمان حتى تسلل شخص مجهول في وضح النهار إلى جناح النساء وقتله على سرير عرشه ، فتلقف الناس هذا النبأ وتداولوه ، من غير أن يعلموا أن مدبر المكيدة هو عليشاه ، ليبلغ كرسي الحكم • على أي حال ، فإنه حين مات كان ذلك في شهور سنة تسع وستمئة • ولم يبرز أحد من أبناء سلاطين الغورية يستحق السلطنة • فاضطر أعيان فيروزكوه إلى الاتفاق على تاج الدين عليشاه ، فأجلسوه على عرش السلطنة • والتزاماً لجانب الاحترام فقد أرسل رسولا إلى السلطان يعلمه بالحالة ، ويستجيزه في أمر سلطنته على سبيل نيابته • وعلى سبيل الموافقة على هذا التعيين فقد أرسل السلطان محمد بن بشير مع خلع وتشريفات ومنشور موقع منه بهذا الخصوص • وحين أنهى محمد بن بشير مراسيم الاحتفال التنصيبي وألبسه خلعة السلطان ، عاد عليشاه فخلعها ورماها ، وارتدى ثيابه العادية • فالتقط محمد ابن بشير الخلعة غاضباً وتبعه • ثم شهر سيفه وضربه ضربة قطع بها رأسه • فتحول اسمه من « بشير » إلى « نذير » ، وتبدلت « التهنئة » بـ « التعزية » •

وبعد الحادثة لم يجرؤ أحد على التقدم إلى العرش • وأرسلت

---

(1) هو محمود بن محمد شهاب الدين الغوري (ت) •

المنشورات إلى الأركان تستميل الأمراء ، وما زال ملك فيروزكوه والغور خالياً . بعد ذلك ، في شهور سنة إحدى عشرة وستمئة وصل نبأ وفاة تاج الدين إيلدوز في غزنين[1] ، من غير أن يكون له وريث شرعي يحل محله . فقفز أحد غلمانه علـى العرش واحتله . فتحرك السلطان نحـو ذلك الملك النفيس ، ليستخلص تلك البقاع وغيرها إليه ، ويضيفها إلى ملكه .

عثر السلطان في خزائن غزنين التي كان السلطان شهاب الدين يحتفظ بها ، على مناشير دار الخلافة المقدسة ، وتتضمن تحريض الغوريين ضـد سلطان خوارزم ، واستنكار أعماله وتحركاته . مما أثار حفيظة السلطان ضد الديوان العزيز ، زيادة مما كان عليه . وأدرك حينئذ أن معاداة الغوريين له كانت بدافع دار الخلافة .

حـين استسلمت ممالك الغوريـة للسلطان من طرف الهند عـاد إلى سمرقند ، ولم يكن سلطانها قد أظهر الطاعة له . وأراد أن يبدأ بالاستيلاء على الولايات الشرقية ، وقد مر ذكر ذلك قبلا[2] . ولما كانت ممالك هـراة والغور وغرجستان وسجستان حتى حدود الهند قد أضيفت إلى ملكه ، ولم يكن فيها من معارض ، وكانت تلك البلاد مقر سرير ملك السلطان محمود بن سبكتكين[3] وأولاده من بعده ، واستمر انفصال تلك البقاع في أيام سلاطين الغورية ، فقد اختار لها السلطان جلال الدين ليكون حاكمها .

---

(١) كانت غزنين أو غزنـة عاصمة الدولة الغزنوية ، ومن هنـا جاءت شهرتها تاريخياً ، وتقع في القسم الشرقي من افغانستان (ت) .

(٢) هذه الفقرة يعني : الحصول على مناشير دار الخلافة في خزائن غزنين لم تذكر في مقدمة الكتاب المذكور ولا في أي مكان آخر ، ولم تذكر إلا في الورقة ٩٢ . ويقال : إن المصنف حين رتب مسوداته قبـل تبييضها قدم وأخـر ، فاضطرب إرجاعه إلى الأخبار .

(٣) ورد في الأصل « محمود سبكتكين » ومحمود مؤسس الدولة الغزنوية وأقوى ملوكها . وقد تنبه المترجم الانكليزي إلى ذلك . وربما أضافها المؤلف إضافة البنوية ، أي بوضع كسرة تحت الاسم الأول فيعني أنه ابن من بعده (بالفارسية) ولم يشر المحقق إلى ذلك (ت) .

ذكر خانات القراختاي

وأحوال خروجهم واستئصالهم

أصلهم من الختا ، من جملـة المعتبرين والمشاهير . أمر ما جرى لهـم يجرءهم إلى الرحيل والاغتراب ومكابدة الأسفار وتحمل الأخطار . يدعى أميرهم ومقدمهم كورخان أي خان الخانات . وحين انفصل عن الختا وخرج منهم لم يكن معه أكثر من ثمانين شخصاً من قومه وأهله . ورواية أخرى تذكر أنه خرج معه جمع غفير. وحين وصلوا حدود « قرقيز » هاجموا القبائل الساكنـة في تلك البقاع ، فصدتهم تلك القبائل ، فاضطروا إلى الانزيـاح ثانية حتى بلغوا « إيميل » ، فبنوا هناك مدينة ، ما زالت آثارها إلى الآن باقية . وتجمع حولهم أفواج كثيرة العدد من الأتراك ، حتى بلغ عدد مساكنهم اربعين ألف منزل[1] تقريباً . فتعذر عليهم البقاء في هذا الزحام فرحلوا إلى حدود « بلاساقون » ، ويدعوها المغول اليوم « غز باليق »[2] . وكان أمير

---

(۱) وفي رواية : ١٥٠ الف منزل .

(۲) غز باليق : في المتن وردت بالراء المهملة ، وكذا في أغلب النسخ ، عدا واحدة فكما ذكرنا في المتن بالزاي . ويكتبها مؤلف حبيب السير « غوباليغ » ومعناها المدينة الجيدة ، وما اخترناه يناسب المستشرق الألماني Marquart والمترجم الانكليـزي Boyle ومعناها عندئذ : مدينة الغـز ، وكلمة « باليق » بمعنى المدينة . كما أن هذه الكلمة تختم بالقاف أو بالغين لتناسب الحرفين لديهم في نطـق واحد . ومن الطريف أن الصينيين يسمونها « غـز أوردو » معناها المعسكر (ت) .

تلك المنطقة ينتسب إلى أفراسياب[١] ، ولكن لم يكن له قـوة ولا سطوة ، فخلعته قبائـل الترك : القارليغ[٢] والقنقلي لرفضها طاعتـه والانقياد له ، وهاجموا أنعامه ومواشيه واستولوا عليهـا • لكن الأمير الذي كان يتولى إمارتهم عجز عن صدهم وردهم • وحين بلغ هذا الأمر غلبة كورخان وكثرة أتباعـه ، أرسل إليه يبيّن لـه عجزه وقصوره ، واستيلاء أقـوام القارليغ والقنقلي على ممتلكاته وعجزه عن استردادها منهم • ويرجوه أن يتقدم إلى دار ملكه ويضمها إلى ممتلكاته ، فيخفف عليه من غصته •

واتجه كورخان إلى بلاساقون ، واعتلى عرشها مجاناً ، وحمل اسم حفيد أفراسياب إضافة إلى لقب الخان• وتسمى « إيلك الترك »[٣]• وأرسل الشحنة إلى الأطراف من : قم كبجك[٤] إلى بارسخان[٥] ، ومن طراز إلى يافينـج[٦] • وبعـد مضي حـين من الزمان سمنت فيـه مواشيه وترفهت حواشيه ضبط أمور قبائـل القنقلي وتوجـه بجيشه نحـو كاشغر وختن ، فاستولى عليها•وبعد ذلك اتجه من هناك إلى حدود القرقيز انتقاماً لتحركاتهم

---

(١) أفراسياب : اسـم ملك الترك ، ورد ذكره في الشاهنامة ، وهو الـذي نازل رستم (ت) •

(٢) تلفظ بالغين وبالقاف ، وكلاهما صحيح (ت) •

(٣) إيلك : بالتركية ملك (ت) •

(٤) في النسخ الأخرى : قم كيحك ، قم كنجك ، قم كنجيل (المحقق) • وفي النسخة الانكليزية : قم كمجيك (ت) •

(٥) في المتن لم يرد الاسم واضحاً « مارسرحان » ، ولم يصل المحقق إلى رأي ، بينما رأي Boyle رأينا فكتبه : Barskhan (ت) •

(٦) كذلك لم يتأكد المحقق من الاسم فرسمه « ما منح » ، وما ذكرناه من النسخة الانكليزية، طبقاً للكاشغري ويذكر أنها اسم لمدينة قرب إيلي واسم نهر (ت)•

التي أقلقتهم . كما استولى على « بيش باليغ » . ثم أرسل جيشاً نحو فرغانة وما وراء النهر ، فخضعت له كلها ، وسار على تبعيته سلاطين ما وراء النهر الذين هم آباء السلطان عثمان وأجداده .

وبعد أن تيسر له هذا الفتح ، وقوي جيشه وازدادت خيوله وفرسانه ، أرسل قائده أربوز إلى خوارزم ، لينهب قراها ويعيث فيها سفكاً . فأرسل أتسز ملك خوارزم رسولاً إلى أربوز[1] يعلن له طاعته ودفع جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف دينار[2] ذهباً . كما سيرسل إليه كل سنة أغذية ومواشي . فعاد أربوز بهذه المصالحة ظافراً . وبعد حين غير بعيد توفي كور خان ، فجلست زوجته كويونك مكانه على العرش ، وشغلت بتدبير أمور الحكم ، فأطاعها الحشم جميعاً . لكن أهواءها النفسية غلبتها ، وسيطرت عليها شهواتها ، فأعدمت مع من كان مرتبطاً بها .

بقي اثنان من إخوة كورخان حيين ، فاختير أحدهما مكان الأخ الراحل . أما الأخ الثاني فحاول أن يرقى العرش لكنهم منعوه وأقصوه . واستطاع الأخ الأول أن يمكن وضعه على العرش ، فأحسن اختيار أصحاب المناصب ، وأرسل الشحنة إلى الأطراف .

وحين تسلم تكش حكم خوارزم مكان أبيه أتسز ، استمر على دفعه الجزية المفروضة على أبيه ، ساعياً إلى إرضاء خان القراختا الجديد بكل وسيلة . حتى إنه حين دنا منه الموت أوصى بنيه بعدم محاربة كورخان

---

(1) أخطأ المترجم الإنكليزي فجعل الرسول إلى كورخان (ت) .

(2) وهم المترجم الانكليزي فجعل الرقم ثلاثة آلاف ، ولعله خلط بين « سي » بمعنى ثلاثين و « سه » بمعنى ثلاثة . والمتن واضح « سي هزار » . والذي ترجم هذا الفصل هو الدكتور K. H. Menges وليس Boyle المترجم الأصلي (ت) .

الجديد وعدم الامتناع عن دفع الأموال إليهم ، فهو بهذا المال يجعلهم سداً دون من وراءهم من الخصوم الألداء . وجاءت نوبة الملك إلى السلطان محمد فاستمر حيناً على دفع المال ، وظلت الصداقة دائمة بين الطرفين . وحين هاجم السلطان شهاب الدين ملك الغور السلطان محمد طلب الأخير مدداً من كورخان فأرسل إليه عشرة آلاف رجل . فتلاقى الجيشان عند « أنْدَخود » فانهزم الغوريون . فانتعش السلطان محمد ، وأحسّ بالسعد يواكبه مما جعله يشعر بالأنفة من دفع الجزية . فماطل في دفعها سنتين أو ثلاث سنوات . ولما أحس كورخان بتوانيه عن دفع ما عليه أرسل إليه وزير الملك محمود تاي لاستيفاء الجُعل المحدد . فأغلظ الوزير في القول أمام السلطان في خوارزم .

كان السلطان في هذه الأثناء يستعد لمحاربة « القِفْجاق »[1] ، فلم يرَ الصلاح بأن يجيبه على خشونته بخشونة أكبر ، عملاً بوصية أبيه . كما أنه لم يرغب في انتهاز الفرصة من قبلهم أثناء غيابه عن البلاد . فتحمل العار والإهانة ، وأجابه إجابة حسنة ، ولم يكشر عن أسنانه غضباً . ثم أوكل أمر الوفد إلى أمه تركان خاتون ورحل . فأمرت بإكرامهم أحسن إكرام ، ومراعاتهم وتسليمهم الجزية السنوية ، وأرسلت مع الوزير بعض الأعيان ليعتذروا إلى كورخان عن تأخر السلطان في الدفع السنوي ، ويشرحوا له تقدير السلطان له واتباعه آراءه كما هو الحال في السابق .

لكن محمود تاي كبير الكتاب أدرك تمرد السلطان ، وعرف مزاجه الذي لا يقبل هذه الإهانة ولا التملق :

---

(١) القفجاق : صحارى جنوبي روسية الحالية . وهي التي سيفتحها فيما بعد جوجي بن جنكيز خان (ت) .

إني أنا الأسدُ الهصورُ لدى الوغى خِيسي القَنا(١) ومخالبـي أسيافي
والدهرُ عبدي والسماحـةُ خادمي والأرضُ داري والورى أضيـافي

فشرح لكورخان أحواله وقال : إن السلطان منافق في كل ما بدر منه ، ولن يدفع شيئاً بعد الآن . فلم يُعر كورخان رسله اهتماماً ولا أولاهم رعاية .

وعاد السلطان مظفراً من غزوته في بلاد القفجاق ، واستقر في عاصمة ملكه خوارزم . فوضع نصب عينيه الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر ، فجهز جيشه ووجهه نحو بخارى ، وشرع يرسل الرسل خفية إلى الأطراف ، ويعدهم بأفضل الوعود . وخص السلطان عثمان بأفضل الترحيب . وبالتالي فقد ملَّ هؤلاء الأمراء حكومة كورخان ، وكثيراً ما أظهروا سخطهم على عمال كورخان ونفروا من معاملاتهم . فلقيت دعوة السلطان هوى في نفوسهم واستبشروا بها خيراً . وقرر السلطان أن يعود ثانية إلى بخارى في السنة القادمة ، فقفل راجعـاً .

وفي هذه الأثناء أعلن أمراء كورخان في الجانب الشرقي عصيانهم . وكان آنئذ كوجلك ملازماً لكورخان ، فلم يقدر على إعلان اختلافه معه . ولكنـه حين أدرك اضطراب الأوضاع وتزلزل حكم كورخان استأذنه في العودة ليجمع بقايا العسكر والمتفرقين منهم في الأطراف ، ليمده بهم . وافق هذا الكلام هوى كورخان ، ولم يكن أكثر من منبع للزور ومجمع للفجور . فأذن له بالانصراف وحمّله الخلـع الثمينة النادرة ، ولقبه كوجلك خان . لكن كورخان ندم على سماحه له بالذهاب « ويندم حين لا تُغني الندامة » ، فأمر بحضور أمراء الأطراف إليه . ولما كان السلطان عثمان مغتاظاً من كورخان لرفضه طلبه يدَ ابنته لـم يستجب لدعوته ، فتضايق كورخان من عدم تلبيته أمر حضوره .

---

(١) الخيس : (بكسر الخـاء) الشجر الملتف وموضع الأسـد ، والمعنيان يناسبان (قاموس المحيط ـ ت) .

وبالتالي أرسل السلطان عثمان رسولاً إلى السلطان محمد يعلن له عن خضوعه له ، وأمر بالخطبة والسكة أن تكونا باسمه في سمرقند ، معلناً بذلك عداءه السافر إلى كورخان .

حين بلغ كورخان هذه الأنباء جهز ثلاثين ألفاً من الجنود وأرسلها لحربه، فاسترد الجيش مدينة سمرقند منه من غير أن ينهبوها لأنه يعلم أن خزينة سمرقند ملك له . ولما كانت الأطراف العليا متأزمة بوجود قوة كوجلك الكبيرة فيها فقد توجه لحربه نحوه ، وعانى في هذه الحرب كثيراً . فانتهز السلطان انشغال جيش كورخان مع كوجلك وتوجه نحو سمرقند . وهناك التف السلاطين حول السلطان وسلموه سمرقند ، ومن هناك قرر ملاحقة كورخان . وحين وصل إلى طراز قابله جيش كبير بقيادة تاينكو ، فخرج إليه وصادمه . وبدأت المعركة حامية الوطيس ، ثم أسفرت عن تراجع جيش الختا ، ولكن بعد أن سيق تاينكو أسيراً[1] . وعاد السلطان أدراجه .

وشرع جيش الختا لدى عودته ينهب ويغير ويقتل كل الأماكن التي كان يطؤها ، حتى إذا وصلوا إلى بلا ساقون ، أيقن الأهالي بأن السلطان سيأتي إليهم ويخلصهم ، فعمدوا إلى إغلاق البوابات ، والاحتماء بأسوار المدينة . وحين وصل جيش الختا لم يفتحوا لهم ، وأخذوا بمحاربتهم . ودامت الحرب بين الطرفين قاسية مدة خمسة عشر يوماً ، على أمل هجوم السلطان من الخلف. وكم قدم لهم محمود تاي وأمراء كورخان من مواثيق ومواعيد ، ولكن الشعب لم ينثن عن عزمه،حتى تجمع جيش الختا من كل جانب عليهم،وربطوا الأبواب بالفيلة وسحبوها حتى خربوها . ودخل الجيش المدينة ، وأعملوا السيف في رقاب العباد ، فلم يبقوا على أحد حياً . وداموا على غارتهم ثلاثة أيام بلياليها،

---

(١) انظر تفصيل هذه الحرب قبل صفحات (ت) .

وكانت النتيجة قتل سبعة وأربعين ألفاً من السادة المعتبرين • وغنم جيش كورخان من الأسلاب الكثير • ولما كانت خزائن كورخان من جملة ما أغير عليه ، فخلت من أموال الجرايات والرواتب ، فقد خشي محمود تاي من أن يغيروا كذلك على أمواله التي كانت تفوق أموال قارون • فأمر ، طمعاً ، بأن تسترد الأموال التي سُلبت من كوجلك لأنها تخص الخزائن • حين سمع الأمراء اقتراحه تقاعدوا عن أداء ما سلبوه ، واستوحشوا لرأيه ، وجنحوا إلى الطغيان •

وعاد كوجلك إلى جمع جيشه ولمّ شتاته حين سمع أن كورخان حلّ جيشه ووزعه • فاغتنم الفرصة واتجه بسرعة البرق يهاجم • قال الله تعالى : «ألم ترَ أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزّاً ؟ » إلى أن تفرق كل جيشه • وحين انعدمت كل الوسائل أمامه طلبه كورخان لخدمته ، متواضعاً في طلبه • غير أن كوجلك رفض طلبه وتعزز طالباً مقام والده والإشراف على رعاية حرمته • وكان كورخان قد خطب ابنة أحد الأمراء العظام التي تغار منها الزُهرة والمشتري لنفسه • وحين اضطر إلى إرضاء كوجلك تنازل له عن هذه الخطبة • وبعد سنة أو سنتين من هذا الحدث توفي كورخان ، فخمدت رياح هذه الدولة بعد مضي ثلاثة قرون ؛ خمس وتسعين سنة[1] من الغبطة والسعادة،

---

(١) كذا رأينا ترتيب الرقم • فالقرن ثلاثون سنة (على الغالب) • وورد في إحدى النسخ في الحاشية : ثلاثة قرون وخمس سنوات ، أي خمسة وتسعون عاماً ، وهي الرواية التي اختارها المترجم الانكليزي • ولم يضع المحقق الفاصلة المنقوطة حيث وضعناها لتوضيح المقصود من ثلاثة قرون (وخمس سنوات) • ويقول الفيروز آبادي : « القرن : أربعون سنة ، أو عشرة ، أو عشرون ، أو خمسون ، أو ستون ، أو سبعون ، أو ثمانون ، أو مئة ، أو مئة وعشرون ، والأول أصح » ولهذا قلنا فوق : (تقريباً) • لكن المؤلف حتماً يؤكد على ٩٥ سنة (ت) •

من غير أن يعكر صفو بِشرهم شَر • ولكن حين عاكستهم الرياح وآذنت بزوالهم انطلق سجين من معتقله وغدا حاكم البلاد وغدا ملك قبور[1] القوم، لكن شعبه كله قد تفرق وتلاشى :

« حين أزف الأوان زال الملك ، فلم يأت عمله وملكه بنتيجة »

« إن أتت غنمت وإن تذهب تتألب ، يتشرف قعر الكف بهذا الكنز »

قال الله سبحانه وتعالى : « كدأبِ آلِ فرعونَ والذين من قبلهم كذبوا بآياتِ ربِّهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأغرقنا آلَ فرعون ، وكلٌ كانوا ظالمين » •

« انتهى هنا المجلد الأول • ويليه المجلد الثاني وأوله : ذكر بقية أحوال السلطان سعيد محمد واختلال عمله ، في مدينة إكسيتر – بريطانية • والحمد لله »

---

(١) تلاعب المؤلف بجناس لطيف حيل فهمه على المترجم الانكليزي • فكلمة (كور) جزء من اسم الملك الخان ، وكلمة (كور) بكاف فارسية تعطي معنى حمار الوحش والقبر • واخترنا المعنى الثاني لأنها وردت هكذا (كورخان)(ت) •

المستدرك من النسخة الانكليزية ج (١)
مع رقم الصفحة ورقم الحاشية

THE HISTORY OF THE WORLD - CONQUEROR
JOHN ANDREW BOYLE

رقم الصفحة(١)

٦٩ (ص ٣٥/ح ٢) كان القيات أو الكيات Qiyat - Kiyat مقسمين الى عشائر مغولية من البوريجين ·

٦٩ (ص ٣٥/ح ٥) يرى ماركو بولو أن أونك خان وأونك روبروك واحد ، ويرى أن اسمه الأصلي هو Prester John وفي الحقيقة ان كلمة (أونك) بحسب النطق المغولي في الصين Wang تعني الأمير · ويرى Grousset أن اسمه الحقيقي هو طغريل · وشعبه « الكريت » لعله من أصل تركي ، وكانوا نصارى نساطرة ، عاشوا على طول أورخان وتولا في الجبال ·

٧٠ (ص ٣٧/ح ٧) يقترح القزويني ، كما في المتن أن الكلمة Klk ويرجح أن تكون محرفة عن Kslk بالسين أو بالشين· وقد بيّن رشيدالدين الاسم فقال هو « كشليق » ، وكذا في التاريخ السري · وقد استمر كشلك في خدمة الفاتح لدى عودته من الحملة ضد الغرب ·

٧٠ (ص ٣٧/ح ٩) وهي إشارة مهمة من الجويني · بينما لم يذكر التاريخ السري ولا رشيد الدين الهجوم على جنكيز خان ·

٧١ (ص ٣٨/ح ١٤) أويرات : قبيلة بدائية على الشاطيء الغربي من بحيرة بايكال ·

٧١ (ص ٣٨/ح ١٥) يرى رشيد الدين أنها Qonqirat ويراها التاريخ السري Onggirat ، كانت هذه القبيلة تقيم في أقصى الشرق من منغوليا ، وإليها تنتمي زوجة جنكيز خان الأولى ·

---

(١) الرقم على اليمين يدل على وجوده في هذا الجزء · واذا تكرر رقم الصفحة دل على وجود أكثر من مستدرك في الصفحة الواحدة ، فتابع عندئذ التسلسل · وكل رقم يدل على دائرة (●) في الصفحة المذكورة ·

٧١ (ص ٣٩/ح ١٨) كلمة « التون » بالتركية مثل كلمة Chin بالصينية ، وتعني الذهب • ويدعوه ماركو بولو « الملك الذهبي » • والكلمة Chin لقب الأسرة المالكة الذي اختاره زعماء اليورخان وهم شعب جذوره في شمال منشوريا ، قاموا عام ١١٢٣ بطرد أسرة الخان (لياو) من شمال الصين . وفي الحقيقة ان جنكيز خان لم يقتل أياً من الأباطرة الذهبيين ، ربما كانت الاشارة هنا الى انتحار آخر حكام الأسرة المالكة عام ١٢٣٤ في أثناء حكم أوكتاي • وانظر كذلك غروسيه ٢٩٢ في كتابه الامبراطورية المغولية .

٧٣ (ص ٤٢/ح ٤٢) بلغار : مقاطعة على الفولغا ، ولا يعني المؤلف المدينة وحسب • وهي تبعد ١١٥ كم عن مدينة قازان و ٧ كم عن شاطىء الفولغا الأيسر • Minorsky, Hdudud, 461

٧٥ (ص ٤٤/ح ٤) هي كلمة صينية الاصل من Shao - Chien ومعناها المشرف الصغير ، وهذه الكلمة الى جانب كلمة شيان كو ومعناها المشرف العام ، وهي فيما يبدو تشير الى طبقة أرفع من المشرف الصغير ، والكلمتان مصطلحان من القراختاي المناظران لكلمة « الشحنة » • راجع الأصل Wittfogel, 666 ، ويورد المرجع الصيني « سِجل" أسرة كاوتشاآنك » حكاية مختلفة نوعاً ما لنهاية هذا الشحنة • فحين حوصر المشرف الصغير لجأ الى برج ، فتسلل خلفه رجل يدعى بلج ، وكان المحرض على ذلك الهجوم على عميل القراختاي ، فقطع رأسه ، انظر : Wittfogel •

٧٥ (ص ٤٥/ح ٩) تار باي : وردت عند رشيد الدين والتاريخ السري « دار باي » • كان هو ورفيقه رسولين لجنكيزخان وليس لإيدي قوت كما في التاريخ السري • ثم حمَّلهما إيدي قوت رسالة الى الخان بعد أن حملا اسم « بوغوش ـ اش ـ ايغوشي » • وقد انحاز تار باي الى « تتاري » أو « تتار » •

٧٥ (ص ٤٦/ح ١١) تقع خرابات أترار (فاراب) على الضفة الغربية لنهر سيحون قرب « إيريش » كانت على الحدود المتاخمة لامبراطورية محمد خوارزمشاه ، حيث أرسل جنكيزخان رسله إليها وقتلوا (كما ورد) • وفيها مات تيمورلنك عام ١٤٠٥ في أثناء اتجاهه لحرب الصين •

٧٥ (ص ٤٦/ح ١٥) وخش : هي الضفة اليمنى الغنية لجيحون ، والتي هي تاجيكستان اليوم • وكانت وخش أيضاً اسماً لمقاطعة على شاطىء وخش •

٧٧ (ص ٤٧/ح ١٩) يلفظهـا المترجم الانكليزي (كسمس) ، ومعناهـا : التي لا تقطع .

و (ص ٤٩/ح ٩)تكمش لعلها من الجذر Tekish أو Tegish وهو اسم أبي محمد خوارزمشاه . انظر : (Pelliot - Hambis, Compagnes, 91)

٧٩ (ص ٥٢/ح ١٦) أوكنج أعلمني الأستاذ Cleaves برسالته عن سيرة إيدي قوت بارجوك أنها احتلت حين مات بارجوك . وقد انتصر بمساعدة ابنـه الثـاني Yü - Ku - Lun - Ch, Ik (Ugurunehi)والـذي يسجلـه الجوينـي Ogünch .

٨٠ (ص٥٤/ح ٤) يرى الجويني أنه شخصية تاريخية بارزة . ويؤكد Pelliot في ملاحظاته على (تركستان) على نطقه كما ورد عند الجويني .

٨٠ (ص ٥٤/ح ٧) أورد وبالغ : يرجح أن تكون « قرا بلغاسون » عاصمة المغول القديمة .

٨٠ (ص ٥٤/ح ٨) ماو وبالغ : معناها المدينة السيئة ، من الكلمة المغولية M A' U بمعنىالسيء والكلمة التركية Boliyh بمعنى المدينة .

٨١ (ص ٥٤/ح ٩) ربما كان النقش المشهور المكتوب بثلاث لغات : الصينية والتركية والسغدية ، وكلها تثني على الحاكم الأويغوري (انظر غروسيه : L'Empire des Steppes : 174)وانظر كذلك من أجل ترجمات النص الصيني Radloff, 286 (بلا رقم) Schlegel) وفي حـين يشـير هـذا النقش بشيء من التفصيل الى تحول الأويغور الى المانويـة على يـد مبشرين استقدموا من الصين فانه لا يشير على الاطلاق (كما ذكر : Marquart, 767)الى معجزة ميلاد بوقو أو الى فتوحه العديدة . ولعل ذلك يرجع الى أن نقش بلاساغون إنما ينظر اليه في عداد الحجارة المحفور عليها النقوش ، والتي ذكرت قبلا . وللاطلاع علـى وصف النقش كمـا وصفـه الروس ، والذي كـان بستّ قطع ، يرجع الى : Radloff, 283 .

٨١ (ص ٥٥/ح ١٢) يلاحظ Marquart, 59 أن قملانجـو موضـع أسطوري بحت ، ولا يرى ترابطاً بين (تولا) و (سيلنكا) . ويبدو أن القسم الأول تابع الى أورخون . ويعرّف الكاشغري : ٢٤٢/٣ قملانجو فقط بأنه اسم لمدينة صغيرة قرب « إيكي أوغوز » .

٨٢ (ص ٥٦/ح ١٦) يعزو رشيـد الدين الحكومة الى بوقوخان الـذي كان حاكماً عظيماً في الأيام الغابرة ، والذي كان محترماً جـداً لدى الأويغور ولدى عدد من القبائل الأخرى التابعة له ، ويرون أنه ولد من شجرة . وقد كانت هذه الأسطورة معروفة في زمان ماركو بولو ، ويذكر أن الأويغور يقولون : كان ذلك الملك أول من حكمهم ، ولم يكن من الطبيعة البشرية ، إنما كان واحداً ممن أنتجتهم لحاء الأشجار ، وندعوهم : Esca .

٨٣ (ص ٥٨/ح ٢١) لا يعرف موضع قزباليغ اليوم ، ولعلها مكان قريب من Chu (انظـر Histoire Des Turcs, 64 - 65) ، وطبقاً لقول الكاشغري فإن بلاساغون كانت تعرف قز أولوش كذلك .

٨٦ توق تغان الاسم بلا شك يطابق اسـم رئيس قبيلـة الماركيت « توقو بيكي » كما جـاء في التاريخ السري و « توقـا » عنـد رشيـد الدين . ويناقش Pilliot تاريـخ الكلمـة وينتهـي الى أنهـا مثل « تكتمش » : اسـم لخصم جنكيزخان التي جاءت من اللغة التركية ـ المغولية من الفعـل Toqta أو Toqte بمعنى قف واثبت في مكانك . مع أن صيغة الاسم كما يبدو ذات معنى مختلف وهو الباز المتخم بالطعام . من Toq يشبع و Toghan النسر . بيلوت نفسه يعزو مسألة الأسماء المتشابهة مثل توق بوقا وتوق تيمور الى ظاهرة التكرار والظهور عند المغول .كما يتطابق مع الاسم الـذي أورده الجويني ، واختلط توقا بيكي مع أسماء أبنائه قودو أو قول تغان ، والذي يبدو توق تغان في هذا المقطع أنه الأب ، كما يرد أحياناً أنه الابن .

٨٦ (ص ٦١/ح ٢) أبرز القزويني خطأ الجويني . كوجلك كان ابناً ليس من أونك خان حاكم الكرايت ولكن من « تاي بوقا » أو من « تايانك خان » حاكم النايمان . فبعد موت أبيـه في المعركة عام ١٢٠٤ هرب الى عمـه بو يروق. وبعيد موتـه جعل سبب ذلك توقتو حاكم المركيت. وفي ١٢٠٨ (وفي التاريخ السري ١٢٠٥) أنه عانى آلام الهزيمة ليبلغ آيرتيش . توقو كان قد قتل، وكوجلك هرب الى كورخان ، (انظر التاريخ السري ١٩٨).

٨٧ (ص ٦٣/ح ٧) يبدو أن كوجلك كان يخادع الكرايت والمركيت معاً . والمركيت قبيلـة متوحشة قطنت منخفضات سلنكا على طـول الشواطىء الجنوبية من بحيرة بايكال .

٨٧ (ص ٦٤/ح ٨) فناكت أو بناكت تقع على الضفة اليمنى لنهر سيحون على مقربة من مصب آهنكران . ولعل المقصود بنهر فناكت هو نهر سيحون نفسه .

٨٧ (ص ٦٤/ح ٩) يفترض أن أوزكند تقـع على نهر سيحون بين سقناق وجند ، ولكنها حتماً ليست في فرغانة • وهي الآن في قرقيسيا •

٨٧ يذكر النص (جنيتوخ ؟) والهجاء موضع شك كبير • وربما كان العنصر الثاني من الاسم هو الكلمة التركية Uch بمعنى الحافة أو الحد ، والعبارة التي تترجم بمعنى قريب هي (دركنار) وتعني عادة على ضفاف• ومعنى ذلك أن Chinuch قد يكون نهـراً ، ولكنها يمكن أيضاً أن تعني : على حدود • وفي هذه الحالة فان الكلمة قد تكون إقليماً أو سلسلة جبلية •

٩٥ (ص ٧٤/ح ١) فولاد أو بولاد كلمة فارسية تعني الحديد الصلب• كانت تقع بحسب رواية Bretschneider, 2 - 42 علـى غير مبعدة كبيرة من بحيرة سيرام ، حيث كان ينقب عبيد بوري عن الذهب ليصنعوا به السلاح •

٩٧ (ص ٧٧/ح ٢) الاسم غير واضح الضبط •

١٠٠ (ص ٨٢/ح ٣)وبحسب رواية الجوزجاني أنه بعد ذلك اشترك مع تولان جوبي في الاستيلاء على حصنين •

١٠٢ (ص ٨٤/ح ٩) وهذا ما يفعله المغول فعلا في مثل تلك الحالات • وهكذا فان جنكيزخان أعدم كوكوتشو بن أونك خان بسبب تركه سيده يهلك في الصحراء (التاريخ السري ١٨٨) • كمـا ضربت أعناق خونـة جاموكا المنافس الأعظم للفاتح جزاء لهم على خدماتهم (التاريخ السري ٢٠٠) • ومن ناحية أخرى فان (نيا آ) من (بأرين) الذي أقنع أبـاه وأخاه بأن يطلقا سراح زعيم من (تايسيئوت) وهو عدو لدود لجنكيزخان وقد كوفيء أحسن مكافأة على فعله (التاريخ السري ١٤٩) •

١٠٣ (ص ٨٦/ح ١٢) كوك سراي هي على ما يبدو ضاحية لسمرقند تحيط بقصر • كما أطلق الاسم فيما بعـد على قصر بُني من أجـل تيمورلنك (انظر بارتولد ، في كتابه تركستان ٤١٢) •

١١٠ (ص ٩٦/ح ٢٢) الاشارة هنـا الى هزيمـة السلطان سَنجر السلجوقي الساحقة على يد القراختاي عـام ١١٤١ في سهـل قطوان الى الشرق من سمرقند (انظـر بارتولد ، تركستان ٣٢٦) • وقد كانت أخبار هـذا النصر على المسلمين هي مصدر أسطورة (Prester John)

١١٥ (ص ١٠١/ح ١٠) سبتاي : هو القائد المغولي الذي اجتاح بالاشتراك مع Jebe (YEM) شمال فارس تعقبـاً للسلطان محمد • وقد عبر القوقاز ،

فبعد أن أوقع الهزيمة بالروس في كالكا ، عاد أدراجه الى جنكيزخان عن طريق سهـل قفجاق (انظـر غروسيه : ٢٥٧ ــ ٢٦١ و ٥١٥ ــ ٥٢١ . وكتاب فاتح العالم : ٣٤٠ـ٣٤٦) واسمه في التاريخ السري: Sube' Etei . وكان ينتمي الى قبيلة أدريان باكات (المرجع السابق ١٢٠) .

١١٦ (ص ١٠٣/ح ١٦) كوك خـان ينطق « كورخان » ، ويعتقـد بارثولد في كتابه (تركستان : ١١٩) أن كورخان ليس إلا منافس جنكيزخان القديم واسمه (جاموكا) الذيحظي بلقب كورخان بصفته زعيم الاتحاد والمناوىء لصديقه السابق (انظر غروسيه : ١٣٢) . ومن ناحيـة أخرى تذكـر المصادر المحلية أن جنكيز خان أعدمه قبـل سنوات عديدة من حملته على الغرب (غروسيه : ٢٠٦ ــ ٢١٠) .

١٢٠ (ص ١٠٨/ح ٣١) ولفظها Sorqotani من الكتاب السري ورشيد الدين . ولدى Carpini هي Sercotan .

١٤١ (ص ١٣٥/ح ٨) عند براون هو « شيكي كيدو ــ تيوكو » القائد المغولي. وقد عثر عليه طفلا صغيراً في معسكر مهجور للتتر بعد هزيمتهم على يـد جنكيز خان وأونك خـان كحلفـاء للامبراطور Chin (التاريخ السري : ١٣٥) . وقـد تبنته أم جنكيز خـان أو زوجتـه بورت بحسب روايـة رشيد الدين . وفي القوريلتاي العظيم عند منابع الأونون عام ١٢٠٦ نال وظيفة القاضي الأعظم (التاريخ السري : ٢٠٣ وغروسيه ــ الامبراطورية المغولية : ١٨٣) .

١٤٢ (ص ١٣٧/ح ١٣) يميل بارثولد (تركستان : ٤٥٤) الى عدم الثقـة بتفاصيل هـذه القصة (والتي كمـا يوضح هو : رويت فيما بعد منسوبة الى تيمورلنك) ولا سيما أن الجوزجاني ، والذي ليس من عادته مداراة فظائع المغول لا يقول كلمة عن هـذه الواقعـة ، والتي لا يمكن أن يكون جاهلا بها .

١٤٦ (ص ١٤٥/ح ٦) رخ اسم آخر لمنطقة « زاوة » .

١٤٨ (ص ١٤٧/ح ٢٣) بغاخان : المفترض أنه هو نفسه (كوخ بغا) الذي ، طبقاً لرواية النسوي ، أرسله السلطان جـلال الدين أخو ركن الدين ضد جمال الدين أيبه، والذي قتل فيما بعد في المعركة التيجرت بين جلالالدين والمغول بالقرب من أصفهان .

١٤٨ (ص ١٤٨/ح ٢٦) ورواية أخرى (آي أبه) المقطع الأول في هذا الاسم تركي (آي : القمر) والمقطع (أبه : الدب) · غير أنــه من المحتمل أن تكون (أبَه) وهي كلمة غامضة تعني ، من بين معان عديدة ، الجد · وبحسب رواية النسوي فان اسمه الكامل كان « جمال الدين محمد بن آي أبه » · ومن ذلك يبدو الاسم (آي أبه) في الحقيقة اسم أبيه ، وأن نص الجويني يجب أن يقرأ جمال الدين آي أبه (بكسرة تحت النون وهــي كسرة الاضافة البنويّة ــ التونجي) أي جمال الدين بن آي أبه ·

١٥٦ (ص ١٥٨/ح ٣٧) أغل الحاجب أشير إليه فيما سبق من الكتاب باسم (مغهول الحاجب) (انظر بارثولد : ٤٣٣) · ويبدو أنه هو نفسه أغول الحاجب الذي ذكره النسوي ، والذي أسبغ عليه لقب اينانج خان · وفي الفصل المخصص لهذا القائد يدعى أيضا بدر الدين اينانج خان ، وكان قد كلف من قبل جلال الدين بالاشتراك في الدفاع عن بخارى ، وبعد سقوط المدينة فرّ غرباً الى اقليم نسا وأبيورد أولا ثم الى سبزوار ، وأخيراً الى جرجان حيث أوقــع الهزيمة بالمغول ·· ومــع ذلك فان النسوي والجويني يذكران وجــوده هناك زمن وصول جــلال الدين من الغرب · بل إنهما يذكران تحذيره للسلطان حول مؤامرة تحاك ضده ·

١٦٢ (ص ١٦٥/ح ٣٤) أقترح نطقها Sang Bast وهي قرية تقع على بعــد حوالي ٢٠ ميلا عن مشهد ·

١٦٢ (ص ١٦٦/ح ٣٥) طبقاً لرواية النسوي هرب كشتكين نفســه أولا الى سبزوار ثم الى جرجان حيث انضم اينان الحاجب الى أوغل الحاجب (انظر النسوي : ١١٥ ، وبارثولد ــ من غير صفحة) ·

١٦٢ (ص ١٦٦/ح ٣٨) لعلها (قبان) ·

١٦٣ (ص ١٦٧/ح ٤٠) اسمــه كما ورد عنــد النسوي تــاج الدين عمر بن مسعود ، وهو الذي نصب نفسه حاكماً على كركان وأبيورد ·

١٦٩ (ص ١٧٥/ح ١٣) أرى أن يكون (بوركاي) ، وكذلك في النسوي ·

١٧٣ (ص ١٨٠/ح ٤) كانت أمه الأميرة كولان بنت داير أوسون حاكم أوهاز مركيت (Sminova : 71) قتــــل في روسيــة بجبــــل كولومنــا علــى Oka (Blochet, 46 - Minorsky 3 / 226 - 229)

١٧٦ (ص ١٨٤/ح ٢٢) وصحة نطقهما Yekü and Yesü (التارخ السري٢٦٩)·

١٧٧ (ص ١٨٦/ح ٢٥) قارن حكاية كاربيني لانتخاب كيوك : في اليوم الأول كان جميع التتار يرتدون الأبيض ، وفي اليوم الثاني ، وهو اليوم الذي جاء فيه كيوك الى الخيمة ، كانـوا يرتدون الأحمر ، وفي اليـوم الثالث الأزرق ، وفي اليوم الرابع أفضل أنواع البلدكين (Rochill, 19) . وفي رأي Khara - Davan أن ارتداء الأبيض يرمز الى اشتراك الأولوز (مجموع العشائر) في انتخاب الخان . غـير أنـه ينبغي أن نلاحظ أن الألوان ترد بترتيب مختلف (Rockill, 37, 38) .

١٨١ (ص ١٩١/ح ٢) خوجاتبو نسقين يقترح أن ينطق القسم الأول من الاسم Ho - Chang - Fu Balaqasun والقسم الثاني من الاسم بمعنى المدينـة باللغة الصينية .

١٨٢ (ص ١٩٢/ح ٥) طبقاً للتاريخ السري : ٢٥١ يلفظ قداي رنكو .

١٨٣ (ص ١٩٥/ح ١٤) هـي في التاريخ السري Nan - Ching وتقـع جنوبي عاصمة الصين ، وهي اليوم K'Ai - Feng .

١٩١ (ص ٢٠٥/ح ١٢) قارن Rubruck : « لا يغسلون الملابس أبداً لأنهـم يعتقدون أن ذلك يغضب الاله ، وأن السماء ترعد إن هم علقوها لتجف . بل إنهم يضربون من يجدونه يغسل ملابسه . وهم يخافون الرعد بصورة مبالغ بها ، وحين ترعد السماء يخرجون الأغراب من مساكنهم ، ويلتفون باللباد الأسود حتى ينتهي الرعد » (Rockhill, 75, 76 O) .

١٩٦ (ص ٢١١/ح ٢١) موكا خاتون طبقاً لروايـة رشيد الدين كانت ابنـة حاكم بكرين التي تزوجها جنكيزخان . وبعد موته أصبحت زوجـة ابنـه أوكتاي على عادة المغول (شريطة ألا تكون أمه ــ التونجي) . وقد احبها أكثر من سائر زوجاته حتى إنهن غرن منهـا . ومن الثابت أنهـا كانت جذابة . وكان جغتاي قد أغرم بها ، إلا أنه تأخر في طلب يدها ، وقـد رفض أياً من زوجات أبيه الأخريات عوضاً عنها . ولم ينجب أوكتاي اطفالا منها ، ولعل هذا هو السبب في أنها غير مذكورة في القسم الخاص بزوجاته ومحظياته .

٢٠٦ (ص ٢٢٢/ح ٤٤) عن رشيد الدين أن عادة المغول حين يرون وجه الملك يقولون : رأينا وجه الملك الذهبي !.

٢٠٩ (ص ٢٢٥/ح ٥١) وفي رواية الجوزجاني لهذا الحادث فان خصم المسلمين

هو توني * أو كاهن بوذي يعرف التركية ، لكنه لا يعرف المغولية • وهناك نظرية تقول بأن جنكيزخان كان على علم بالصينية (انظر كتاب رحلات كيميائي : ١٥٩ Waley)) •

٢٠٩ (ص ٢٢٥/ح ٥٢) يذكر حمد الله Yaraqiya وهي Egrigaia التي ذكرها ماركو بولو ، وقراتاش باعتبارهما أشهر المدن في إقليم تنكوت •

٢١٤ (ص ٢٣١/ح ٦٠) سنقولي بوكا : هو (منقولي بوكا) • وبحسب رواية رشيد الدين هو منقولي بوك ، ويبدو أنهـا تركية ، فكلمة مينـك تعني الالف وكول بمعنى ألعبد •

٢٢٢ (ص ٢٣٩/ح ١) توراكينا خاتون : هي دروجين التـي ذكرها التاريخ السري • وبحسب رواية رشيد الدين : ٣ تنتمي الى أوهاز المركيت • وقد كانت ، أو لم تكن ، زوجة لداير أوسون حاكم تلك القبيلة • وفي الفصل الذي يتناول المركيت (Khetagurov , 116) يشـار إليها على أنهـا أيضاً زوجـة دايـر أوسون • ومن ناحيـة أخـرى (التاريخ السري : ١٩٨) كـان زوجها الأول هو كودو الابـن الأكبر لتوكتاي الأودييت المركيت • وطبقاً ليوآنشيب (الذي يقتبس منه Pilliot, 193) فانها لم تكن مركيتية ، بل كانت نايمية •

٢٣٩ (ص ٢٦١/ح ٤٢) يـرى Pilliot أن نطقها كما وردت صحيح ، وليس Qmsnka والأخيرة غير جائزة •

٢٤٧ (ص ٢٧٠/ح ٢) باشغرد وكلار : هنا الكلمتان مترادفتان ليس غير •

٢٤٨ (ص ٢٧١/ح ٦) كسبت المعركة ضد المجريين في (موهي) على الضفـة اليمنى لنهر سايو فوق موضع اتصاله والذي يدعى Tisza في ١١ نيسان (أبريل) ١٢٤١ • في تلك المناسبة نشب شجار بين باتو وسبتاي (انظر ترجمة « السيدة الصينية » لحياة سبتاي عند بيليوت بكتابه Horded'or, 131 وقد قضى المغول عام ١٢٤١ في السهل الهنغاري ، وفي ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٢٤١ عبروا الدانوب فوق الثلج (Minorsky, 228) .

٢٥٧ طمغاج خان : (ص ٢٧٩/ح ١٢) كان حاكم القراخانية (الخانية السود) اسمـه أرسلان محمـد بن سليمـان (ص ١١٠٢ ــ ١١٣٠) وانظـر : Barthold, 319 - 321 .

٢٦٤ (ص ٢٨٦/ح ٢٨) بغراخان : هو ابن أرسلان خان المشار إليه في صفحة

سابقة . وقد أعطي أبوه خطأ اسم بغراخان ، وقد يعود ذلك الى اختلاط بينه وبين عمه أبي المظفر تمغاش بغراخان ابراهيم . وكان محمود خان قد ترك مقاطعاته في ما وراء النهر بعد هزيمة سنجر على يدي كورخان . انظر : Barthold, 322 and 326 .

٢٦٦ بيغوخان : (ص ٢٨٨/ح ٣١) يرجح أن اسمه يبغوخان ، وهو لقب أمراء القارلوق .

٢٧٤ (ص ٢٩٦/ح ٤٦) ليس لأهل الصفة علاقة بالمتصوفة ، وسبب ذلك إقامة صلة لغوية مع جذر موهوم بين كلمة « صفَة » و « صوفية » . انظر : Reckendorf في الموسوعة الاسلامية .

٢٧٥ (ص ٢٩٦/ح ٤٨) تؤكد الروايات أن التاريخ هو اليوم السابع ، لكن بارثولد يرى أن اليوم يوم الأحد وليس الثلاثاء . أما إذا كان تاريخ اليوم هو السابع عشر فيكون يوم الأربعاء لا يوم الثلاثاء .

٢٨٢ (ص ٣٠٥/ح ٦٩) عندما تطلق لفظة أعاجم تعني لدى الاغريق البرابرة. وعندما كانت لفظة (أعجمي أو غلان) تطلق على الإنكشاري الحديث النشأة يعني أنه من أصل غير مسلم . انظر جيب وبراون في Islamic Society and the West, 329

٢٨٦ (ص ٣٠٩/ح ٨٣) القسم الثاني من الاسم كلمة تركية قديمة بمعنى الوزير . انظر : Hamilton, 157

٢٨٨ (ص ٣١٢/ح ٨٨) طبقاً لملاحظة الراوندي ٢٨٩ أن القلعة بناها الحشاشون أثناء حكم السلطان مسعود (١١٣٣ ـ ١١٥٢) عم أرسلان وأعطيت اسم « جهانكشاي » . ولم تنته في عهد مسعود بل تمت في مطلع عهد أرسلان (١١٦١ ـ ٧٧) .

٢٨٩ (ص ٣١٢/ح ٩١) هذه الصفحة غير موجودة في كتاب زبدة التواريخ تحقيق محمد إقبال (طبعة لاهور ٣٣) . ولعل هذه الصفحة ليست من إنشاء صدر الدين بل أضيفت على عمله . ولقد كان Hutsma في كتابه Acta Orientalita, 3 / 145 أول من تنبه الى غياب الصفحة التي استشهد بها الجويني .

٢٩٠ (ص ٣١٣/ح ٩٥) طارم : مقاطعة في الشمال من زنجان ، في الجنوب الغربي على منحدرات البرز .

٢٩٨ (ص ٣٢٢/ح ١٢) نوراو : وتقرأ صحيحة : Nuzvar . انظر : Barthold, 148 and 155

٣٠١ (ص ٣٢٦/ح ٢٧) لم يتضح من كلام الجويني فيما اذا كان القتلة من الحشاشين أو من غيرهم ، بينما يرى رشيد الدين أنهم من الخوكارز • الا أن الجوزجاني يعده شهيداً من قتل الملاحدة له • ويناقش Haig الآراء كلها ويرى أن الخوكارز كانوا وراء الاغتيال لكن الجريمة جرت بيد الحشاشين، بل المتعصبين منهم • ويُروى أنه قتل في موضع يدعى (دامياك) ولعله يقع على الضفة الشمالية من السند ، أو الى الغرب من جيلوم • أما قتله فمن أبيات شعرية استشهد بها الجوزجاني تؤكد أنه قتل في ٣ شعبان سنة ٦٠٢ •

٣٠٣ (ص ٣٢٨/ح ١) في الواقع ان آرام شاه قد خلف أباه أيبك ، ولكنه لم يحكم غير مدة تقل عن العا م، إذ كان ألتتمش قد أطاح بحكم آرام شاه • انظر : Haig, Turks and Afghans, 50 .

٣٠٦ (ص ٣٣٢/ح ١٣) لا شك أن لفظة (حسين) استخدمت لتناسب كلمة (مغربين) • واسم جده الكبير عز الدين حسن • وجده بهاء الدين سام الذي حكم « فيروز كوه » •

٣٠٩ (ص ٣٣٤/ح ٢) سلومد وتعرف كذلك سلامك وسلام•وتدعى اليوم سلامي، وتقع في الشمال الغربي من خواف على الطريق المؤدية الى تربة الحيدري •

٣١٢ (ص ٣٣٧/ح ٣) محتشم كان هذا اللقب من ألقاب الاسماعيلية •

٣١٥ (ص ٣٤٠/ح ٣) هو أبو الرضا حسين بن محمد العلوي المتيري • انظر : ابن اسفنديار ترجمة براون ٢٥٧ •

٣١٦ (ص ٣٤١/ح ١) هناك رواية أخرى في الصراع بين السلطان محمد والقراختاي في الفصل العاشر • انظر بارثولد : ٣٥٥ • ويرجح بارثولد أن الرواية الثانية تقترب من الحقيقة أكثر من الأولى على الرغم من احتوائها على بعض التأكيدات التي تستدعي الريبة •

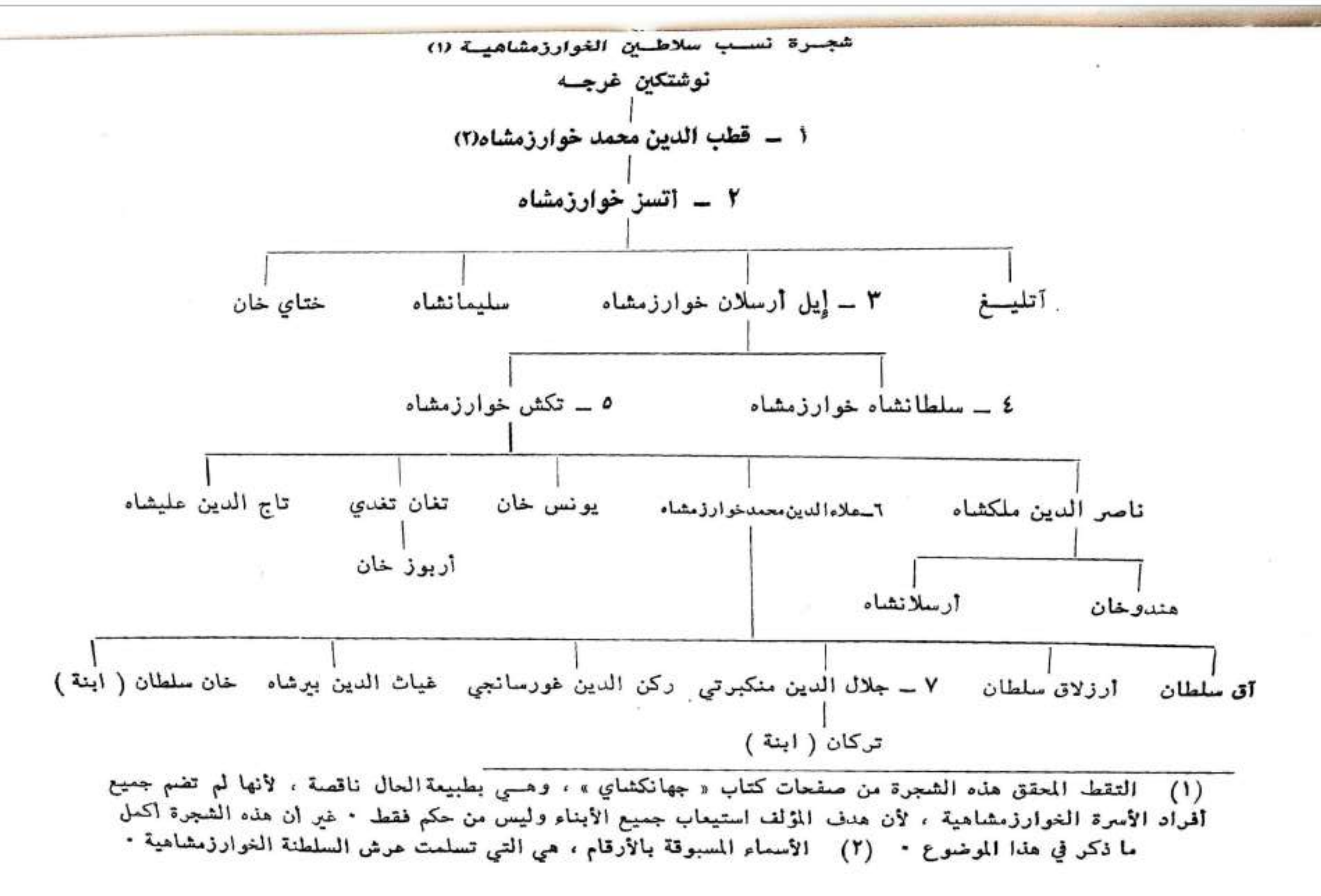
٣٢٠ (ص ٣٤٦/ح ١٩) لم يذكر براون في كتابه تاريخ الأدب في ايران مخطوط ديوان هذا الشاعر • وقد اكتشفه Proessor D. S. Rebertson وانظر كتابه:
A Forgetten Persian Poet of the Therteenth Century

٣٢٩ (ص ٣٥٤/ح ٣) المعنـى الحرفي في النص ثمانون شخصاً من قبيلتـه وأتباعه • وفي الصياغة التباس فهي قد تعني ثمانين تابعاً من قبيلته ومن غيرهم ، أو ثمانين من قبيلته اضافة الى آخرين • ونرجح الاحتمال الأول ، لأن العدد ٨٠ يشير على الأرجح الى كل من كان معه ، وليس هذا الرأي هو الأخير بالطبع • أما المعنى الممكن الآخر فهو يرفع من عدد مرافقيه الى عدد قريب من المذكور في النسخة الصينية : Liao - Shih أي مئتان •

٣٣١ (ص ٣٥٦/ح ١١) كويونك يشير ذلك الى Ta - Pu - Tem من (١١٤٤ ـ ١١٥٠) التي كان لقبها الامبراطوري Kan - Tien وكانت حكومتها تدعـى Hsien - Ching انظر : Wittfogel and Feg, 221 والمرجح أن كويونك هو نفس اللقب المغولي Guyang والأصل الصيني Kou - Wang أي أمير المملكة. انظر : Pelliot - Hambis, 221 and 364

٣٣١ (ص ٣٥٦/ح ١٢) خلط الجويني هنا بين أرملة Yeh - Lu - Ta - Shih,s وابنته Pu - Su - Wan أما العشيق فكان زوج أختها Pu - Ku - Chih

شجرة نسب سلاطين الخوارزمشاهية (1)



(1) التقط المحقق هذه الشجرة من صفحات كتاب « جهانكشاي » ، وهي بطبيعة الحال ناقصة ، لأنها لم تضم جميع أفراد الأسرة الخوارزمشاهية ، لأن هدف المؤلف استيعاب جميع الأبناء وليس من حكم فقط . غير أن هذه الشجرة أكمل ما ذكر في هذا الموضوع . (٢) الأسماء المسبوقة بالأرقام ، هي التي تسلمت عرش السلطنة الخوارزمشاهية .

الفهارس

١ ـ فهرسة الأعلام

آ ـ أ

م٢٣ـ فاتح العالم

ت

ج

ح - خ

د

ر

ز

ط

ع

غ

ف

ن

٢ ـ فهرسة القبائل والأقوام

خ

ر

س

ط

ع . غ

ف . ق

ك _ ل

٣ ـ فهرسة المواقع

آ

أ

ب

ت

ج

ح ـ خ

د

ر ـ ز

س

ش ـ ط

ع ـ غ

ف

ق

ك ـ ل

م

٤ ـ فهرسة القوافي

اول البيت	آخـره	عددالأبيات	الصفحة	البحر	الشاعر
ويحـك	جلاسي	٢	٢١١	سريع	الرسعني
لقـد	منا حسِ	٢	٢٢١	طويل	القاينـي
لا في	المقراضا	١	١٨٩	كامل	—
وتحكم	فروضُ	١	٢٠٣	طويل	—
تصيح	جـوّعـا	١	١٠٢	طويل	المثلم
وإنـي	وأشفعـا	١	٢٠٦	طويل	—
وصوت	السماعِ	١	١٨٩	وافـر	أبو تمـام
فبئس	ربعـي	١	٢٧٩	طويل	أبو العـلاء
مـن	الألـفُ	٢	٣٠٢	سريع	—
حنانيك	شفـا	٢	٥٠	طويل	الجوينـي
رأيت	شريفـه	٣	٥١	وافـر	—
أرض	قرقفُ	١	١٢٦	كامل	الرستمي
إنـي	أسيافي	٢	٣٣٣	كامل	—
مـن	أنفـه	١	٢٥٥	بسيط	الغـزي
قضـاء	قلـقْ	٢	٢٤٢	متقارب	—
خوارزم	المغدقـه	٢	١٣١	متقارب	ابن عنين
إنـا	تستبقُ	١	١٩٨	بسيط	—
أيـن	ما بقـوا	١	١٩٠	كامل	المتنبـي
واذكر	الأعنـاق	١	٢٠٢	كامل	البستـي
قبـل	الأرزاقِ	١	٢٠٣	كامل	ابن دريد
إذا	الحقاقِ	١	٢٣٢	وافـر	—
ونغمـة	اشتياقِ	١	٢٣٤	وافـر	—
أيـا	ما ملكْ	٥	٨٩	متقارب	أحمد بن أبي بكر
ولـو	الفـلكْ	١	٢٠٣	متقارب	البستـي
فاعط	العـللْ	١	١٩٦	طويل	—
إذ	غفـولُ	١	٤٩	طويل	—
خاض	مصقولُ	١	١٠٨	بسيط	—
وأثقلتـه	المراحـلُ	١	١٩٧	طويل	الغـزي
إذا	عائـلُ	١	٢٠١	طويل	الغـزي
ومـا	البقـلِ	١	٥١	طويل	عمرو بن هذيل
رب	الزلالِ	٢	١٣٥	رمـل	عـدي
ومـا	الهطـلِ	١	١٩٩	بسيط	المتنبـي
بحـر	العـللِ	١	٢٠٧	بسيط	—
يا دهـر	جميمـا	٢	٢٥٢	كامل	الحلبـي
إن	أسراهما	١	٢٥٢	كامل	—

اول البيت	آخـره	عددالأبيات	الصفحة	البحر	الشاعر
وتكفل	أيتامُ	١	٢٠٤	كامل	أبو تمام
إذا	وأحزمُ	١	١١٦	طويل	أبو فراس
له	أنعمَ	٢	٢١٧	طويل	الأسدي
أعاذل	لومُها	٢	١٩٤	طويل	حاتم
وطعم	عظيمِ	١	١٠٢	وافر	المتنبي
إذا	حرامِ	١	١٢٤	وافر	المتنبي
وما	بمذمومِ	١	٢٠٦	بسيط	أبو ذفافة
تيقن	مقامِ	١	٢١١	منسرح	التهامي
وما	بظالمِ	١	٢٢٨	طويل	—
ولن	لعامه	١	١٧٩	طويل	الواسطي
بني	المنى	٤	٥٢	متقارب	—
بصورة	فتنا	٢	٨٨	بسيط	—
وتبكي	حينا	٢	١٣٨	وافر	اللاسكي
نحن	فزعنا	٢	١٥٩	خفيف	ابن لنكك
يكفيه	يكفينا	١	١٧٤	بسيط	بشامة
وإذا	زينا	٢	١٧٨	خفيف	—
الملك	مجانا	٢	٣١٦	منسرح	—
ألا	قرينُ	٢	٤٩	طويل	—
على	يشينُه	١	٥٩	طويل	—
يعز	شؤونها	١	١٤١	طويل	—
كم	الزمانِ	١	٥١	خفيف	أبو العلاء
إذا	والبيانَ	٢	٥٣	وافر	البستي
يقلبن	بشعبانِ	٢	١٢٦	هزج	بديع الزمان
وماذا	كوفانِ	٢	١٦٤	هزج	—
أهاجك	غصن بانِ	٣	١٦٥	متقارب	أبو الشيص
وله	العاني	١	١٩٢	كامل	الغزي
يا ملك	شانِ	٢	٢٠٧	مخلع بسيط	الدمياطي
فلذاك	الرمانِ	١	٢٠٨	كامل	الغزي
شيئان	الصبيانِ	٢	٢٤٢	كامل	المروروزي
إذا	رجاؤها	٢	٣٠٠	طويل	ابن أبي عيينة
بلى	ربـاهُ	٢	١٧١	طويل	—
صبت	لياليا	١	١٦٥	كامل	فاطمة (ع)
وعينُ	المساويا	٢	٥٣	طويل	عبد الله بن معاوية

٥ ـ فهرسة الموضوعات

المجلد الأول

